



جامعة القاهرة

معهد البحوث والدراسات الأفريقية

مجلة الدراسات الأفريقية

قضايا الدولة في أفريقيا
هجرة العمالة في الجنوب الإفريقي
سفارات الدولة البيزنطية إلى الحبشة
الظاهرة الإثنية : المفهوم واستعمالاته
مستقبل اللغات النيلية - الصحراوية في دارفور
الحقيقة والمجاز في لغة الهوسا

مجلة الدراسات الإفريقية



٢٠٠٣

العدد الخامس والعشرين

يصدرها سنوياً معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة

- رئيس التحرير، الأستاذ الدكتور السيد على أحمد فليفل
ت : ٥٦٧٥٥٠١
- نائب رئيس التحرير، الأستاذ الدكتور وفائي زكي عازر
ت : ٥٦٧٥٥٠٧
- سكرتير التحرير، الدكتور كرم الصاوي باز
ت : ٥٦٧٥٥٦٠

ترسل المقالات والأبحاث على العنوان التالي :
الأستاذ الدكتور السيد على أحمد فليفل
معهد البحوث والدراسات الإفريقية
جامعة القاهرة
رمز بريدي ١٢٦١٣ أورمان / جيزة
(ج.م.ع)

كلمة العدد :

أ.د / السيد على أحمد فليفل عميد معهد البحوث والدراسات الأفريقية

١ - قضايا الدولة في أفريقيا

١ - ١٢١

د. جمال محمد السيد ضلع

٢ - هجرة العمالة في الجنوب الأفريقي

١٢٢ - ١٩٩

د / ماجدة إبراهيم عامر

٣ - سفارات الدولة البيزنطية الى الحبشة وجنوب غرب
الجزيرة العربية في النصف الاول من القرن السادس دراسة
من خلال المصادر الكلاسيكية

٢٠١ - ٢٤٢

د / منيرة الهمشري

٤ - الظاهرة الإثنية : المفهوم واستعمالاته

٢٤٣ - ٢٩٠

د. محمد جويلي

٥ - حول إطار نظري لمستقبل اللغات النيلية - الصحراوية
في دارفور

٢٩١ - ٣١١

د. كمال محمد جار الله

٦ - الحقيقة والمجاز في لغة الهوسا

٣١٢ - ٣٧٧

د. صبرى إبراهيم على سلامة

كلمة

الأستاذ الدكتور السيد علي أحمد فليفل

عميد المعهد

ورئيس تحرير مجلة الدراسات الأفريقية

بين يدي القارئ الكريم العدد الخامس والعشرون من مجلة الدراسات الأفريقية لعام ٢٠٠٣ ، بعد ان انتظم صدورها وتطورت إصداراتها في ثوب قشيب.

ويتضمن العدد مجموعة متميزة من البحوث المحكمة التي تتوافق مع طبيعة المعهد وتكوينه العلمي وأدائه واتصالاته .

فالبحث الأول يعرض لقضايا الدولة في أفريقيا ، أعده الدكتور / جمال ضلع المدرس بالمعهد بقسم السياسة والاقتصاد . أما البحث الثاني ، فهو عن هجرة العمالة في الجنوب الأفريقي ، أعدته الدكتورة / ماجدة إبراهيم عامر . الأستاذ المساعد بقسم الجغرافيا بالمعهد .

والبحث الثالث هو بحث في التاريخ الحضاري الكلاسيكي ، أعدته الدكتورة / منيرة الهمشري ، الأستاذ المساعد بكلية الآداب ، جامعة المنوفية .

أما البحث الرابع ، هو بحث في الانثروبولوجيا عن الظاهرة الأثنية مفهوما واستعمالاتها ، للبحث د. محمد جويلي، الباحث في علم الاجتماع ، بالجامعة التونسية.

والبحث الخامس ، أعده الدكتور / كمال محمد جار الله بشعبة اللغات
الأفريقية ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة أفريقيا العالمية
بالسودان ، وهو حول إطار نظري لمستقبل اللغات النيلية - الصحراوية
في دارفور .

أما البحث السادس والأخير ، فهو بحث عن الحقيقة والمجاز في
لغة الهوسا ، أعده الدكتور / صبري سلامة الأستاذ المساعد بقسم
اللغات بالمعهد .

وإذ أرجو ان يجد القارئ الكريم مبتغاه في بحوث « مجلة الدراسات
الأفريقية » ، فإنني أتقدم بجزيل الشكر لكل من بذل الجهد من زملائي
بالمعهد، الذي عاونوا بصدق في تحكيم البحوث ، وفي إخراج المجلة في
ثوبها الجديد .

وبالله التوفيق ،،،

أ.د. السيد فليفل

قضايا الدولة في أفريقيا

د. جمال محمد السيد ضلع (*)

مقدمة:

علي الرغم من أن الأزمة التي تعايشها وتعانيها الدولة في أفريقيا قد بلغت أقصى وأقصى مدى لها - في بعض الحالات - وعلي الرغم من المساعي والجهود المبذولة من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فإن الأمل يظل نبزاساً ومصدراً للتفاؤل بإمكانية التغيير للأفضل. إن الأزمات ليست شراً مطلقاً تماماً، كما أنها ليست خيراً مطلقاً، وكما تصنع الدول الأزمات فإن الأزمات يمكن أن تصنع الدول، وهذا يدفع إلى افتراض أن الدولة في أفريقيا مهما كانت شدة الأمر الذي يحز بها، فإنها لن تكون غنميه أو فريسة لكل طامح للسلطة ولا لأي طالح فيها، سواء كان هذا أو ذاك أجنبياً دخيلاً أو أهلياً خسيساً، فكم من المستعمرين الغاشمين وكم من الدكتاتوريين المستبدين انقلبوا علي أعقابهم صاغرین، وظلت الشعوب وظلت البلاد شامخة تستنهض الهمم والعزائم في إطار تطوري وتحولي للوصول إلى أفضل ما يمكن الوصول إليه من مكانة، وفي مواجهة التحديات التي ما تنفك تتنامي وتتعاظم في هذا العالم المتغير.

إن الدولة الأفريقية وإن كانت قد مرت بمراحل مريرة في صراعها من أجل البقاء، فإنها بحاجة ماسة إلى مراجعة ماضيها وتفعيل حاضرها واستقراء

(*) مدرس العلوم السياسية، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة.

مستقبلها , وفي كل ذلك محاولة للوقوف علي مواطن الضعف والتهديد والسلبية ومحاولة الحد منها واستئصالها , وللتعرف وللاطمئنان علي مكان القوة والقدرة والإيجابية ومحاولة تنميتها وتعظيمها , ولبث الثقة والمصداقية والفعالية في إمكانية الاعتماد علي الذات عند التعامل مع الفرص المتاحة , والتهديدات الحاضرة , و التحديات المستقبلية المنظورة.

ولعل مراجعة حالة وواقع الدولة في أفريقيا خلال تلك المرحلة الراهنة من مراحل تطورها هو أمر ضروري نظراً لخطورة ولعظم المتغيرات والتحديات التي تواجهها وتقف منها موقف المهدد أو المحفز لها وذلك حسب الظروف والأحوال وحسب مدي التوافق أو التعارض مع القوة أو القوي الفاعلة والمؤثرة في ما يسمى بالنظام الدولي الجديد لمرحلة ما بعد الحرب الباردة والذي لم تتحدد معالمه وأبعاده وأهدافه وخصائصه بعد وما زال الغموض يكتنفه وبدرجة تبعث علي الترقب والقلق من المصير الذي يمكن أن تلقاه الدولة الأفريقية حاضراً ومستقبلاً , ومن ثم ففي مثل تلك الظروف الضبابية تكون الحاجة أكثر إلحاحاً لمزيد من التحفظ والحرص وتوخي الحذر خصوصاً وأن التجارب مع تلك القوي لم تبشر بالخير من قبل وإنما كانت الشعوب والدول الأفريقية مطالبة دوماً بضرورة احترام وتعظيم مكاسبها ومصالحها ترغيباً أم ترهيباً.

إن واقع الدولة في أفريقيا يشير إلى أنها حاولت جاهدة إحداث قدر من التحولات في إطار مراحل التطور التي مرت بها , ومن خلال سياساتها وممارساتها الرامية إلى ترسيخ سيادتها واستقلاليتها , واتخذت تلك التحولات صوراً متعددة منها : التحولات السياسية والتحولات الاقتصادية والاجتماعية وغيرها , وإن ظلت في هذا الشأن رهينة المحاولة والخطأ , ليس لسنوات فقط وإنما

لعقود من الزمان، وواقع الحال يشير أيضاً إلى مشكلات ونتائج صعبة ومربرة، تتفاوت بين التخلف والصراع والانهيـار، وهو الأمر الذي يستدعي ضرورة التريث والوقوف عنده، ومحاولة إجراء قدر من الفحص والمراجعة والتحليل لواقع الدولة في أفريقيا واحتمالاته المستقبلية، من خلال تلك الدراسة المحدودة، وذلك علي النحو التالي:

المبحث الأول: مفاهيم ونظريات الدولة في أفريقيا.

المبحث الثاني: مراحل تطور الدولة في أفريقيا.

المبحث الثالث: عمليات تحول الدولة في أفريقيا.

المبحث الرابع: تقييم الدولة في أفريقيا.

المبحث الأول

مفاهيم ونظريات الدولة في أفريقيا

إن دراسة الدولة في أفريقيا وإن كانت تتطلب قدراً كبيراً من الحرص والخصوصية فانه من الضروري أيضاً محاولة القيام بذلك، و يمكن في هذا الصدد البدء بالتعرف علي المفاهيم والنظريات ذات الصلة بهذا الأمر كمدخل للإحاطة بماهية تلك الدولة والأسس التي تقوم عليها وذلك علي النحو التالي:-

المطلب الأول: مفاهيم الدولة في أفريقيا

هناك العديد من المفاهيم التي أثرت حول الدولة في أفريقيا، ومن خلال تلك الدراسة سيتم التركيز علي ما يلي:-

أولاً. الدولة في أفريقيا وفقاً للمفهوم التقليدي،

يمكن توضيح ذلك كما يلي :

أ. الدولة في أفريقيا وفقاً لمفهوم « ماكس فيبر » :

من المفاهيم والتعريفات التي أثبتت حول الدولة، ما أورده " ماكس فيبر " بان الدولة: "هي أداة حكم تحتكر استخدام القوة في إقليم محدد وتسيطر علي شعب محدد..."، وهذا المفهوم يركز بدرجة أساسية علي الوسائل لا علي الغايات، وتتمثل تلك الوسائل في القوة Force، وهو ما يترتب عليه إضفاء طابع القوة وسياسة الأمر الواقع de facto أكثر من الطابع القانوني والشرعي de jure علي ممارسات وكيان الدولة Statehood، فالدولة لديه: عبارة عن جماعة تعيش علي إقليم ومع وجود سلطة تمارس احتكار القوة علي الإقليم والشعب، وهكذا فإن هذا المفهوم الذي يركز علي الوسائل _ احتكار القوة _ ينصرف إلى الجانب الفعلي وليس الشرعي، إلى الجانب الواقعي وليس القانوني، باعتباره معبراً عن وجود الدولة من عدمه، وبعبارة أخرى فلا يمكن القبول بوجود سلطتين تمتلكان احتكار استخدام القوة علي إقليم وشعب واحد، وإذا ما حدث ذلك فلا معنى للحديث عن وجود دولة علي نحو ما ذهب إليه فيبر، وذلك للاعتبارات التالية: (١)

١ - أن الاختبار الحقيقي (الأساسي) لوجود الدولة يمكن أن يتأتى من مدخلين:

الأول : أن تكون هناك حكومة وطنية تستطيع بسط نفوذها علي إقليم

الدولة من خلال احتكار القوة.

الثاني: أن تكون هناك بعض التنظيمات (الخارجية أو الداخلية) التي

تستطيع تحدى سلطة وقوة الحكومة الوطنية، وان تتمكن من اقتطاع

جزء من إقليم الدولة، أو أن تحتكر ممارسة القوة عليه لصالحها، ومن ثم يكون هناك احتكاران متلازمان للقوة علي إقليم وسكان الدولة في آن واحد، وهو الأمر الذي يمكن أن يفضي علي الأمد البعيد إلى حالة اللادولة، Statelessness، والمثال علي ذلك أن قلة من البلدان الأفريقية هي التي يمكن أن ينطبق عليها وصف الدولة، ففي بعض البلدان استطاعت المعارضة أن تحتكر السلطة، علي أجزاء هامة من الإقليم والشعب، علي مدى فترة ممتدة (بيافرا في نيجيريا _ شرق الكونغو الديمقراطية)، وفي البعض الآخر ظلت بعض أقاليم الدولة خارجة عن أية سيطرة سياسية، وانتشرت حالة الفوضى فيها (تشاد وأوغندا والصومال وليبيريا وسيراليون وغينيا بيساو وأنجولا...الخ).

٢ - أن العديد من الحكومات الأفريقية لا تسيطر بفاعلية علي النشاطات العامة داخل نطاق اختصاصاتها، وبالتبعية فهي لا تستطيع فرض قوانينها علي كامل الشعب وكامل الإقليم، كما أنها ليست دائما تعمل وفقا للقانون، كما يصعب عليها ضبط حركات وتحركات السكان عبر الحدود، إما لضعفها أو نتيجة لتشتت التجمعات السكانية أو نتيجة لكبر مساحة أقاليم بعض هذه الدول أو لانتشار الغابات والصحارى في البعض الآخر، ومن ثم فإن كثيراً من دول أفريقيا جنوب الصحراء يصعب نعتها بالدول - في بعض الأحيان - وان كانت جميعها تعد من الدول الأعضاء في المجتمع الدولي للدول.

٣ - إن العنصر الغائب، عن تعريف " فيبر " إذن هو الاعتراف الخارجي

(الدولي)، فالدولة نشأت لأن المستعمر وهو يرحل عنها اعترف لها - و تبعته في ذلك بقية الأسرة الدولية - باستقلال وسيادة نخبة محددة علي إقليم محدد، وغالباً ما كان هذا الإقليم محدداً علي الخرائط فقط وعلي السكان المقيمين علي هذا الإقليم بالتبعية، واستغرق الأمر سنوات طويلة و في ظل تنامي صراعات دامية، حتى أمكن لهذه الدول والنخب المسيطرة عليها تحديد رعاياها (باستثناء بعضها: كموريتانيا، والسنغال) .

إذن فالعنصر الحاكم في مفهوم الدولة الأفريقية هو الاعتراف الخارجي، والذي أدى غيابه في حالة بيافرا / نيجيريا إلى عدم خروجها للوجود كدولة، في حين كانت تتمتع بحكومة تحتكر السيطرة علي إقليم وشعب، وكذلك الحال بالنسبة لجمهورية أرض الصومال (صوما ليلاند) التي توافر لها الإقليم والشعب والسيادة علي كل من الشعب والإقليم وبالرغم من ذلك فقد حال غياب الاعتراف الخارجي دون إقرار وضعها كدولة، في حين أدى توافر مثل هذا الاعتراف الدولي إلى استمرار اعتبار كثير من الحالات كدول علي الرغم من أن سيطرة حكوماتها لم تكن تتجاوز العاصمة (مثال زائير: الكونغو الديمقراطية حالياً في عهد موبوتو سيسيسيكو) وهو الأمر الذي يجعل عملية الانقلاب مضمونة النجاح في الدولة الأفريقية، إذ يكفي وجود عدة جنود مزودين بالأسلحة الخفيفة للسيطرة علي القصر الرئاسي وبعض الأبنية في العاصمة كي تنتقل السيطرة علي الدولة من نظام حاكم إلى نظام حاكم جديد طالما أن الاعتراف الخارجي متاح، ومن أهم الأمثلة علي ذلك: حالة تشاد التي تتدوال الأطراف المتصارعة فيها الاستحواذ علي السلطة في

الدولة بمجرد السيطرة علي " ندجامينا " ودون الحاجة للادعاء بفرض السيطرة علي مجمل إقليم الدولة.

ومما تقدم يلاحظ أن الدولة في أفريقيا هي - في غالب الأمر وليدة التفاعل مع الخارج وليست نتاجاً لتطورات وعلاقات وتفاعلات قوى داخلية، ومن مظاهر ذلك ما يلي: (٢)

(أ) أن دور الدولة في الداخل ليس المشاركة المتفاعلة في ومع مؤسسات الدولة والنظام السياسي وإنما الطابع العام يقترن بالسلبية.

(ب) تضائل أهمية وجود أساس حقيقي لشرعية النظام طالما كانت هناك سيطرة فعلية علي المراكز التي يمكن أن تشكل مصدراً للتهديد (المؤسسة العسكرية - الجماعات الإثنية) ، أو التي تشكل عنصراً لمساندة التهديد (الإذاعة والتليفزيون والقصر الرئاسي وشخص الرئيس ... الخ) ، إن المسؤولية هنا لا تكون أمام القوي الداخلية وإنما تكون أمام الأطراف الخارجية، وخصوصاً الدولة الاستعمارية السابقة ممثلة في حكومتها وفي نخبتها السياسية، وأمام الدول المانحة، وأمام المؤسسات المالية والنقدية الدولية، وأمام مراكز التأثير علي الرأي العام الغربي، وخصوصاً الصحفيين و مندوبي قنوات التليفزيون الغربية، أما المسؤولية أمام القوي الداخلية فإما غير موجودة أو بادية في الظهور نتيجة رد فعل الضغوط الخارجية، وبذلك فإن هدفها هو تقديم كشف حساب جديد للخارج.

ب. الدولة في أفريقيا وفقاً لمفهوم « إيان براونلي » :

من خلال تناول مفهوم الدولة وفقاً لتعريف " ماكس فيبر " تبين صعوبة اعتبار العديد من البلدان الأفريقية دولاً من الناحية الفعلية والواقعية، غير أن كل هذه البلدان ظلت تشكل دولاً واستمرت كأعضاء في المجتمع الدولي، استناداً إلى تعريف آخر للدولة يعطى أولوية للنص القانوني علي حساب الوجود الفعلي، وهو تعريف " إيان براونلي " الذي عرف الدولة: " باعتبارها شخص قانوني يعترف به القانون الدولي " استناداً إلى أربعة أركان هي: (٣)

- الإقليم المحدد .

- السكان الدائمون .

- الحكومة الفعالة .

- الاستقلال وحق الدخول في علاقات مع الدول الأخرى .

وواضح من التعريف السابق أن المفهوم القانوني للدولة إنما يرتبط - بدرجة أساسية - بالإقليم المحدد والاستقلال، أو بالأحرى الاعتراف طالما أن ركني السكان الدائمون والحكومة الفعالة يصعب توافرها في معظم الدول الأفريقية، ويمكن توضيح ذلك كالتالي:

١ - السكان الدائمون : إن السكان في كثير من البلدان الأفريقية، مقسمة داخلياً فيما بين الكيانات الإثنية المتعددة، والتي - في غالب الأحيان - تكون منفصلة عن بعضها البعض عن طريق الاختلافات في اللغة والدين و الإثنية ومنطقة الإقامة وغيرها، فضلاً عن أن الانقسامات الإثنية يمكن أن تعزز وضعية كل منهما في مواجهة الأخرى، وهكذا تستفحل الاختلافات، ففي السودان -

علي سبيل المثال _ يلاحظ أن الانقسام الاثنى بين العرب والأفارقة يتم تعزيزه عن طريق الجغرافيا والدين واللغة، ونتيجة للصراعات المريرة من أجل السيطرة علي الدولة، بالإضافة إلى ذلك فإن كثيراً من الكيانات الاثنية تم تقسيمها عن طريق الحدود الدولية لتتوزع علي اثنين أو أكثر من الدول، وكيفما يكون هذا الأمر فإن الحدود السياسية والاجتماعية بين هذه الكيانات الإثنية ربما تكون أكثر أهمية علي أساس الاتجاهات والسلوكيات العامة لهؤلاء السكان أكثر من الحدود القائمة بين الدول، ونتيجة لهذا فإن التوترات و الصراعات السياسية المتزايدة والناجمة عن تلك الانقسامات الاثنية يمكن أن تؤثر بخطورة وبشدة علي الاستقرار السياسي الوطني وعلي مقدرة الحكومات في السيطرة علي أقاليمهم، والأمثلة علي ذلك كثيرة في السودان ورواندا والكنغو الديمقراطية وإثيوبيا وبوروندي وتشاد وأوغندا ونيجيريا وأنجولا وغيرها.

٢- الحكومة الفعالة: تعني الحكومة الفعالة عند براونلي وجود سلطة قانونية ذات طابع إداري مركزي وأجهزة تشريعية، ويلاحظ أن جوهر الحكومة الفعالة - بهذا المعنى - ذات طابع أوروبي لا يقتصر علي الجوانب الإدارية فقط وإنما يقتصر بالجوانب التشريعية، بينما في أفريقيا المعاصرة فالحكومات لا تحكم بالضرورة عن طريق التشريع فالحكام الأفراد غالباً ما يمارسون سلطاتهم بأسلوب تعسفي واستبدادي من خلال الأوامر والمراسيم والبيانات وغيرها.

ومن ناحية أخرى فإن من مؤهلات الحكومة الفعالة أن يكون لها واجبات ووظائف، وان يكون لها أدوات واليات، وان تكون لها الموارد والمقومات، أما أن يكون السائد علي مستوى الدولة في أفريقيا هو إضفاء الطابع الشخصي علي السلطة السياسية (شخصنة السلطة)، أكثر من إضفاء الطابع المؤسسي عليها

(مأسسة السلطة)، وان تكون جميع الوظائف الدستورية والمؤسسية غير مستقلة عن السلطة الشخصية للحكام بل مدعمة لهم، وان تكون جميع هذه الوظائف مسيطر عليها عن طريق أفراد (نخبة) سواء كانوا مدنيين أو عسكريين - طالما يملكون زمام هذا الأمر- والأمثلة على ذلك كثيرة سواء في الحكومات التي سيطر عليها أفراد من قبل: مثل هوفيه بوانييه في ساحل العاج، وكامازو باندا في ملاوي، وعمر بونجو في الجابون، واحمد اهيديو في الكاميرون، وناسيني اياديما في توجو، وعيدي أمين في أوغندا، وكذلك الحكومات التي تسيطر عليها الأقلية (الاوليجاركية) مثل: ليوبولد سيدار سنجور في السنغال، وجومو كينيي في كينيا، وجعفر نميري في السودان وغيرهم، فكل ذلك يؤدي إلى تزايد تدخل الجيش في الحياة السياسية، كما يؤدي ذلك إلى تعاظم مشكلة الضعف المؤسسي في الدول الأفريقية، كما أن عدم الفاعلية تكون متأثرة بالخصائص الاقتصادية للدولة والتي تعد من أضعف وأفقر الاقتصاديات على مستوى العالم.

٣- الإقليم المحدد : بدون وجود الإقليم المحدد وبدون الاستقلال فانه لا يمكن الاعتراف بوجود دولة ما، غير انه يلاحظ أن الركنين محل الاهتمام لدى براونلي لم يتولدا داخل القارة الأفريقية أو بفعل شعوبها، ذلك أن حدود أقاليم الدول الأفريقية قد رسمتها القوى الاستعمارية باتفاقيات فيما بينها دون أخذ رأي الشعوب الأفريقية من جهة، و دوناً مراعاة للظروف الطبيعية أو الاجتماعية من جهة ثانية، وهي بذلك حددت قسراً حدود الجماعة السياسية (الشعب) بصورة لا تسمح بالحديث عن هوية ثقافية وطنية من جهة ثالثة.

٤- الاستقلال : يلاحظ أن الدول الأوروبية بتكويناتها المعاصرة إنما كانت نتاج لتطور تاريخي وتفاعلات سياسية اعتمدت أساساً داخل القارة الأوروبية ولم

تكن في حاجة إلى الاعتراف الدولي بها، واعتبرته من الأركان المكملة وغير الأصلية للدولة، أما بالنسبة لدول القارة الأفريقية فإن ركن الاعتراف الدولي - الاستعماري / الأوروبي - هو الذي جعل بالإمكان إقرار وجود الدولة الأفريقية، حيث صار الاعتراف باستقلال هذه الدول بحدودها الاستعمارية (الموروثة عن الاستعمار) يكاد يكون الركن الأصيل - إن لم يكن الوحيد - من أركان الدولة الأفريقية في مقابل توارى بقية الأركان، وترتيباً علي ذلك فإن عدم اعتراف الغرب باستقلال البانتوستانات في جنوب أفريقيا العنصرية حال دون قيامها كدول، وكذلك الحال في عدم الاعتراف بجمهورية أرض الصومال .

ورغم القناعة بمحدودية التعريف القانوني للدولة، إلا أنه ليس بالإمكان تجاهل وجود دول استمرت رغم اختفاء كافة المقومات الفعلية والواقعية لها، ودول أخرى لم تظهر إلى الوجود الدولي (جمهورية شمال الصومال) رغم توافر تلك المقومات الفعلية والواقعية لها، ويلاحظ أن النظام الدولي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية قد أثر قيام الدولة القانونية علي الدولة الفعلية وحصنها بمبادئ السيادة الإقليمية وعدم التدخل حتى لو تعارض ذلك مع مبادئ حقوق الإنسان وحق تقرير المصير خدمة لمصالح القوى الكبرى، وهو الأمر الذي أسفر عن زيادة أزمة الاندماج الوطني تعقيداً في معظم الدول الأفريقية، خصوصاً مع رفض العديد من الجماعات داخل هذه الدول الإطار غير الحقيقي الذي أفضى إلى القهر وأبقى علي الفساد والمحسوبية وكرس التخلف والتمييز.

ثانياً - الدولة في أفريقيا وفقاً للمفاهيم المعاصرة؛

علي الرغم من أن معظم المهتمين بأفريقيا وظفوا مفهوم الدولة بحرية إلا أنهم اختلفوا بدرجة كبيرة في تفسيرهم لمفغزاه وخصائصه الأساسية، وعلي الرغم

من حقيقة أن هياكل الدولة وأجهزتها لها جذور عميقة في المجتمع الأفريقي في فترة ما قبل الاستعمار، وفي الحقبة الاستعمارية فإن مؤسسات الدولة المركزية خضعت للصراع أثناء إنهاء الاستعمار، لقد كان هناك اهتمام محدود من جانب المراقبين أثناء السنوات الأولى لاستقلال الدولة الأفريقية ولأجهزتها، وبالفعل امتد هذا الإهمال لمعظم سنوات الستينيات حيث كانت الدولة في تلك الفترة ميداناً للسيادة والإقليمية وربما لبناء الأمة، ولكنها كانت لا ترى كرابطة تربط المؤسسات بعضها ببعض، فأجهزة الدولة والأحزاب والأيدولوجيات وحتى الخدمة المدنية تعمل بانفصال عن بعضها، والجهود المبذولة لإدراك الدولة كفاعل في المجال العام محدودة، وربما زاد الاهتمام بالدولة على الأقل جزئياً - من جانب هؤلاء الذين نظروا إليها كوكيل في الميدان العالمي، وفي هذه المرحلة فالدولة من المنظور المفاهيمي أعيد تقييمها كأداة للاستغلال الرأسمالي، كما أن الروابط الوثيقة بين تكوين الطبقة الرأسمالية المتعلقة بالدولة في أفريقيا جعلت هناك تنوعاً للتعريفات الاجتماعية للدولة الأفريقية، وذلك لأن الدولة كانت مدركة كمرادف للطبقة الحاكمة، وقاد الماركسيون الجدد الجهود المبذولة في نهاية السبعينيات لفصل الدولة عن الطبقة الحاكمة والتركيز على صعوبة الصلة بين الدولة والمجموعات المسيطرة حيث أن مؤسسات الدولة - وفقاً لتصوراتهم - ربما تعكس وتفرض القوى والصراعات الاجتماعية في نفس الوقت، والبعض الآخر من المهتمين بالدولة في أفريقيا بدعوا في الحديث عن المصالح المتجددة في الهياكل العامة وأصحابها ومكانتهم ووظائفهم وقدراتهم.

وفي الوقت الراهن فإن هناك قدراً من الاتفاق حول تعريف الدولة كتجمع منظم للمؤسسات الدائمة للحكومة، والدولة تبعاً لذلك ينظر إليها كرابطة

للمؤسسات والهيئات التي تدعى السيطرة علي أقاليم محددة وسكانها ومؤسسات تنفيذ القرارات فيها (البيروقراطيات، قوى الأمن ...) وكذلك الأجهزة الوسيطة للقرار (المحاكم القضائية ولجان تقصى الحقائق ...)، ويكون لكل دولة خصوصيتها وطريقتها المحددة لتنظيم هذه المؤسسات وإداراتها بالأسلوب الملائم وفي الوقت المناسب، وفي أوائل الثمانينيات كان هناك اتفاق فيما بين المحللين بالنظر إلى الدولة في أفريقيا كأداة لإضفاء الطابع المؤسسي علي السلطة المركزية، ولم يكن هناك إجماع علي معنى النمو المتعاضم لأجهزة الدولة، وفي الحقيقة فإن دولة ما بعد الاستعمار في أفريقيا يمكن تفهمها في ظل وجود المتناقضات المتنوعة: كالضعف والقوة، والخضوع والفاعلية، والهشاشة والتماسك، والتبعية والاستقلالية، والانهييار والثبات والتفوق والتوسع، وخلال تلك الفترة فقد ظهرت ثلاثة اقترابات رئيسية لفهم الدولة في أفريقيا: (٤)

الأول: وهو يركز علي اصل وجوهر الدولة, Organic وتبعاً لذلك تكون الدولة فاعل حيوي في الميدان العام الذي يتأثر مباشرة بالعمليات الاجتماعية والاقتصادية ويؤثر في النتائج (المخرجات)، ويرتبط بهذا المفهوم أن تكون الدولة وعاء للسيادة وأن تكون الدولة فاعلاً موحداً ومستقلاً عن المجتمع وأن تكون للدولة وظائف هامة وفعلية وأساس هذا التصور افتراض يقوم استناداً علي مركزية الدولة في فترة الاستقلال.

الثاني: وهو يركز علي الشكل العام للدولة بمعنى أن أدوات الدولة تقدم إطار عمل رئيسي وفي شكل مجموعات اجتماعية تبعاً لأنماطها

الحقيقية للعمل السياسي الذي جعل هناك إمكانية محددة لأن تؤثر
النظم ومؤسسات الدولة علي القضايا السياسية الماثرة وطريقة
التعامل معها، وتأثير الدولة المباشر تبعاً لذلك يترتب عليه أن
تكون الأنشطة السياسية لها بمثابة رجع الصدى لاختيارات وبدائل
مقدمة عن طريق الإطار المؤسسي لأي دولة معطاة، ومن هذا المنطلق
يختلف الاقتراب الشكلي عن الاقتراب الجوهري للدولة ليس في
تأكيد أسلوب السيطرة علي الدولة، ولكن في أسلوب النظر إلى
تأثير الدولة، فوفقاً للاقتراب الأول (الجوهري) تكون الدولة
محصلة مؤهلات شبه إنسانية، ووفقاً للاقتراب الثاني (الشكلي)
فهيكل الدولة تتحدد وفقاً لمعدلات أساسية للعمل الاجتماعي.

الثالث: وهو يركز علي التواصلية / التفاعلية، وهو يقوم علي أساس
التواصل والتفاعل المستنير للأجيال، بمعنى انه يؤكد علي وجود
اهتمام شديد بالهيكل الاجتماعية للدولة وخصوصاً في صورها
المعقدة مثل تلك الموجودة في الدولة الأفريقية، وفي ظل وجود مثل
تلك المجموعات النوعية المتطورة فان وجود الحكام والاستراتيجيات
ربما يكون مقترناً بالتنافس أو حتى الصراع داخل الدولة، ومن أجل
فهم تلك الخصوصية فمن الضروري النظر إلى الطريقة التي تتم بها
المعاملات بين المجموعات الاجتماعية ومؤسسات الدولة أثناء
ممارستها لمهامها، وفي المقابل فان الطبيعة المتغيرة للمؤسسات
العامة وبالمثل للتكوينات الاجتماعية وأسلوب وتوسع المؤسسات

العامّة فعلياً أوجد مصالح للمجتمع، وبالتالي فقد أصبح هناك مجالاً حيويّاً يمكن أن يوضح إمكانيّة وجود انفراج شديد للحياة السياسيّة في الدول الأفريقيّة.

ويلاحظ أن الاقترابات الثلاثة لدراسة الدولة في أفريقيا تعكس المقدمة التطوريّة المنطقيّة والتوجهات والاهتمامات والنواحي التنظيميّة والأدوار والممارسات المرتبطة بها بغض النظر عن مدى واقعيّتها، ومن ثم يكون التفاعل السياسي سواء وفقاً للاقتراب الجوهرى أو الشكلي للدولة ضرورياً ويتوجب أخذه في الاعتبار عند التعامل مع مؤسسات وهيكل الدولة لكونهم بمثابة الفاعلين المباشرين و المؤثرين علي حقيقة وواقع السلوكيات والممارسات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وغيرها، ويبدو واضحاً في هذا الصدد مدى ضرورة الاهتمام بالاستجابات وردود الأفعال الاجتماعيّة لما لها من تأثيرات علي قدرات الدولة، وروابطها التي تربط بين المؤسسات في ممارستها لوظائفها في المجال العام ومدى أوجه فعاليتها المختلفة.

إذن فبحلول الثمانينيات كان واضحاً أن الدولة المركزيّة في ظل حرصها علي توسيع وتعظيم سلطاتها وعلي حساب دورها الإيجابي حيال المجتمع أصبحت أكثر معاناةً وضعفاً، وفي بعض الحالات كانت اقرب ما تكون إلى الانهيار، ودفعها هذا إلى البحث باستمرار عن كيفية فرض ذاتها علي معظم قطاعات الحياة الاجتماعيّة وبدرجة ملحوظة حتى الوقت الراهن، في حين ظلت مناطق عديدة داخل كثير من الدول الأفريقيّة خارج نطاق سيطرتها كما هو الحال في: أنجولا وموزمبيق والسودان وإثيوبيا وأوغندا وتشاد، وفي التسعينيات نجد نماذج

أخرى: كالصومال وليبيريا، فالدولة في ظل مثل تلك الأوضاع تعاني من التفسخ ووصلت إلى مرحلة الانغلاق علي الذات، ومن ثم فإن التفاعلات الروتينية للمجتمع - الدولة هي الأخرى باتت ضعيفة في كثير من تلك الدول، وقد دأبت الكثير من أنظمتها الحاكمة في التركيز علي ما يلي: (٥)

- ١ - توسع الدولة في السيطرة علي تفاعلات الدولة - المجتمع.
- ٢ - توسع الدولة في جهودها للاندماج (التوحد) المجتمعي داخل النطاق العام لها.

درجة اندماج الدولة			درجة سيطرة الدولة	
منخفضة	متوسطة	عالية	جزئية	درجة
متفسخة (غير مندمجة)	ديمقراطية اتفاقية (تعاهدية)	ديمقراطية الأغلبية		السيطرة
قمعية	اتحادية الدولة	شعبوية الدولة	كلية	
تعاون فاعل خارجي (دولي)				

مما سبق يتضح وجود عاملين أساسيين مستقلين يتم بينهما التفاعل وهما سيطرة الدولة ومدى اندماج المجتمع، ويترتب علي عملية التفاعل تلك ستة بدائل لأنظمة حكم متنوعة:

(أ) أربعة منها تعد أنموذجاً للأنظمة المرنة وهي ديمقراطية الأغلبية والشعبوية والديمقراطية التعاهدية والاتحادية.

(ب) أما النمطان الآخران فهما أنموذجان لفساد الدولة / المجتمع حيث تستشري حالات التفسخ والقمع، فعندما تفشل أنظمة الحكم في السيطرة السياسية والاجتماعية فان التعاون من جانب الفاعل الخارجي ربما يأخذ مكانه طالما أن هناك انهيار في قواعد التفاعل الداخلي ويأتي الفاعل الدولي في محاولة لدفع التنمية للأمام في إطار روتين جديد ووفقاً لتوجهاته ولسياساته ولنظومة مصالحه.

إن من الأهمية مراعاة أن الدولة لم تكن أبداً مجرد منظمة أمنية، أو أداة لهيمنة طبقة واحدة على الطبقات الأخرى، وإنما كما يشير "بيتر انيانج نيونجو" أن الدولة هي: " مجموعة من علاقات القوى التي تنشأ تاريخياً لقيادة عملية إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية وتحقيق تناسقها في المجتمع"، وهي تبعاً لذلك: " نظام يقوم بتنظيم عملية تعايش القوى الاجتماعية داخل المجتمع في ظل إطار خاص للهيمنة الطبقية وللتحرك من أجل توفير أسلوب عمل ملائم لتحقيق تغيير منظم في المجتمع"، ولهذا فإن أجهزتها ومؤسساتها القانونية والقمعية والبيروقراطية وغيرها، عادة ما تكون من اليسير تحديد دورها ومدى تكييفها مع سلطة الدولة، وبترتب على ذلك سلسلة متتابعة من التطورات التاريخية والخبرات المتراكمة التي تكتسبها الدولة تدريجياً سواء فيما يتعلق بعملية التنظيم السياسي أو فيما يتعلق بمستوى تقبل سلطة الدولة - أي مستوى الإجماع السياسي / الشرعية السياسية - في المجتمع، وهو الأمر الذي يمكن أن يساهم بطريقة ما في وجود الدولة، وفي هذا الصدد يركز نيونجو على العناصر التالية: (٦)

١- أنه من الأفضل الحديث عن وضعية الدولة "Stateness" للإشارة إلى مدى و درجة تحقيق نسق التنظيم السياسي والسلطة العامة للخصائص التي تعد أساسية في مجال إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية في مجتمع يتألف من طبقات اجتماعية، ومع تغير المجتمع من الناحية التاريخية وتزايد تحقق التعددية بصورة ملموسة من خلال عملية تكوين طبقاته، ومع خبرة الناس في مجال المشكلات الاجتماعية التي تتطلب أنماطاً متنوعة من الترتيبات السياسية بهدف حلها، فإن طبيعة الهيمنة الاجتماعية تميل هي الأخرى إلى التغيير، ومن ثم يصدق نفس الشيء علي طبيعة الدولة حيث يتسم دور الدولة - كبؤرة للتماسك والتوجيه الاجتماعي - بأهمية خاصة في المجتمعات التي لم يتح لها وقت كاف يسمح بانصهارها في إطار أمم راسخة، حيث يحمل الناس بعض الذكريات التاريخية والجماعية التي يمكن أن تساعد علي تفسير صراعات محددة، أو تبرير الهيمنة السياسية والاجتماعية، وعلي الأرجح فإن الدول الناشئة والضعيفة التي تفتقد إلى خبرة إطار عمل قانوني وثقافة سياسية من أجل تنظيم الصراع سوف تصبح شديدة الهشاشة أثناء محاولاتها تسوية أية صراعات محتملة.

٢- انه لا يمكن إدراك طبيعة الدولة في أفريقيا إلا من خلال تحليل تاريخي و سوسيولوجي، فبينما شهدت أفريقيا في المرحلة السابقة علي الكولونيالية وجود الدولة، فإن الدولة الحديثة تعد من جوانب عديدة - وكظاهرة سبق استخدامها - ليست استمراراً لمستعمرات الكولونيين فحسب، وخصوصاً من زاوية المؤسسات والأجهزة المحددة التي استخدمتها النظم الحاكمة لممارسة

السلطة السياسية، ولكن ما تزال أنواع العلاقات الاجتماعية والتي تحتاجها لمواصلة إعادة الإنتاج اليومي للمجتمع تشكل جزءاً من نمط الإنتاج السائد في المجتمع الكولونيالي، وبمعرفة محتواها الطبقي وميراثها التاريخي والإطار العام لعملياتها المالية يلاحظ أن الدولة في أفريقيا الآن تفتقد أو فقدت قدرتها وطاقاتها علي مباشرة البرامج الاجتماعية والاقتصادية الضرورية لعملية إعادة الإنتاج المستمرة لنمط الإنتاج الرأسمالي، ومن المؤشرات التي توضح مدى الأزمة الحالية للدولة وعملية إعادة الإنتاج الاجتماعي، هو عدم إمكانية عدد كبير من الدول الأفريقية من الحفاظ حتى علي بيروقراطياتها وإعادة إنتاجها، فعادة ما تمر شهور لا يحصل فيها موظفو الحكومة علي رواتبهم ويعتمد رجال الجيش والبوليس علي أسلوب الابتزاز سواء علي امتداد الطرق العامة أو غيرها للحصول علي مقابل أجورهم الشهرية، هذا علاوة علي تفكك وانحلال الإدارات الحكومية وتعطل شبكات المياه والكهرباء والتليفونات عن العمل، وغيرها من أوجه الفساد وخصوصاً فيما تعانيه الدولة من أزمة مالية عامة.. ، ومن ثم فانه من أجل التوصل إلى حلول طويلة المدى ينبغي أن تواجه الدولة مشكلة الإنتاج ومشكلة توليد فائض اجتماعي كاف - من الداخل - ليس فقط لضمان إعادة الإنتاج الموسعة للرأسمالية ذاتها وإنما أيضاً إنتاج الدولة وبيروقراطيتها بصفة مستمرة.

٣- انه لا يمكن مواجهة مشكلة الإنتاج فعلياً دون معالجة مشكلة المنتجين المباشرين في إطار السياق الذي يعملون بداخله في المجالين السياسي والأيدولوجي وكذلك المجال الاقتصادي، ويبدو واضحاً أن هذا السياق يعزى

إلى النضال من أجل الاستقلال، فلقد كان دور الجماهير الشعبية في العمل السياسي مؤثراً في العهد السياسي أثناء مرحلة النضال، وذلك من خلال استيائها من الاقتصاد السياسي الكولونيالي والعمل الإجباري والتمييز العنصري و إنتاج المحاصيل النقدية إجبارياً مع الحصول في المقابل إما علي أجور ضئيلة أو لا شئ علي الإطلاق، فضلاً عن سرقات الأرض وغيرها، وقد دفعتهم المثل الديمقراطية إلى المطالبة بالسيادة السياسية بمعنى الاستقلال، وشاركهم في هذا الهدف كل من وسائل الإعلام والنقابات و الإتحادات والأحزاب السياسية وغيرها.

ويشير البعض الآخر إلى أن الدولة في أفريقيا ما هي إلا مجرد هيكل تجريبي أجوف، بالإضافة إلى أنها تفتقد إلى الأولويات والأسس التي أشار إليها ماكس فيبر من حيث ضرورة وجود نظام للسلطة قائم علي المعقولية الذرائعية (العملية) Instrumentalist Rationality ^(٧) ويضيف البعض الآخر أن الدولة في أفريقيا هي مثال للدولة المتفسخة التي لا يوجد فيها شعور عام بالقيم والقانون والنظام وبالتالي يؤدي ذلك إلى انعدام الاستقرار الذي يصعب الحديث مع استشرائه عن وجود دولة سواء بالمعنى الفيبري حيث يجب أن تمارس السلطة داخل نطاق حدود إقليمية محددة وتحتكر الدولة وسائل القوة داخل هذه الحدود، أو حتى بالمعنى الماركسي الذي لا يرى في الدولة مجرد مجموعة من المؤسسات الرسمية و إنما أيضاً منظومة من العلاقات الاجتماعية. ^(٨)

المطلب الثاني: نظريات الدولة في أفريقيا

يختلف الحديث عن الدولة في أفريقيا خلال فترة الستينيات والسبعينات والثمانينيات عنه منذ التسعينيات، وربما يكون السبب الرئيسي في ذلك هو الواقع الحي والملموس الذي تعايشه تلك الدولة علي المستويين التنظيمي والوظيفي والذي يكاد يختلف في ممارساته الفعلية مع كل ما هو متعارف عليه

بالنسبة للدول التقليدية، ومن هذا المنطلق فإن النظريات التي يمكن أن تتعامل مع الدولة في أفريقيا ينبغي التعامل معها بمزيد من الحرص والتحفظ حتى لا يكون هناك انزلاق إلى منعطف التعميم والقياس غير المتكافئ، وفي هذا الشأن يمكن الإشارة إلى بعض النظريات التي تتعامل مع الدولة في أفريقيا وفقاً للتوضيح التالي: (٩)

أولاً - نظرية التحديث :

ظلت اقتصاديات التنمية تفضل مفهوم الدولة وفقاً لنظرياتها الخاصة حول التنمية خلال الستينيات، بينما أعرض السياسيون عن ذلك بسبب النظر إليها باعتبارها كيان غير ناضج، وظلت النظريات الاقتصادية علي قناعة بأن الدولة لها دور حاسم في تحريك الطلب علي كل من السلع والخدمات، ومن ثم الارتقاء بمستوى النمو الاقتصادي، وتلك النظريات لم تري في الخصائص الشاملة للدولة حلاً للمشكلة أو آلية تنسيقية، ومن المعطيات في هذا الشأن أن الدولة ذات الطابع الوظيفي الحقيقي يمكن أن تساعد وان تعمل من أجل الأفضل، وأن الدول المستقلة حديثاً في أفريقيا تحتاج لأن تكون قوة فاعلة بدرجة أساسية، وينبغي أن يتاح لها الخبرات الفنية من الدول الغنية، وعلي أثر ذلك يمكن تصور أن تلحق الدول الأفريقية بالدول الأخرى وخصوصاً في الغرب، لقد كان قرار التنمية هاماً لهذه الاقتصاديات والذي بموجبه برزت الحاجة للتخطيط الشامل للتنمية من أجل أن يتم التعرف الواضح علي احتياجات تلك الدول من رأس المال والخبرة الفنية من العالم الخارجي، ولذلك فإن خطط التنمية الوطنية أصبحت وسائل هامة لإدارة الاقتصاد الكبير، ويلاحظ من الناحية الإجرائية أن الدولة في أفريقيا ظلت كياناً مدعوماً وبدون اقتصاد حقيقي ومسئول عن دورها كقاطرة للتنمية، كما كان

واضحاً أن تكوين راس المال لم يكن وافياً بغرض مقابلة احتياجات التنمية الوطنية المعجلة.

لقد كانت التنمية الاقتصادية واجهة رفعت في مواجهة الذين دأبوا علي تحليل أفريقيا سياسياً وكانت اهتماماتهم في هذا الشأن تختلف عن الاقتصاديين، وهذا الخلاف لم يكن أيديولوجياً خصوصاً فيما يتعلق بنظرة الاقتصاديين للدور الإيجابي للدولة، وإنما يرجع إلى الإحجام عن الاستخدام لمفهوم الدولة الذي يتعلق بضرورة الاهتمام والإدراك للتنمية السياسية لهذه المجتمعات استناداً إلى التجارب الديمقراطية الغربية، وكان إطار العمل المفاهيمي للتنمية من منظورهم يتركز علي النظام السياسي، وتبلورت فكرتهم حول الوظائف السياسية من إمكانية تحقيقها في كل مجتمع بغض النظر عن مستوى التنمية ذاته، والاختلاف هنا يقوم علي أساس هيكلي باعتبار أن الهياكل المجتمعية تتيح الفرصة الأكبر أمام استقدام الديمقراطية والتكفل بها، وعلي هذا الأساس فالتنمية الاقتصادية تقترب بالتنمية السياسية، ومن ثم فإن الوظائف الشاملة تتحقق من خلال المشاركة الفعلية، وإن كل من المجتمع والدولة يتأثران بالقرارات السياسية من خلال الاتصال السياسي والتنشئة السياسية والتعبير عن المصالح وتجميع المصالح وصنع وتنفيذ القاعدة والتقاضي بموجبها، وتركيزهم في هذا الخصوص أيضاً علي أن الدولة ليست فاعلاً سياسياً فقط، وإن هناك حاجة إلى مداخل تمكن من الذهاب إلى أبعد من مجرد الوصف المؤسسي لأعمال الدولة، ومن ذلك دور البيروقراطية في التنمية السياسية، وإعطاء أهمية لعملية بناء الأمة وغيرها من الوظائف والعمليات.

ثانياً - النظرية الماركسية الجديدة،

في التحليل الماركسي فان للدولة دائماً مفهوماً رئيسياً يتركز في قيامها بدور هام ومؤثر في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية... الخ، وقد نشط الماركسيون الجدد في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات في التنظير للدول النامية، وكانت هناك ثلاثة افتراضات بارزة في أدبياتهم: (١٠)

الأول : ويدور حول التصور الأرثوذكسي عن الدولة كوسيلة للسيطرة، وان الدولة ليست ميداناً ولا وسيطاً منصفاً للمصالح المتصارعة كما هو مفترض في المثال الليبرالي ووفقاً لنظرية التحديث، وعلي الرغم من الانتقاد الموجه لهذا الافتراض المتعلق بمفهوم الدولة، والذي يتمثل في الكيفية التي تتم بموجبها مثل هذه السيطرة، فقد كان هناك البعض الذي يري أن الدولة تقوم علي أساس السيطرة - وخصوصاً في أفريقيا - وتمارس وظائفها ليس بطريقة مستقلة من خلال الطبقة المستأنسة ذات الصلة بالرأسمالية، ولكن عن طريق موظفي الشركات الأجنبية Compradors ، أو البرجوازية البيروقراطية التي استخدمت سيطرتها علي الدولة لتغتني الفرصة وتثري علي حساب إيرادات الأموال العامة.

الثاني : أن الدولة الأفريقية لم يكن مسيطراً عليها من جانب قوة داخلية أساساً، وإنما عن طريق وكلاء للرأسمالية الدولية الذين تعاضم نفوذهم منذ الستينيات عبر حدود دول العالم الصناعي وداخل الدول النامية ومنها الدول الأفريقية، بمعنى أن سياسات تلك الدول كانت مفروضة من جانب القوى الرأسمالية الوطنية، وان تلك الدول أيضاً تأثرت بعلاقاتها العالمية

الشاملة، وبسبب إقامة نظام اقتصادي عالمي، وان هذه الدول ليس بإمكانها التخلص من سيطرة النظام الرأسمالي إذا هم أرادوا تعظيم مكانتهم في العالم وتطوير دولة ما عن طريق زيادة فعاليتها في استغلال وتوظيف المصادر الداخلية إلا من خلال الاعتماد علي الذات في الإطار الوطني كشرط لازم من أجل التنمية التي غالباً ما يكون تحقيقها نابعاً من الداخل أكثر من الخارج، وطالما أن النظام الاقتصادي الرأسمالي يحوز منطقاً خاصاً به، وأن الطريقة المناسبة تتمثل في العودة إلى الاشتراكية كمدخل مستقل لتلك الدول بعيداً عن سياق النظام الاقتصادي العالمي.

الثالث: ويتمثل في تركيز الاهتمام علي محدودية دور المؤسسات المتعددة الجنسية، بمعنى محاولة إظهار دور راس المال الأجنبي كوسيط للمؤسسات الدولية الذي وإن كان قد قام بدور ما في سياق التنمية الوطنية - لبعض الدول الأفريقية - إلا أن ذلك إنما كان يحدث في ظل أولوية و مراعاة مصلحة هؤلاء الفاعلين.

ثالثاً. نظرية ما بعد التحديث (ما بعد الهيكلية) :

يتركز مفهوم هذه النظرية علي اعتبار أن الدولة ما هي إلا مؤسسة شاملة يمكن التعامل معها من خلال ثقافات مختلفة، وهو ما يعنى ضرورة الاهتمام بالجانب النظري - أو ما يعرف بنظرية المعرفة - أكثر من الجانب التطبيقي، ومؤيدو تلك النظرية يرون أنها أكثر توضيحاً للعديد من الاعتبارات الأنثروبولوجية والتاريخية واللغوية وغيرها من الاعتبارات ذات الصلة بالدولة، ومن ثم فإن نظرية ما بعد التحديث يقصد بها أساساً مشروعية الإدراك لتأثيرات

النماذج السائدة في المجالات الاجتماعية والإنسانية، وإن كانت لتلك النظرية تأثيرات مدركة أيضاً علي الكثيرين نظراً لما يمكن أن تحدثه من تغييرات في معتقداتهم.

رابعاً. النظرية المؤسسية الجديدة؛

إن المؤيدين لهذه النظرية يرون أنها ذات طابع تطبيقي شامل، وأنها ذات طابع علمي أكثر من أي نظرية أخرى، بالإضافة لكونها وسيلة لاستشراف المستقبل، وأنها تنبعث من سيكولوجية المنظمات، وتتمحور أساساً حول افتراض أن التاريخ ليس مؤثراً كما يعتقد الاقتصاديون، وإن هناك الكثير من التأثيرات الناتجة عن العمل الجماعي (المجتمعي) والعمل العام، بمعنى أن الاهتمام في ظل هذه النظرية ينصرف إلى التفاعل بين الخيارات الجماعية (المجتمعية) من جانب، والمؤسسات العامة من جانب آخر، وإن التركيز في هذا الشأن يكون علي ما يحدث في الحاضر، أما المدخلات الماضية فهي تكون فقط مؤشراً لكيفية تأثيرها علي الخيارات التي يمكن إن يجب أن تتم أو تصنع.

خامساً. النظرية الديمقراطية؛

وهذه النظرية أكثر ارتباطاً بالهيكل المؤسسي (البناء) في ظل الإدراك الأرثوذكسي، ونموذج النظرية يمكن الحكم عليه ليس من خلال الإطروحات الفلسفية التي تثار حول الديمقراطية، ولكن من خلال الدراسات التي تعمل علي إظهار العلاقات التجريبية التي تشير إلى أن الديمقراطية السياسية في علاقة تبادلية وإيجابية مع وجود أنواع حقيقية من الهياكل والمؤسسات الاجتماعية والديمقراطية فهي تعد من خلال هذا المنظور متغيراً مستقلاً، وقدمت تلك النظرية

افتراضات أخرى ومنها أن الديمقراطية ليس بالإمكان توقعها في الدول النامية الفقيرة كالدول الأفريقية، وإن كانت الانتقادات التي وجهت إليها أكدت علي أن محاولة إضفاء الطابع الديمقراطي - وفقاً لها - تتطلب العديد من الإجراءات الطويلة والمضنية، كما أنها تتسبب في إثارة الكثير من المتاعب الكامنة تحت ستار من الاستقرار، كما أنها تمثل نوعاً ما من الرجعية، وبالتالي فهي ليست حركة تقدمية، وإن هناك شك كبير في إمكانية أن تكون مثل تلك الدول ديمقراطية في ظل أية ظروف اجتماعية واقتصادية تمر بها.

سادساً. نظرية نظام الحكم، (١١)

إن أحد الاهتمامات المتعلقة بنظرية تحليل نظم الحكم يشير إلى أنها ركزت علي عملية التحول Transformation بالإضافة إلى تركيزها علي مفهوم الحكم Governance ، بمعنى كيفية إدارة العديد من الإجراءات والعمليات، وأيضاً التركيز علي المساعدات لإدراك كيفية أن أنظمة الحكم يمكن أن تتأثر بطريقتها في الاستفادة من المصادر و المدخلات، كذلك فإن مجال تركيزها يتمثل - بصفة عامة - في الاهتمام بالقواعد والقيم الوسيطة في ممارسة العمل السياسي والاجتماعي.

إن نظريات التحول (الانتقال) لنظم الحكم أتت أساساً من الدراسات المتعلقة بكل من جنوب أوروبا وأمريكا اللاتينية في نهاية السبعينيات واولئ الثمانينيات، عندما تبنت هذه المناطق نوعاً ما من الديمقراطية التي يمكن من خلالها التعرف علي الدروس المستفادة من هذه التحولات وعوامل تحقيقها كمحددات للتحول الناجح للديمقراطية، وإن الاختلاف يمكن أن يكون في كل من الأسلوب والتوجه، وإن وجود مثل تلك التحولات النظرية يمكن أن يتيح الفرصة

لتفهم مثل تلك التحولات و إعطاء تصورات عن احتمالات الديمقراطية أكثر من أي شئ آخر.

لقد حازت نظرية نظم الحكم اهتماماً عاماً في الوقت الحالي انطلاقاً من افتراض مؤداه أن المعايير والقواعد المتعلقة بأنظمة الحكم المحددة يمكن أن تتغير وأنها تمارس لخدمة أغراض سياسية واضحة وأنها ارتبطت بإمكانية أن يكون هناك نوع من التفاؤل حول فرص التطوير و التحسين للظروف الإنسانية عن طريق التغييرات المتحققة في هياكل نظم الحكم القائمة.

سابعاً. نظرية التعددية الثقافية:

وتلك النظرية تميل إلى كثير من التحفظ في إبدائها للمقترحات من أجل العمل، كما أن تلك النظرية تميل إلى افتراض أن الهياكل الاجتماعية الموضوعة للتعددية الثقافية تكون صعبة الإصلاح، وذلك لان المآسي قد احتلت مكاناً بارزاً في كثير من المجتمعات المنقسمة وفقاً للخطوط الثقافية^(١٢) و كانت هناك بعض الأسباب المعنوية التي تشير إلى صعوبة الامتناع التام عن الاستدلال بمثل تلك التوجهات، وقد تزايدت أهمية تلك النظرية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي (سابقاً) والتكوين لدول جديدة في كل من أوروبا الشرقية ووسط آسيا، كما أن الاهتمام بهذه القضايا امتد في ظل الأحداث المفجعة في أجزاء عديدة من أفريقيا حيث يقود العنف والصراع الاثنى إلى سفك الدماء علي نطاق واسع كما هو الحال في كل من رواندا وبوروندي، ومن ثم فتلك النظرية تتعامل مع حالات واقعية لهذا النمط من مشكلات العنف والصراع الاثنى مع التركيز علي دور الهوية الثقافية - سواء فيما يتعلق باللغة أو العنصر أو الاثنية أو الدين - علي التفاعلات الاجتماعية الوسيطة وعلي عمليات التوزيع المباشر للمصادر في المجتمع.

ومما تقدم يتضح انه علي مستوى المحللين السياسيين التقليديين والمعاصرين فان الدولة في أفريقيا تلقى اهتماماً خاصاً، ويتم التعامل من جانب هؤلاء بقدر كبير من الحرص والتحفظ بشأنها نظراً للعديد من الخصوصيات التي تميزها وترتبط بواقعها سواء فيما يتعلق بنشأتها وتطورها ومقوماتها وممارساتها وتفاعلاتها أو حتى علاقاتها، وهو الأمر الذي ينعكس علي كل من المستوى المفاهيمي و التنظيري، كما يتضح مما سبق أن هذا التوجه لم يستقر بعد علي المفاهيم والنظريات المحددة التي يمكن عن طريقها التفسير والتحليل الموضوعي لمفهوم ولطبيعة ولواقع الدولة في أفريقيا، ومن ثم يبقى السجال مفتوحاً بين هؤلاء المحللين والمهتمين بالدولة في أفريقيا في محاولة للسعي نحو إجراء مزيد من التفسيرات والتحليلات ونحو إعطاء مزيد من التصورات المناسبة عن الدولة في أفريقيا تكون أكثر شمولاً ويسراً وكذلك أكثر جدارة ومصداقية في التعامل مع واقعها.

المبحث الثاني

مراحل تطور الدولة في أفريقيا

مرت الدولة في أفريقيا بالعديد من المراحل في إطار عملية تطورها، وقد تأثرت الدولة بذلك في كل مرحلة ببعض الخصائص التي أثرت فيها وتأثرت بها، ويمكن الإشارة إلى تلك المراحل علي النحو التالي:-

المطلب الأول: الدولة الأفريقية في مرحلة ما قبل الاستعمار

لم تكن أفريقيا قبل التكالب الاستعماري عليها _ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بموجب اتفاق برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥ الذي جعل تلك القارة

فريسة وغنيمة اقتسمتها فيما بينها الدول الأوروبية الاستعمارية ظلما وعدوانا _ مجرد غابات وأدغال ومجاهل، أو كما كان يحلو للأوروبيين تسميتها بالقارة السوداء. (١٣) والتي تعيش حالة من التخلف المزمّن تستدعى إنعاشا حضاريا وإنسانيا متمدنا من جانب هؤلاء الأوروبيون، وإنما الواقع والحقيقة يشيران إلى أن تلك القارة ظلت دوما زاهرة وذاخرة وواعدة بالحضارات والممالك ظلت كذلك لقرون طويلة و سبقت في رقيها وازدهارها، أوروبا وغيرها.

إذن فأفريقيا لم تكن علي هذا القدر من التأخر و التخلف الحضاري والإنساني - الذي روج إليه الأوروبيين، و إنما كانت تنعم بحضارة وتعيش في رقى واستقرار، وتشهد بذلك العديد من الحضارات والممالك الأفريقية القديمة مثل الحضارة المصرية - التي ظلت منذ مرحلة ما قبل الميلاد وحتى الوقت الراهن تدل علي أنها كانت حاضرة العالم، وبالمقارنة فإن الحضارة الأوروبية أو الغربية كانت حينذاك في رحم الغيب ومن ثم فهي نتاج قريب العهد، كما انه عندما اكتشف الأوروبيون كل من استراليا والأمريكتين لم يكن حال السكان الأصليين يشير إلى وجود مظاهر حضارية، ففي استراليا كان سكانها يعيشون علي حرفتي الجمع والالتقاط وصيد الحيوانات مستعملة في صيدهم أدوات حجرية كتلك التي كانت مستعملة في العصر الحجري، في الوقت الذي كان الأفريقيون قد هجروها منذ أزمان بعيدة تتراوح بين ثلاثة آلاف وستة آلاف سنة، كذلك بالنسبة للأمريكتين فقد ظل الهنود الحمر حتى القرن الثالث عشر يستعملون أدوات العصر الحجري الحديث _ الأدوات الحجرية المصقولة _ في الوقت الذي كان الأفريقيون يستغلون الأرض في الزراعة معتمدين علي أدوات جديدة، فضلا علي ما كان ينعم فيه الثلث الشمالي للقارة من حضارة إسلامية فيما بعد، أما بقية القارة الأفريقية

فكان أهلها يخضعون إما لنظام القبائل أو لنظام الولايات والممالك بلغت من القوة والتنظيم والإدراك حدا تستطيع معه طرد الغزاة والمعتدين الطامعين فيها من وراء البحار حتى القرن التاسع عشر، ولعل هذا ما يفسر تأخر تكالب المستعمرين الأوروبيين وتغلغلهم في القارة، كما أن هذا التقدم والرقى الذي بلغه الأفريقيون هو الذي مكنهم من اكتشاف مواردهم وثرواتهم والاتجار فيها، وهو أيضاً الذي دفعهم إلى مقاومة حضارة الأوروبيين لعقود طويلة من الزمان. (١٤)

وإذا كانت زراعة المحاصيل و إنتاج الطعام - كأحد مظاهر الحضارة القديمة - لم تظهر في أفريقيا طفرة واحدة إلا في مصر وذلك منذ تسعة آلاف سنة عندما زرع الفراعنة المصريون المحاصيل الزراعية وقاموا برعي الأغنام والماعز والمواشي، ومن مصر انتشرت الزراعة و الرعي إلى بقية أفريقيا، كما عرفت مصر القرى المحصنة التي اخذ السكان في تحصينها ضد الغارات، كما عرفت الصناعات مثل صناعة المراكب الكبيرة وعمليات الاستخراج للمعادن والتجارة، وتلك المظاهر الحضارية سواء انتقلت من مصر إلى أفريقيا، أو أنها تطورت داخل مناطق متعددة داخل القارة الأفريقية إنما تدل علي السبق الحضاري الأفريقي، كما انه في مجال السياسة يلاحظ أن نظام الحكم في مصر قد وصل إلى مراحل متقدمة من التطور حيث اتحدت الأقاليم أثناء حكم الأسرة الأولى، ثم توالي بعد ذلك حكم الأسرات الذي اتسم في كثير من مراحله بالقوة والتنظيم الجيد وحسن الإدارة، كذلك فقد كانت هناك العديد من الممالك داخل القارة الأفريقية مثل: مملكة مروي في منطقة جنوب كوش (منطقة أسوان)، ومملكة أكسوم في شمال الحبشة في فترتي ما قبل وما بعد الميلاد، كذلك عرفت الحضارة السودانية في المنطقة الممتدة من مصب نهر السنغال غرباً والتي تشمل الأراضي التي تقع جنوب الصحراء

الكبرى والممتدة نحو الشرق حتى النصف الجنوبي لشاطئ البحر الأمر كما تضم أيضاً الأراضي التي تقطنها جماعات البانتو والتي تمتد من منابع النيل حتى منطقة الجنوب الأفريقي، واهم ما ميز هذه الحضارة أن شعوبها الأفريقية المختلفة اتبعت نظاماً ودساتير متشابهة وكان علي رأس دول هذه المنطقة ملوك تقدم لهم فروض الطاعة والتقديس، ولم يكن النظام في الحضارة السودانية نظاماً إقطاعياً كما لم يعتمد علي الوراثة أو سلطة العائلات الكبيرة بل كان النظام في عمومها يقترب من البيروقراطية، إذ كانت السلطة في أيدي موظفين لا يباشرون أعمالهم داخل مكاتب لهم وإنما في حضرة الملك عندما يحلو له ذلك، حيث كان يحيط بالملك عدد من ذوي الألقاب بقدر ما تحمل ميزانية الولايات ويتولى رئاسة الإدارة عدد قليل من كبار الموظفين، وبلي هؤلاء رؤساء الأقاليم والمناطق وهي وظائف يتوارثها الأبناء والأقارب الذين تعلموا في البلاط الملكي، واهم عمل يقومون به هو جباية الضرائب للملك. (١٥)

وأيضاً كان من ابرز نماذج نظم الدولة التي تطورت كأنماط مختلفة للعلاقة بين السلطة المركزية في العاصمة ودوائر الحكم في الإقليم والمناطق التابعة للملك، واني شهدتها منطقة غرب أفريقيا هي إمبراطوريات غانا ومالي والولوف والسنغال، وعلي سبيل المثال فان إمبراطورية غانا التي أنشأها شعب السوننكي Soninke ربما خلال القرن الثالث الميلادي في منطقة السافانا الواسعة بين السنغال والنيجر، امتدت لتشمل الشعوب المجاورة، و لتضحي إمبراطورية مترامية الأطراف طورت نوعاً من الحكم غير المباشر للمحافظة علي وحدة الإمبراطورية، أما إمبراطورية مالي فقد أنشأها الماندنغو وهي شعوب زنجية كانت تقطن سهل مادانكا الواقع بين السنغال والنيجر، ويعد "منسي كانكان موسى

"المعروف باسم " موسى الأسود " المؤسس لتلك الإمبراطورية التي تأسست في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي تقريباً، وظلت إمبراطورية مالي تخضع لحكم ملوك ينتمون لأسر حاكمة قوية، وقد تمكن هؤلاء الملوك من حكم مختلف أرجاء الإمبراطورية التي أطلق عليها الأقاليم من خلال حكام محليين كانوا ينتمون بدورهم إلى أسر حاكمة ذات نفوذ في مناطقهم الإقليمية، بمعنى أن ملك مالي كان يقوم بتفويض سلطته للحكام في الأقاليم المختلفة الذين يدينون له بالولاء والطاعة وقد حافظت هذه الإمبراطورية علي استقرارها ووحدةها لسنوات طويلة. (١٦)

ويمكن في هذا الصدد الإشارة إلى أنه كانت هناك علي مستويات متفاوتة من الكثافة كيانات اجتماعية ترتبط بروابط القرى أو غيرها من الروابط الاجتماعية التي ترتكن علي تقاليد ثقافية أو تستند إلى هيكل إداري - سياسي منظم، وكان علي رأس هذه الأمم طبقات حاكمة تتولى جمع الجزية وترعي عمليات المبادلات التجارية مع الجيران وتحمي طرق التجارة والأسواق و تتولى إعادة توزيع الموارد والفوائض، وقد استخدمت هذه الطبقات الحاكمة أسطورة الأصل المشترك وأيديولوجيات القرابة والتاريخ الشفهي للهجرات والغزوات كأدوات لخلق تقاليد ثقافية مشتركة تخدم عملية تعزيز الهوية الوطنية، وتساعد علي تدعيم الولاء السياسي، ولقد شكل البعد الوطني حقيقة لدي هذه المجتمعات و يؤكد علي ذلك أنه بعد أن تم تمزيق هذه المجتمعات نتيجة الغزو الاستعماري فإن محاولات جادة قد تمت لاستعادة هذا الواقع في الفترة التي أعقبت تصفية الاستعمار. (١٧)

و ما يجب التركيز عليه في هذا السياق أن بعض الدول السابقة علي الاستعمار كانت ترتبط بأمة، في حين أن البعض الآخر كان يرتبط بإقليم، ومن

أمثلة الحالة الأولى تلك الدول التي كانت في وسط أفريقيا واصطبغت بالصبغة التجارية أو بعمليات الغزو، واستطاعت أن تنمي هويات وطنية علي مدي قرنين من الزمان في ممالك كونجو Kongo وكوبا Cuba ولوبا Luba ولوندا Londa ومن أمثلة الحالة الثانية والتي افتقرت إلى هويات وطنية، مملكة نرنجا في مانامبا ومملكة امبانجالا في كاسانجي، ومملكة لوندا في كاذيمبي، ومملكة نيامويزي بيكي في جارنيجانزي، كذلك فان دول ما قبل الاستعمار ظهرت في بعض مناطق غرب أفريقيا لتكون بمثابة الدولة الديمقراطية الحقيقية والتي هي نمط فريد للدولة التي قامت بدور إنتاجي وتطويري من أجل المجتمع، حيث حركت النمو الاقتصادي والابتكار التكنولوجي، ومعظم ابتكاراتها التقنية مارستها باستقلالية في منطقتها مثل أعمال النسيج والصباغة والأعمال المعدنية، واقرن ذلك بالتوسع في حركة التجارة عبر الصحراء منذ القرن الثامن الميلادي فصاعداً، وهو ما ترتب عليه العديد من النتائج والتأثيرات علي التكوينات الاجتماعية للمنطقة بصفة عامة وعلي طبيعة ووظائف الدولة بصفة خاصة. (١٨)

المطلب الثاني: الدولة الأفريقية في مرحلة الاستعمار

إذا كان ميلاد الاستعمار في أفريقيا قد بدأ رسمياً اعتباراً من مؤتمر برلين ٨٤-١٨٨٥ إلا أن الاستعمار الحقيقي لتلك القارة يمكن إرجاعه إلى بداية التدخلات والممارسات الأوروبية في الشئون الأفريقية منذ القرن الثاني عشر متمثلة في تجارة الرقيق عبر الأطلنطي، ثم بعد ذلك المحاولات الأوروبية لإخضاع جميع المناطق الأفريقية تحت سيطرتها واستعمارها، وهو الأمر الذي ترتب عليه دخول الدولة في أفريقيا مرحلة جديدة من حيث طبيعتها ووظيفتها وتأثيراتها الكارثية. (١٩)

والجدير بالذكر أن الأوروبيين استفتحوا تجارة الرقيق بتصدير المجرمين والمذنبين من سكان مناطق عديدة في القارة الأفريقية، ولكن عندما زاد الطلب علي تلك التجارة فقد بدأ المتاجرون فيها و المتعاونين معهم من ملوك وزعماء محليين في اصطياد وأسر سكان المناطق الداخلية مستعملين في سبيل تحقيق ذلك الأسلحة النارية التي جلبها الأوروبيين وتصديرهم كعبيد، بحيث كان يقدر ما تفقده غينيا علي سبيل المثال كل عام مائة ألف شاب وفتاة خلال القرن الثاني عشر، وقد استشرى هذا الأمر علي مستوى المناطق الأخرى بحلول القرن السابع عشر عندما تعاضم طلب الأوروبيون علي الأيدي العاملة لزراعة المناطق الاستوائية الأمريكية، فكانت المستعمرات الأسبانية تزودهم بالرقيق عبر الأطلنطي وسيطرت تلك التجارة علي كل نشاط الأوروبيين بحيث وصل العدد إلى تسعمائة ألف من الرقيق الأفريقي، واستحوذت أمريكا عام ١٦٠٠ علي حوالي ٢,٧٥ مليون فرد، وفي القرن السابع عشر بلغ العدد سبعة ملايين فرد، و في كل من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر أربعة ملايين، وقد احتكر هذه التجارة كلا من الهولنديين والفرنسيين والبريطانيين والبرتغاليين فيما يعرف بمثلث الأطلنطي (أوربا - أفريقيا - أمريكا) Atlantic Triangular ولعل أكثر ما يمتاز به التطور الذي أصاب الدول الأفريقية في خلال القرن السابع عشر والثامن عشر هو نمو تلك الدول وامتدادها للداخل، إذ لم تحتل تلك الدول تجارة الأوروبيين المسعورة في الرقيق وإغاراتهم المستمرة علي المناطق الساحلية لجمع الثروات من وراء تلك التجارة. (٢٠)

وقد ظلت تلك التجارة مزدهرة ورائجة حتى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، ولم تنته فعلا إلا في أوائل القرن العشرين بعد أن تدهورت حالة الشعوب

الأفريقية، وخصوصا عليا للمناطق الساحلية كنتيجة مباشرة لهذه التجارة الشائنة والتي تدهورت معها الحضارات التي قامت في تلك المناطق لقرون عديدة. (٢١)

وحتى بعد انتهاء تجارة الرقيق لم تقف المطامع الأوروبية عند هذا الحد المأساوي في تاريخ الإنسانية علي الأرض الأفريقية، وإنما تكيف المستعمرون الأوروبيون مع المستجدات الجديدة وانتقلوا إلى مرحلة أخرى أكثر ارتفاعاً واستنزافاً من مجرد تجارة الرقيق، وتتمثل في افتراس القارة الأفريقية بأكملها حيث بدأ الأوروبيون يتسللون إلى مختلف أرجائها، وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تكالب البريطانيون والفرنسيون والهولنديون والبرتغاليون وغيرهم من الأوروبيين من أجل بسط هيمنتهم الاقتصادية والتجارية علي أفريقيا، وثمة مجموعة من العوامل التي أسهمت في التعجيل بعملية "التكالب الاستعماري علي أفريقيا " The Scramble for Africa ومن بينها طموح الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا - آنذاك - في بناء إمبراطورية له تشمل منطقة حوض نهر الكونغو، وقيام ألمانيا بضم الكاميرون وشرق أفريقيا وجنوب غرب أفريقيا وتوجولاند، وبناء علي ذلك فقد دعي المستشار الألماني - في ذلك الحين - بسمارك عام ١٨٨٤ إلى عقد مؤتمر دولي لتخفيف حدة التنافس بين الدول الأوروبية في أفريقيا وانتهى هذا المؤتمر إلى وضع قواعد عامة لتنظيم ولتأسيس مناطق الهيمنة التجارية الأوروبية في أفريقيا. (٢٢)

بالإضافة إلى أن التقسيم الذي تم للقارة لصالح الدول الاستعمارية قد ساعد علي تكريس هذا الاستعمار وإضفاء نوع من المشروعية المصطنعة علي وجوده غير المشروع علي الأقاليم الأفريقية، وبما لا يتفق مع مصالح الشعوب الأفريقية ولا مع حقوقها ولا مع إرادتها وتطلعاتها، ومع اختلاف النظم والسياسات

الاستعمارية فان ثمة مجموعة من الملامح العامة مثلت قاسماً مشتركاً للحركة الاستعمارية في أفريقيا ومنها: (٢٣)

١ - أن جميع الدول الاستعمارية رفعت شعار " الأبوية السياسية - Political paternalism " أي أنها جاءت إلى أفريقيا من أجل مهمة عالمية حضارية وهي نشر المدنية بين الأفارقة، وحينما تحولت المحميات الأفريقية إلى مستعمرات فان الدول الأوروبية الاستعمارية لم تأخذ هذا الشعار النظري بحمل الجد وإنما أفصحت عن وجهها الحقيقي و السافر في الاستغلال والاستنزاف المفرط لثروات وخيرات القارة الأفريقية وعلي حساب شعوبها المقهورة والمستضعفة.

٢ - أن الحركة الاستعمارية في أفريقيا واجهت مقاومة عنيفة من الأفارقة خصوصاً بعد انكشاف أغراضها ومطامعها الفعلية والمتمثلة في الاستنزاف المستمر والمنظم لثروات البلاد الأفريقية، والانشغال بالأهداف والمصالح الأوروبية الاستعمارية علي حساب المصالح والأهداف الأفريقية، ومن ثم فان أحد النتائج الهامة لهذا الغزو الاستعماري تمثل في تنامي الروح الوطنية الأفريقية واستمرارها في النضال من أجل الحصول علي الاستقلال.

٣ - أن عملية التكالب علي أفريقيا أفضت إلى خلق ظاهرة الدول الحديثة - وفقاً للمنظور الاوروبي - حيث سعت الدول الأوروبية إلى وضع أسس السلطة الاستعمارية فأنشأت الهياكل الإدارية والأبنية الأساسية اللازمة لتحقيق هذا الغرض وأيضاً لخدمة أهداف وسياسات وممارسات الاحتواء والاستيعاب لتلك المستعمرات باعتبارها أقاليم استعمارية وراء البحار، ولم تراع الظروف الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات الأفريقية،

ومن ثم فإن الدولة الأفريقية المعاصرة في معظم الحالات تعد نتاج استعماري مصطنع، ولا تعبر عن واقع اجتماعي واقتصادي وسياسي وفقاً لمفهوم الدولة القومية، فإقليم الدولة ليس إلا نتاج تحديد تعسفي من جانب القوى الاستعمارية في إطار اختلال منظومة توازن القوى لصالح هؤلاء المستعمرين، وفي إطار التكالب والتقسيم لأفريقيا باتت الشعوب الأفريقية في الحقبة الاستعمارية تروج بالعديد من الجماعات المتميزة في ثقافتها ولغاتها ودياناتها، ومن ثم انتفت إرادة التعايش الجماعي التعاوني لتحل محلها رذيلة الصراع والتناحر في سياق تلك الدول المصطنعة، كما أن السيادة التي انتهكتها الدول الاستعمارية واحتكرتها لخدمة مصالحها سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة أكملت إفراغ مضمون الدولة من محتواها، ولذلك فإن ظاهرة الدولة الأفريقية التي أنشأها الاستعمار كانت بمثابة تعبير قانوني أكثر من كونها حقيقة واقعية واجتماعية.

إذن فمع الغزو والاحتلال الاستعماري الأوروبي لأفريقيا، فإن فرص تطور الهياكل الاجتماعية الأفريقية للتحول إلى أمم قد تقوضت إن لم تكن قد انهارت تماماً مع تدمير هياكل السلطة القائمة فيها ولم تنج من ذلك إلا بعض الدول مثل: مصر وليبيا وتونس والمغرب ورواندا و بوروندي وإثيوبيا وليسوتو وسوازيلاند ومدغشقر، في حين أنه في المستعمرات الأخرى والتي ضمت في إطارها جماعات اثنية مختلفة كانت كثافة الشعور بالهوية القومية ضعيفة وقد تقدم الزعماء التقليديون هذه الجماعات كممثلين لها أمام الإدارة الاستعمارية، وكانت مهام هؤلاء الزعماء بالأساس استخراجية لخدمة المصالح الاستعمارية كجباية الضرائب وتجنيد العمالة والعمل الإجباري والحفاظ علي الأمن والنظام، وهو ما أسفر عن

كراهية المواطن العادي لهم بشكل دفعه للبحث عن قيادة جديدة له في الكفاح ضد الاستعمار، وقد وجدها في البرجوازية الصغيرة الأفريقية الجديدة وهي الطبقة التي راحت ترفع لواء القومية الأفريقية، وهكذا فان التأثير الاستعماري علي المسألة القومية كان أمراً معقداً، فمن جهة أسفر الحكم الاستعماري عن تدمير عدد من الأمم السابقة علي الاستعمار أو تمزيقها إلى العديد من الجماعات الاثنية، ومن جهة ثانية فان الاستعمار قد أوجد الجماعات الاثنية والقومية في إطار مؤسسي إقليمي، مما وسع الفضاء الاجتماعي لهذه الجماعات وولد لديها خبرة الإحساس المشترك بالاضطهاد السياسي والقمع والاحتواء الثقافي سواء كانوا عرباً أم أفارقة وهو الأمر الذي دفع إلى التوحد في النضال المشترك ضد ذلك الاستعمار. (٢٤)

وحتى عندما بدأت مرحلة النضال في مواجهة الاستعمار والعنصرية من جانب الأفريقيين من رواد حركة الجامعة الأفريقية في أمريكا الشمالية والكاربي (مثل سلفستر وليامز، ووليام ديبوا، وماركوس جارفني) فتلك الحركة كانت بمثابة حركة فكرية تعبر عن الرغبة في تأكيد الذات الأفريقية للمنحدرين من أصل أفريقي خارج القارة سعياً لاستعادة الكرامة وإقامة أمة مستقلة عني ارض القارة الأفريقية، ولذلك فان المسألة القومية في أفريقيا باتت أكثر تعقيداً حيث برزت ثلاث هويات يمكن إقامة الدولة الأفريقية تأسيساً عليها وهي: (٢٥)

(أ) الأمة الإثنية: ذات التاريخ المجيد التي أحاطت بها العملية الاستعمارية، أو تلك التي ولدت في غمار تناقضات الوضع الاستعماري ومن أمثلتها: اجبو وكاساي ولوبا، ومن دعاة ذلك الزعيم النيجيري اوبافيمي اولو عام

١٩٤٧ حيث دعا إلى قيام دولة متعددة القوميات تتكون من فيدرالية تضم أمماً إثنية.

(ب) الأمة الإقليمية التي خلفها الاستعمار دون مراعاة للتعددية الإثنية والثقافية.

(ج) الأمة الأفريقية الجامعة: ومن دعاة ذلك الرئيس الغاني الراحل " كوامي نكروما " الذي دعا لاقامة الولايات المتحدة الأفريقية.

وفي حين لم يفلح إقامة كل من الدولة علي النمط الأول والثالث فقد نشأت الدولة الأفريقية مرتبطة بهوية إقليمية ناجمة عن التقسيم الاستعماري، وغير مرتبطة بهوية اثنية تشكل بؤرة ارتكاز لتماسكها وباتت القضية المحورية في السياسة الأفريقية تتمثل في مشكلة الاندماج الوطني أو بناء الدولة الأمة. (٢٦)

وإذا كان مجيء الاستعمار الأوروبي قد ترتب عليه تغييرات عديدة في الهياكل والديناميات للمجتمعات الأفريقية وفي مقدمتها الإنتاج من أجل السوق، والإدارة لدولة حديثة علي جميع مستويات مؤسساتها وسلطاتها المعقدة بالإضافة إلى الحرص علي أن يتولد داخل المجتمع مفاهيم هامة تتعلق بالحفاظ علي الهياكل الأيديولوجية والإدارية النوعية، الا أن كل ذلك قد اقترن بالجور السياسي والاستغلال للشعوب الأفريقية، وقد أدى ذلك أيضاً إلى مقاومة التأسيس لهياكل الدولة علي هذا النحو وهذه المقاومة أدت إلى تعديل سياسة الحكم الاستعماري من أجل إتاحة الفرصة أمامها لاستيعاب العناصر الوطنية وتعبئتها للعمل كوكلاء نشطين للسلطات الاستعمارية وساعدهم في ذلك أن الأفريقين لم يكونوا ذلك الشعب المتجانس علي طول التاريخ بل كانت هناك

العديد من الجماعات ذات المصالح والتوجهات المختلفة وخصوصا نحو الدول الاستعمارية، ولذلك كان الصراع من أجل الاستقلال صعباً فالأفريقيين لم يبدعوا هذا الصراع في إطار جبهة متحدة ضد هذا الحكم الاستعماري، وكانت الجهود المبذولة لتنظيم الأحزاب السياسية - مع أنها مطلوبة من أجل تعبئة الشعب وتوعية جماعة الناهبين من أجل الاستقلال - كأداة لإعادة تمثيل المصالح المختلفة داخل المجتمع غالبا ما كان يصعب الاتفاق في إطارها وكثيرا ما انشغلت بقضايا أخرى بخلاف السعي للتخلص من الاستعمار. (٢٧)

المطلب الثالث: الدولة الأفريقية في مرحلة ما بعد الاستقلال

بعد صراع مرير ومفاوضات طويلة غالبا ما اقترنت بالتهديدات والفظاظة من جانب القوي الاستعمارية فقد حصلت الدول الأفريقية علي الاستقلال، ومنها عل سبيل المثال: كينيا في الشرق الأفريقي، أما في الجنوب الأفريقي فان كل من: أنجولا وموزمبيق وزيمبابوي لم تحرز استقلالها إلا بعد حروب عصابات ضد القوي الاستعمارية، أما المستعمرات في غرب أفريقيا فقد حصلت علي استقلالها بعد مناورات فرنسية لتخير تلك المستعمرات بين استمرار ارتباطها بفرنسا أو الاستقلال، وبدأت غينيا برفض هذا الارتباط وأعلنت استقلالها ثم تتابع استقلال باقي الدول فيما بعد. (٢٨) وكان آخرها استقلال إريتريا عن إثيوبيا وإعلان قيام دولتها في أوائل التسعينيات (١٩٩٣)، وفي إطار تناول الدولة الأفريقية فيما بعد الاستعمار يمكن الإشارة إلى ما يلي:

أولاً: إرهابات دولة ما بعد الاستقلال :

مع بدايات استقلال العديد من الدول الأفريقية، فان الأمل في إقامة الأمة الأفريقية والدولة الأفريقية الجامعة صار مجرد لغو فارغ المضمون، وهو ما اتضح

علي سبيل المثال في اجتماع مؤتمر الشعوب الأفريقية بأكرا عام ١٩٥٨ ذلك أن معظم الوفود كانت تمثل حركات وطنية تسعى لاستقلال أقاليمها المستعمرة و تدعمت الوطنية الإقليمية بصورة مكثفة وأسفرت عملية الاستقلال عن قيام العديد من الوحدات السياسية المعترف بها في أفريقيا والتي يمكن تصنيفها علي النحو التالي: (٢٩)

١ - دول تاريخية: مصر وليبيا والمغرب وتونس ورواندا وبوروندي وإثيوبيا و ليسوتو وسوازيلاند ومدغشقر.

٢ - دول ذات هويات ثقافية: الجزائر وبتسوانا والصومال.

٣ - دول ذات تعددية إثنية وثقافية: وتضم باقي الدول الأفريقية وهذه الدول تعاني بدرجة أو بأخرى من أزمة الاندماج الوطني مع هيمنة جماعة علي بقية الجماعات الأخرى سياسياً واقتصادياً وثقافياً ورفضها الالتزام بتحقيق الوحدة في إطار التنوع بما ينطوي عليه ذلك من احترام ثقافات ولغات ومعتقدات الجماعات الأخرى.

كما يلاحظ أن الدولة الأفريقية المستقلة أو الموروثة عن الاستعمار إتسمت بوجود بعض الخصائص الرئيسية ومنها: (٣٠)

الأولى. الطابع المركزي للدولة؛

حيث أن وجودها بات محسوساً في كل مكان، فهي تحكم وتوجه وهي تشكل مجمل الحياة الاجتماعية وتحدد وتؤطر كافة أشكال التفاعلات، ثم إنها مكافأة العمل السياسي فمن يسيطر عليها يحصل علي كل شئ تأسيساً علي أن اللعبة السياسية هي لعبة صفرية. Zero Game ، بمعنى أن المركزية داخل الدولة

الأفريقية أصبحت واضحة ومتفشية في كل مكان بداخلها فهي التي تسيطر وهي التي توجه وهي التي تسيء تسيير الاقتصاد الوطني وهي التي تستهلك القدر الكبير من المصادر المتاحة لها في المرتبات التي تنفق علي وظائف وأنشطة هادفة وأكثرها غير هادف وعلي استثمارات مفيدة ومعظمها غير مجدي، واقرنت المركزية بالفساد وباتت تشكل الحياة الاجتماعية عن طريق المنع أو المنع وتقييد تفاعلات الجماعات داخل قنوات ومسارات محددة، وأصبحت بمثابة الجائزة لأصحاب النفوذ والسيطرة التي من خلالها يستخدمون من الوسائل ما يعزز جانبهم في صراع المصالح الشخصية في الوقت الذي يظهرون فيه أمام الجماهير علي أنهم رعاة المصالح العليا للدولة. (٣١)

الثانية. الطابع الرخوي للدولة؛

تبدو الدولة الأفريقية في غالب الأحيان ضعيفة وهشة وغير فعالة، كما تفتقر إلى عصب مؤسسي قوى والى قواعد واليات تسمح لها بالتصرف والقيام بوظيفتها كدولة، ثم أنها لا تستطيع منع مواطنيها من اللجوء إلى العمل السياسي السري ولا من الممارسات غير القانونية، كما لا تستطيع منعهم من السيطرة علي الاقتصاد السري (التهريب بكافة أشكاله) ولذا فمن السهولة بمكان إسقاطها بحروب أهلية أو بانقلابات عسكرية أو باغتيالات سياسية.

الثالثة. الطابع الوقفي للدولة؛

إن كل ما في الدولة الأفريقية موقوف علي شخص الحاكم حيث لا تفرقة بين شخص الحاكم وبين السلطة السياسية، فلا تداول للسلطة ومن يمسك بزمامها يستمر في ذلك مدى الحياة لا يحول بينه وبينها إلا مرض مقعد أو وفاة أو

اغتيال أو انقلاب، وقد أدى ذلك إلى شخصنة السلطة بكل ما يترتب علي ذلك من نتائج تتمثل في عدم التفرقة بين المال العام والمال الخاص من جهة، وبحيث أصبحت مناصب الدولة ممراً إلى المكاسب والمغانم الاقتصادية من جهة ثانية، وصار الفساد والمحسوبية نتاجاً للسيطرة علي السلطة من جهة ثالثة.

الرابعة. الطابع النخبوي للدولة:

ترتكز الدولة الأفريقية - غالباً - علي جماعة إثنية بذاتها بما يعنيه ذلك من ضرورة التمسك بالسلطة من جانب هذه النخب لحماية مصالحها الذاتية من جهة، ولحماية مصالح الجماعة الاثنية التي تمثلها من جهة أخرى في مواجهة النخب التي تمثل الجماعات الأخرى، وقد ترتب علي ذلك نتيجة مفادها أن الحروب الأهلية والانقلابات العسكرية في أفريقيا ليست مجرد أفعال يقوم بها متمردون أو عسكريون لحماية مصالحهم الذاتية بقدر ما هي تعبير عن رغبة جماعة إثنية في إزالة أخرى من السلطة لحماية ولتحقيق مصالحها (إثيوبيا: الأمهرة/التجراي، ورواندا وبوروندي: الهوتو/التوتسي، ونيجيريا: الإيبو/الهوسا، و السودان: العرب الشماليون/الأفريقيون الجنوبيون ... الخ) علي اعتبار أن الإمساك بالسلطة يعد مغنماً وفقدانها يعد مغرماً و خسارة كبرى من كافة الأوجه السياسية و الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.. الخ.

الخامسة. الطابع التدخلّي للدولة:

بعد أن أصبحت معظم المستعمرات الأفريقية دولاً مستقلة، سرعان ما تحركت بسرعة في اتجاه تحقيق وضعية الدول المتدخلة، وهكذا مضت دولة ما بعد الاستعمار في طريق مألوف للتطور، فهناك دولة شديدة التمرکز مستبدة وذات

طابع تقييدي في عملها وفي أدائها لوظائفها وهي تعمل علي تركيز سلطة الدولة في قبضة شخص واحد وربما تكون هناك مجموعة صغيرة من المسؤولين حوله، وتسعى هذه الدولة التدخلية في أفريقيا إلى تقليص و تقييد الحياة الاجتماعية للمواطنين وتستخدم في الغالب أكثر الوسائل قسوة وخسة لتحقيق ذلك، ويرمى هذا النمط من الدولة التدخلية في المجال الاقتصادي إلى تحقيق السيطرة الكلية تقريبا علي جميع الأنشطة الاقتصادية، ويأخذ هذا المسعى أشكالا مختلفة كأن تقوم الدولة بتأميم المشروعات الصناعية والزراعية والتجارية.. الخ، وفي أحيان أخرى تساعد الدولة رأس المال علي ممارسة وظيفته بصورة أكثر كفاءة، وهناك حالات أيضاً تكون فيها مؤسسات الدولة المختلفة حيث تكون مجرد هيئات لضخ الموارد العامة في أيدي نخبة أو جماعة خاصة، وفي الجانب السياسي تعتبر الدولة كل أصوات - أو حتى إيماءات - المعارضة الشرعية خارجة علي القانون، و هي تنكر بوجه عام الحد الأدنى من المساحة أمام الآراء السياسية للمواطنين، لتمثل بذلك موقفاً مناقضاً و بشكل صارخ لكل القيم التي حارب من أجلها المواطنون خلال فترة النضال الوطني. (٣٢)

السادسة. الطابع التبعية للدولة،

كانت الحكومات القمعية والسلطوية والدكتاتورية في أفريقيا، تحصل علي الدعم من الحكومات الأجنبية- وخصوصا خلال حقبة الحرب الباردة - لما تبديه من ود و صداقة تجاه مثل هذه الحكومات ففي حالة الولايات المتحدة الأمريكية فقد أشار البعض ومنهم "هنري كيسنجر" وزير خارجيتها الأسبق: بأنه تم تبرير مثل هذه السياسات بوضوح بتحديد تمايزات بين ما أطلق عليه الاوتوقراطيات التقليدية وتلك الثورية بحيث تعد الاوتوقراطيات التقليدية أنظمة سلطوية يمينية

مثل نظام موبوتو في زائير (الكونغو حالياً) ، أما الاوتوقراطيات الثورية فهي ما دأبت الحكومات الأمريكية علي الإشارة إليها بعبارة " الأنظمة التوتاليتارية " مثل النظام الماركسي في إثيوبيا أثناء حكم "مانجستو هيلاماريام" ، وأن الحكومات السلطوية التقليدية تكون أقل قمعاً من الاوتوقراطيات الثورية وأكثر سرعة في التأثير بعملية اللبرلة ومن ثم فهي أكثر توافقاً مع مصالح الولايات المتحدة وينبغي بالتالي أن تعمل السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الاحتفاظ بعلاقة وثيقة بمثل تلك الأنظمة بينما تدخرهم في ذات الوقت لمستقبل ديمقراطي في إطار مجال نفوذ الولايات المتحدة، وبقدر ما يتعلق الأمر بالأنظمة التوتاليتارية - وبصرف النظر عن الجهود الحقيقية التي تبذلها هذه الأنظمة تجاه إجراء بعض التحولات الاجتماعية شعبية النمط - ينبغي أن تحتل قضية تدمير هذه الأنظمة سياسياً موضع الأولوية بأن تتوقف الولايات المتحدة عن إمدادهم بأي دعم اقتصادي وفي كلتا الحالتين لا تعمل سياسة الولايات المتحدة الخارجية تجاه تقديم العون للجماهير الشعبية، وإنما تحرص علي العمل تجاه تحقيق أهداف مصالحها القومية الخاصة علي المستوى العالمي. (٣٣)

ومن الواضح في هذا الشأن أن الدول الفاعلة في المجتمع الدولي مصممة علي الربط بين أهدافها ومصالحها العليا علي المستوي العالمي، وبين ضرورة أن يكون هناك دول تابعة لها، وأن سياسات الترغيب والترهيب تكون بمثابة الأساس لمثل تلك العلاقات، ويلاحظ أن العديد من الدول الأفريقية قد استدرجت إلى علاقات التبعية تلك سواء في حقبة الحرب الباردة أو فيما تلاها وذلك في إطار ما يعرف بالنظام العالمي الجديد تارة أو بالعملة تارة أخرى.

السابعة. الطابع العسكري للدولة،

إن أهم ما يميز الدولة في أفريقيا هو غلبة الطابع العسكري عليها بمعنى أن العسكريين منغمسون في السياسة بل وغالباً متورطون فيها، وبغض النظر عن النظام الحاكم داخل الدولة سواء كان مدنياً أم عسكرياً فإن هذا التورط من جانب العسكريين دائماً ما يتفاعل مع أي نظام منهما كيفما تكون الأحوال، فإذا كان النظام الحاكم مدنياً يقع الانقلاب العسكري ليتحول النظام إلى نظام عسكري، ثم لا يلبث العسكريون أن يحاولوا إضفاء الطابع المدني علي النظام الحاكم أو أن يحدث انقلاب عسكري مضاد وهكذا تبقى الدولة الأفريقية تدور في مثل تلك الحلقة المفرغة مع ما يقتدرن بذلك من تأثيرات علي واقع الحياة السياسية وحالة الاستقرار والأمن داخل الدولة وحالة التنمية بمفهومها الشامل. (٣٤)

ثانياً. مظاهر أزمة دولة ما بعد الاستقلال،

تمر الدولة في أفريقيا بأزمة عميقة ومتزايدة الحدة تشمل كافة أبنيتها ومؤسساتها سواء السياسية منها أو المدنية، وتلقى بآثارها السلبية ليس فقط علي حسن أدائها لوظائفها وعلي قاعدة شرعيتها وإنما علي حقيقة وجودها في حد ذاتها وبدرجة تدفع للتساؤل عما إذا كانت الدولة في أفريقيا بالفعل مؤسسة اجتماعية سياسية أم وهماً مؤسسياً منقطع الصلة بالواقع الاجتماعي وبالحياة السياسية، ومن هذا المنطلق فإن أزمة الدولة في أفريقيا يمكن توضيح مظاهرها كما يلي: (٣٥)

(أ) تزايد المعارضة التي تبديها الشعوب في العديد من الدول الأفريقية في مواجهة أنظمتها الحاكمة علي أثر اتضاح فشلها في التفاعل الإيجابي

معها ، وفي تلبية الحد الأدنى من الحاجات الضرورية والأساسية ، ومحاولة تهميش تلك الشعوب والحيلولة دون مشاركتها ، في الوقت الذي تستأثر فيه تلك الأنظمة بكل من مزايا الثروة والسلطة ، وبالتالي فان حركة الاحتجاج الشعبي والتي تأخذ أشكالاً عدة ابتداء من المظاهرات العنيفة وانتهاء بالسلبية والخنوع وتراجع الانتماء والولاء الوطني بل وأحياناً الانسحاب الكامل من نطاق الدولة.

(ب) تزايد فشل الدولة الأفريقية في القيام بالوظائف الأساسية المحددة سواء عند الاستقلال أو بعده ، ومنها الفشل في قيادة عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والتي يشير واقع الممارسة الفعلية لها إلى تدنى معدلات النمو لأدنى حد لها واستفحال التخلف الاجتماعي ، ولم تكن باقي الوظائف أحسن حالا ، ومن ثم باتت الدولة الأفريقية قعيدة المشكلات التي تتفاقم والشلل الوظيفي الذي يتعاظم والجماعات الإثنية التي تعاني الانقسام والتناحر وعدم مبالاة النظام الحاكم. (٣٦)

(ج) تزايد هشاشة الدولة الأفريقية وتضاؤل سيطرتها علي مجريات الأمور في الداخل ، وذلك علي الرغم من كثافة مؤسساتها وتنامي تبعيتها للخارج ، بحيث تحولت الدولة في كثير من الأحيان إلى وسيط بين الداخل والخارج أكثر من كونها فاعلاً إيجابياً.

(د) اتسام مؤسسات الدولة الأفريقية بالشكلية ، حيث لا علاقة بين اختصاصاتها المنصوص عليها في الدساتير والقوانين واللوائح المنظمة لها وبين اختصاصاتها الفعلية ، ولا علاقة أيضاً بين الوظائف المنوطة بها

رسمياً والوظائف الحقيقية التي تمارسها ، و من ثم فإن هذه الدساتير والقوانين واللوائح ذات الصلة بالدولة لا تساعد كثيراً في فهم العملية السياسية والإدارية بداخلها.

(هـ) اتسام مؤسسات الدولة بالانتقالية وسرعة التغير نظراً لظروف حالة عدم الاستقرار التي تمر بها الدولة في أفريقيا، وهو ما يجعل من الصعوبة استقرار الأداء الوظيفي لها، كما أنها لا تعبر عن الواقع الاجتماعي والسياسي الأفريقي حيث أنها أقيمت علي سبيل المحاكاة للنمط الأجنبي.

ثالثاً. أزمات دولة ما بعد الاستقلال؛

إذا كانت جذور ومكونات أزمة الدولة في أفريقيا بعد الاستقلال تكمن أساساً في موارث التاريخ ، فإنها أيضاً تكمن في أحداث ومجريات الواقع المعاصر مع تداخل وتشابك الفعل ورد الفعل في المجتمع الذي تحيا فيه، ويمكن الإشارة إلى بعض تلك الجوانب كالتالي: (٣٧)

(أ) أن الواقع المعاصر للدولة الأفريقية وان كان قد بدأ بعمل وإنجاز الحركات الوطنية حيث تمت تصفية الإدارة الحكومية الاستعمارية الأوروبية وإعلان الاستقلال من خلال الأسلوب السياسي التفاوضي - فيما عدا عدد قليل من الحالات التي حصلت علي الاستقلال بالأسلوب الكفاحي المسلح - وما يمكن التأكيد عليه هو ما انتهت إليه أوضاع هذه الدول علي الرغم من التفاوت بينها في أسلوب الاستقلال وعقائده المعلنة فجميع الدول المستقلة بدأت حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية بتصور مجتمع ودولة أفريقية طبقاً لنمط أوروبي (شرقي أو غربي) أو أمريكي، لذلك فقد

أنشأت رموز ومؤسسات الاستقلال وأجهزة الحكم والإدارة وبنابات السلطة وصاغت الدساتير.. الخ طبقاً لنماذج أوروبية أو أمريكية وأيضاً في ذات المرحلة التاريخية فشلت أو انهارت محاولات وتجارب الوحدة بين الدول بمختلف أشكالها وظلت الدولة القطرية هي النموذج الساري علي الرغم من الأزمة المعقدة التي تمر بها. (٣٨)

وترتيباً علي هذا تم بناء دولة مستقلة طبقاً لنموذج الدولة / الأمة وعلي أساس احترام وقديسية الحدود الإدارية الاستعمارية _ الموروثة عن الاستعمار _ لكل إقليم والتي تحولت إلى حدود سياسية، وإذا كان نموذج الدولة / الأمة هو نموذج منتشر في العالم المعاصر، ويعد أحد الموارث المتطورة فكرياً ومادياً من خلال التجربة الأوروبية، ويقوم علي فرض نظري بوجود أمم متكونة أو أمم في طور التكوين ويكون لكل منها حق تقرير المصير وإقامة دولتها المستقلة باعتبار أن الدولة / الأمة هي أرقى صور التعبير عن الأمة، فإن الحدود الموروثة عن الاستعمار في القارة الأفريقية قد تحولت إلي حدود سياسية تعبر عن سيادة الدولة بكل القيم والرموز والقواعد القانونية التي يحتويها القانون الدولي العام، وجاء ميثاق منظمة الوحدة الأفريقية ليزداد هذا الوضع رسوخاً بإقراره احترام الحدود القائمة عند الاستقلال وعدم القبول بتغييرها، وهذه هي البداية التي أنشأت الأزمة الراهنة في أساس وجود الدولة / الأمة حيث ثبت من الممارسات والواقع القائم أن التركيب الاجتماعي للدول الأفريقية لا يمثل أمماً إلا في حالات استثنائية ونادرة وماعدا ذلك فهي مجموعات علي مستويات متعددة من الشعوب والأقليات والأديان والثقافات والمستويات الحضارية وفيها

تباين واضح داخل كل دولة. (٣٩)

وهذا الوضع الاجتماعي الأفريقي لم تفلح في تطويره أو علاجه النظريات الأوروبية والأمريكية القائلة بإمكانية بناء الأمة وبناء الدولة، ولهذا فقد انتشر البديل وهو العنف والقمع والحروب الأهلية والصراعات الحدودية وتنوعت وتوالى الانقلابات وإجراءات التغيير في قيادات النظم السياسية وفي عقائد كل نظام وكل انقلاب، الأمر الذي جعل صفة عدم الاستقرار هي الوضع السائد والمستمر في الدول الأفريقية، كما دعت متطلبات مواجهة حالة عدم الاستقرار إلى نمو وتضخم دور الأجهزة العسكرية والأمنية التي تحتكر رسمياً أدوات القمع والردع.

(ب) أن أزمة الدولة في أفريقيا لا ترتبط فقط بنوعية الفئات الحاكمة و صراعات النخبة وتشردمها وإنما ترتبط أيضاً باستمرار فاعلية دور المتغير الخارجي الذي قبل بوضع الاستقلال السياسي واحتفظ باستمرار الوضع الاقتصادي والاجتماعي الأفريقي في حالة ارتباط وتبعية. ومن هذا المنطلق فإن دور المتغير الخارجي يظهر بوضوح في نمو وتعقد هذه الأزمة حيث قامت الدولة الأفريقية في مناخ الحرب الباردة الأولى في الأعوام الستينيات من القرن العشرين ، ثم مرت فترة الوفاق الدولي في أوائل السبعينيات وجاءت فترة الحرب الباردة الثانية منذ أواخر النصف الثاني للسبعينيات وخلال أعوام الثمانينيات. (٤٠) ويلاحظ أن تلك الأزمة لم تقف عند هذا الحد وإنما دخلت من جديد آتون ما يعرف بالعملة ولتبدأ علي أثر ذلك مرحلة جديدة مصحوبة بالعديد من المتغيرات والمستجدات والمشروطيات التي تزيد من تعقيد الأزمة .

(ج) أن أزمة الدولة / الأمة بدأت منذ أن وصل قادة الحركات الوطنية الذين تولوا مناصب الحكم والإدارة، وبدأت عمليات بناء هياكل ومؤسسات الحكم المركزي مع التوسع في إنشاء الأجهزة والمؤسسات والإدارات التي كان يفترض نظرياً أن تترجم مسؤوليات ووظائف الدولة المستقلة إلى واقع في حياة المجتمع الأفريقي، ولكن الموارد التي كانت تسيطر عليها الدولة ظلت تتصف بالندرة النسبية عن أن تقابل التطلعات الشعبية والأمني والوعود المرتبطة بمعنى ووجوه الاستقلال ومن ثم بدأت في الظهور وفي النمو بعد ذلك أزمة التراكم الرأسمالي وتولدت عنها مع مرور الزمن أزمة الشرعية.

لقد فشلت أجهزة ومؤسسات الدولة المستقلة في توليد التراكم الضروري والمناسب لبناء وتشيد الأسس والأبنية اللازمة للتنمية وللمقابلة إشباع التطلعات الشعبية، الأمر الذي جعل خطط التنمية والتحديث تتعثر باستمرار وتتغير مع تغير النظم والقيادات، وبينما كان يحدث هذا بالنسبة للمصالح الشعبية المتنوعة كانت مصالح ومغانم ومراكز الفئات الحاكمة تتزايد وتترسخ، الأمر الذي جعل عملية التراكم الرأسمالي تتحول إلى عملية تراكم للإثراء الشخصي لقطاعات من الفئات الحاكمة، وأمام هذا الوضع بدأ النزاع والشقاق ينتشر في داخل هذه الفئات الاجتماعية المدنية، ولما كانت المشاركة الشعبية الموروثة من أيام الحركة الوطنية قد تناقصت ثم انعدمت مهما كانت أشكال ومستويات التنظيمات السياسية الشعبية والحزبية.^(٤١) ولما كانت جميع مؤسسات وأبنية السلطة والنظم محكومة من خلال سلطة الدولة والقيادات الحكومية كان الوضع الطبيعي هو أن

يصبح العنف والقمع والردع أساس بقاء أصحاب السلطة وأن يصبح العنف والانقلاب هو أسلوب تغيير أصحاب السلطة. وهكذا بدأت الدائرة تدور بلا نهاية أو توقف ودخلت المؤسسة العسكرية في الصراع وتم استخدام أسلوب الانقلاب الذي ما يلبث أن يليه انقلاب أو محاولة انقلابية أخرى.

(د) إن الفئات والطبقات الاجتماعية _ مدنية وعسكرية _ قد استخدمت أجهزة ومؤسسات النظام والحكم لفرض سيطرتها وتأكيد استيلائها وتسييرها لموارد المجتمع، وكل هذه الفئات تستمد قوتها الاجتماعية من علاقاتها بالجهاز السياسي والإداري سواء أكانت تشغل مناصب أم كانت تعمل في ميدان الاقتصاد والخدمات والتصدير والاستيراد.. الخ، إنهم جميعاً كانوا على علاقة بدور ويعمل الجهاز الإداري البيروقراطي الحكومي، ومن ناحية أخرى فقد استخدمت الحكومات الأفريقية سياسة التوسع في الوظائف والخدمات مدخلاً وطريقاً إلى استيعاب قطاعات جديدة من النخبة ومن الأجيال المتتالية، ولكن ما حدث هو أن طاقة الاستيعاب الحكومي كانت لها حدود اقتصادية واجتماعية متنوعة، فالإقتصاد محكوم بعلاقاته الخارجية على الرغم من خطط التنمية والمجتمع منقسم إلى شعوب وديانات وثقافات متنوعة، والحكومات الأفريقية تنظر إلى هذا التنوع نظرة تمييزية يترتب عليها منح الغنائم للأقارب ولصلات الدم والنسب والتأييد السياسي، ولذلك فإن الانقلابات والتغييرات في نظم الحكم كانت تفلح فقط في تغيير المسؤوليات القيادية العليا والمناصب الاستراتيجية في مؤسسات الحكم والإدارة، ولكن الذي بقي باستمرار وحافظ على وجوده ودوره هم الموظفون والإداريون والبيروقراطيون والتكنوقراطيون

الذين يديرون جهاز السلطة ومؤسساته لحساب كل قيادة وكل انقلاب وكل ثورة مهما تعددت المسميات والشعارات.

(هـ) أن أدوات الدولة سواء كان المهيمن عليها الحزب المسيطر أو العصابة العسكرية تجسدت ملامحها الرئيسية في أفريقيا بعد الاستقلال في المركزية والطابع الفردي للسلطة وظلت حالة الاستعلاء والتفوق للسلطة التنفيذية الممثلة عادة من جانب بيروقراطية الدولة وأحياناً عن طريق التنظيم الحزبي، وبالتالي فإن تفوق السلطة التنفيذية علي كل من السلطة التشريعية والقضائية أصبح أمراً ثابتاً ومقررأً، وكيفما تكون الرئاسة مدنية أو عسكرية فإنها تأتي لتعكس الانتقال الرسمي للسلطة من المشرع إلى الرئيس التنفيذي بغض النظر عن حقيقة الممثلين الحقيقيين للوضع والواقع الدستوري حيث أن موازين القوى تظل تعمل لصالح تكريس الحكم الشخصي والمصالح المحدودة للنخبة الحاكمة ودون الاهتمام حتى بالحاجات الضرورية / الأساسية للأغلبية العظمى من المواطنين.

(و) لقد ورث القادة الوطنيون الأفريقيون هياكل العنف من السلطات الاستعمارية البائدة ووظفت هذا لتدعيم سيطرتها وسلطتها، وأصبحت علاقات الدولة _ المواطن تتسم بالصراع وبالضعف علي الرغم من وجود قدر ما من الاستقرار النسبي سياسياً واقتصادياً مقارنة بالحقبـة الاستعمارية، وعلي سبيل المثال فإن إساءة حقوق الإنسان أثناء الحكم العسكري أو الاوتوقراطي في أجزاء عديدة من القارة يمكن إدراكها علي ضوء انه عندما تولي قادة أفريقيا السلطة في دولة ما لم يكن هناك إجراءات مؤسسية أو وطنية من أجل ممارسة السلطة السياسية كما لم يكن

هناك قواعد للشرعية يتم من خلالها تعيين وتحديد حدود عمل الدولة ولوضع حقوق الإنسان وخصوصاً حقوق الفرد في النظام السياسي، ومن ثم فإن الافتقاد إلى قيم ثابتة ومقبولة في علاقات الدولة / المجتمع تركت فراغاً وغموضاً في العلاقات بين الطرفين وبالفعل فإن كثيراً من قادة ما بعد الاستقلال اعتادوا علي الدكتاتورية الاستعمارية وروجوا لها باعتبارها الديمقراطية كما أن التأسيس لمعارضة سياسية إنما جاء بمبادرة وبمباركة من داخل الحكومة وهو أمر ينطوي علي قدر كبير من الغرابة ليس فقط لكونه تعسفاً وقمعاً وإنما أيضاً لأن التسلط المزمّن لرؤساء الأحزاب / الواحدة أصبح القاعدة وليس الاستثناء، وفي كثير من الدول الأفريقية فإن المواطنين لم يتوافقوا مع الدولة التابعين لها ولذلك تنامت وتعاضمت رغبتهم وارادتهم في تحديها واقترن ذلك أحياناً باستخدام العنف - والذي وصل في بعض الأحيان إلى حد الحرب الأهلية - وبالتالي فإن نظام مثل تلك الدولة الذي لا يعمل من أجل إقرار الأمن والتنمية والرفاهية لمواطنيه ليس بالإمكان توقع شرعيته بل علي العكس يكون مثل هذا النظام أكثر هشاشة وانحطاطاً وأكثر ترهلاً واستنزافاً وكذلك أكثر انتهازية، وبناء علي ذلك فإن الدولة الأفريقية فيما بعد الاستعمار ليس بالإمكان التعامل معها علي أساس نظرية العقد الاجتماعي مع مواطنيها وإنما هي بالأحرى أكثر تفهماً واستعجالاً في تقويض حقوق مواطنيها وتحت زعم ضرورة الحفاظ علي الأمن والوحدة الوطنية والذي يعد من وجهة نظرهم أن له الأولوية علي الاهتمام بحقوق الشعب. (٤٢)

المبحث الثالث

عمليات تحول الدولة في أفريقيا

لقد تبنت الدول الأفريقية العديد من المؤسسات والسياسات المختلفة في إطار عمليات التحول للدولة في أفريقيا، وكذلك انتهجت أيديولوجيات متنوعة في محاولة لإحداث تغييرات هيكلية أساسية داخل مجتمعاتها وخصوصاً في المجالات التنموية وفي مجالات بناء الدولة وبناء الدولة - الأمة وذلك كمؤهلات أساسية لإتمام عمليات التحول في عهد الاستقلال وما بعده، وسيتم تناول بعض عناصر تلك العمليات كالتالي:

المطلب الأول: إضفاء الطابع المؤسسي علي الدولة في أفريقيا

دأبت معظم الدول الأفريقية منذ الاستقلال علي الاهتمام بمختلف المؤسسات السياسية الوطنية الجديدة، بمعنى إضفاء الطابع الوطني علي المؤسسات الموروثة عن الاستعمار أو استبدال بعضها أو إضافة ما تراه مناسباً إستجابة للمتطلبات الجديدة لتلك الدول حديثة الاستقلال علي اعتبار أن مثل تلك المؤسسات هي التي يتكون منها أساساً جهاز الدولة الذي يتولى إدارة وتسيير شئون البلاد ومن مظاهر ذلك ما يلي:

أولاً. التغيير الدستوري:

يلاحظ علي دساتير الدول الأفريقية في مرحلة ما بعد الاستقلال أنها كانت وبدرجة كبيرة نماذج مماثلة لدساتير القوى الإمبريالية وبالتالي لم تكن مصممة وفقاً للمتطلبات الخاصة والضرورية للدول الأفريقية وربما كان ذلك انعكاساً للافتراضات التالية: (٤٣)

الأول : أن الوطنيين الأفريقيين وقد استقلت دولهم فإنهم لا يقبلوا بدساتير أقل في تصميمها وصياغتها عن دساتير حكامهم الإمبرياليين السابقين.

الثاني: أن الحكام الإمبرياليين لم يقوموا بالإعداد المناسب لمستعمراتهم وتهيئتها لفترة ما بعد الاستقلال ومن ثم فإنهم لم يشغلوا أنفسهم بوضع دساتير متميزة لمستعمراتهم تختلف عن دساتير الدول المتروبولية وتتناسب مع الواقع الذي يعيشونه والظروف التي يمرون بها.

الثالث: أن المستعمرات كانت تعد أقاليم تابعة للدول المستعمرة فيما وراء البحار ومن ثم فإن دساتير تلك الدول مثلت امتداداً طبعياً لها في تلك المستعمرات، ويبدو أن التأثيرات الاستعمارية الموروثة و التسرع المرحلي في إحداث التحول جعل هناك ضرورة لوضع دساتير خاصة بها، وإذا كانت تلك الدساتير الأفريقية في دول ما بعد الاستقلال قد جاءت غالباً علي النمط الاستعماري السابق، فإن التغييرات الدستورية اللاحقة جاءت متناسبة إلى حد ما مع التغييرات الجديدة والعديدة التي طرأت علي نظم الحكم ومجمل الأوضاع السياسية الداخلية وذلك لكي تتواءم مع التغييرات العديدة في أعقاب الاستقلال من ناحية، وفي نظم الحكم والأوضاع السياسية الداخلية التي شهدتها الدول الأفريقية من ناحية أخرى، وذلك لكي تتم الموائمة والتكيف مع المستجدات علي الساحة السياسية في تلك الدول، وكذلك لإقرار مشروعية دستورية الوضع السياسي والنظام الحاكم القائم، وأكثر من هذا أن تتم هذه التغييرات لكي تتواءم مع الشخصيات والقيادات القائمة علي رأس هذه الأنظمة بحكم الأمر الواقع، وبمعنى أنها عملية لإضفاء المشروعية الدستورية علي

الحكومة الفعلية في البلاد ، وتبعاً لذلك ففي بعض الأحيان كان يتم تغيير أوضاع الدولة ومؤسساتها سواء من دولة فيدرالية إلى دولة موحدة، ومن نظام برلماني إلى نظام رئاسي أو من دولة ذات طابع رأسمالي إلى دولة ذات طابع اشتراكي، أو من دولة ذات تعددية سياسية إلى دولة ذات حزب واحد أو العكس. (٤٤)

إذن فإلي أي مدى يماثل أو يختلف الدستور في الحياة السياسية الأفريقية عن غيره من النظم الدستورية ؟ إن التحليل الدستوري الواسع للتطورات السياسية الأفريقية يتضمن مدى ما وصلت إليه مراحل النمو والمصادر البشرية والتنمية التكنولوجية والوضع الاقتصادي والاجتماعي والوضع السياسي والثقافي والتاريخي، كما يتضمن مدى المناورات وربما النماذج غير الشرعية التي تعبر عن فشل الممارسة الدستورية في أفريقيا مقارنة بما هو وارد في دساتير دولة ما بعد الاستقلال، وبناء علي ما تقدم فإن من الأمور التي يجب أن تميز بين الدساتير المشروعة (الدستورية) وما عداها في أفريقيا يمكن ان يتمثل في مدى اقترابها أو ابتعادها عن تلك الهياكل الدستورية الموروثة عن الاستعمار أو المماثلة لها في حقبة ما بعد الاستعمار والتي هي إما منبوذة أو خطيرة، فالعمليات المرتبطة بالبناء و بالهياكل الدستورية في أفريقيا لا تعكس المقترحات والافتراضات والممارسات الدستورية الغربية كما هي واردة في دساتير تلك الدول الغربية، ومن ثم فان عمليات البناء والممارسة الدستورية الحقيقية لم تدخل حيز العمل في أفريقيا لأنها تعد أنماطاً مختلفة وغير مألوفة. (٤٥) ولا ترتبط بالتالي بالحياة السياسية والدستورية في الدول الأفريقية كما ينبغي أن تكون.

ثانياً. تعديل أو تغيير نظم الحكم:

لقد ترواحت الدول الأفريقية بعد الاستقلال بين الأخذ إما بالنظام البرلماني القائم علي الفصل المرن والمساواة والتعاون بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، أو النظام الرئاسي المعتمد علي الفصل التام أو الجامد بين السلطتين المذكورتين، أو نظام حكومة الجمعية الذي تتداخل أو تختلط فيه السلطتان علي أن تكون الهيمنة للسلطة التشريعية (٤٦) أو خليط بين نظامين أو أكثر مما ذكر حسبما يتراءى للقائمين علي هذا الأمر.

لقد كان جميع الزعماء الوطنيين يلمسون الحاجة إلى إقامة حكومة قوية لتحقيق أهداف التمدين والتطور ولتحقيق ثورة اجتماعية واقتصادية وسياسية، وتطلب وجود مثل تلك الحكومة إمكانية الوصول إلى الخيار المناسب مبدئياً، ثم أن تعمل تلك الحكومة بهمة من أجل تعويد الشعب علي المرحلة الجديدة والبدء في برنامج إجباري للتنمية، كما نظر إلى ذلك الأمر باعتباره يتطلب ضرورة وجود حكومة قوية للقيام بمهام التوجيه والإشراف علي استخدام رأس المال والمساعدات الأجنبية بما يتمشى مع الأهداف الوطنية. (٤٧)

وكان أداء وحصيلة الأنظمة السياسية في أفريقيا متنوعة فيما بينها وهي تختلف باختلاف توجهاتها وباختلاف الفترات الزمنية، فبينما توجد بعض الأنظمة التي أعقبت الاستقلال مباشرة ذات طابع فردي مثل: نظام نكروما في غانا، وجوليوس نيريري في تنزانيا، وجومو كينيا في كينيا، إلا أنها قد اهتمت ببعض المكاسب في مجال تنمية ورفاهية الشعب وتبنت ما يمكن وصفه بالحكم الرشيد أو العادل، فعلي الجانب الآخر تواجدت أنظمة فاسدة مثل نظام موبوتو سيسي سيكو

في زائير (الكونغو الديمقراطية حالياً) وصوميل دو في ليبيريا، وسياد بيري في الصومال، ومانجستو هيلاماريام في إثيوبيا الذين ابتكروا لأنفسهم إقطاعاً سياسياً في دولهم التي اعتبروها ملكاً شخصياً لهم ونهبوا الثروات الوطنية وأسهموا في انحطاط وانهيار المستويات المعيشية لشعوبهم ودمروا الأبنية الاجتماعية في تلك الدول، ومن ثم فلقد ابتليت أفريقيا بجميع أنظمة الحكم الرئاسية والبرلمانية والمختلطة والملكية والعسكرية، وأنظمة التعددية الحزبية وأنظمة الحزب الواحد والأنظمة اللاحزبية، ولم يترتب علي الرغم من ذلك تقدم ملموس في مجال السياسة والحكم في أفريقيا ويبدو أن هناك عاملين أتاحا الفرصة أمام استئراء وتفشي سوء الحكم والإدارة في أفريقيا وهما: (٤٨)

١ - التأثير (الميراث) الاستعماري: فهناك ارتباط بين غياب الحكم الرشيد في العصر الاستعماري وبين فترة ما بعد الاستعمار حيث تناقضت الأبنية (المؤسسات) السياسية والاقتصادية والتوجهات الاجتماعية التي ترسخت في عهد الاستعمار مع قيم الحكم الرشيد والديمقراطية.

٢ - ديكتاتورية التنمية (فترة ما بعد الاستعمار): حيث دأب الحكام السياسيون في فترة ما بعد الاستعمار علي تأكيد تبنيهم لبرامج تنمية في مجالات الاندماج الوطني والتنمية الاقتصادية ودعم الاستقرار، وهكذا كانت العقيدة المسيطرة شكلاً من أشكال ديكتاتورية التنمية بدلاً من أن تكون ديمقراطية التنمية، فضلاً عن أنه وبسبب عدم استقلالية الدولة ونذرة مصادر وموارد ثروة الطبقة الحاكمة وافتقارها للسيطرة علي إقليم الدولة فقد أصبح نظام الحكم مكرساً للتفسخ والتدهور بشكل خطير، وباتت الدولة علي اثر ذلك ميداناً للتنافس والصراعات الدامية من أجل مكاسب الثروة

ومغانم السلطة، وكانت النتيجة النهائية شيوع العزل السياسي وانعدام المشاركة وازدياد حدة الفقر والتخلف، ولتكون مثل هذه المثالب بمثابة السمات الأساسية للحكم السياسي في أفريقيا وبالتالي أخذت رشادة الحكم في التراجع.

لقد شهد النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين صخب سياسي واسع انتشر عبر أرجاء القارة، والذي يمكن تلخيصه في بعض التوجهات الرئيسية ومنها: التحول عن نظم الحزب الواحد، وعن النظم العسكرية، كنتيجة للاحتجاجات السياسية، والمطالبة بنشر الإصلاحات الليبرالية، والسعي لإقامة انتخابات تنافسية وهو ما ترتب عليه - غالباً - إقامة أنماط جديدة للحكم، وعلي حين أن عملية الانتشار تلك لم تكن علي وتيرة واحدة، وبنفس المدى في كل مكان، فهذه الحركات والإجراءات المؤسسية كانت واضحة بدرجة ما في معظم الدول الأفريقية، ومن ثم فقد بلغت التحولات إلى أبعد مدى تصله في الحياة السياسية الأفريقية، بالمقارنة في الفترة الممتدة منذ الاستقلال وحتى هذا التاريخ، والتي تصل إلى نحو ثلاثين عاماً، وقد كان من المعتقد أن تتم عملية التحول لأنظمة الحكم في أفريقيا خلال السنوات الخمس منذ بداية عام ١٩٩٠م وحتى نهاية عام ١٩٩٤م، إلا أن عملية التحول تلك واجهتها العديد من القيود والمعوقات، ومنها: (٤٩)

أ - محدودية الدوافع الإصلاحية من جانب النظم الحاكمة؛

إن الوقائع السياسية الرئيسية الحادثة والمتلاحقة في مجال التحول لأنظمة الحكم في أفريقيا، وإن قامت علي أساس الاحتجاجات السياسية المتتالية والتي

بلغت أوجها في عام ١٩٩١، وتلي ذلك الأخذ ببعض الإصلاحات الليبرالية منذ عام ١٩٩٢ وظهرت نتيجة ذلك في تعاظم الأنشطة الانتخابية خلال عام ١٩٩٣م، وكذلك تزايد المؤشرات عن الأخذ بالديمقراطية في عام ١٩٩٤م، فإن تتابع الأحداث المرتبطة بتلك التحولات برهنت بشدة علي اتسام هذه العملية بالتسرع والتعجل، بمعنى أن تزايد الاحتجاجات الجماهيرية وان كانت قد أسهمت بشكل مباشر في التأثير علي قرارات النخبة الحاكمة للأخذ بالإصلاح السياسي، إلا أن التوسع في ميادين الإصلاح ربما لم تحز القدر المناسب من التأثير المطلوب وحتى علي مستوى الإصلاح السياسي فقد كانت التحولات الديمقراطية وممارسات النظم الحاكمة بشأنها شكلية أكثر من كونها جوهرية، وكانت بمثابة عملية سياسية طارئة أكثر من كونها عملية سياسية مستمرة وثابتة.

ب- تعجل تطبيق التحولات :

لقد حدثت التحولات من جانب النظم الحاكمة الأفريقية بسرعة وبتعجل، ففي اقل من أربعة سنوات منذ بداية حركات الاحتجاجات السياسية في عام ١٩٩٠م، والتسابق محموم في الأخذ بمظاهر التحولات ومنها التحول الديمقراطي وما يرتبط به من تغييرات دستورية وإجراء انتخابات تنافسية وغيرها، بحيث أنه بحلول عام ١٩٩٣م كانت أكثر من ٣٥ دولة أفريقية جنوب الصحراء قد أعلنت عن إجراء العديد من التغييرات الرامية للتحول الديمقراطي وما يتضمنه من تعددية سياسية وحزبية واحترام حقوق الإنسان والحريات بالإضافة إلى زعم تلك الدول بالتحول نحو اقتصاديات السوق في إطار ما يعرف ببرامج التكيف الهيكلي، وبحلول ديسمبر ١٩٩٤م أعلنت تلك الدول عن إتمامها لعملية تغيير نظم حكمها، وبحيث بلغ متوسط الفترة الزمنية بين بداية التحول والوصول إلى

مناصب الحكومات الجديدة حوالي ٣٥ شهراً (وبلغت في ساحل العاج ٩ شهور فقط) وبالمقارنة مع التجارب المعاصرة ومنها تجربة بولندا في أوروبا والبرازيل في أمريكا اللاتينية فإن إضفاء الطابع الديمقراطي أخذ في التطور التدريجي في مثل تلك الدول وعلى فترات لا تقل عن عقد من الزمان، ومن ثم فإن تحولات نظم الحكم الأفريقية بدت محمومة ومتسارعة في الوقت الذي اقترنت عملية إضفاء الطابع الديمقراطي بعملية بإضفاء الطابع المؤسسي وبهدف الإصلاح وإقامة حكومات شعبية منتخبة وهي في مجملها تتم في أوقات وجيزة لا تتناسب مع عظم الإجراءات ومتطلبات عمليات التحول والمؤسسات المراد تأسيسها و ترسيخها في تلك الدول الأفريقية وهو الأمر الذي شوه وفرغ عمليات التحول تلك من جوهرها وبدرجة باتت معها لتكون أقرب إلى التجميل والدعاية من أجل المعونة منها إلى الإصلاح الحقيقي والتنمية.

جـ- التحول المختل (غير المتوازن)؛

يلاحظ أن توجهات وعمليات التحول لأنظمة الحكم في أفريقيا لم تكن " خطية Liner " كما أن المؤسسات المسئولة عن إحداث التحول كانت تعاني من الاختلال أو عدم التوازن، ربما نتيجة لغلبة الطابع الشكلي والمتسرع لعملية التحول تلك بالإضافة إلى ضعف تلك المؤسسات، وكذلك تدهور الحريات المدنية حتى بعد عام ١٩٩٢م، والذي أدى في مجمله إلى الإعاقة الحقيقية للبرالية السياسية، وهذا الأمر لا يعكس فقط إعادة الانغلاق لبعض النظم الحاكمة السياسية في أفريقيا خصوصاً بعد أن تعهدت بالانفتاح، ولكن يعكس أيضاً العديد من الانتكاسات لحقوق الإنسان في دول مثل: الصومال ورواندا وبوروندي وغيرها، كما أن موجة التحول تلك التي اجتاحت نظم الحكم في أفريقيا، والتي بلغت ذروتها خلال عام ١٩٩٣م، والتي

ركزت علي المظاهر السياسية الشكلية وفي ظل اختلال واضح في التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لم ينجم عنها سوى الظهور لديمقراطيات هشة Fragile. ، ولعل ما سبق يمكن أن يفسر ولو نسبياً التغييرات المتكررة والمتلاحقة لنظم الحكم في أفريقيا والتي من دلالاتها ما يلي: (٥٠)

١ - أن تغييرات الحكم وحالة عدم الاستقرار السياسي في أفريقيا، إنما هي دلالة علي التدهور السياسي فالحركات الوطنية في ظل الحكم الاستعماري لم تضع تصورات للأسس التي يمكن ان تقوم عليها دول أفريقيا بعد الاستقلال، أو أن أنظمة الحكم في فترة ما بعد الاستقلال أخذت في التجميد أو الإلغاء لعملية التكامل الرأسي بما في ذلك الإجراءات و العمليات الدستورية والسياسية والمؤسسية الجنينية، كما أن الدول الأفريقية لم تتحرك بفاعلية في مجال التعامل الإيجابي مع عمليات بناء الأمة وهو ما ترتب عليه الإخفاق في عملية الاندماج الأفقي وما يعنيه ذلك من تعاظم أزمات الشرعية والهوية والمشاركة والتوزيع ومشكلات الاندماج الوطني بشكل عام.

٢ - أن تغييرات الحكم وحالة عدم الاستقرار السياسي في أفريقيا تعكس ولمدى بعيد التعثر وعدم القدرة علي عملية إنهاء الاستعمار بشكل تام والتي كانت مطلباً أساسياً سابقاً من أجل بناء دولة ما بعد الاستقلال، وقد ظلت عملية الاستبدال لأنظمة الحكم الاستعمارية والتعديل أو التخلص من دساتيرها ومؤسساتها والتعامل مع مشكلة التنمية السياسية يتم باعتبارها مسألة تتطلب عقوداً من الزمن وليس سنوات للسيطرة عليها، ومن ثم فإن عدم استقرار أنظمة الحكم والتغييرات المتلاحقة عليها في أفريقيا ما بعد الاستعمار ناتجة عن قيود أوتقويض الهياكل الدستورية والمؤسسية الموروثة عن الاستعمار.

ثالثاً. البناء المؤسسي :

إن التأسيس للنظم السياسية للدول الأفريقية، اقترن بشكل أساسي بإقامة المؤسسات سواء كانت تلك المؤسسات حكومية (رسمية) ، أو كانت تلك المؤسسات غير حكومية (غير رسمية) ، والتي يتوقف أدائها لوظائفها و لواجباتها علي مدى الدينامية والفعالية التي يمكن أن يتسم بها كل نظام سياسي ، ويمكن توضيح ذلك كالتالي :-

أ - بالنسبة للمؤسسات الحكومية (الرسمية) :

يلاحظ أن جميع الدول الأفريقية علي اختلاف نظم حكمها وأنظمتها السياسية حرصت علي إقامة مثل تلك المؤسسات الحكومية (الرسمية) والتي تشمل السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية والحكم المحلي وان تفاوتت فيما بينها في مدي الفصل بين تلك السلطات وفي مدي العلاقات و التعاون فيما بينها وإذا كانت هناك دولاً أفريقية كثيرة قد دأبت علي تفضيل وتكريس علوية السلطة التنفيذية علي ما عداها من السلطات ويبدو ذلك من خلال محاولات تعظيم سلطاتها ومكانتها في مقابل تهميش السلطات الأخرى فإن هذا يعد أحد نقاط الضعف الرئيسية للبناء المؤسسي الحكومي الذي ترتب عليه وفي أغلب الأحيان تراجع أو انعدام فعالية وظائفه بصفة عامة.

(ب) بالنسبة للمؤسسات غير الحكومية (غير الرسمية) :

ربما يأتي اهتمام الدول الأفريقية وأنظمتها المختلفة بالمؤسسات غير الحكومية (غير الرسمية) في المرتبة الأدنى بعد المؤسسات الحكومية ، وهو أمر طبيعي ويتناسب مع درجة تطور تلك الدول وأنظمتها في مرحلة ما بعد

الاستقلال، خصوصاً و أن تلك المؤسسات غير الحكومية، والتي تشمل الأحزاب السياسية، وجماعات المصالح (الضغط)، تعاملت معها تلك الدول والأنظمة بحرص وبتحفظ، تحت دعاوى كثيرة، تتعلق بالحيلولة دون تفتت الدولة، أو تفتت الولاء والانتماء، خصوصاً إذا ما اتخذت مثل هذه المؤسسات جانب الخصم، أو التعارض، مع المؤسسات الرسمية (الحكومية)، أما إذا قبلت هذه المؤسسات مبدأ الترويض من جانب المؤسسات الرسمية فإنه يصيبها ما يصيبها من رضا الحاكم وأجهزته، فعلي المستوى الحزبي فإن الشكل الذي كان أكثر شيوعاً في الدول الأفريقية بعد الاستقلال هو الحزب الواحد، وخلال بضعة سنوات من الاستقلال لم يكن هناك سوى استثنائين لدولتين أبقتا علي نظام حزبي تنافسي وهما جامبيا وبتسوانا، وفي نهاية السبعينيات وأوائل الثمانينيات كانت هناك مؤشرات لانبعاث التعددية الحزبية والتخفيف من السيطرة المركزية لبعض النظم الحزبية الواحدة السائدة، وقد قدمت نيجيريا نموذجاً لإعادة الانبعاث تلك في الانتخابات الأولى التالية لسنوات الحكم العسكري، وفي السنغال فقد كان مسموحاً لأحزاب المعارضة بالمشاركة في انتخابات عام ١٩٨٣ وفازت ببعض المقاعد وكان هناك قدر من المرونة في كل من ملاوي وكينيا وتنزانيا في ظل العديد من المزاعم " بالحرية والنزاهة " free & fair " في الانتخابات ويلاحظ أنه حتى أوائل الثمانينيات فإنه لم يحدث في دولة أفريقية أن أذعنت الحكومة المركزية وتخلت عن سلطتها لخسارتها في الإقتراعات باستثناء سيراليون في عام ١٩٦٧ عندما أتت الانتخابات بالمعارضة لتحل محل الحكومة وذلك بتدخل من جانب الجيش. (٥١)

إذن ففي فترة ما بعد الاستقلال فإن الوطنيين الذين اعتلوا سلطة الدولة حرصوا ودأبوا علي تلقين شعوبهم بأن تأسيس و سياسات الحزب الواحد هي المناسبة وهي التي في صالحهم وروجوا لذلك كالتالي: (٥٢)

١ - أن الحزب الواحد يرتقي بالوحدة الوطنية.

٢ - أن جهود الشعب يجب أن تكون موجهة نحو بناء الأمة ولا يجب تشتيتها بالخوض في سياسات عقيمة.

٣ - إن إجماع الآراء الشعبي يعنى أن الحكومة يجب أن تهتم أساساً بربط وظائفها بالتنمية في الوقت الذي يمكن أن تكون السياسات الحزبية غير ضرورية .

٤ - أنه مهما كانت الاختلافات فما يبدو ممكناً هو أن الدولة تكون مستقرة في ظل نظام حكم ذي حزب واحد ومن خلاله يتم تطبيق الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان.

لقد كانت تلك الأحزاب الواحدة تستحوذ علي السلطة خلال فترة ما بعد الاستقلال وليس بالإمكان الزعم بأنها كانت أكثر توحيداً من الأحزاب المتعددة التي كانت موجودة في بعض الدول منذ الاستقلال والعكس هو الصحيح فبتسوانا دولة متعددة حزبياً منذ الاستقلال واستطاعت القيام بخطوات إيجابية تجاه توحيد البلاد وبالمقارنة فالصومال والتي كانت تتمتع بدرجة كبيرة من التجانس إلا أنها انحدرت إلى دوامة الحرب الأهلية بعد عشرين عاماً من إساءة ممارسة الحكم في ظل محمد سياد بري دكتاتور الحزب الواحد وأيضاً في مجال التنمية الاقتصادية فان نير يري في تنزانيا وصل بمستوي التنمية فيها إلى حالة متردية للغاية وربما يرجع

السبب الجوهري إلى نظام الحزب الواحد وما يرتبط بذلك من أيديولوجية تدعيم حكم الدولة الاستبدادي الصارم، وبرز موبوتو في زائير "سابقاً" لفترة طويلة مستخدماً القمع كسياسة متداولة و مصممة للحفاظ علي استمراريته في السلطة، وكان باندا في ملاوي ذو حظ أوفر في إقامة دولة بوليسية في أفريقيا والقائمة تطول وسجلات أنظمة الحزب الواحد ليست أفضل أينما تتوجه داخل أفريقيا.

ومما تقدم فإن من أهم الخصائص التي يتصف بها البناء المؤسسي للدولة الأفريقية فيما بعد الاستقلال ما يلي: (٥٣)

١ - تعاضم واتساع نفوذ السلطة التنفيذية المركزية (ذات الطابع المركزي) والتي تدور في عموميتها حول شخص الزعيم أو الرئيس أو القائد العسكري الذي يحاول السيطرة علي الدولة والإبقاء علي تلك السيطرة وتعظيمها.

٢ - ان مركز الزعيم أو الرئيس أو القائد يكاد يكون مقنناً ومعتدلاً علي صفات تحليلية ومعقدة للموارث الكاريزمية وللمواثيق وللدساتير والقوانين والمعتقدات والتقاليد والأعراف في محاولة لإضفاء الطابع الروتيني والاحتكاري علي السلطة.

٣ - أن الحاكم الفرد يكون مدعوماً في مختلف الأحوال عن طريق ذوى المناصب والموظفين والكوادر الإدارية الذين يتدرجون في مناصبهم ويظلون فيها لفترات طويلة ما دام الولاء السياسي للحاكم قائماً.

٤ - ويترتب علي وجود مثل هؤلاء المؤيدين والمشجعين للحاكم الفرد والمسيطر علي الأدوات والأجهزة الإدارية والمؤسسات التي يتكون منها الهيكل المؤسسي للدولة، ان تتكون طبقة حاكمة سياسية يحرص جميع المنتسبين إليها والمتفعين منها علي الإبقاء عليها وتكريسها.

وهكذا يلاحظ أنه علي الرغم من محاولة الدولة الأفريقية المستقلة إضفاء هذا الطابع المؤسسي علي جميع أجهزتها ومؤسساتها الحكومية وغير الحكومية ، إلا انه يظل الملمح المؤسسي البارز لتلك الدول هو سيادة ما يوصف " بالحمى الزعامية " أو " بالظاهرة الرئاسية " وتنطوي هذه الظاهرة أساساً علي تركيز سلطة الدولة في قبضة الرئيس وربما أيضاً النخبة القريبة والمواليه له ووفقا لهذه الصفة فانه يكون المسئول الممثل للشعب في كل المسائل المتعلقة بالبلاد - حتى وان لم يستمد سلطته من خلال انتخابات شعبية وانما من خلال انتزاع سلطة الدولة - وقد تطورت ظاهرة هيمنة الرئيس علي دول القارة منذ الاستقلال حيث كان زعيم الحركة الوطنية ينصب نفسه رئيساً بعد رفع العلم الوطني الجديد ويمحو أي فوارق - ربما وجدت أثناء فترة الانتقال إلى الاستقلال - بين المصادر السياسية المختلفة للسلطة (مثل تلك التي بين الرئيس ورئيس الوزراء - وأحياناً يصبح الرئيس في واقع الأمر " ملكاً " لبضعة سنوات وربما لأجل غير محدود أو ان يكون رئيساً مدى الحياة بمبادرة وبمباركة حاشيته، وإذا أخفق الزعيم في التحول إلى رئيس خلال فترة قصيرة من نيل الاستقلال فان هذا التأخير يرجع في العادة إلى مشكلة من نوع خاص مثلما حدث في زيمبابوي حيث وجد حزبان أو زعيمان يتنافسان علي السلطة وفي ظل هذا الوضع تصبح المشكلة الرئيسية في السياسة الوطنية هي تذليل العقبات التي تحول دون ذلك، وفي بعض الحالات قد يكون الرئيس الجديد هو القائد العسكري الذي يحاول إقامة قاعدة أو شرعية سياسية لنظامه الاستبدادي كما في حالة صمويل دو في ليبيريا (٥٤) وفي حالة مانجستو هिला ماريم في إثيوبيا وغيرها.

ان أنماط الأنظمة التي نشأت في أفريقيا بعد الاستقلال قد زادت بشكل عام من حدة شكل الدولة التدخلية عبر السنين ورغم النمط الموحد من هيمنة الرئاسة فقد اختلفت الأنظمة كثيراً من بلد لآخر وشكلت هذه الاختلافات فوارق رئيسية بين البلدان _ مثل ما حدث في تنزانيا وكينيا وفي ساحل العاج ونيجيريا - وتشمل طائفة الأشكال التي وجدت نظام التعددية الحزبية البرلمانية (كما في زيمبابوي والسنغال) والبرلمانية المقيدة والنظام الاستبدادي، والنظام العسكري ونظام الحزب الواحد والسلطة المتفسخة وغيرها وإذا كانت هناك دول ذات أبنية قابلة للتحديد فقد كان هناك دول يصعب تحديد أية أبنية قائمة فيها ومنها حالات أوغندا وتشاد وليبيا وكذلك غانا (في أواخر القرن العشرين) وهي حالات يصعب إدخالها في هذا القسم أو ذاك مع غيرها من دول القارة الأخرى أنها أمثلة للدول غير المندمجة مؤسسياً علي الأقل. (٥٥)

ان الملاحظ أيضاً في إطار عملية إضفاء الطابع المؤسسي علي الدولة الأفريقية أن قادة القارة قد حرصوا في اختيارهم لتلك الأنماط من النظم أن تؤمن السيطرة الفعالة لهم علي الحياة السياسية وكذلك المجتمع بوجه عام، وفي هذا الصدد فقد كان نظام الحكم العسكري أو الحزب الواحد هما الخياران الأكثر جاذبية بالنسبة لهم ويمكن توضيح ذلك وفقاً لما يلي: (٥٦)

ففي حالة النظام العسكري يتسلح السياسيون بأكثر النظم فعالية في مجال الاستبداد بمعنى فعاليتها كقوة غاشمة في القضاء المبرم علي أي مشاركة أو ممارسة ديمقراطية وقد اثبت النظام العسكري خلال السنين المنصرمة أنه الإجابة الناجعة لأولئك المتحرقون شوقاً لإطلاق العنان لسلطة الدولة الرسمية، وبالتالي فبصرف النظر عن عدم قدرة النظام العسكري علي إثارة حماس الشعب أو كبح

جماح الفساد فان نقطة ضعفه الأساسية تبقى متمثلة في عدم قدرته علي توفير الشرعية السياسية للحكم، ان الأنظمة العسكرية بالأساس أنظمة غير ديمقراطية وتتخاشى المشاركة الطوعية المستقلة وغير المقيدة ومن ثم فإنها تعقد المشكلات بدلاً من حلها.

أما نظام الحزب الواحد فهو يزود القادة بتنظيم ديمقراطي نسبياً قد يستخدم لحث وتشجيع الشعب علي العمل من أجل الأهداف المرغوبة كما يسمح بدرجة محدودة من مشاركة المواطنين العاديين في الشؤون العامة وهنا ينشئ التناقض بين رغبة الشعب في المشاركة الديمقراطية وبين القادة الذين يسعون إلى إحكام سيطرتهم علي السلطة، ويعبر الحزب الواحد عن الطبيعة المتناقضة للحياة السياسية، فبينما يشكل إطاراً لا يشعر معه بتهديد شديد من داخله خصوصاً وانه يكون في العادة علي الصورة التي يتغياها القادة، وليس المهم هنا ان يكون الحزب مؤسسة ديمقراطية وانما المهم ان يصمم - مؤسسياً وفلسفياً - لممارسة الحكم والسماح بالمشاركة الديمقراطية المحدودة، ومن ثم فان الحزب الواحد في الوقت الذي قد يعيد إنتاج الشرعية السياسية للحكم فانه يمارس أيضاً نوعاً من الضبط الصارم علي السياسة ومؤسسات الدولة بالصورة التي يريدها القادة السياسيون وخصوصاً عندما يصبح التنظيم بمثابة المؤسسة الأعلى فوق كل مؤسسات الدولة والمجتمع المدني باعتباره جزء منها وقد أثبت هذا الحزب قدرته علي التكيف مع الظروف الجديدة واستخدمه كثير من الساسة البارعين لتدعيم قبضتهم علي مؤسسات الدولة الأخرى مثل البرلمان وغيره من المؤسسات وكذلك الإدارة المدنية.

المطلب الثاني: إضفاء الطابع الوحدوي علي الدولة في أفريقيا

إن العامل الاثنى في السياسية الأفريقية غالباً ما يتم التغاضي عنه أو يكون الاهتمام به ثانوياً، علي الرغم من ان هذا العنصر ظل يمثل الأساس الذي تعتمد عليه مواجهات حقبة الحرب الباردة، وعلي أساسه استمرت الإنشقاقات و الصراعات داخل الدولة الواحدة طالما ان هناك توظيفاً سافراً لهذا العامل، ولذلك استمرت الاثنية لتكون عاملاً رئيساً في الحياة السياسية والاجتماعية الأفريقية منذ الاستقلال وأخذت مظاهر متعددة كمسألة إنسانية ومن أجل تحقيق تقرير المصير وكقوة مضادة للمركزية السياسية والتي أدت إلى الحكم الاستبدادي، وكمطلب ديمقراطي لها وكمطلب حكم ذاتي في إطار الدولة الواحدة إقراراً لمبادئ المشاركة في السلطة ولعملية التحول الديمقراطي وتحولت هذه المظاهر إلى ممارسات وضغوط إثنية من أجل إحداث تغييرات هيكلية في الدول سواء في صورة ترتيبات فيدرالية أو انفصالية. (٥٧)

لقد زعمت العديد من الدول الأفريقية أنها حريصة علي الحفاظ علي الوحدة والسلامة الإقليمية للدولة ومن ثم تبارت في استحداث السياسات والاستراتيجيات التي اعتقدت أنها كفيلة للقيام بذلك الأمر، وبعد أربعة عقود من الاستقلال فمن الصعوبة وصف أي دولة / أمة في أفريقيا كنموذج أو حالة تطبيقية في هذا الشأن فتجربة بناء الأمة في معظم دول القارة تقوضت وفي معظم الدول الأفريقية كان واضحاً أن من مساوئ الحكم والسيطرة الاستعمارية كانت تلك العقبات والسياسات التي وضعها ومارسها وحالت دون إحداث الاندماج الوطني ومنها سياسة " فرق تسد " Divide & Rule، والتي مضمونها

بث الفرقة بين أبناء الإقليم الواحد من خلال تمييز جماعة اثنيه علي غيرها من الجماعات وهو ما ترتب عليه شيوع وتعاضم الأحقاد والضغائن بين كل منها ، حتى انه بعد الاستقلال ظلت مثل هذه الصراعات قائمة وأصبحت أكثر مرارة وتسابقت تلك الجماعات بشكل محموم وشرس في الصراع من أجل الاستيلاء والاحتكار لكل من عنصري الثروة والسلطة (٥٨)

وكانت تلك الجماعات علي أنماط متعددة فمنها ما أراد الإبقاء علي الموروث الاستعماري الذي أتاح لهم السلطة واعتادوا عليها ، ومنها الجماعات الوطنية التي قادت النضال من أجل الاستقلال واستشعرت أنها أهل للسلطة دون غيرها ، وهناك الجماعات التي وان كانت لم تحظ بأي قدر من الثروة والسلطة في الحقبة الاستعمارية ولم تشارك في النضال ضد الاستعمار ولكنها تتطلع في ظل المستجدات التي أعقبت الاستقلال إلى أن تجد لنفسها مكانة في السلطة (٥٩) ونصيبا في الثروة.

لقد كانت الآمال منعقدة عقب استقلال الدول الأفريقية علي إقامة الدول القومية بها (الدولة / الأمة) ولكن مثل تلك الآمال سرعان ما تراجعت إلى أدنى حد لها وراحت بدلاً من السعي لبناء الأمة تنحصر في السعي لبناء الدولة علي الرغم من ان مشكلة بناء الأمة أو ما يعرف بمشكلة الاندماج الوطني أو ما يطلق عليه أحياناً أزمة الهوية من أعقد وأهم المشكلات التي تواجه الدول الأفريقية منذ استقلالها بل إنها باتت تشكل الظاهرة الأصيلة التي تنبثق عنها مشكلات دول القارة الأفريقية كظواهر فرعية لها ، وعليه فإنه بدون التوصل إلى إيجاد حلول لها يكون من الصعوبة بمكان أن يتحقق للكيان السياسي الأفريقي ذلك القدر من التماسك والانضباط والاستقرار الذي يمكنه من مواجهة كافة

المشكلات الأخرى، وتلك المشكلة علي درجة كبيرة من التعقيد فرغم الخفة السكانية النسبية لمعظم الدول الأفريقية (معظم الدول جنوب الصحراء) إلا أن بعضها يضم داخل حدوده ما يزيد علي مائة مجموعة إثنية، بل أن نصف عدد لغات العالم هي لغات أفريقية ولذلك فلا غرابة أن تصل هذه المشكلة إلى مرحلة الأزمة في العديد من تلك الدول. (٦٠)

إن واقع الحال في غالبية الدول الأفريقية منذ الاستقلال وحتى بداية التسعينيات يشير إلى عدم تمثيل زعاماتها لغالبية الشعب فهذه الزعامات لم تكن تخرج عن أحد نمطين : إما زعماء كانوا في الأصل قادة للحركة الوطنية التي قادت البلاد نحو الاستقلال ، و إما حكاماً عسكريين أتوا إلى السلطة بانقلاب عسكري ، بمعنى أن الدول الأفريقية ظلت متماسكة داخلياً نتيجة لوجود الزعامة التي قادت البلاد نحو الاستقلال أو نتيجة لوجود حكم عسكري، ومن هنا فإن الاندماج الذي تحققه الزعامة الأولى هو اندماج طائفي مؤقت طالما أن الشعب يقبل سلطاتها وإن كان يرفض منحها ولاؤه الكامل، في حين أن الاندماج الذي حققه الحكم العسكري هو اندماج وظيفي مؤقت طالما لا يوجد إطار مؤسسي في العاصمة متفق عليه من جانب الجماعات والأقاليم التي تضمها هذه الدول. (٦١)

ويلاحظ أنه بالرغم من المزاغم والتأكيدات المستمرة للقيادات السياسية في غالبية الدول الأفريقية علي قضية الوحدة فإن هذا لم يحل دون تنامي النزعات والميول الانفصالية ومعاناة تلك الدول من التراجع في التعامل مع تلك القضية وإذا كانت الحكومات الأفريقية قد دأبت علي مقاومة حالات عدم الاستقرار و الأزمة الحدودية (الاندماج الوطني) داخل بلدانها عن طريق تجنيد وتعبئة الجماهير والمؤسسات والموارد والقدرات المختلفة وغيرها من أساليب النضال من أجل بناء الأمة

علي اعتبار أنها خير وسيلة للتعامل مع مثل تلك الأزمة فإن الواقع يشير إلى تواضع الجهود و المساعي والوسائل والممارسات التي اقترنت بهذه المحاولات. (٦٢)

ان الدول الأفريقية منذ الاستقلال ولدت في ظل أزمة حقيقية هي أزمة بناء الدولة القومية وهي وأن كانت تمثل تعبيراً قانونياً وإطاراً سياسياً فإنها ضمت بداخلها العديد من الجماعات المختلفة اثنيّاً ولغوياً ودينياً وإقليمياً وقد ساهم ذلك بالإضافة إلى الممارسات الحكومية إلى أن يكون ولاء الفرد ليس للدولة ذاتها وإنما لتلك الجماعات الأولية أو التحتية بداخلها وقد كان من الممارسات التي انتهجتها تلك الدول في سعيها لخلق الوحدة الوطنية / القومية هو محاولتها تركيز السلطة واستحداث المؤسسات المناسبة التي يمكن أن تكون بديلة للتنظيمات التقليدية والتنظيمات والمؤسسات الموروثة عن الاستعمار ومن ذلك التأسيس للحزب الواحد كإطار تنظيمي موحد ليتمشى مع متطلبات تحقيق الوحدة السياسية والمحافظة عليها والسعي لتحقيق قدر من التنمية الاقتصادية والإسراع بها وتحقيق السيطرة علي كافة أجزاء الدولة إلا أن الممارسة العملية لهذا الحزب أثبتت أن مشكلته بمفهومه المطلق في أفريقيا كإطار للوحدة السياسية وبحيث يمثل تداخلاً لمفاهيم الحزب والدولة والأمة ليست في النظام نفسه ولا في الأسس والأهداف التي يقوم عليها ولكنها كانت أصلاً في القائمين علي تطبيقه، حيث ظل ينظر إليه علي أنه سبيل ووسيلة لتحقيق أهدافهم بدلاً من أهداف الوحدة السياسية وتعبئة ومشاركة الجماهير في إطار موحد. (٦٣) ومن ناحية أخرى فالواضح في هذا التصور والممارسة الفعلية له هو التركيز علي التكامل الرأسي بمعنى الاهتمام بعملية بناء الدولة وبالمناظر السلطوي علي حساب التكامل الأفقي بمعنى التراجع الفعلي عن عملية بناء الأمة.

المطلب الثالث: إضفاء الطابع الأيديولوجي علي الدولة في أفريقيا

لقد تطور الفكر السياسي والاجتماعي الأفريقي مثله في ذلك مثل القومية الأفريقية خصوصاً في فترة ما بعد الاستقلال ، فقد أسهم بنصيب هام في الرصيد الأيديولوجي للقومية الهادفة إلى الرقي والنهضة وقد اقتبس الطلبة والمفكرون والزعماء السياسيون الأفريقيون - في لندن وفي باريس وفي العواصم الأفريقية - من الفكر الديمقراطي الغربي ومن الماركسية ومن فلسفه غاندي ومن القومية السوداء (بالنسبة لأولئك الذين كانوا يدرسون في أمريكا) و مزجوها بالتراث الثقافي والتاريخي لأفريقيا لخلق أيديولوجية عامة للوحدة الأفريقية، بحيث تكون بمثابة الأيديولوجية التي يتقاسمها معظم الزعماء الأفريقيين الوطنيين مهما كان هناك من احتمالات لوجود اختلافات عند تطبيقها. (٦٤)

وكانت عمليات إحياء الثقافة الأفريقية تحت شعارات الزنجية والشخصية الأفريقية ينطوي علي أهمية سياسية وثقافية وذلك في التعضيد الذي تمنحه من مثل وقيم عليا ومبادئ للوحدة الأفريقية ، غير أنه قد كان هناك بالفعل انقساماً بين الأفريقيين الداعين للوحدة ، ويرجع جزء من هذا الانقسام إلي المفاهيم المختلفة لطريقة الوصول إلى وحدة أفريقية وجزء منه يرجع إلي اختلافات وجهات النظر بخصوص التطورات الداخلية والروابط الخارجية وجزء منه أيضاً إلي تنافس الزعامات وغيرها، وفي مجال الفكر الاقتصادي نالت المحاولات الخاصة بإيجاد طريق وسط بين فردية الكتلة الغربية (الرأسمالية) وجماعية الكتلة الشرقية (الاشتراكية) تعبيراً بليغاً في اشتراكية سنجور الأفريقية، وهناك أيضاً مفهوماً مشابهاً لها في إصرار جوليوس نيريري علي التوفيق بين الفرد

والجماعة في الحياة الاجتماعية الأفريقية ومن ثم فإن الاشتراكية وفقاً للمنظور الأفريقي هي اشتراكية إنسانية ومن ثم تعارض المادية الماركسية ، و ظل الزعماء الوطنيين الأفريقيين سواء ناصر أو نكروما أو سنجور يصرون علي عدم وجود تعارض بين اشتراكيّتهم والقيم الروحية أو الدينية بل ويؤكدون أن اشتراكيّتهم تتفق والمعايير الدينية والإنسانية أكثر من اتفاقها مع مبدأ الحرية الاقتصادية الرأسمالية الذي رفضوه ، وعلي هذا الأساس فإن هؤلاء الزعماء الوطنيون كانوا يصرون علي أنهم اخترعوا اتجاهاً جديداً للتنمية الاقتصادية يتجنبون به أخطاء كل من الرأسمالية والاشتراكية وسواء أكان ذلك الاتجاه الجديد هو الاشتراكية الأفريقية لسنجور أم الاتجاه الجماعي لنييري أم أوتوقراطية المجموعة لسيكوتوري أم الاشتراكية الديمقراطية التعاونية لناصر إلا أنه كان هناك التزاماً مشتركاً لنوع جديد من التطور الذي يسمح بالتخطيط الاشتراكي المركزي للاقتصاد مع السماح بعناصر المبادرة في القطاع الخاص أيضاً. (٦٥)

وبمعني أنه عندما حصلت الدول الأفريقية علي استقلالها في الستينيات فإن الغالبية العظمى منها تبنت تلك الأيديولوجية غير الواضحة والمسمّاة بـ"اشتراكية الأفريقية في إطار انسلاخها عن الماضي الاستعماري، وقد نال هذا استحساناً من جانب الشيوعية العالمية، وكانت تلك الاشتراكية الأفريقية تلقي حضوراً وقبولاً داخل تلك الدول الأفريقية لما تتسم به من عدم فرضها كثيراً من القيود علي القادة الأفارقة، بل علي العكس فقد أعطى التكوين لدول الحزب الواحد لمثل هؤلاء القادة وسيلة ملائمة تمكّنهم من تكريس وتعظيم سلطاتهم الخاصة ومن إسكات مناوئهم وضمان السيطرة علي المنظمات الأخرى في المجتمع، وخصوصاً اتحادات العمال، ومن هؤلاء القادة - علي اختلافهم -

كينياتا في كينيا، وجوليوس نيريري في تنزانيا، و فيليكس هوفوييه بونيه في ساحل العاج، و كوامي نكروما في غانا وغيرهم الذين تبناوا الحزب الواحد للدولة، ومنذ منتصف السبعينيات فان بعض الدول الأفريقية كانت قد بدأت في تبني نوعاً ما من مفاهيم الاشتراكية العلمية مثل إثيوبيا وموزمبيق وأنجولا وبالتالي كانت أكثر بقاءً في السلطة وأكثر دموية وأكثر اعتماداً علي المساعدة الخارجية وجميع هذه الدول أعلنت تبنيها للنموذج السوفيتي للاشتراكية في محاولة لتبرير صراعاتهم الدموية الطويلة بالإضافة إلى سياساتهم التعسفية مثل التأميم وتدعيم الملكية الجماعية، كما ان دول أخرى مثل بنين والكنغو برازافيل وإن شهدت اضطرابات كتلك التي عانت منها أنجولا وموزمبيق وإثيوبيا إلا أنها نبذت الاشتراكية الأفريقية لصالح التفضيل للاشتراكية العلمية، وعلي حين إنها أمت بعض الصناعات فان تطبيقاتهم للمذهب الاشتراكي كانت أكثر ضللاً Heterodox. (٦٦)

وخلال فترة الثمانينيات فقد راق لبعض الدول التحرك بعيداً عن المذهب الاقتصادي الماركسي وبدأت في إعادة التقييم لسياساتها الاقتصادية مثل موزمبيق وإثيوبيا والكنغو برازافيل وتنزانيا وزامبيا وغيرها، في إطار ارتباطها بالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وأعلنت سلسلة من الإصلاحات لتحرير اقتصادها وان تمسكت مثل تلك الدول باستمرار ولاؤها للمبادئ الاشتراكية، وعندما بدأت مظاهر التفكك تبدو علي الاتحاد السوفيتي ومن ثم علي الكتلة الاشتراكية فان مثل تلك الدول الأفريقية بدورها لم تلبث ان بدأت تعاني من ممارسة الضغوط عليها من أجل إجراء التحولات واللامركزية التي بدونها وفي ظل الإبقاء علي أنظمة الحكم ذات الحزب الواحد لن يكون هناك مجالاً مناسباً

لضمان إضفاء اللبرالية علي اقتصادياتها ولن يكون هناك تنظيماً فعالاً لدور القطاع الخاص، وفي الوقت ذاته بدأ البنك الدولي في الحث علي زيادة فعالية نماذج للحكم تتناسب مع التوظيف الاقتصادي المناسب، وانه من الضروري إتمام ذلك علي أساس واقعي لكي يتفهم المانحون الخارجيون ان الإصلاح الاقتصادي ممكناً وبعيداً عن دولة الحزب الواحد شديدة المركزية. (٦٧)

لقد كان واضحاً من أجل ممارسة الدولة الأفريقية للسلطة ومن أجل صنع سياستها أن تكون الأيديولوجية الأساسية للدولة الأفريقية فيما بعد الاستعمار مرتكزة علي الأشكال والأنماط والقواعد الابتكارية التي تعزز سيطرة الفرد علي السلطة وسيطرة الدولة علي الاقتصاد ولم يكن باستطاعة تلك الدولة في إطار محاولاتها التحولية عن طريق النهج الأيديولوجي أن تصل إلى أيديولوجية قابلة للتطبيق ومقبولة للقيام بدور فاعل وعادل من خلال جميع المؤسسات والكيانات الموجودة داخل المجتمع. (٦٨)

ويلاحظ في تلك الدول الأفريقية التي تبنت الأيديولوجية الاشتراكية كإطار لعملية تحولها أنها عانت من أزمة عميقة منذ منتصف الثمانينيات كان من أهم مظاهرها تلك الضائقة الاقتصادية القاسية، كما كانت الغالبية العظمى من تلك الدول مازالت تصارع بلا أي نجاح من أجل إقامة مؤسسات سياسية كانت تنعقد عليها الآمال من أجل ترسيخ التجربة الاشتراكية في المجتمع الأفريقي، إلا أن الصعوبات الداخلية في الدول الاشتراكية الأفريقية كان يصاحبها العديد من الضغوط المفروضة عليها من جانب الحكومات الغربية (وكذلك جميع المؤسسات النقدية الغربية) للتراجع عن تلك السياسات الاشتراكية واستبدالها بسياسات الأسواق الحرة من أجل التنمية الاقتصادية. (٦٩)

وبالتالي فإن إضفاء الطابع الأيديولوجي علي نظام الدولة في أفريقيا لم يفض إلى التطور والتحسين المرتجى وإنما أدى إلى حالة من الجمود والتفوق والتدهور أدت بدورها إلى تكريس وتعظيم واقع التخلف والمثال علي ذلك حالات دول أنجولا وموزمبيق وإثيوبيا وغيرها في معظم أرجاء القارة الأفريقية. حيث ترتب علي ذلك تعاظم الحكم السلطوي والبيروقراطية وانغماسها في صراعات داخلية في ظل حالات عدم الاستقرار السياسي ومع شيوع حالات الانحطاط والتدهور الاقتصادي والاجتماعي، وفي صراعات خارجية مع القوى المستغلة العالمية ومع الدول والمنظمات المانحة في إطار اللهث وراء مزيد من المعونات أو الهبات أو القروض.

ويلاحظ في هذا الصدد أيضاً أنه إذا كانت الدولة في أفريقيا قد قدر أن يكون لها مساحة من الاختيار والتجريب لأي من الأيديولوجيات وخصوصاً في مرحلة ما بعد الاستقلال، أي في فترة الحرب الباردة فإن الواقع الراهن يشير إلى أن الأيديولوجية الوحيدة المقبولة للتداول عالمياً حالياً هي الليبرالية الاقتصادية (الرأسمالية) والليبرالية السياسية (الديمقراطية). (٧٠) ومن ثم يكون الأمر متاح فقط أمام الدول الأفريقية هو الاختيار بين الاستغراق في تلك الأيديولوجية وتحمل تبعاتها في مقابل الحصول علي المعونات والقروض أو الانعزال والتشرد داخل أقاليمها ومحاولة تجريب أو استحداث أيديولوجيات جديدة عساها أن تعصمها من هذا الطوفان إن استطاعت، ويبدو أنها آثرت يأساً وبلا تردد الخيار الأول أملاً في البقاء.

المطلب الرابع : إضفاء الطابع التنموي علي الدولة في أفريقيا

مثلت مشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي إحدى أهم قضايا أفريقيا بعد الاستقلال ومن ثم فقد وضعت الخطط ورسمت السياسات الواجب اتباعها لمواجهة هذا التخلف باعتباره من أصعب القضايا التي واجهت القيادات والكوادر الأفريقية علي المستويات الوطنية والإقليمية والقارية وقد حاولت الدول الأفريقية معالجة هذا التخلف عن طريق التعاون الاقتصادي القاري أو الإقليمي أو عن طريق العون الخارجي متمثلاً في المساعدات والمعونات الأجنبية ومن أهم ما يلاحظ في هذا الصدد ما يلي: (٧١)

أولاً. أن التعاون الأفريقي القاري لم ينجح في التعامل مع مشكلة التخلف تلك بطريقة عملية فكل الجهود التي بذلت سواء علي المستوى التنظيمي أو التطبيقي لم تسهم إسهاماً فعالاً في هذا الخصوص وبالتالي فقد ظلت ومازالت هذه المشكلة من أصعب المشكلات التي تواجه العمل الجماعي القاري الأفريقي وربما يرجع ذلك إلى أزمة الثقة بين الدول الأفريقية وبعضها البعض أو إلى ضعف وهشاشة تلك الاقتصاديات وإذا كان تأليف وحدات اقتصادية من الدول المتخلفة أمراً عسيراً بسبب تخلفها وعدم وجود الأجهزة الهيكلية التي تتحمل أعباء الوحدة الاقتصادية، فهناك سبب آخر يجعل الوحدة بين الدول الأفريقية أمراً عسيراً أيضاً وهو رغبة تلك الدول في الحيلولة دون المساس بسيادتها واستقلالها لذلك فإن الدول الأعضاء سواء في منظمة الوحدة الأفريقية أو في أي تنظيم اقتصادي علي مستوى القارة تحتفظ لنفسها بأكبر قدر من السلطة ولا تمنح الأجهزة والمؤسسات التي تشرف علي مثل تلك الوحدة الاقتصادية إلا اقل قسط

من هذه السلطة علي الرغم من أن التجربة الأوروبية أثبتت أن أي إنجاز حققته إنما تم لكونها لم تتردد في التنازل عن جانب كبير من سيادتها في سبيل تحقيق ذلك لما يترتب علي ذلك من امتيازات ومنافع التنمية الاقتصادية.

وإذا كان الهدف المعلن للتعاون والتكامل الاقتصاديين لم يتحقق بعد، وإذا كانت اتفاقية ابوجا الموقعة بشأن إنشاء الجماعة الاقتصادية الأفريقية AEC يمثل إطاراً حيوياً للوصول إلى هذا الهدف فإن الأمر يبقى أيضاً مرتهن بمدى وضع بنود تلك الاتفاقية موضع التنفيذ الفعلي، وإذا كانت هناك عوامل كثيرة قد تكاثفت في الماضي لإجهاض أي تقدم نحو تحقيق التعاون والتكامل الاقتصاديين علي مستوى القارة فإن اتفاقية الجماعة الاقتصادية الأفريقية وغيرها من الاتفاقيات تظل أيضاً مهددة بأن تلقى نفس مصير غيرها من الخطط وبرامج العمل والاستراتيجيات السابقة مثل خطة عمل لاجوس إذا لم يتم التنفيذ الفعلي لها وإزالة العوائق أمام إقرارها، و ينبغي التذكير في هذا الصدد بأن من أهم هذه العوامل هيمنة الروابط الاقتصادية لأفريقيا مع الخارج والإحساس القوي بالانتساب إلى المناطق النقدية المختلفة وانعدام الرغبة في التنازل عن السيادة الوطنية في الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية وتبنى برامج التكيف الهيكلي التي تفضي إلى جعل التناغم والتنسيق عبر الحدود أكثر صعوبة وأخيراً تشابه الهياكل الاقتصادية لدول القارة .

ثانياً. أن التعاون الأفريقي الإقليمي لم ينجح أيضاً، وكان أقرب إلى أن يكون وسيلة للدعاية السياسية المحلية، فإقامة الوحدة بين مجموعة من الدول الأفريقية كان بمثابة الفرصة السانحة لإقامة المؤتمرات والحفلات والاجتماعات

المقابلات لرؤساء الدول الأفريقية، كي يتخذ منها مادة للاستهلاك الداخلي بغية بث روح التفاؤل بين شعوبهم والأمان في ازدهار المستقبل الاقتصادي لدولهم، ذلك لأن القيادات الأفريقية والأجهزة التي تحت تصرفها لا تستطيع وحدها وبالمستوى المؤسسي التي هي عليه أن تقوم بعبء المشكلات الاقتصادية والسياسية للبلاد، ومن ثم تلجأ إلى إخفاء عجزها عن القضاء علي هذا التخلف عن طريق إقامة تلك المنظمات الإقليمية التي تلهمي بها شعوبها، مع أن وظيفتها في الحقيقة لا تعدو إصدار التصريحات والقرارات المتتابعة ووضع الاستراتيجيات وتخطيط المشروعات نظرياً بدون تنفيذ عملي لكل ذلك.

ثالثاً. وعلي المستوى الوطني فقد كان المرتجى بصورة ملحة من البلدان الأفريقية، هو إعمال التفكير الإستراتيجي، وتوافر الحس الدينامي، واتضاح الأهداف من أجل التعجيل بالتنمية البشرية، والتحول الهيكلي لاقتصادياتها، وهو ما يقتضي إضفاء الطابع الوطني علي عملية التنمية، واستنفار كل قوى النمو والتنمية، وتنويع الهياكل الاقتصادية، والتخلي عن الاعتماد علي عدد قليل من السلع المصدرة، وجعل الاقتصاد مرناً إزاء الصدمات الخارجية والداخلية، وتحقيق درجة أكبر من الاكتفاء الذاتي في الغذاء والاستثمار في البشر، بما يكفل تنمية قدراتهم، وإجراء تحسين كبير في نوعية حياتهم، والاستفادة الفعالة من الموارد البشرية، واتساع المجال أمام جميع القوى في المجتمع، لممارسة النشاط الاقتصادي، وتحفيز إبداعات وحماسات وطاقات الشعب، من خلال ممارسة فعالة للمشاركة الشعبية في التنمية، وإضفاء المزيد من الحيوية علي القطاع غير الرسمي الكبير الحجم، ومساعدته علي الارتقاء إلى مستويات أعلي في الإنتاج والإنتاجية، ودعم الاستثمار الخاص، وإدارة

الاقتصاد بصورة أفضل ، وإنهاء الفساد ، وضمان مراعاة المعايير الأخلاقية وشيوع ثقافة التسامح والشفافية ، والمساءلة في مجال الحكم ، والتعامل بجدية أكثر مع المتغير السكاني باعتباره أحد المتغيرات الرئيسية في معادلة التنمية ، ويرتبط بذلك أيضاً ضرورة التعامل مع قضية النمو السكاني المتسارع بأساليب أكثر جوهرية وموضوعية . (٧٢)

إلا ان التطبيق الفعال لما تقدم، يتطلب ضرورة إجراء تغييرات سياسية أساسية، وإعادة توجيه الموارد، بمعنى وضع نهاية للنفور من التخطيط الإستراتيجي طويل الأجل، ومتوسط الأجل، وجعل برامج الإصلاح جزءاً لا يتجزأ من سياسات وبرامج واستراتيجيات التنمية بعيدة الأمد، والاستخدام المرن للمتغيرات الاقتصادية، والأدوات النقدية والمالية، والتعبئة الهادفة والأكثر إبداعاً لتحقيق مستويات أعلى في الادخار والاستثمار، وتوجيه موارد مالية واستثمارات مناسبة في مجال التنمية الإنتاجية والبشرية، وتقليص النفقات الفاقدّة وغير المنتجة _ خاصة الإنفاق العسكري _ وضمان السيطرة علي عوامل الإنتاج ومصادر المال. (٧٣)

لقد شهدت فترة الحرب الباردة ازدياد سيطرة الاقتصاد المتقدم في الشمال، من خلال النظام الاقتصادي العالمي، علي اقتصاديات الدولة الأفريقية، وازدياد ارتباط القطاع الحكومي ، والقطاع غير الحكومي في كل من هذا الدول ، بدور المتغير الخارجي ، من خلال النشاط المحموم للشركات العالمية متعددة الجنسيات، ومن خلال الارتباط بأشكال وبأساليب عقائدية وسياسية واقتصادية وعسكرية واتفاقات للتجارة والاستثمار وغيرها ، بحيث أصبحت هذه الفئات والطبقات والنخب الأفريقية تقوم بما يمكن تسميته بالوظيفة الحارسة بالنسبة لعمل المتغير

الخارجي في داخل المجتمع الأفريقي ، في ظل الدولة المستقلة ، فمنذ الاستقلال تم تطبيق خطط متتالية للتنمية والتحديث ، والمحصلة النهائية هي أنه في الدول الأفريقية التي تطبق نماذج رأسمالية للتنمية والتحديث ، لم تنشأ بها طبقة رأسمالية قوية تقود هذه العملية (ومن الأمثلة علي ذلك السنغال ، وساحل العاج ، وكينيا ، والجابون ، وزائير (الكونغو حالياً) وفي الدول الأفريقية التي طبقت نماذج اشتراكية / ماركسية للتنمية والتحديث ، لم تنشأ بها أيضاً طبقة عمالية بروليتارية قوية تقود هذه العملية (ومن الأمثلة علي ذلك غينيا سيكوتوري ، والكنغو برازافيل ، وموزمبيق) وبالطبع لم يكن الحال افضل في تجارب الدول التي طبقت النماذج الانتقائية للتنمية والتحديث مثل تنزانيا. (٧٤)

بناء علي ذلك وعلي النتائج الوخيمة والكارثية التي تمخض عنها تطبيق مثل تلك الخطط، فان الوضع القائم في السياسة والاقتصاد وتسيير المجتمع، هو وضع السيطرة لجماعات متعددة الأصول والقيم والارتباطات، علي أدوات الحكم ومؤسسات النظام والسلطة، وتستثمر هذه الجماعات المواقف في داخل الدولة لصالحها من خلال إدارة النظام، ومن خلال الاعتماد علي مؤسسات وأجهزة العنف والردع والتخويف والترويض، كما ان هذه الجماعات فقدت القواعد الاجتماعية المؤيدة والراضية عن السياسة العامة لكل نظام، وهذا معناه أن هذه الجماعات والفئات والطبقات - مهما كانت التسمية - لا يمثلون ولا ينتمون إلى طبقات رأسمالية أفريقية، ولا إلى طبقات إقطاعية زراعية، ولا إلى طبقات برجوازية أفريقية كبيرة أو صغيرة، ولا إلى طبقات عمالية أفريقية بروليتارية، انهم شيء جديد، انهم ظاهرة اجتماعية، ونخب حاكمة أو قائمة علي مستويات السياسة والاقتصاد والاجتماع، تنتمي إلى الوجود السياسي الإداري

البيروقراطي لجهاز الدولة، ومؤسسات الحكم و أبنية السلطة والإدارة، بأسلوب مباشر وبأسلوب غير مباشر وهؤلاء آمنوا وصدقوا بان "الرأسمالية للحكام و الاشتراكية للمحكومين " Capitalism for Governor's & Socialist for Peo- ple's " ويشترك في دعم قوتهم وبقائهم دور وتأثير المتغير الخارجي، وحتى إذا تم الانشقاق أو الانقلاب في داخل هذه الجماعات والنخب، فان مصدر قوة الخلف هي ذات مصدر قوة السلف في جهاز الدولة. (٧٥)

لقد قامت خطط التنمية والتحديث في أفريقيا، علي أساس دور راس المال الأجنبي في التمويل والاستثمار، واستيراد التكنولوجيا الأجنبية، من أجل التصنيع، وبناء البنية التحتية، والتوسع في عمليات الإنتاج للتصدير، والحصول علي العملات الصعبة.. الخ، وفي إطار الوضع السكاني والاجتماعي الأفريقي، دفع المزارعون وسكان الريف ثمن هذه التنمية وتكاليفها، ونتج عن هذا ان مناطق الحضر وسكانها استفادوا طبقا لمراكزهم الاجتماعية، ولعلاقاتهم بأجهزة السلطة ومؤسسات الحكم، بينما تراجعت وتعقدت قضية الغذاء والطعام وازداد العجز في الإنتاج الداخلي، والذي تمت مواجهته برصد مبالغ متزايدة لاستيراد الطعام والغذاء للسكان. (٧٦)

ومن هذا المنطلق فانه لا يمكن البت في قضايا التنمية، من خلال أطروحات تكنوقراطية فالتنمية بطبيعتها قضية سياسية، ان نوع التنمية الذي سوف تستجيب له مشكلات أفريقيا، ينبغي أن يركز علي المشكلات التي تؤثر في الجماهير الشعبية، والمتعلقة بإشباع الحاجات الأساسية، ومنها الغذاء، والتعليم، والصحة، والتوظيف، والإسكان ... الخ، والقضاء علي المشكلات الاجتماعية مثل البطالة، سوء التغذية، الأمراض الصحية، وعدم الملائمة المعيشية وتدنيها بصفة

عامة، وتتعلق كافة هذه الأمور بقدرة الاقتصاد علي توليد فائض اجتماعي كافي، يمكن تنميته من خلال أنشطة إنتاجية من شأنها توليد الوظائف وغيرها، من الحاجات الأساسية في إطار الاقتصاد المحلي، كما أن الدولة التي ستقوم بالتخطيط لهذه التنمية، التي تتسم بنظرة متجهة نحو الداخل ومتمحورة علي الذات تحقق الاكتفاء الذاتي كان من المفترض ان تكون دولة تجرى إدارتها ومحاسبتها عن طريق القوى الشعبية، حيث أنه من المستحيل أن تكون دولة أخرى غير ذلك، وكان من المتوقع أن تكون تلك الدولة موجهة نحو الشعب، إلا ان الواقع يشير إلى أنه لا يمكن وجود مثل هذه الدولة إلا كنتيجة لثورة ديمقراطية شعبية. (٧٧)

المبحث الرابع

تقييم الدولة في أفريقيا

انطلاقاً من الحاضر وفي محاولة لتقييم الدولة في أفريقيا واستشراف مستقبلها، يلاحظ أنها تواجه العديد من التحديات التي تؤثر بطريقه مباشرة أو غير مباشرة علي واقع ومدى تطورها وتحولها كما ان هناك العديد من المساعي الإصلاحية التي يمكن ان تؤثر علي مدى استمرارية وفاعلية الدولة في أفريقيا إذا ما كان هناك اهتمام فعلي بذلك، ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى ما يلي:

المطلب الأول: تقييم أداء الدولة في أفريقيا

ان الظروف المعاصرة التي تمر بها الدول الأفريقية، تجعل من الأهمية التركيز علي تقييم أدائها، كمحاولة للتعرف علي الواقع الحي والملمس الذي تعاشه، ومدى فاعلية دورها وواجباتها ووظائفها، وكذلك مستوي ومدى عمليتي بناء

الدولة والأمة والي أي مدى وصلت إليه علي جميع تلك الأصعدة في ظل المتغيرات والمستجدات الداخلية والإقليمية والعالمية، وفي إطار تقييم الأداء هذا فسيتم تناول تلك الوظائف التي تقوم أو ينبغي ان تقوم بها الدولة، وتوضيح مدى فاعلية أو عدم فاعلية ما تقوم به، وذلك علي النحو التالي: (٧٨)

أولاً. الوظيفة السياسية والقانونية:

علي الرغم من ان الوظيفة السياسية والقانونية تعد من الوظائف الأساسية، التي تقوم بها جميع الدول بغض النظر عن مدى تقدمها أو تخلفها، باعتبارها مقدمة الممارسات الحكومية، ومقدمة لما عداها من الوظائف الأخرى، فان واقع هذه الممارسات يشير إلى العديد من اوجه القصور، والتراجع في أداء تلك الوظيفة، ومن مظاهر ذلك ما يلي:

١ - تزايد عدد الاتفاقيات الدولية الجماعية الملزمة التي تغطي كافة مناشط الحياة علي المستوى الدولي والوطني والتي تلتزم الدول باحترامها والتعامل معها باعتبارها قوانين وطنية داخلية ومن شأن الإخلال بها تعرض الدولة للإدانة أو حتى العقوبات من جانب المجتمع الدولي وهكذا تقلصت سلطة الدولة في صنع القوانين التي تتلاءم مع بيئاتها وتقاليدها وظروفها .

٢ - تراجع الدولة عن دورها في صنع القرار السياسي علي المستوى الوطني لصالح رجال الأعمال في الداخل ولصالح الشركات متعددة الجنسيات.

٣ - تراجع سلطة الدولة في مواجهة منظمات المجتمع المدني التي اتجهت لتقوم ببعض وظائف الدولة وخصوصا في المجالات الاجتماعية والثقافية وذلك بالتعاون مع منظمات مثيلة في الخارج تتولى تمويلها وتنظيم أنشطتها بعيدا عن سيطرة الدولة في كثير من الأحيان.

٤ - انهيار مبدأ السلامة الإقليمية والسيادة المطلقة واحترام الحدود، ذلك ان هذه المبادئ قد تم اختراقها ولا قبل للدول الأفريقية بالدفاع عنها (الإنترنت، البث التلفزيوني الفضائي، فتح الحدود التجارية الدولية دون عائق، التدخل الإنساني لحماية حقوق الإنسان... الخ). انتهاء احتكار الدولة لسلطة الاستخدام الشرعي للقوة في مواجهة مواطنيها أو غيرهم من الخارجين علي القانون تحت دعاوى احترام حقوق الإنسان... الخ، بل وتتلقى دورها في محاكمة مواطنيها وفق قوانينها المرعية (حالة لوكيربي) فيما يعد إيذانا بانهيار مبدأ إقليمية القوانين.

مما سبق وغيره أسفر عن إحساس قطاع من المواطنين بفقدان الحماية والأمن من جانب الدولة فسعى لتأمين نفسه بعيداً عنها (ظاهرة البوليس الخاص) واجترأ قطاع آخر علي ما تبقى من سلطة الدولة فسعى للانقضاض عليها (ظاهرة الإرهاب) في حين لجأت الجماعات الاثنية أو الإقليمية أو الدينية أو اللغوية.. الخ، إلى السعي للخروج كلية من تحت عباءة الدولة القائمة بالسعي للانفصال في غمار حرب أهلية بحثاً عن تأمين ذاتي جماعي، فانفجرت الحروب الأهلية بكل تداعياتها المأساوية (اللاجئين، إبادة جنس بشري، استنزاف صارخ للموارد.. الخ) لتتأثر بها ما يزيد عن أربعة عشر دولة أفريقية.

ثانياً. الوظيفة الدفاعية:

ان وظيفة تأمين المجتمع من الغزو الخارجي والعنف الداخلي كوظيفة دفاعية للدولة الأفريقية أخذة أيضاً في التآكل لأسباب منها:

١ - الاتجاهات المعاصرة الرامية إلى خفض الإنفاق العسكري لاعتبارات الرشادة الاقتصادية وارتكناً علي آليات التكيف الهيكلي واعتماداً علي ان

المجتمع الدولي كفيل بمعاقبة المعتدى وبطبيعة الحال فان ذلك يتم وفق مصالح القوى المسيطرة علي النظام الدولي.

٢ - محاولة الغرب إقناع الدول الأفريقية بأن النجاح في الحصول علي نصيب أكبر من مغانم السوق العالمي إنما يشكل وسيلة أفضل للبقاء والرفاهية من الإصرار علي السيطرة علي الإقليم الوطني.

واستناداً إلى ما تقدم فان دور المؤسسة الأمنية (الجيش والبوليس) وحيث تضخمت قوات البوليس علي حساب قوات الجيش انصرف إلى الحفاظ علي النظام العام في الداخل، وتوفير المناخ الملائم لحرية التجارة والاستثمار ومن شأن ذلك أن يدفع الشعوب للنظر إلى المؤسسة الأمنية باعتبارها الحارسة للمصالح الرأسمالية من جهة، ومهددة لأمن الغالبية وليس حارسة لها ولا لحدود الدولة من جهة أخرى، بشكل يفقد الدولة هيمنتها واحترامها لدى المواطنين .

ثالثاً. الوظيفة الاستخراجية :

ان تلك الوظيفة تعنى قدرة الدولة علي تعبئة وتوظيف الموارد المتاحة لها من قوي بشرية ومواد خام و سلع وخدمات وكذلك قدرتها علي تحصيل الضرائب والرسوم والجمارك كما تعنى في ذات الوقت القدرة التمويلية للدولة بمعنى الحفاظ علي النقود كوسيلة للتبادل وكوحدة للنقد وكمخزن للقيمة علي اعتبار أن ذلك أمر ضروري لاقتصاديات السوق في مواجهة الاقتصاد المخطط، غير أن هذه الوظيفة أخذت في التآكل أيضاً لما يلي:

١ - بيع مؤسسات القطاع العام في إطار عملية الخصخصة أو ما تفرضه آليات منظمة التجارة العالمية من ضرورة التجارة عن طريق خفض وحتى إلغاء

الرسوم والجمارك علي التجارة الدولية في المستقبل المنظور، وهو ما يعنى تقلص موارد الدولة إلى حد كبير.

٢ - ان المبرر الآخر لسلطة الدولة والمتعلق بتعزيز قيمة العملة يبدو أنه أيضاً في طريقه إلى الاختفاء، ذلك أنه لم يعد بمقدر الدول الأفريقية مقاومة ما تفرضه قوى السوق من تأثيرات علي قيمة المعاملات النقدية ولا علي أسعار الصرف (الأزمة الآسيوية) ثم ان التقدم التكنولوجي علي وشك القضاء علي ما تبقى من سلطة الدولة في هذا المجال ذلك أن الإنفاق من خلال كروت الائتمان يتزايد بسرعة وهي قوة شرائية لا قبل للحكومات بالسيطرة عليها، ثم أن تحويل الأموال والتجارة عبر شبكة الإنترنت لا يخضع لرقابة الحكومات ويمكن أن يكون له اثر تخريبي علي القدرة الاستخراجية للدولة.

رابعاً. الوظيفة التوزيعية:

إزاء ضعف الوظيفة الاستخراجية للدولة نتيجة تقلص مواردها وما يستتبع ذلك من تقليل الإنفاق العام، بدأت الدولة تفقد وظيفتها كمظلة للحماية الاجتماعية، ورغم أن هذه الوظيفة حديثة حيث تقوم الدولة بإعادة توزيع الموارد ومواجهة أي نقص للسلع في الأسواق حماية للضعفاء وغير القادرين إلا أنها تشكل مبرراً هاماً للقبول الطوعي لسلطة الدولة ورغم أن هذا المبرر ما زال قائماً إلا انه بدأ يفقد مصداقيته نتيجة اضطرار الدولة الأفريقية إلى تقليل الإنفاق علي الخدمات الاجتماعية (الصحة، التعليم، الإسكان.. الخ) واضطرارها إلى بيع القطاع العام وإلغاء الحماية التجارية لمنتجاتها بشكل أضر بالمنتجين الوطنيين وبالتالي فان سلطة الدولة في حماية الضعفاء في المجتمع قد ضعفت وبالتبعية بات القبول الطوعي بسلطة الدولة محل شك.

خامساً. الوظيفة الثقافية:

ان الحفاظ علي قيم المجتمع وتقاليده وأعرافه والتعبير عنها بالشكل الذي يؤكد علي وجود هوية حضارية متميزة لتعميق انتماء المواطن لدولته في مواجهة الآخر كوظيفة ثقافية للدولة في أفريقيا أخذه أيضاً في التآكل بفعل آليات الاتصال الدولي واصبح المواطن عرضة لأشكال متنوعة من قيم وأعراف وتقاليد أجنبية عنه (الرموز، الأسماء، المأكّل، الملبس، التغذية، الفنون.. الخ) وقد أدى ذلك إلى زيادة أزمة الاندماج الوطني في الدولة الأفريقية تعقيدا خاصة وأنه قد افرز نماذج استهلاكية مشوهة وقيما إضافية تتعارض مع ثقافة المجتمع وضرب بالتبعية جهود الدول الأفريقية في تحقيق مشروعها الوطني بتنمية ثقافة وطنية تشكل قاعدة لبناء الأمة.

ان ما سبق وغيره يشير إلى ان الدول الأفريقية آخذة في الذبول من الناحية الفعلية والقانونية في ظل تداعيات كل من عمليات التحول الديمقراطي والتكيف الهيكلي، و العولمة وهو ما ينذر بإمكانية اتجاه النظام العالمي للعودة للنظام الإمبراطوري بمعنى وجود إمبراطورية أو أكثر تعيش في كنفها وتحت حمايتها ممالك و إمارات إثنية تابعة لها وتقوم علي أنقاض الدول الأفريقية الحالية ولا تتمتع بالمساواة في السيادة بينها، كما أن ما سبق يشير إلى إمكانية دخول القارة الأفريقية إلى مرحلة أفول عهد الدولة الإقليمية وتنامي الاعتراف بالواقع الاثنى بما يعنيه ذلك احتمال قيام الدولة الاثنية كما هو الحال بالنسبة لإثيوبيا التي أقرت الفيدرالية الاثنية، وأوغندا التي عادت إلى الاعتراف بالممالك الأربع فيها، وجنوب أفريقيا التي أقامت هيكلاً للسلطات التقليدية واعترفت بصلاحيات رمزية للملك الزولو.. الخ.

ومن ثم فان تقاعس الأداء للدولة في أفريقيا يمكن إرجاعه إلى بعض المشكلات التي يجب أخذها في الاعتبار عند مراجعة الأداء ومحاولة تقويمه بدرجة أكثر فعالية ومنها: (٧٩)

١ - ضعف الأحزاب السياسية: فالأحزاب السياسية يفترض أن تكون أحد آليات التحول داخل المجتمع ويجب ان تتسم بالاستمرارية والشمول والرغبة في ممارسة السلطة وان تبذل الجهود لحشد الدعم الشعبي الضروري، أما ان تكون مثل هذه الأحزاب معززة للفردية فستظل خاملة ومتوقعة علي نطاق دورها الضيق.

٢ - خمول العملية الانتخابية: ما زالت العملية الانتخابية في الدولة الأفريقية تعاني العديد من اوجه القصور سواء في الإدراك و الوعي لماهيتها وأهدافها والياتها وأساليب عملها أو في الممارسات الفعلية المرتبطة بها وما زال مبدأ الحرية والنزاهة مفترقاً في مثل هذه العملية وما زالت العديد من الأمراض عالقة بها كالتزوير والرشاوى وممارسة الضغوط علي المنافسين وغيرها من الأساليب وهو الأمر الذي يفرغها من مضمونها ويجعل أي خطوات لاحقة لها باطلة وفاسدة.

٣ - محدودية المجال السياسي: إذا كانت السياسات والممارسات الاستبدادية قد جعلت من الصعوبة علي العديد من القوى داخل المجتمع الواحد المشاركة في الحياة السياسية فان الإبقاء علي هذه الوضع أو التغيير الشكلي له يبقى علي محدودية المجال السياسي و محدودية المشاركة السياسية وهو ما يبقى علي الأوضاع السياسية علي ما هي عليه.

٤ - قيود المجتمع المدني: ان الإبقاء علي تهميش الشعوب الأفريقية داخل الدولة بعيداً عن السياسات والممارسات السياسية والاقتصادية و الاجتماعية يزيد الفجوة بين الحاكم والمحكومين ويبقى علي أزمة الشرعية السياسية ويخلق حالة من النفور والسخط والاستياء أو علي الأقل اللامبالاة وعدم الاكتراث لهؤلاء تجاه كل ما يدور في الدولة، ومن ثم فان جميع المؤسسات الرسمية مدعوة للتفاعل الإيجابي مع منظمات المجتمع المدني وتحفيزها لتقوم بدورها كحلقة اتصال وثيقة مع القواعد الشعبية المتنوعة ولتسيير ولتفعيل قيام الدولة بوظائفها.

٥ - الحد من الحريات: ان ازدهار الحريات في الدولة الأفريقية هو أحد الضروريات التي تتطلبها أي عملية تغيير إيجابية ومنها علي سبيل المثال حرية الصحافة وحرية التعبير عن الرأي وغيرها ويجب أن تستفيد الدولة في أفريقية من التجربة المريرة في مرحلة ما بعد الاستقلال وخصوصاً سنوات الستينيات والسبعينيات حيث لم تتورع الحكومات السلطوية عن القيام بالرقابة علي التحدث وعلي الكتابة وغيرها وإعدام أعداد هائلة من أصحاب الرأي والمناوئين لها وإذا كانت فترة الثمانينيات قد شهدت نوعاً ما من التخفيف لهذا الوضع فان تلك المشكلة ما زالت قائمة في العديد من الدول.

٦ - افتقاد المرونة والتسامح: ان غياب المرونة والتسامح يشيع حالة من التصلب و التحدي سواء لإرادة النظام الحاكم أو للجماعات الساخطة عليه ويجعل كل طرف أحرص علي التشبث بآرائه ومواقفه وممارساته تجاه الطرف الآخر حتى ولو اتخذت طابع العنف.

٧ - شيوع العنف السلبي والجيش المسيسة: في معظم الدول الأفريقية ظلت القوات المسلحة مصدر تهديد لحالة الاستقرار داخل الدولة وخصوصاً إذا اقترنت بالطابع الاثنى وعندما يصل الجيش إلى هذا الوضع فإن الجماعات الأخرى لا تجد أمامها سوى استقطاب جماعات الأقلية بداخله للبدء في التخطيط من أجل الصراع ومحاولة الاستحواذ على السلطة وهكذا تشيع في البلاد حالات العنف السلبي، ولهذا فإن محاولة تحييد الجيش داخل الدولة والحد من تسييسه يعد خطوة أساسية في سبيل إصلاح الدولة في أفريقيا..

٨ - الدعم الدولي للدكتاتوريات: في إطار سياسة المصالح التي تنتهجها العديد من الدول الفاعلة في المجتمع الدولي فقد غضت الطرف عن ممارسات العديد من الدكتاتوريات في الدول الأفريقية بل وقدمت لها الدعم والمؤازرة المستمرة ومن الأمثلة على ذلك الدعم الكبير الذي تلقاه موبوتو في زائير (سابقا) علي الرغم من الممارسات الاستبدادية والسلطوية التي اتسم بها حكمه البائد وغيره من الحكام أمثال محمد سياد بري في الصومال و مانجستوهيلا ماريام في إثيوبيا.

المطلب الثاني : التحديات التي تواجه الدولة في أفريقيا

لقد أفرزت الظروف والمتغيرات والمستجدات الداخلية والخارجية العديد من التحديات التي تواجه الدولة الأفريقية وتؤثر عليها حاضراً ومستقبلاً ومنها:

أولاً. التحدي الليبرالي (الرأسمالي / الديمقراطي : (منذ أوائل التسعينيات والنظام الدولي يشهد العديد من التغيرات المتتالية التي ألقت بتأثيراتها

وتبعاتها علي السياسة والاقتصاد الأفريقي ودفعهما للسعي وللبحث عن سياسة خارجية جديدة للتقرب من الديمقراطيات الصناعية الغربية كبديل الاشتراكية / الشيوعية) وتلك الظروف الجديدة اقترنت بالمشروطة السياسية والحكم الجيد والترويج للتحويلات الليبرالية / الديمقراطية من ناحية والليبرالية / الاقتصادية وبرامج التكيف الهيكلي. (٨٠)

من ناحية أخرى وبالإضافة إلى استخدام سلاح المعونات لإجبار تلك الدول علي إقرار وتنفيذ تلك التحويلات فقد رفعت في هذا الشأن شعار " لا ديمقراطية، لا معونات " No Democracy, No Aid ان تلك الضغوط التي مورست علي الدول الأفريقية في إطار ما اصطلح علي تسميته بالحكم الجيد و المشروطة السياسية وبما يعنيه ذلك من ضرورة التحول الديمقراطي علي النمط الليبرالي (التعددية الحزبية وإجراء الانتخابات الرئاسية والبرلمانية ، وتعزيز قدرات المجتمع المدني ، ورفع رايات حقوق الإنسان .. الخ) فضلاً عما تقدم فقد أصرت القوة المنتصرة في الحرب الباردة علي ضرورة اتباع دول الجنوب ومنها الدول الأفريقية لبرامج التكيف الهيكلي تحت مظلة الصندوق والبنك الدوليين تحت دعاوى تخفيض الإنفاق الحكومي وترشيده و إطلاق قوى السوق، واعتبار ان ذلك يشكل شرطاً لازماً و ضرورياً لتحقيق التنمية الاقتصادية وقد أسفر هذا وذاك عن إضعاف قدرة الدولة الأفريقية علي الإكراه والإغراء ويمكن توضيح ذلك كالتالي: (٨١)

أ. ضعف قدرة الدولة الأفريقية علي الإكراه (الترهيب) :

لقد ضعفت قدرة الدولة الأفريقية علي الإكراه نتيجة اضطرارها إلى خفض الإنفاق العسكري تحت دعاوى الرشادة الاقتصادية واضطرارها إلى تقليل عدد العاملين لدى المؤسسات العامة مما أفقدها السيطرة المعنوية علي مواطنيها

وبالإضافة إلى ذلك فان تقوية منظمات المجتمع المدني قد جاء خصماً من قدرة الدولة خصوصاً وان الدولة باتت عاجزة عن التعامل المطلق مع مختلف جماعات المجتمع مغبة ان تتهم بخرق حقوق الإنسان مع ما يحمله ذلك في طياته من احتمالات فرض العقوبات الدولية أو التدخل الإنساني تحت مظلة ما بات يعرف بالشرعية الدولية.

ب. ضعف قدرة الدولة الأفريقية علي الإغراء (الترغيب)؛

ان فرض برامج التكييف الهيكلي علي الدول الأفريقية دون مراعاة لواقعها الاقتصادي و الاجتماعي قد أجبر الدول الأفريقية علي التخلي عن مسئوليتها الاجتماعية في دعم التعليم والصحة والإسكان وجميع الاحتياجات الأساسية الأخرى وتوفير فرص العمل بالإضافة إلى ان خصخصة الشركات العامة قد دفع بألوف العمال إلى خارج سوق العمل وقد أدى ذلك إلى تعميق حالة الفقر لدى الغالبية من أبناء الشعوب الأفريقية في الوقت الذي فقدت فيه الدولة قدرتها علي الاستخراج ومن ثم علي الترغيب و الإغراء ونتيجة لهذا وذاك فقدت الدولة هيمنتها علي المواطنين بشكل شجع علي الخروج عليها إما سلماً أو عنفاً وهو ما أدى بالتالي إلى تصاعد الصراعات والحروب الأهلية ومن ثم اثر علي وضع الدولة ومؤسساتها.

ثانياً. التحدي العولمي؛ تعد العولمة واحدة من أهم التحديات التي تواجه الدولة في أفريقيا في الوقت الراهن، حتى ان هناك البعض الذي يرى فيها نوع من الاستعمار الجديد، حيث أدت العولمة إلى اتجاه الدول للتخلي عن وظائفها الأساسية نحو المجتمع بشكل افقد الدولة مبررات استمرارها ووجودها، ويمكن توضيح أسباب وتأثيرات ذلك علي النحو التالي:

أ- مضامين التحدي العولمي، تنصرف تلك المضامين إلى ما يلي: (٨٢)

- ١ - انه منذ انتهاء الحرب الباردة في بداية التسعينيات بات واضحاً مدى ضعف الدول الأفريقية بل وانهيار بعضها (الصومال، ليبيريا، سيراليون، غينيا بيساو، أنجولا) جراء عجزها عن الوفاء بالتزاماتها تجاه مواطنيها وتقاعسها في ظل برامج التكيف الهيكلي عن القيام بدورها الاجتماعي وهو الأمر الذي أثار حالة من عدم الاستقرار السياسي وصلت إلى حد المقاومة المسلحة للنظم الحاكمة فيما وصف بالإرهاب وفي هذا السياق تعمق عجز الحكومات حينما فشلت في المواجهة ، خاصة مع تآكل وظائفها الاستخراجية و التوزيعية ثم ان عجز تلك الحكومات الأفريقية دولياً قد بات ماثلاً للعيان فلقد اخترقت سيادتها وانتهكت حدودها دون ان تحرك ساكناً بصورة فردية أو جماعية، مرة تحت دعاوى احترام حقوق الإنسان وأخرى تحت دعاوى التدخل الإنساني، وثالثة تحت دعاوى فرض النظام والقانون وهو الأمر الذي اضعف هيبة وقيمة الدولة لدى المواطنين بشكل أصاب قطاع منهم بالإحباط من إمكانية الاحتماء تحت مظلة الدولة ودفع البعض الآخر إلى الخروج علي الدولة طالما لم تعد مؤهلة ككيان يحتكر وحدة الممارسة الشرعية للسلطة وبالإضافة إلى ما تقدم فان التسارع في عقد الاتفاقيات الدولية الجماعية الملزمة (التجارة، الأسلحة النووية والكيميائية، البيئة، المرأة، الطفل ... الخ) لاتضح ان الوظيفة التشريعية للدولة وفقاً لما تمليه قواعد و أعراف وتقاليد ومصالح شعوبها قد أخذت في التآكل هي الأخرى.
- ٢ - ان هناك جدلاً قائماً وخصوصاً في الغرب يركز علي نهاية عصر الدولة لصالح ما يطلق عليه الهوية الجماعية - كوحدة قائمة بذاتها - وهي بالتالي

اقرب إلى ما يسمى بالحضارة وليس الدولة نظراً إلى ان الدولة لم تبرز ككيان إلا في القرون الحديثة وبالتالي فان الدولة تمر بحقبة خسوف لصالح واقع التفاعل بين الحضارات أو ذوبان كيان الدول في شمول الكون الإنساني بحيث يضم رقعة شاسعة تتداخل وتتشابك بداخلها الهويات المتشعبة والمعقدة وليس في تفاعل حضاري أو في نظام عالمي أشبه بأوروبا في القرون الوسطى.

٣ - ان واقع الحال يشير إلى ان العولمة، تكاد ان تكون صيرورة تاريخية، وبهذا المعنى فهي ظاهرة قديمة وحديثة، وبالتبعية فإنها ستستمر في مجراها حتى النهاية، ذلك ان شعوب العالم الثالث في مرحلة ما قبل الاستعمار، كانت تنتقل من مناطق سكنها إلى مناطق تعيش فيها جماعات أخرى بفعل الجفاف والمجاعة، وكان بعضها يستوعب الجماعات الأخرى في إطار من ثقافته، ثم ان بعض هذه الجماعات كان يمارس الغزو لمناطق جماعات أخرى فيستوعبها أو يستوعب فيها، ومع مجيء الاستعمار الأوروبي فانه حد من التفاعلات السلمية و الصراعية بين الجماعات المتجاورة، حين وضع الحدود لمستعمراته، لكنه في ذات الوقت فتح هذه المستعمرات أمام سلعه وثقافته ولغاته سعياً لاستيعابها في إطار المنظومة الرأسمالية، ويبدو ان قيام الدولة الوطنية الأفريقية المستقلة، والاعتراف بها من قبل المستعمر الأوروبي، كان ضرورة فرضتها متطلبات حماية المصالح الأوروبية في هذه الدول وتعزيزها ويشهد علي ذلك واقع الحال في مختلف الدول الأفريقية عقب الاستقلال، وما ان انتهت الحرب الباردة فانه يبدو ان حاجة الغرب لاستمرار وجود هذه الدول قوية لم تعد ضرورية إزاء شبكة الاتفاقيات الدولية التي ألزمت بها هذه الدول من جهة وإزاء سيطرة الشركات متعددة الجنسيات علي مقدرات شعوبها من ناحية أخرى.

ب : تأثير العولمة علي واقع ومستقبل الدولة في أفريقيا :

رغم انه من الصعوبة قياس تأثيرات عملية العولمة علي واقع ومستقبل الدولة في أفريقيا إلا ان ذلك لا يعنى أنها خرافة أو أسطورة فهي موجودة وتمارس فعلها في تغيير المضامين والسلوكيات داخل تلك الدول علي مستويات عديدة منها : (٨٣)

١ - علي المستوى الاقتصادي : يلاحظ من ناحية ان اقتصاديات السوق علي المستويين المحلي والدولي تحتاج إلى سلطة قادرة علي فرض النظام ومنح الثقة للبنوك والأسواق المالية ولكن المشكلة في الظروف الراهنة ان إضعاف الدولة تحت ضغوط عملية العولمة يحول دون تحقيق ذلك ثم انه لا توجد أي من المنظمات الدولية التي يمكن الاعتماد عليها في هذا المضمار ومن ناحية أخرى فقد أحدثت العولمة تغييرات في الحياة الاقتصادية بمعنى التغيير في هياكل الإنتاج التي تحدد نوعية السلع والخدمات التي تنتجها المجتمعات البشرية من أجل بقائها ورفاهيتها فبدل ان كانت السلع والخدمات تنتج من جانب شعب معين يعيش علي إقليم دولة ومن أجله، فقد أصبحت السلع والخدمات تنتج من جانب شعوب من دول مختلفة للوفاء باحتياجات السوق العالمي بدلاً من السوق المحلي.

٢ - علي المستوى المالي : فقد أحدثت العولمة تغييرات في الهياكل المالية التي من خلالها ينشأ الائتمان لتمويل السلع والخدمات، فعلي حين ان خلق الائتمان واستخدامه كان يتم داخل إقليم الدولة فانه في الوقت الحاضر يعبر الحدود الإقليمية للدول في إطار أسواق عالمية ترتبط إلكترونيا في نظام واحد ولا يغفل ذلك بحال عن وجود بنوك محلية و أسواق تخلق الائتمان للاستخدام المحلي غير

ان هذه البنوك لم تعد مستقلة تماماً، ذلك أنها باتت تشكل جزءاً من نظام اكبر تتأثر به صعوداً وهبوطاً أكثر من تأثرها بالأوضاع المحلية.

٣ - علي المستوى الاجتماعي والثقافي، تمارس العولمة دورها علي مستوى المدركات والمعتقدات والأفكار ... الخ ، فعلي حين ان التنوع الثقافي ما زال قائماً إلا ان مشاعر واتجاهات وسلوك الكائن الفرد أخذت في التأقلم مع تقنيات عملية العولمة وباتت العملية أكثر سهولة وسرعة مع الثورة المعلوماتية وانخفاض تكاليف الاتصالات الدولية ورغم ان هذا المستوى يصعب قياسه أو تحديده إلا ان تأثيراته ستكون أكثر أهمية علي المدى البعيد من كل التحولات التي تفرزها عملية العولمة.

٤ - علي المستوى البيئي، ان دوافع الفاعلين الدوليين ومصالحهم (الشركات متعددة الجنسيات) تدفعهم إلى تدمير البيئة في الوقت الذي باتت فيه الدول عاجزة عن مواجهة ذلك نتيجة تآكل سلطاتها تحت ضغوط المبادئ الجديدة للتنظيم الدولي وفي ظل القيود التي فرضت علي سيادتها.

٥ - علي المستوى السياسي، ان النضال الطويل لشعوب الدول الأفريقية من أجل الحرية والمصداقية جعل بعض الدول تتمتع بالمصداقية تجاه شعوبها ولكن العولمة بتحديدها للسلطة داخل الدول ولصالح الشركات متعددة الجنسيات التي أسهمت كبيروقراطية دولية في تقويض هذه المصداقية بشكل افقد حكومات هذه الدول مشروعيتها تجاه مواطنيها وهو الأمر الذي ترتب عليه اندلاع حالات عدم الاستقرار السياسي بمختلف أشكالها بشكل أسفر عن التراجع الديمقراطي والمشكلة انه لا توجد سلطات غير حكومية جديدة (شركات ، منظمات ... الخ) يمكن ان تتمتع بثقل هذه المصداقية .

واستناداً إلى ما تقدم فانه يمكن الإشارة إلى ان هيمنة الدولة الوطنية في أفريقيا كسلطة وحيدة وطاقية علي المجتمع والاقتصاد يمكن ان تصبح استثنائية (أو هامشية) ان لم تنته الدولة كلية في الأمد البعيد بسبب فقدانها لوظائفها وذلك انه من المنظور التاريخي فان تعدد مراكز السلطة في المجتمع كان هو القاعدة في حين ان تركيز السلطة في قبضة حكومات الدول منذ أواخر القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين كان بمثابة انحراف عن مسار التطور التاريخي.

ثالثاً. التحدي الاندماجي؛

يلاحظ ان الدول الأفريقية تعيش ما يعرف بأزمة الاندماج الوطني / القومي منذ الاستقلال وهو الأمر الذي جعل من الصعوبة بمكان علي النظم الحاكمة المضي قدماً في عملية بناء الدولة، ولا عملية بناء الأمة بطريقة مؤثرة وفعالة وهو الأمر الذي زاد من تعميق تلك الأزمة واستشرائها علي مستوى القارة الأفريقية وفي هذا الشأن يمكن التركيز علي بعض الاعتبارات ذات الصلة بتلك الأزمة كالتالي: (٨٤)

أ. الاعتبارات المتعلقة بأزمة الاندماج الوطني / القومي؛

هناك العديد من الاعتبارات المتعلقة بأزمة الاندماج الوطني / القومي ومنها ما يلي :

- ١ - علي الرغم من شيوع ظاهرة التعددية في معظم مجتمعات دول العالم إلا ان مشكلة التعددية في المجتمعات الأفريقية علي درجة كبيرة من التعقيد ذلك انه رغم الخفة السكانية النسبية لمعظم الدول الأفريقية (ثلثي الدول

الأفريقية لا يزيد عدد سكان كل منها علي عشرة ملايين نسمة) إلا ان بعضها يضم داخل حدوده ما يزيد علي مائة جماعة إثنية (السودان نحو ٥٩٧ جماعة، نيجيريا نحو ٤٥٠ جماعة إثيوبيا نحو ٩٠ جماعة الخ) ثم انه يقدر ان نحو نصف عدد لغات العالم هي لغات أفريقية وقد ألقى ذلك بكاھله علي الدول الأفريقية التي فرض عليها هذا الواقع ضرورة العمل علي إنماء وتعزيز الشعور بالولاء الوطني وتجسيد مفهوم المواطنة بين الأغلبية العظمى من جماعاتها الاثنية والتي تختلف لغاتها وثقافتها ودياناتها ومؤسساتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وقيمها اختلافاً بينا وذلك بغية تحقيق الاستقرار للكيان السياسي.

٢ - ان معظم أنظمة الحكم الأفريقية قد فشلت في التعامل مع هذه المشكلة إما لفساد هذه النظم وتحيزاتها لصالح جماعة إثنية علي حساب غيرها و إما لعدم قدرتها علي الإكراه والإغراء نتيجة اتساع مساحة أقاليم غالبية الدول الأفريقية وسيادة الطابع الصحراوي أو الغابي عليه وهو ما اقعد نظم الحكم فيها عن تحقيق السيطرة علي كامل الإقليم ولو كرهاً وذلك لتخلف طرق ووسائل النقل فيها و إما نتيجة لتداخل الجماعات الاثنية عبر الحدود بشكل يحول دون إمكانية تحقيق السيطرة علي كامل المواطنين و إما نتيجة لتدخلات قوى إقليمية ودولية ترى من مصلحتها تقويض الاستقرار في هذه الدولة أو تلك لاعبة علي أوتار الاختلافات الاثنية وتعرض هذه الجماعة أو تلك الاضطهاد والقمع من جانب الجماعة الحاكمة.

٣ - إزاء هذا وذاك بات من الصعوبة بمكان علي نظم الحكم الأفريقية إدارة هذه الأزمة سلمياً في ظل هذا التعدد الاثنى مع ما يحمله في طياته من تشتت في الولاءات الفرعية التي تعلو - ان لم تكن تجب - الولاء الوطني.

ب. الاعتبارات المتعلقة بإدارة أزمة الاندماج الوطني / القومي :

لقد حاولت بعض نظم الحكم الأفريقية إدارة هذه الأزمة بواحد أو بأكثر من الأساليب الثلاثة الآتية:

١ - أسلوب الاستيعاب أو الفصل: وهو الأسلوب الذي طبقه النظام العنصري في جنوب أفريقيا لفصل الجماعة الأفريقية عن الجماعة البيضاء في إطار البانتوستانات تحت دعوى استحالة التعايش بين الجماعات المختلفة وقد فشل هذا الأسلوب فشلا ذريعا بانهيار النظام العنصري برمته.

٢ - أسلوب الاستيعاب (الاندماج الإكراهي) : وهو يقوم علي استيعاب كافة الجماعات الاثنية الأخرى في إطار من ثقافة ولغة وديانة الجماعة الحاكمة وقد طبق هذا الأسلوب في إثيوبيا (هيمنة الأمهرا) كما طبق في السودان في مواجهة الجنوبيين قبل عام ١٩٧٢ وبعد عام ١٩٨٢ ولكن فشل هو الآخر في تحقيق الاستقرار.

٣ - أسلوب الاسترضاء (الاندماج الوظيفي) : وهو مبدأ يقوم علي أساس تقاسم السلطة والثروة بين الجماعات المختلفة في الدولة ويمر بمنح الحكم الذاتي للأقاليم والجماعات المختلفة ، إلى الأخذ بالشكل الفيدرالي للدولة ، وانتهاء بمنح حق تقرير المصير والاستقلال وهذا الأسلوب لم يطبق في أفريقيا إلا نادرا وحتى في الحالات التي طبق فيها تقاسم السلطة دون الثروة (جنوب أفريقيا) والحكم الذاتي (السودان ٧٢ - ١٩٨٢) والفيدرالية (نيجيريا - الكمرون - تنزانيا - جزر القمر) فان هذا الأسلوب قد فشل في تحقيق غاياته مما يفصح عن ان اللجوء إليه كان بمثابة عملية تكتيكية مرحلية للعودة مرة أخرى إلى الاندماج الطائفي الاكراهي وهو ما دفع

بالأقاليم والجماعات المضطهدة إلى رفع رايات تقرير المصير والاستقلال باعتبار أنه هو الحل الأخير أمامها وذلك في ظل المساندة الفكرية الغربية الراهنة والدعم المادي الغربي لهذا التوجه مع ما يحمله في طياته من مخاطر جمة علي استقرار القارة الأفريقية .

ان أزمة الاندماج الوطني علي النحو الذي تم تحديده والتعامل معه بالشكل الذي تم توضيحه قد أسفرت عن العديد من المشكلات كالحروب الأهلية والتي وصلت في بعضها إلى حد الانهيار الكامل لجميع مؤسسات الدولة وعليه فطالما بقيت تلك الأزمة دون حل سلمي ومقبول يسمح بالمشاركة في السلطة وتقاسم الثروة واحترام التنوع الثقافي والاجتماعي فان مثل تلك المشكلات ستستمر في القارة وستستمر معها أيضاً تلك التبعات والنتائج الوخيمة التي تنال من جميع مقومات وموارد الدولة في أفريقيا وتستنزفها في صراعات لا نهاية لها.

رابعاً. التحدي العسكري :

طالما انتقلت خاصية احتكار القوة بمفهومها العام والتقليدي من الدولة إلى العسكريين واصبحوا هم المحتكرين الأساسيين لها واصبحوا هم الجهة القادرة علي فرض الإكراه تكون الدولة قد سلبت منها أحد الأركان الأساسية أو الخصائص المميزة لها والتي تعد جوهر سيادتها ، فتورط العسكريين المستمر في الحياة السياسية داخل الدولة في أفريقيا وانتفاء الطابع الحيادي عنهم يجعل هناك نوع ما من ازدواجية السلطة وهو ما يمثل أحد التحديات الرئيسية التي تواجه الدولة في أفريقيا ، كما أن تكرار الانقلابات العسكرية ربما يكون المؤشر الأفضل لاغتراب النخبة العسكرية وعدم الولاء للنظام الحاكم والدليل علي ذلك انه خلال الفترة من عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٨١ وقع أكثر من ٤١ انقلاب ناجح ووقعت

في ٢٢ دولة أفريقية بالإضافة إلى محاولات كثيرة لم تنجح ومن عام ١٩٦١ فان التدخل العسكري في السياسات الأفريقية أصبح متوطناً واستطاعت الجيوش الأصغر القيام بمثل تلك المغامرات والانقلابات الناجحة واصبح الجيش أكثر الخصوم الداخليين خشية من جانب الحكام الأفارقة سواء كانوا مدنيين أو عسكريين ومن ثم فقد أصبحت المهنة العسكرية مقدمة أو مرحلة انتقالية للوصول إلى السلطة السياسية، فقد تخلى العسكريون عن مجرد كونهم موظفين حكوميين يدينون بالولاء للحكومة لصالح ان يكونوا هم أنفسهم حكاماً علي بلدانهم ويلاحظ ان عدم الفعالية للحكومات الأفريقية امتدت إلى الجيش أيضاً كما هو الحال بالنسبة للأجهزة والمؤسسات المدنية للدولة، فساد أيضاً فيه سوء الإدارة وسوء التنظيم ففي التطبيق يلاحظ ان معظم الجيوش الأفريقية كانت اقرب إلى كونها تنظيمات سياسية من كونها تنظيمات عسكرية، كما كانت متأثرة بالفساد والتشرذم وأنماط السلطة القائمة ليس فقط علي الرتبة والدور أو الوظيفة ولكن أيضاً علي الولاءات الاثنية والشخصية كما ان مقدرة الجيوش الأفريقية علي التعامل مع الصراعات الداخلية كانت مبهمة فعلي الرغم من التفوق الشامل في الرجال والعتاد فالجيش الفيدرالي النيجيري مثلاً واجه صعوبة بالغة في دحر القوات بإقليم بيافرا في نهاية الستينيات وكذلك الحال في كل من السودان وأنجولا وإثيوبيا وليبيريا والكونغو الديمقراطية (زائير سابقاً) وغيرها في الكثير من الفترات التي مرت بها هذه الدول. (٨٥)

وهكذا فان القوات المسلحة تمثل عائقاً وتحدياً سافراً . في كثير من الحالات . أمام أي تحول إيجابي للدولة في أفريقيا ومن ثم يتركز الأمر هنا في كيفية نزع الصفة العسكرية عن الصراعات السياسية وإخضاع المجتمع للإرادة المدنية

وكيفية بسط المدنيين لسيادتهم علي القوات المسلحة ، والمشكلة أيضاً ان القوات المسلحة تمقت وتقاوم أية محاولات لإصلاح المؤسسات الاجتماعية لا تنبع منها ولا تتولى قيادتها بنفسها مهما كانت هذه المحاولات ضعيفة ومن ثم فان تحقيق الاستقرار في العلاقات بينهما يستلزم ضرورة إعادة الاحتراف للقوات المسلحة وغرس القيم المدنية الخاصة بالطاعة المطلقة للسلطة المدنية من جانب القوات المسلحة وخفض النفقات العسكرية وتوفير ظروف عمل مناسبة للضباط وتوعيتهم سياسياً وإجراء تخفيض مؤثر للقوات المسلحة والاختيار السابق يعنى تسريح الجيش بشكل أساسي وان كان هذا الأمر يبدو صعباً وعسيراً إلا انه علي قدر كبير من الأهمية وذلك لان حجم القوات المسلحة ومهمتها الاجتماعية مشكلة خطيرة في معظم الدول الأفريقية وقد تكون هناك حاجة لاستراتيجية دولة بلا قوات مسلحة بالنسبة لغالبية تلك الدول والاستعاضة عن ذلك بقوة عسكرية إقليمية وقواعد وسياسات تحكمها لتتولى مسألة الأمن الإقليمي للمنطقة. (٨٦)

المطلب الثالث: إصلاح الدولة في أفريقيا

ان الإصلاح الجذري للدولة في أفريقيا هو أمر ضروري من أجل الاستقرار السياسي والتنمية الاقتصادية وهما الهدفان اللذان لم يتحققا بسبب عدم قدرة الأفارقة علي التراضي والتوافق ولعل مثل هذا الإصلاح للدولة الأفريقية يمكن ان يتم من خلال إعادة التفكير أو إعادة الهيكلة أو إعادة صنع تلك الدولة ولا يعنى ذلك إعادة هيكلة المؤسسات فقط وانما ينبغي إعادة التفكير الشاملة لكل مكونات الدولة ولكل ما يتصل بها داخلياً وخارجياً مع مراعاة ان هناك تفاوتاً في حالات و أوضاع الدول الأفريقية ما بين الدولة الهشة وشبه الدولة والدولة المتحللة والدولة المنهارة وهو الأمر الذي ينبغي أخذه في الاعتبار لكي تكون

إعادة التفكير و إعادة الهيكلة والتحول مجدية، ولكي يتم ذلك يجب الاهتمام بكل من العلاقات بين الدولة والشعب بمعنى تجديد أسس المواطنة والعلاقات بين الدولة وأقاليمها والعلاقات بين الدولة والموارد ونظم الملكية والعلاقة بين الدولة ومؤسساتها ووظائفها. (٨٧)

وإذا كانت الفترة منذ عام ١٩٨٥ وحتى عام ١٩٩٠ قد شهدت إجبار أكثر من عشرين نظاماً فردياً علي التحول إلى الليبرالية كما تم إجراء انتخابات بين أحزاب متعددة في ثمان دول أفريقية وانه بحلول عام ١٩٩٧ أصبحت حوالي ثلاثة أرباع الدول الأفريقية تحت حكم ديمقراطي إلا ان مثل هذه الإجراءات والممارسات ومثل هذا المشروع الديمقراطي كوسيلة لإصلاح الدولة في أفريقيا يبقى متردداً ومتعثراً وغير قادر علي النمو بشكل كفي، ففي دول مثل ساحل العاج وغينيا وتوجو والجابون وكينيا كان ممكناً ملاحظة وجود مجرد مظاهر ديمقراطية كاذبة حيث تتولى السلطات معظم الانتخابات وهي مكرهة وتسعى لتخليد الحكم الاوتوقراطي في ظل مظاهر زائفة للحكم الديمقراطي وفي غانا وغينيا الاستوائية والنيجر وجامبيا أصبح الحكام العسكريون ديمقراطيين فجأة ويعززون سلطاتهم أكثر بواسطة عمليات الانتخابات المزورة أما في نيجيريا والجزائر فالحكام المستبدون المعارضين للانسحاب من السلطة أفسدوا عن قصد العمليات الانتخابية من خلال إلغاء الانتخابات وفي سيراليون قام العسكريون بعملية عسكرية لإقصاء الحكومة المنتخبة و إعادة الحكم العسكري كما ان دولاً مثل ليبيريا ورواندا وبوروندي والصومال والسودان والكونغو الديمقراطية احتلت فيها قضايا السلام وتسوية المنازعات الداخلية و إعادة البناء الأولوية عن الكثير من القضايا مثل قضية التحول الديمقراطي. (٨٨)

وعلي جانب آخر فان الدولة في أفريقيا . وفي سبيل تحقيق الإصلاح السياسي لها . في حاجة ماسة إلى قاعدة اقتصادية سليمة قبل الإصلاح المتعلق بالتعددية السياسية والتحولات الديمقراطية وليس بالإمكان تخيل فصل الاعتبارات السياسية عن الاعتبارات الاقتصادية أو استثناء الشعب من الاختيار للإجراءات والترتيبات الاقتصادية ويلاحظ انه علي مستوى القارة الأفريقية لم يكن هناك نظام حكم سلطوي قادر علي إقامة نجاح اقتصادي دائم وعلي سبيل المثال فكل من الكاميرون والجايبون وساحل العاج وملاوي والمغرب وكينيا وتوجو والتي زعمت كل منها أو بعضها أنها تعد نماذج للنجاح الاقتصادي الأفريقي فمع بداية التسعينيات كانت الطموحات الاقتصادية لها قد انزوت أو تلاشت في ظل استسراء الفساد والنهب وجمود النظام المؤسسي المقاوم للإصلاحات السياسية وفي كل من ليبيريا والصومال فان المكاسب المحققة نتيجة الإصلاح الاقتصادي في ظل نظم حكم سلطوية تم تقويضها خلال الاضطرابات الداخلية الناجمة عن سياسات وممارسات القادة ورفضهم الرضوخ للمطالب الشعبية من أجل الإصلاح السياسي وغيرها من الإصلاحات الداخلية. (٨٩)

ان عملية إعادة تأسيس أو صنع الدولة الأفريقية تشير إلى ان الثورة السياسية في أفريقيا المعاصرة ما زالت محدودة بالمركز وان عملية إعادة التأسيس تتم بنفس الأنماط والإجراءات التي سبق ان فشلت في أفريقيا منذ الستينيات ومن ثم فان استراتيجيات "القمة - القاع " Top - down لا تستطيع تذليل المشكلات التي تعاني منها الدولة وذلك لأنها غير قادرة علي دمج وتوحيد السكان أو وضع هياكل للعمل الجماعي مقبولة من جميع القوى داخل المجتمع لذلك فإن إعادة تأسيس الدولة الأفريقية تتطلب حل هذه المشكلات

إذا أرادت التعامل مع التنوع الاثنى والديني وعلي اعتبار أنه يمكن للشعوب ان تحكم نفسها أفضل في ظل نظم فيدرالية ومشاركة وتفعيل علي مستوى جميع أجهزتها وكذلك التأسيس لهياكل حقيقية وحيوية أو متطورة للحكم المحلي هذا من ناحية ، كذلك فان أفريقيا تعاني حالياً فترة من التحول نحو الإصلاح و إعادة التنظيم السريعة وقد يكون توجهها هذا للأفضل أو للأسوأ وعلي سبيل المثال فالمشكلات الاقتصادية خلال السبعينيات والثمانينيات قادت العديد من الدول الأفريقية إلى اعتناق سياسات اقتصادية كبيرة Macro وبرامج للتكيف الهيكلي ومن ثم فان النتائج المترتبة علي ذلك لم تقود إلى تغيير أو تحسين جوهري وانما اقتصر الأمر علي مجرد إعادة صياغة مؤسسات واستراتيجيات الستينيات ومشكلة أفريقيا في جوهرها أنها لا زالت واحدة من المناطق المتخلفة فالشعوب فقيرة والمصادر والموارد غير مستغلة جيداً والمؤسسات غير فعالة في إدارة العمل الفردي والجماعي المطلوب لحل هذه المشكلات، كما ان الخدمات مثل الصحة والمياه والتعليم فقيرة وغير موجودة و البنية الأساسية ليس بالإمكان إقامتها وإذا كانت قائمة فانه يصعب المحافظة عليها وصيانتها والمشروعات غير مكتملة والصراع المدني بغير تسوية ومن ثم فإن الحديث عن الإصلاح السياسي والحكم الجيد والفعال والتحول الديمقراطي يكون بمثابة اللغو طالما ان هذا التخلف قائم وإذا كان التخلف يلاحظ كحالة رئيسية للمشكلات الأفريقية فان خبرة العقود الماضية تشير إلى انه ما زال هناك عدم إدراك واضح لما يمكن القيام به في هذا الصدد وجميع التجارب ما زالت قاصرة عن الاستجابة المؤثرة في هذا الشأن، فالديمقراطية الليبرالية و الليبرالية الاقتصادية والتجريب الأيديولوجي واستخدام القوة والتوجيه المركزي والتكيف الهيكلي جميعاً جربت وجميعها فشلت. (٩٠)

ومن ثم فان الحاجة تبدو شديدة لإعادة المراجعة الدقيقة والموضوعية لمثل تلك التجارب والممارسات لحالات الدول الأفريقية وان تنبع الإرادة الحقيقية للتغيير والإصلاح السياسي من داخل تلك الدول ذاتها وبما يتناسب مع قدراتها ومتطلباتها .

إذن فماذا تحتاج الدولة في أفريقيا ؟ ان الدولة في أفريقيا تحتاج إلى ما يلي: (٩١)

أولاً. مزيد من نظم الحكم المسئولة لتعزيز دورها الوظيفي والنافع بدلا من نظم وسياسات وممارسات عصر الحرب الباردة اللامسئولة.

ثانياً. ان الفاعلين الأفريقيين والدوليين مسئولون عن الملاحقة الجنائية لكل من مارس أو شجع علي الممارسات القمعية والفساد داخل الدول الأفريقية سواء كانوا في مؤسسات رسمية أو غير رسمية ويجب وفقاً لذلك ان يخضعوا للعقوبات .

ثالثاً. ان يكون هناك نوع من العمل المنظم والمنسق بين الهيئات والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية وذلك للمساهمة فبتسوية كثير من المشكلات مثل إنهاء المتمرعات المتنامية في كثير من الدول مثل أنجولا وليبيريا وسيراليون والصومال والكنغو الديمقراطية وغيرها والاعتراف بان جيوبوليتيكية الحرب الباردة وان كانت مسئولة عن الحروب بالوكالة في أفريقيا كسلوك شائن للدكتاتوريات الموجودة في مناطق مختلفة من القارة فان الواقع المعاصر الذي تعايشه الدول الأفريقية لا يجب ان يسمح بمثل ذلك.

رابعاً. ضرورة أن يكون هناك متابعة عادلة من جانب الجهات التمويلية الدولية لإعادة التجديد وإعادة التأسيس للأوضاع المختلفة في الدول الأفريقية وخصوصاً في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية باعتبارها المقدمة الحقيقية لأيّة إصلاحات سياسية حقيقية.

إذن فإن عملية الإصلاح للدولة في أفريقيا ينبغي ان تقتصر بما يلي: (٩٢)

١ - وجود دستور قائم علي التوازن والمراجعة ويتم التفاوض بشأنه بحرية ويتم تبنيه بطريقة ترغيبية و رضائية وتوفيقية وليس في ظل الإكراه والتهديد والترهيب.

٢ - وجود دولة علمانية وغير أيديولوجية وغير تمييزية وغير إثنية.

٣ - الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية مع ضرورة تفعيل جميع هذه السلطات وتفعيل التعاون الإيجابي فيما بينها من أجل القيام بوظائف حقيقية لصالح الدولة.

٤ - وجود حكم القانون مع إمكانية حق التقاضي أمام المحاكم مع وجود قائمة بالحقوق وضمانات كافية للحريات.

٥ - وجود اتحادات ونقابات مستقلة ومؤثرة وتنظيمات المجتمع المدني بحيث تكون نشيطة وفاعلة.

٦ - وجود جيش محترف ومحايّد وعلي إدراك ووعي بأهمية دوره في استقرار و أمن وتنمية البلاد.

٧ - وجود مشاركة شعبية غير مقيدة وغير فوضوية.

ومما تقدم ينبغي توضيح ان الظاهرة المتكررة لعدم الاستقرار السياسي، و الصراعات المدنية و الاثنية، في الدول الأفريقية وان كانت تجعل هناك نوعاً من

الارتباك حول الخيارات المتاحة أمام النظم الحاكمة القائمة ومؤسساتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فإن الاعتقاد الثابت هو أن الدول الأفريقية سوف تصبح حيوية فقط بقدر ما تتمسك بالقواعد والمعايير والتطبيقات المعقولة والمناسبة دولياً للحكم الجيد، والتنمية الاقتصادية. (٩٣)

وهذا الذي تم توضيحه يعد من العناصر الأساسية لأي نظام سياسي رشيد يمكن ان يقوم في الدولة الأفريقية بحيث يكون معززاً ومدعماً لها و ينبغي علي كل دولة في إطار مراجعة دساتيرها وقوانينها وبرامجها وسياساتها وممارساتها ان تراعى ذلك بقدر المستطاع وبما يتفق مع ثقافتها وتاريخها وخبراتها وقدراتها وتطلعاتها وبمناى عن أي ضغوط خارجية.

خاتمة

ان أزمة الدولة في أفريقيا هي من الأزمات الراهنة المزمنة والمستعصية حتى الوقت الحاضر، وإذا كانت تلك الدولة قد تطورت عبر مراحل التاريخ المختلفة، قبل التكالب الاستعماري عليها، وهو ما يثبت وجود العديد من الحضارات والممالك القوية، في أرجاء مختلفة من القارة الأفريقية، فإنها خلال الحقبة الاستعمارية لم تترك لتتطور وتتحول بالطريقة الطبيعية، وإنما ظل العنصر الاستعماري المتدخل في شئونها علامة بارزة وسبباً رئيسياً ومباشراً في تنامي وتعاضم أزماتها تلك، ويلاحظ أن إسهامات النظم الحاكمة الوطنية - في مرحلة ما بعد الاستقلال - في تلك الأزمة كانت ظاهرة ومستمرة منذ سنوات طويلة، وأخذت صوراً متنوعة في ظل الاحتكار لكل من الثروة والسلطة، وما ترتب علي ذلك من مساوئ شتى، انعكست تأثيراتها علي مجمل كيان و أبنية ومؤسسات الدولة ووظائفها وممارساتها، وإذا كانت أزمة الدولة في أفريقيا، قد وصلت إلى أقصى وأقصى مدى يمكن ان تصل إليه في بعض الحالات، وذلك بانهيار العديد من الدول، ووصول البعض الآخر إلى حافة الانهيار، وهكذا تتفاوت درجات الأزمة والمعاناة، فان ما يمكن ان يبعث علي الأمل هو ان يحدث الانفراج بعد كل هذا التأزم عن طريق إحداث تحول داخلي حقيقي.

ومن هذا المنطلق فان أي محاولة للتغيير وإحداث الانفراج في الوقت الراهن، يجب ان تكون بدافع أفريقي وإرادة أفريقية، ولا يعنى ذلك مجرد إعادة صياغة السياسات والممارسات القديمة، وإنما يجب ان يكون هناك إدراك تام لعملية التغيير، والأسس التي تقوم عليها، ومقوماتها، وأهدافها، وآلياتها، وان يتم تفعيل هذه العملية باستمرار، وان تشمل جميع عناصر وقطاعات الدولة ابتداء من دستور الدولة ومؤسساتها الحكومية وغير الحكومية وعلاقاتها الداخلية

والإقليمية والدولية ووظائفها المستهدفة والمحقة، وقبل كل هذا وذاك فانه بدون البدء بالمواطن علي المستوى الشعبي والقاعدي باعتباره النواة الحقيقية للمجتمع والدولة، والذي ينبغي ان تبدأ من عنده أي محاولة جادة لأي تغيير حقيقي وفعال، وان يلمس هو هذا التغيير في حياته اليومية، فالمواطن ليس في حاجة إلى مزيد من الشعارات أو الخطط أو الاستراتيجيات أو المؤتمرات وغير ذلك الأشياء التي لا تتحقق، والمواطن لكي يلمس التغيير يجب ان تحترم وتتاح له الحاجات الأساسية (البيولوجية) من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن وزواج وذلك كحد ادني لاحتياجاته، ومن هنا تكون البداية الفعلية للتغيير، كذلك فان وضع الزعامة القيادة السياسية بالحالة التي ظلت وما زالت عليها حتى الآن في الدولة الأفريقية، ليس بالإمكان ان تتناسب أو ان تساعد في عملية التغيير المرجوة، فيجب ان تتغير النظرة التقليدية لتلك القيادة سواء في الأسس التي تقوم عليها أو في خصائصها أو في أدوارها أو في علاقاتها مع المحكومين أو في علاقاتها مع أنفسهم أو في علاقاتها مع مؤسسات الدولة أو في علاقاتها مع دستور وقوانين الدولة ووظائفها وعلاقاتها الداخلية والخارجية أو في علاقاتها مع أقاليم وموارد وقدرات الدولة المختلفة.

ان مجرد التحديد للمشكلة يعد أولى خطوات حل المشكلة، وإذا كانت مشكلة الدولة في أفريقيا تحددت أزمته المعاصرة والمزمنة في حالات الضعف بل والانهيار والتخلف وعدم الاستقرار وصولاً إلى مرحلة افتقار مقومات وأركان الدولة في بعض الأحيان، فإن هذا التحديد يمكن أن يمثل بداية إعادة التغيير، وبداية إعادة الإصلاح، والأمل كبير في ان تستثمر أفريقيا شداثها وأزماتها من أجل إعادة البناء لدول جديدة وناهضة في النهاية.

قائمة الهوامش والمراجع

(١) راجع كل من:

- د. إبراهيم نصر الدين: " إشكالية الدولة في أفريقيا "، بحث مقدم إلى ندوة أفريقيا اليوم: قضايا داخلية وخارجية (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة، ٢٠٠٠) ص ص ١٦، ١٧ .

- Robert H .Jackson & Carl G .Rosberg: "why Africa's weak state persist the empirical and juridical in statehood" in, world politics (Princeton : the trustees of Princeton university , vol .35 no .1 .October 1982) pp. 2, 3.

(٢) عز الدين شكري " أزمة الدولة في أفريقيا " السياسة الدولية (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الأهرام، العدد ١١٠، أكتوبر ١٩٩٢) ص ٦٧ .
(٣) راجع كل من :

د. إبراهيم نصر الدين، إشكالية الدولة ... مرجع سبق ذكره، ص ص ١٧، ١٨ .

Robert H .Jackson & Carl G Rosberg, op.cit., pp 3-11.

(4) Naomi Chazan (others) : Politics and Society in Contemporary Africa (Colorado: Lynne Rienner publishers,1992.) pp . 38 - 42.

(5) Donald Rothchild & letitia Lawson , "the interactions between state and civil society in Africa form deadlock to new routines" in ,John Harbeson, Donald Rothchild & Naomi Chazan : Civil Society and the State in Africa (London : Lynne Rienner publishers,1994) pp.258, 259.

(٦) بيتر انيانج نيونجو: " مقدمة " ترجمة د. شهرت العالم، في بيتر نيانجو (تحرير): من تجارب الحركات الديمقراطية في أفريقيا والوطن العربي (القاهرة: مركز البحوث العربية ١٩٩٥) ص ص ٢٣ - ٢٩ .

(7) Goran Hyden " rethinking theories of the state _ an Africanist perspective " in, Africa Insight, (Pretoria, the Africa Institute of South Africa, vol.26,no 1, 1996.).P31.

(٨) هاري جولبورن: " الدولة والتنمية وضرورة المشاركة الديمقراطية في أفريقيا " ترجمة مصطفى مجدي الجمال في بيتر نيانجو (تحرير)، مرجع سبق ذكره، ص ٤٩ .

(9) Goran Hyden, op.cit., pp.26 - 35.

(١٠) لمزيد من التفاصيل راجع أيضاً: سمير أمين " الدولة ومسألة التنمية " في، بيتر نيانجو، مرجع سبق ذكره، ص ص ٥ - ٢٠ .

(١١) راجع أيضاً ولمزيد من التفاصيل:

سعيد أوجموي: " بناء المستقبل: أفريقيا وتحديات الديمقراطية والحكم الرشيد في القرن الواحد والعشرين " في، التنمية والتقدم الاقتصادي (القاهرة: منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية، العدد ٧٥، يناير / مارس ١٩٩٩ (ص ص ٢٩ - ٤٠ .

(١٢) راجع أيضاً ولمزيد من التفاصيل:

Errol A .Henderson : " the impact of culture of African coups d'Etat , 1960 _ 1997" in, World Affairs " Washington D .C ..American peace society ,Vol. 161, no.1, Summer 1998) pp. 10 - 190.

(١٣) راجع في هذا المعنى:

Jeffrey Herbst "responding to state failure in Africa " in, International Security (Harvard: Harvard college vol .21 , no .3 winter , 1996 /1997) p 120.

(١٤) رولاند أوليفر و جون فيج: تاريخ أفريقيا - ترجمة د. عقيلة محمد رمضان (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٩٤) ص ص ٧ ، ٨ .

(١٥) المرجع السابق، ص ص ٨ - ١٢ .

(١٦) د. حمدي عبد الرحمن حسن: قضايا في النظم السياسية الأفريقية (القاهرة: مركز دراسات المستقبل الأفريقي، ١٩٩٨) ص ص ٤١ ، ٤٢ .

(١٧) د. إبراهيم نصر الدين إشكالية الدولة ...، مرجع سبق ذكره، ص ١١

(١٨) نفس المرجع السابق..

(19) Abdoulaye Bathily " the west African state in historical perspective " in, Okwuudiba Nnoli (ed.,) Government and Politics in Africa (Harare: AAPS Books, 2000) p. 32.

(٢٠) راجع كل من:

Ibid ., pp. 32 - 35 .

و رولاند أوليفر و جون فيج: مرجع سبق ذكره، ص ص ٥٠ - ٥٢ .

(٢١) درك كارتن: أفريقيا - أفريقيا: قارة تقف علي قدميها _ ترجمة احمد فؤاد بلبع (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٥) ص ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢٢) د. حمدي عبد الرحمن حسن: مرجع سبق ذكره، ص ٥٣ .

- (٢٣) راجع كل من: المرجع السابق، ص ص ٥٥ - ٥٧ .
- فريدفون دير مهدن: السياسة في الدول النامية ترجمة مصطفى عباس (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب والأجهزة العلمية، ١٩٦٨) ص ص ٧ - ٩ .
- (٢٤) د. إبراهيم نصر الدين: إشكالية الدولة ... مرجع سبق ذكره، ص ص ١١ - ١٢ .
- (٢٥) المرجع السابق، ص ص ١٢ - ١٣ .
- (٢٦) المرجع السابق، ص ١٣ .
- (27) Peter Anyang Nyong'o: "Africa: the failure of one - party rule" in, Journal of Democracy (Baltimore, Johns Hopkins university press, vol.13 no.1 January 1992) p.91
- (28) George B .N .Ayiittey : Africa Betrayed (New York , St.Martins press , 1992) P 91.
- (٢٩) د. إبراهيم نصر الدين، إشكالية الدولة ... مرجع سبق ذكره، ص ١٤ .
- (٣٠) المرجع السابق، ص ص ١٥ ، ١٦ .
- (31) Ptwin Marenin " the managerial state in Africa: conflict coalition perspective "in, Zaki Ergas: The African State in Transition (London: Macmillan press, 1987) P 65.
- (٣٢) هاري جوليورن، مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٣ - ٤٥ .
- (٣٣) بيتر انيانج نيونجو، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤ .
- (34) Claude E .Welch jr.,: "the military and the state in Africa : problems of political Transition" in. Zaki Ergas, op .cit , pp 192 , 193.
- (٣٥) عز الدين شكري، مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٧ .
- (36) Jeffrey Herbst, "war and the state in Africa" in. International Security(Vol .14 , no . 4 spring 1990) pp. 125 - 128.
- (٣٧) راجع :
- د. عبد الملك عودة: " الأزمة الراهنة في أفريقيا ١٩٨٤ - ١٩٨٥ " السياسية الدولية (العدد ٨٢ أكتوبر ١٩٨٥) ص ص ٤٠ - ٤٤ .
- وانظر أيضاً:
- Richard Hodder - Williams : An Introduction to the Politics of Tropical Africa (London :George Allen & Unwin , 1984) PP 113-140
- (٣٨) راجع أيضاً ولزيد من المعلومات حول هذا المعنى:
- Boniface Yao Gebo : "the African state system - the paradox of political Uni-

versalism "in, Africa Quarterly " (New Delhi , Indian Council for Cultural relations , vol. 36, no.3 ,1996) pp. 15-17.

(٣٩) راجع لمزيد من التفاصيل حول هذا المعنى:

Dipo Irele "the nation _ state in Africa : a fresh look" in, Africa Quarterly (vol. 38, No. 2, 1998) pp. 55-58.

(٤٠) راجع لمزيد من التفاصيل حول هذا المعنى:

Pauline H.Boker " reflections on the economic correlates of African democracy" in, Dov Ronen : Democracy and Pluralism in Africa (Colorado , Lynne Rienner publishers inc , 1986 .) p.60.

(٤١) راجع حول تناقص الفعالية السياسية للدول الأفريقية:

Boniface Yao Gebo, op.cit.,pp.19,20

(42) Osita Agbu: "human rights implications of African conflicts" In, African Journal of Political Science .(Harare : AAPS, vol .5 no .1 June 2000) pp 95 , 96 .

(٤٣) راجع حول هذا المعنى ولمزيد من التفاصيل كل من:

John W .Harbeson , "constitutions and constitutionalism in Africa : a tentative theoretical exploration " in, Dov Ronen , op.cit., pp 7- 9 .

Richard Hodder –Williams , op.cit., p 113

(٤٤) د. عبد الملك عودة: " الاتجاهات السياسية للدساتير الأفريقية الحديثة " السياسية الدولية، (العدد ١٦ أبريل ١٩٦٩) ص ص ٤٨ ، ٥٥

(45) Harbeson Constitutions.... .op.cit., p .8

(٤٦) د. كمال المنوفي: أصول النظم السياسية المقارنة (الكويت: شركة الربيعان للنشر والتوزيع ١٩٧٨) ص ٢١٤

(٤٧) بول سيجموند: أيديولوجيات الأمم الآخذة في النمو- ترجمة: تيسير محمود فهمي (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤) ص ٢٨.

(٤٨) سعيد أوجموي: مرجع سبق ذكره، ص ص ٣٦ ، ٣٧ .

(49) Michael Bratton "deciphering Africa's divergent transitions" in, Political Science Quarterly (New York: the Academy of Political Science, vol. 112. 1 Spring 1997) PP 69 - 72 .

(50) John w .Harbeson , Constitutions i .op.cit., pp 7 - 9 .

(51) Richard Hodder - Williams, op.cit., p 115.

(52) Peter Anyang Nyong'o, : Africa : the failure i .op .cit., pp.91_93.

(53) Thomas M .Callaghy "the State as lame leviathan : the patrimonial administrative State in Africa "in , Zaki Ergas, : op .cit ., pp 87 - 116.

(٥٤) هاري جولبورن، مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٥٥) المرجع السابق، ص ٤٩ .

(٥٦) المرجع السابق، ص ص ٥٠ ، ٥١ .

(57) Dov Ronen "the state and democracy in Africa" in, Dov Ronen, democracy, op.cit., pp. 197 - 201.

(58) Dipo Irele, op.cit. pp 55 - 56 .

(٥٩) حول التدابير التي اتخذتها الحكومات الوطنية من أجل الوحدة القومية انظر: فريد فون دير مهندن، مرجع سبق ذكره، ص ص ٦٢ - ٦٨ .

(٦٠) د. إبراهيم نصر الدين: الاندماج الوطني في أفريقيا: نموذج نيجيريا (القاهرة: مركز دراسات المستقبل الأفريقي ١٩٩٧) ص ٩ .

(٦١) المرجع السابق، ص ص ٧ ، ٨ .

(٦٢) فريدفون دير مهندن، مرجع سبق ذكره، ص ص ٥ ، ٦ .

(٦٣) د. حورية توفيق مجاهد: نظام الحزب الواحد في أفريقيا بين النظرية والتطبيق (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧) ص ص ١٤٩ - ١٥٥ .

(٦٤) بول سيجموند، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٥ .

(٦٥) المرجع السابق، ص ص ١٧ ، ٢٣ ، ١٥٦ .

(66) Jeffry Herbst , "the fall of afro - Marxism "in, Journal of Democracy (vol 3 , no.1 January 1992) PP. 62 - 94.

(67) Ibid ., pp. 95 - 100.

(68) Harvey Glickman "reflections on state - centrism as ideology in Africa " in , Zaki Ergas, op .cit., p. 25.

(69) Marina S. Ottowoy, "the crisis of the socialist state in Africa" in, Zaki Ergas, op.cit., p,169 .

(٧٠) راجع في هذا المعنى

Peter Evans : "the Eclipse of the state ? reflection on Stateness in an Era of Global-

ization "in, World Politics (vol. 50 , no. 1 October , 1997) pp. 63 - 70 - 74.

(٧١) د . بطرس بطرس غالي : " الدبلوماسية الأفريقية ومشاكل التنمية " السياسية الدولية (العدد ١٨ أكتوبر ، ١٩٦٩) ص ص ٢٤-٦٥ .

(٧٢) د . صادق رشيد : أفريقيا والتنمية المستعصية _ أي مستقبل ... ؟ ترجمة مصطفى مجدي الجمال (القاهرة ، مركز البحوث العربية ، ١٩٩٥) ص ٣٥ .

(٧٣) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٧٤) د . عبد الملك عودة . الأزمة الراهنة ... مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٧٥) المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٧٦) نفس المرجع السابق .

وانظر أيضاً د . صادق رشيد ، مرجع سبق ذكره ص ص ٤٣ - ٤٦ .

(٧٧) بيتر أنيانج نيونجو ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٧٨) د . إبراهيم احمد نصر الدين " العولمة وانعكاساتها علي دول العالم الثالث " في ، د . السعيد البدوي (تقديم) العولمة : اثارها علي أفريقيا (القاهرة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ، ١٩٩٩) ص ص ١٧٢ - ١٧٧ .

وانظر أيضاً لمزيد من التوضيح : عز الدين شكري ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥٨ - ٦٢ .

(79) Celestin Monya : "Eight problems with Africa politics "in, Journal of Democracy (vol. 8, No. 3 , July 1997) pp. 158 - 169.

(80) Denis Venter : "Sustainable Democracy in Sub" Saharan Africa : the interface between politics and economic "in, Africa Insight (vol. 28. No 112 , 1998)pp.3,4.

(٨٠) د . إبراهيم احمد نصر الدين : " ظاهرة الحروب الأهلية في أفريقيا بين أزمة الاندماج الوطني والتحول الديمقراطي " ورقة عمل مقدمة إلى ندوة الصراعات والحروب الأهلية في أفريقيا (القاهرة : منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية ، ٢٠ أبريل ٢٠٠٠) ص ص ٥ ، ٦ .

(٨٢) د . إبراهيم احمد نصر الدين : العولمة مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٦٥ - ١٦٨ .

(٨٣) مراجع ولمزيد من التفاصيل :

المرجع السابق ، ص ص ١٧٠ - ١٧٢ .

د . سعد حافظ محمود ، " مفهوم العولمة من منظور تطوري " في ، د . السعيد البدوي (تقديم) : مرجع سبق ذكره ، ص ص ٤٥ - ٤٧ .

Peter Evans , op.cit., PP. 62 - 66, 74 - 78.

(٨٤) د. إبراهيم احمد نصر الدين: ظاهرة الحروب الأهلية مرجع سبق ذكره ، ص ص ٦-٨ .

(85) Robert H. Jackson & Carl G .Rosberg , op .cit., pp. 8 - 10.

(٨٦) سعيد أوجموي ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٨٧) راجع ولمزيد من التفاصيل :

ايبوي هتشفول : " الأمن والقانون والنظام " في ، مختارات المجلس الأفريقي لتنمية
البحوث الاجتماعية - كوديسيريا) القاهرة : مركز البحوث العربية ، العدد السادس
والثلاثون ، أكتوبر ١٩٩٩ (ص ٥٨ .

بيتر فرانسوا جوندك : " مساهمة في السجل حول إعادة استعمار أفريقيا " في ، مختارات
المجلس الأفريقي لتنمية البحوث الاجتماعية كوديسيريا) العدد الخامس والعشرون ، مارس
١٩٩٦ (ص ٢٨ .

Goran Hyden , op.cit., pp ٣٠ ., 31 .

(٨٨) سعيد أوجموي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧ .

(89) George B. N. Ayittey , op.cit., pp. 314 , 315 .

(90) James S. Wunsch, "Refounding the Africa State and local Self "governance : the ne-
glected foundation _ in, The Journal of Modern African Studies (Cambridge , Cam-
bridge university press , vol. 38 no. 3, 2000) pp 487 - 489.

(91) Richard Joseph & Jeffrey Herbst , " Correspondence : responding to State failure in
Africa" in, International Security (vol .no , fall , 1997) p 181 .

(92) George B .N .Ayittey ,op.cit., p. 328.

(93) Boniface Yao Gibe , op.cit., p. 11.

هجرة العمالة في الجنوب الأفريقي

د. ماجدة إبراهيم عامر (*)

تعد الهجرة عنصراً رئيسياً من عناصر الدراسة السكانية ذلك لأنها فيما عدا الزيادة الطبيعية تعد المصدر الوحيد لتغير حجم السكان ومع هذا فإن دراستها ليست ميسرة مثل دراسة المواليد والوفيات وذلك لاختلاف البيانات بينهما اختلافاً جوهرياً ، وإذا كانت الهجرة عاملاً مؤثراً في نمو السكان فإنها تؤثر بالتالي في خصائصهم الديموغرافية والاقتصادية فالتغير في التركيب العمري والنوعي مثلاً نتاج هام من نتائج الهجرة من الأقليم أو إليه ، ولما كان صافي الهجرة يعنى انتقال السكان من مكان لآخر فإن ذلك يعنى إعادة توزيع السكان في أى منطقة وما يترتب عليه من نتائج ايجابية كتوفر الأيدي العاملة وزيادة فرص الحصول على المدرب منها ، أو نتائج سلبية مثل زيادة عبء الإعالة في المناطق المهاجر منها وخلق كثير من المشكلات السكانية والإسكانية في المناطق المهاجر إليها .^(١)

وتعتبر ظاهرة الهجرة أحد أشكال انتقال السكان من أرض تدعى " المكان الأصلي " أو مكان المغادرة ، إلى أخرى تدعى " مكان الوصول " أو المكان المقصود ويتبع ذلك الانتقال بطبيعة الحال تبدل في مكان أو محل الإقامة .^(٢) وكانت هجرات السكان ومازالت ظاهرة رئيسية للمجتمعات الأفريقية ، ورغم ذلك لم تلق هذه الظاهرة ما تستحقه من دراسة سواء في المجال السكاني أو الاقتصادي وقد يرجع هذا إلى قلة الإحصاء أو عدم دقته بوجه عام فضلاً عن عدم وجود تسجيلات خاصة بالهجرة الخارجية وبالتالي الداخلية في هذه الأقاليم ،

(*) مدرس قسم التاريخ - معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة .

غير أن ما يترتب عليها من آثار اجتماعية واقتصادية يجعل من اللازم طرق هذا المجال من الدراسة . (٣)

وتصنف الهجرة إلى الهجرة الاجبارية التي تحدث غالباً نتيجة الحرب والفيضانات .. الخ وغالباً ما تكون جماعية ، والهجرة الاختيارية التي تحدث طوعية ، وتتم في حالات فردية . (٤)

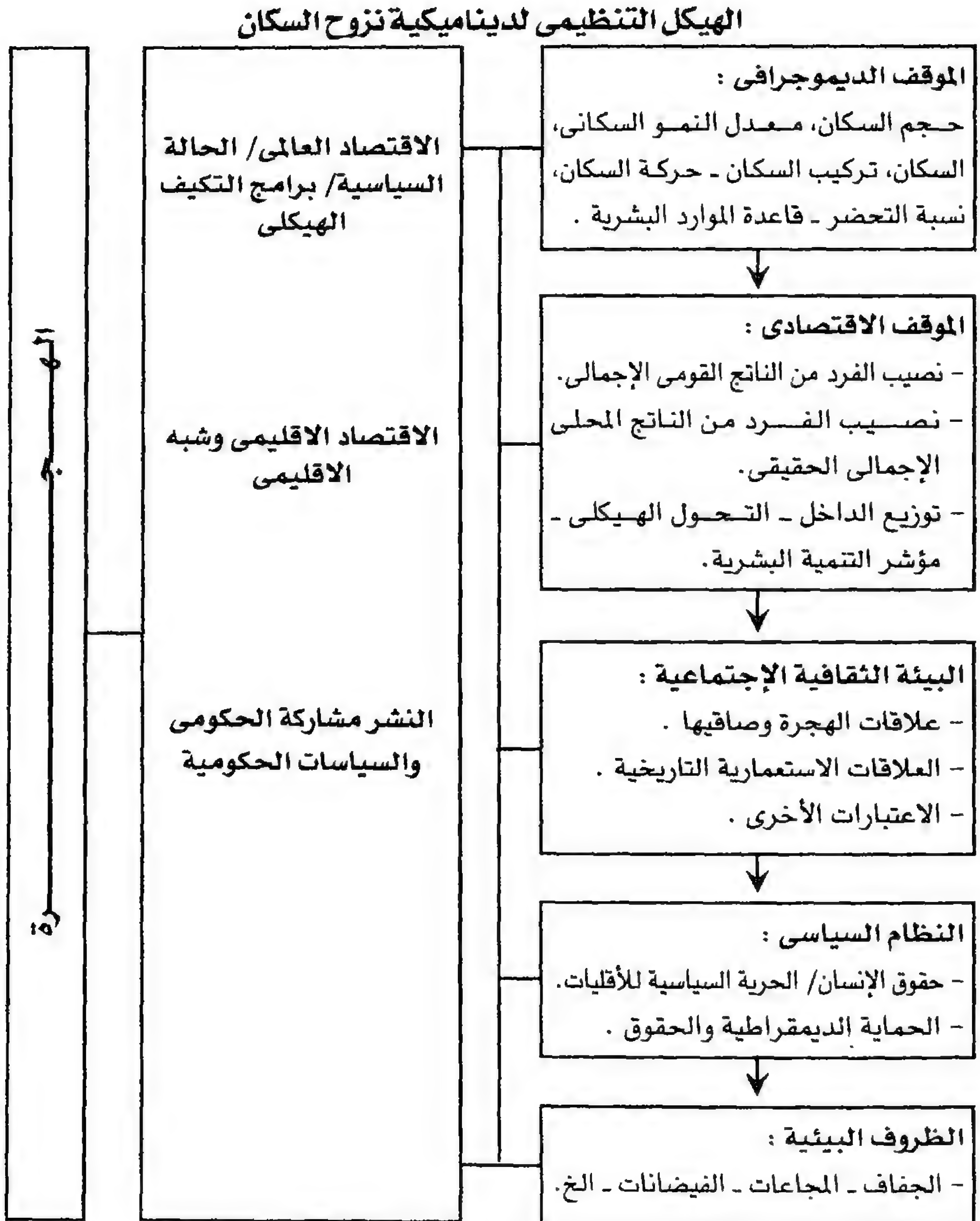
وتتعدد أنماط الهجرة من هجرة بحثاً عن العشب والماء إلى هجرة بحثاً عن العمل ومن هجرة أسرية إلى هجرة فردية . وقد اقتصر البحث موضوع الدراسة على هجرة العمل بين دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقي وتضم كل من (أنجولا ، بتسوانا ، ليسوتو ، ملاوى ، موزمبيق ، ناميبيا ، جنوب أفريقيا ، سوازيلاند ، تنزانيا ، زامبيا وزيمبابوى) . ويعيش في هذه المنطقة نحو ١٤٧ مليون نسمة أى ما يعادل ١٨ , ٤ ؟ من إجمالي عدد سكان القارة الأفريقية على مساحة تبلغ نحو ٦ , ٨ مليون كم ٢ بنسبة ٢٣ , ١ ؟ من إجمالي مساحة القارة . وسوف تركز الباحثة على بعض عوامل الدفع والجذب التي تزيد من الانتقال من المنشأ إلى المهجر ، ثم تدرس التوزيع الجغرافى لأقاليم الصادر والوارد من العمالة وبعض خصائص المهاجرين وآثار الهجرة . وذلك اعتماداً على الاحصاءات التي توفرت للباحثة .

أولاً : - دوافع الهجرة :

تتعدد دوافع الهجرة وتتنوع ، ولا تمثل عوامل الدفع في مجموعها أو بمفردها الأسباب الكلية للهجرات البشرية ولكن لا بد من وجود عوامل جذب تشجع السكان على الهجرة ، وكما أوضح Aderanti Adepoju^(٥) في مقالته عن ديناميكية النزوح في أفريقيا جنوب الصحراء الهيكل التنظيمى لديناميكية نزوح السكان كالتالى:

١- بالنسبة للعوامل الديموجرافية :

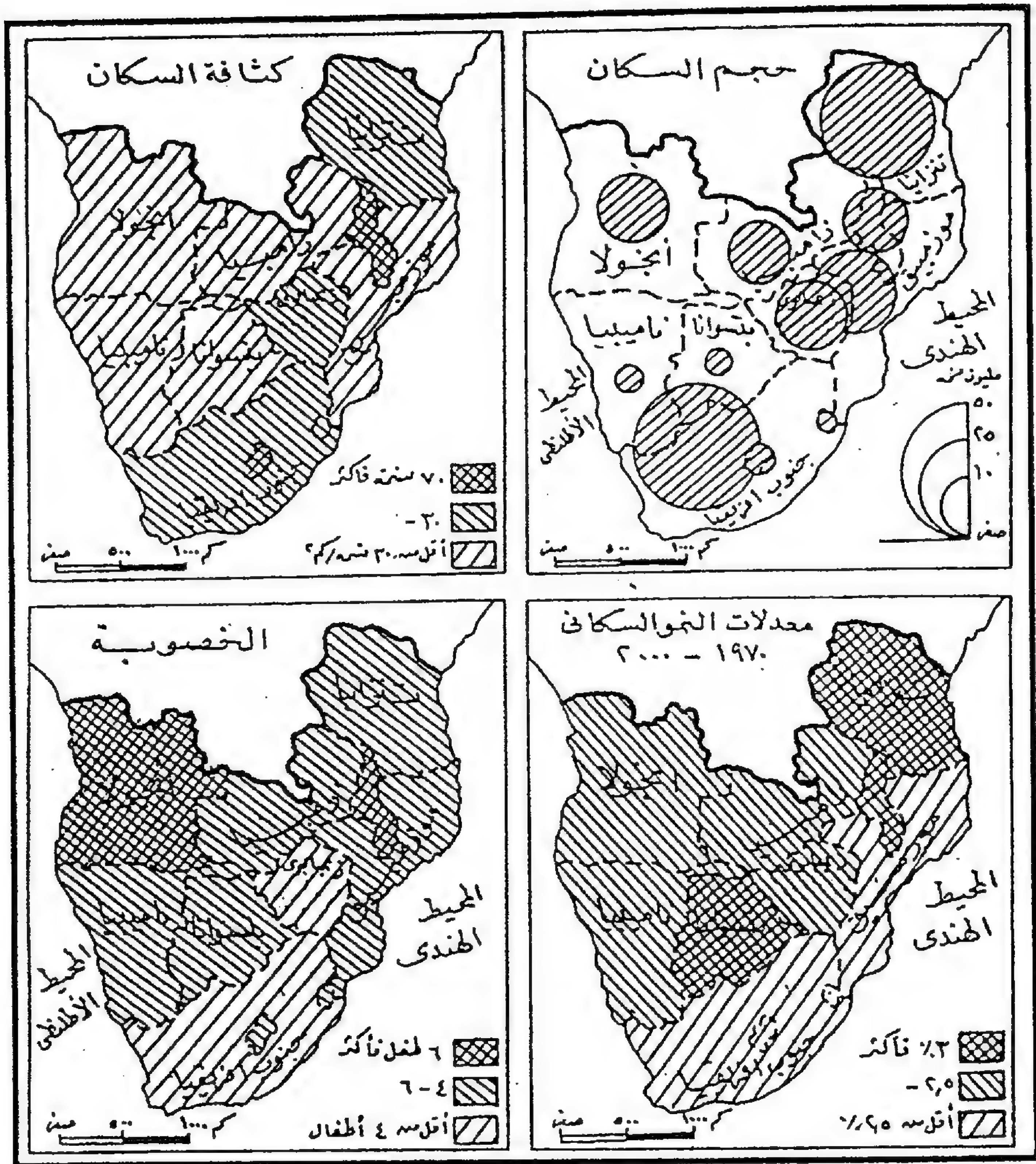
فهى تشير إلى المرحلة الديموجرافية التى تمر بها الدولة ويوضح جدول (١) وشكل (١) المحددات الديموجرافية لهجرة السكان فى الجنوب الأفريقى ومنهما يتضح الأتى :



جدول رقم (١)

(١) المعددات الديموجرافية لهجرة السكان في الجنوب الإفريقي

الدولة	عدد السكان بالمللين	المساحة الف/ كم ^٢	الكثافة نسمة/ كم ^٢ ٢٠٠٠	القوى العاملة بالالاف	معدل النمو السنوي لقوة العمل	معدل المواليد الخام ١٩٩٩	معدلات الوفيات الخام ١٩٩٩	معدلا الخصوبة الكلية ١٩٩٩	معدلات النمو السكاني ١٩٧٠ - ٢٠٠٠
	١٩٧٠	٢٠٠٠		١٩٧٠	١٩٩٩				
أنجولا	٥,٥٨٨	١٢,٧	١٠	٢٨٩٥	٥٦٧٢	٤٧,٨	١٨,٨	٦,٧	٢,٧
بوتسوانا	٦٣٧	١,٦	٣	٢٨٦	٧٠٤	٣٢,٦	١٨,٤	٤,١	٢,١
ليسوتو	١,٦٤	٢,٢	٧٣	٤٦٥	٨٦٥	٣٢,٨	١٢,٨	٤,٥	٢,٤
ملاوي	٤,٥١٨	١١,٣	١١٧	٢٣٥٨	٥١٨٩	٤٥,٩	٢٣,٨	٦,٢	٣,٣
موزمبيق	٩,٣٩٥	١٧,٦	٢٢	٥٣٦١	٨٩٧٨	٤٠,٤	٢٠,١	٥,٢	٢,١
نامبيا	٢,٧٩٢	١,٧	٢	٣٦٠	٧٠١	٣٤,٦	١٥,٣	٤,٧	٢,٥
جنوب إفريقيا	٢٢,٤٥٨	١٢٢١	٢٥	٨٢٣٨	١٦٦٧٤	٢٦,٣	١٤,١	٢,٩	٢,١
سوازيلاند	٤١٩	١٧	٥٩	١٥٨	٣٧١	٢٦,٢	١٣,٣	٤,٥	٢,٩
تنزانيا	١٣,٦٩٤	٨٨٤	٢٨	٧٣٢٦	١٦٩٢٢	٤٠,٣	١٦,٧	٥,٤	٣,٣
زامبيا	٤,١٨٩	٧٤٣	١٤	١٨٩٨	٤١٨٠	٢,٧	٢٠,٦	٥,٤	٢,٩
زيمبابوي	٥,٢٦٠	٢٨٧	٢٣	٢٣٨٨	٥٥٠٠	٢,٩	١٦,٤	٣,٦	٢,٩
الجملة	٦٨,٠١٤	١٤٧	٢١,٦	٢١٦٣٣	٦٥٧٥٦	٢,٥	١٧,٣	٤,٨	٢,٦



شكل (١) المحددات الديموجرافية لهجرة السكان في الجنوب الأفريقي

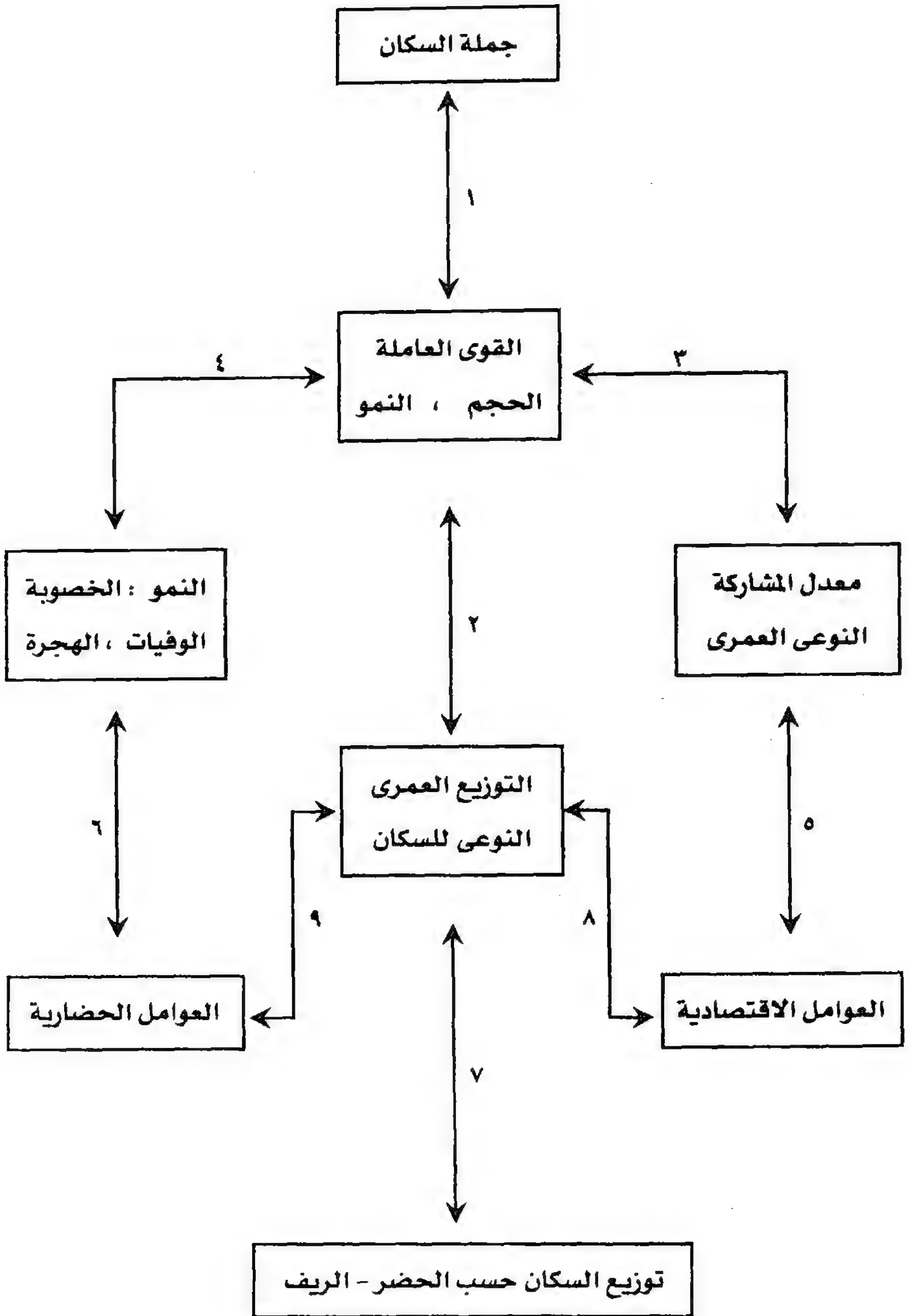
- التطور المطرد لسكان الجنوب الأفريقي حيث بلغوا ١٤٧ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ بعد أن كانوا حوالي ٦٨ مليون نسمة عام ١٩٧٠ ، ومعنى هذا تزايد الأقليم بنسبة زيادة كلية مقدارها ٢١٦٪ خلال ثلاثين عاما . إلا أن النسبة المئوية للسكان قد انخفضت من ١٨,٧٪ عام ١٩٧٠ إلى ١٨,٤٪ عام ٢٠٠٠ .
- تتباين أحجام السكان بين دول الجنوب الأفريقي تبايناً كبيراً ففي عام ٢٠٠٠ كان هناك دولتان فقط (جمهورية جنوب أفريقيا وتنزانيا) يزيد عدد سكان

كل منها على ٢٠ مليون نسمة ، ويربو عدد سكانها على ٧٦,٥ مليون نسمة بنسبة ٥٢٪ من جملة سكان الجنوب الأفريقى ، وخمس دول أخرى (أنجولا - موزمبيق - ملاوى - زامبيا وزيمبابوى) يتراوح سكان كل منها بين ١٠-٢٠ مليون نسمة ويصل عدد سكانها إلى ٦٤ مليون نسمة أى نحو ٤٣,٥٪ من جملة سكان الجنوب الأفريقى . ومعنى هذا أن هذه الدول السبع تضم نحو ٩٥,٥٪ من سكان الجنوب الأفريقى ، والنسبة الباقية تتوزع على أربع وحدات سياسية . وهى (بتسوانا - ليسوتو - ناميبيا وسوازيلاند) .

- ويلاحظ وجود شبه علاقة عكسية بين كثافة السكان وحجمهم فى دول الجنوب الأفريقى ، فأكثر الدول سكاناً هى أقلها كثافة ، وأقل الدول سكاناً هى الأعلى كثافة . فنجد أن كثافة السكان تزيد عن ٧٠ نسمة / كم^٢ فى كل من ملاوى وليسوتو ، وتتراوح بين ٣٠-٧٠ نسمة / كم^٢ فى كل من سوازيلاند ، جنوب أفريقيا وتنزانيا وزيمبابوى ، أما أدنى كثافة للسكان والتي تقل عن ٣٠ نسمة / كم^٢ فهى توجد فى كل من أنجولا ، بتسوانا ، موزمبيق ، ناميبيا وزامبيا . ونلاحظ أن الكثافة العامة للسكان لا تعطى الصورة الحقيقة للعلاقة بين الإنسان والأرض فى الأقليم إذ يتركز الجانب الأكبر من السكان فى نطاقات رئيسة فى كل دولة .

- ارتفع حجم القوى العاملة فى الجنوب الأفريقى من ٣١,٦ مليون فى عام ١٩٧٠ إلى نحو ٦٥,٨ مليون فى عام ١٩٩٩ بنسبة زيادة كلية مقدارها ٢٠٨٪ ، وبمعدل نمو سنوى مقداره ٢,٥٪ سنوياً وهناك مجموعة من العوامل التى تؤثر فى حجم ونمو القوى العاملة وهى تشمل حجم السكان وديناميكية نموهم ، والتى يتبعها العوامل الحضارية والاقتصادية (شكل ٢) لذلك تنظم العلاقات المتبادلة السياسات التى هدفت لتوضيح تأثير نمو قوة العمل أيضاً على المحددات الاقتصادية والحضارية للسكان^(٧) .

شكل (٢) محددات عرض القوى العاملة



يلاحظ وجود علاقة فردية بين معدلات نمو السكان ومعدلات نمو قوة العمل النظرية فأكثر الدول في معدلات نمو السكان هي أعلاها في معدلات نمو قوة العمل (بتسوانا) كما ان أقلها في معدلات النمو السكاني هي أيضاً تمثل أقل معدل لنمو قوة العمل (موزمبيق - جمهورية جنوب أفريقيا) .

- يتميز إقليم جماعة تنمية الجنوب الأفريقي بارتفاع معدلات المواليد والتي بلغ متوسطها ٣٣,٨ في الألف وإن كانت أقل منها على مستوى القارة الأفريقية (٣٧,٢ في الألف) ولكنها أكثر من المعدل العالمي (٢٢ في الألف) (٨) وقد سجلت كل من أنجولا وملاوي أعلى معدل للمواليد في الإقليم (٤٧,٨ ، ٤٥,٩ في الألف) في حين سجلت جمهورية جنوب أفريقيا أقل معدل للمواليد في الإقليم والذي قدر بنحو ٢٦,٣ في الألف عام ١٩٩٩ .

- ترتفع معدلات الوفيات في إقليم الجنوب الأفريقي مقارنة بأفريقيا ككل وبالعالم (١٧,٣ ، ١٤,٥ ، ٩ في الألف) على الترتيب ، وتوجد أعلى معدلات للوفيات في ملاوي وزامبيا وموزمبيق (٢٣,٨ ، ٢٠,٦ ، ٢٠,١ في الألف) في حين سجلت ليسوتو ، أقل معدل للوفيات في الإقليم حيث بلغ مقداره ١٢,٨ في الألف .

- تقل معدلات الخصوبة في الإقليم (٤,٨) عنها في أفريقيا (٤,٩) في حين أنها ترتفع عن المتوسط العالمي (٢,٧) (٩) ، وتصل الخصوبة أقصاها في كل من أنجولا وملاوي (٦,٧ ، ٦,٣) في حين سجلت زيمبابوي أدنى معدل للخصوبة في الإقليم بلغ ٣,٦ .

- بناء على المحددات الديموجرافية السابقة نجد أن أعلى معدلات صافي الهجرة (الهجرة النازحة) في ملاوي وليسوتو وسوازيلاند . وذلك بناء على كثافة السكان التي لها أثرها الكبير في تحديد متوسط مجال المناورة والعيش والعمل في المتوسط فكلما ارتفعت كثافة السكان كلما تزايد الاتجاه نحو

الانتقال إلى أماكن أخرى ، بالإضافة إلى معدلات المواليد والوفيات ومعدلات النمو السكاني ونمو قوة العمل ويضاف إلى ذلك عوامل الجذب في المناطق الأخرى في الجنوب الأفريقي ، فضلا عن قلة فرص العمل في الدول المشار إليها ، وهنا يأتي العامل الاقتصادي .

٢ - أما بالنسبة للعوامل الاقتصادية :

فهى تفسر تقريبا المرحلة الموازية لقياس التقدم عن طريق معدل النمو الاقتصادي ، ونصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى الحقيقى ونصيب الفرد من الناتج المحلى الإجمالى الحقيقى وتوزيع الدخل والموارد الطبيعية والبشرية .. الخ (١٠) .

وتعتبر العوامل الاقتصادية هى الدافع الرئيسى للهجرة وذلك نتيجة لعدم التوازن بين السكان والموارد الاقتصادية المتاحة . ويحكمها عاملان هما عامل الطرد فى الدول المرسلة للمهاجرين ، ويقابله عامل جذب فى الدول المستقبلة لهم ، أما عن عوامل الطرد فهى تكمن فى ضعف مواردها الاقتصادية وعدم قدرة الموارد المتاحة على تلبية الحاجات الأساسية للسكان المتزايدة باستمرار ، وهذا يعتبر عامل لطرده السكان من هذه الدول للبحث عن لقمة العيش فى مكان آخر .

ويمكن ايجاز أسبابها فى جملة واحدة وهى عدم الرضى (dissatisfaction) ويقصد به سوء الوضع الاقتصادى للفرد وهو الحافز الرئيسى إلى الهجرة ، حيث أن الفقر الشديد يدفع الإنسان إلى البحث عن ظروف أفضل يحيا فيها. (١١)

ويذكر Russel (١٢) فى دراسته عن الهجرة بين الدول النامية فى أفريقيا جنوب الصحراء وأمريكا اللاتينية ، ان كلا منهما عانت من أزمات اقتصادية شديدة أثناء الثمانينات . ففي أفريقيا جنوب الصحراء ككل ، انخفض متوسط دخل الفرد وإنتاج الغذاء منذ عام ١٩٨٠ ، بالإضافة إلى التعرية البيئية المسرعة

مما أدى إلى فقد جزء أساسى من مشاركته فيأسواق التصدير العالمية . كما أن نمو عبء الديون بصورة أسرع من الأقاليم النامية الأخرى ، مما أدى إلى زيادة البطالة فى كل من الريف والحضر . إلا أن تأثير الازمات كان موزعا بصورة غير منتظمة بين عامى ١٩٧٥ ، ١٩٩٨ . فمعدل النمو السنوى لدخل الفرد من الناتج القومى الإجمالى كان أقل من ٢٪ فى تسع دول (فى البعض كان بالسالب) وأكثر من ٢٪ فى دولتين فقط هما بتسوانا (٢ ، ٥٪) وليسوتو (٣ ، ٥٪) . أما أقل معدل لدخل الفرد كان فى زامبيا - ٢ ، ٢٪ (أنظر جدول رقم (٢) وشكل (٣) .

ويرى قسم السكان بالأمم المتحدة ^(١٣) أن الهجرة الدولية للعمالة تحدث بين الدول غير المتساوية فى التنمية الاقتصادية ، فهناك هجرة للعمالة من الدول الأفقر إلى الوظائف المتوفرة فى الدول المستثمرة لمواردها الطبيعية ، وفى الجنوب الإفريقى نجد الاختلاف بين الدول التى لم يظهر بها بترول والدول الغنية بإنتاج البترول كما هو الحال فى أنجولا . فمعظم دول الجنوب الإفريقى محاطة بدولة أو دول قليلة قوية اقتصادياً تعمل كمغناطيس لجذب العمال من الدول المجاورة .

كما أوضح Milazi ^(١٤) فى دراسته أن الظروف الاقتصادية كانت هى العامل الرئيسى لهجرة عدد كبير من سكان ليسوتو إلى جمهورية جنوب أفريقيا وفى حين عثر ٤٥ ألف شخص على وظائف فى القطاعات الحديثة فى ليسوتو ، هاجر نحو ١٥٠ ألفا ، معظمهم من الذكور للعمل فى جمهورية جنوب أفريقيا ، وكان السبب الرئيسى لفقد هذا العدد الكبير من القوى البشرية للمراكز الأكثر تقدما هو الأجور الزهيدة ، نقص الدخل اللائم من الزراعة والظروف الاقتصادية السيئة وتعيش الغالبية العظمى من السكان تحت خط الفقر . فقد بلغت نسبة الأراضى الصالحة للزراعة ١٠٪ فقط من إجمالى مساحتها بالإضافة إلى النمو السكانى السريع وظروف الجفاف المستمرة جعل الغالبية العظمى من شعبها فقيرا

ولذلك نجد أن حوالى ٥١٪ من الذكور فى مرحلة الشباب يعملون فى مناجم جمهورية جنوب أفريقيا^(١٥) كما أدى انخفاض إنتاجية الأرض فى ملاوى إلى هجرة ما يزيد عن ٣٠٠ ألف شخص للعمل فى مناطق أخرى^(١٦) .

ومما يؤيد رأى القائل بأن العامل الاقتصادى هو الدافع الرئيسى للهجرة فى الجنوب الإفريقى ، أن أقطار جذب العمالة هى الأقطار الغنية بثروتها المعدنية سواء من الذهب أو الفحم أو الماس أو اليورانيوم بالإضافة إلى البترول أو الغنية بالمزارع التجارية . كما هو الحال فى جمهورية جنوب أفريقيا . فى حين أن أقطار صادر العمالة هى الأقطار الأقل ثروة والتي لا يوجد بها فائض من المحاصيل النقدية أو محاصيل التصدير . فالزراعة المعيشية فشلت فى ارضاء طموح الشباب وأصبح المصدر الوحيد للدخل هو العمل بأجر .

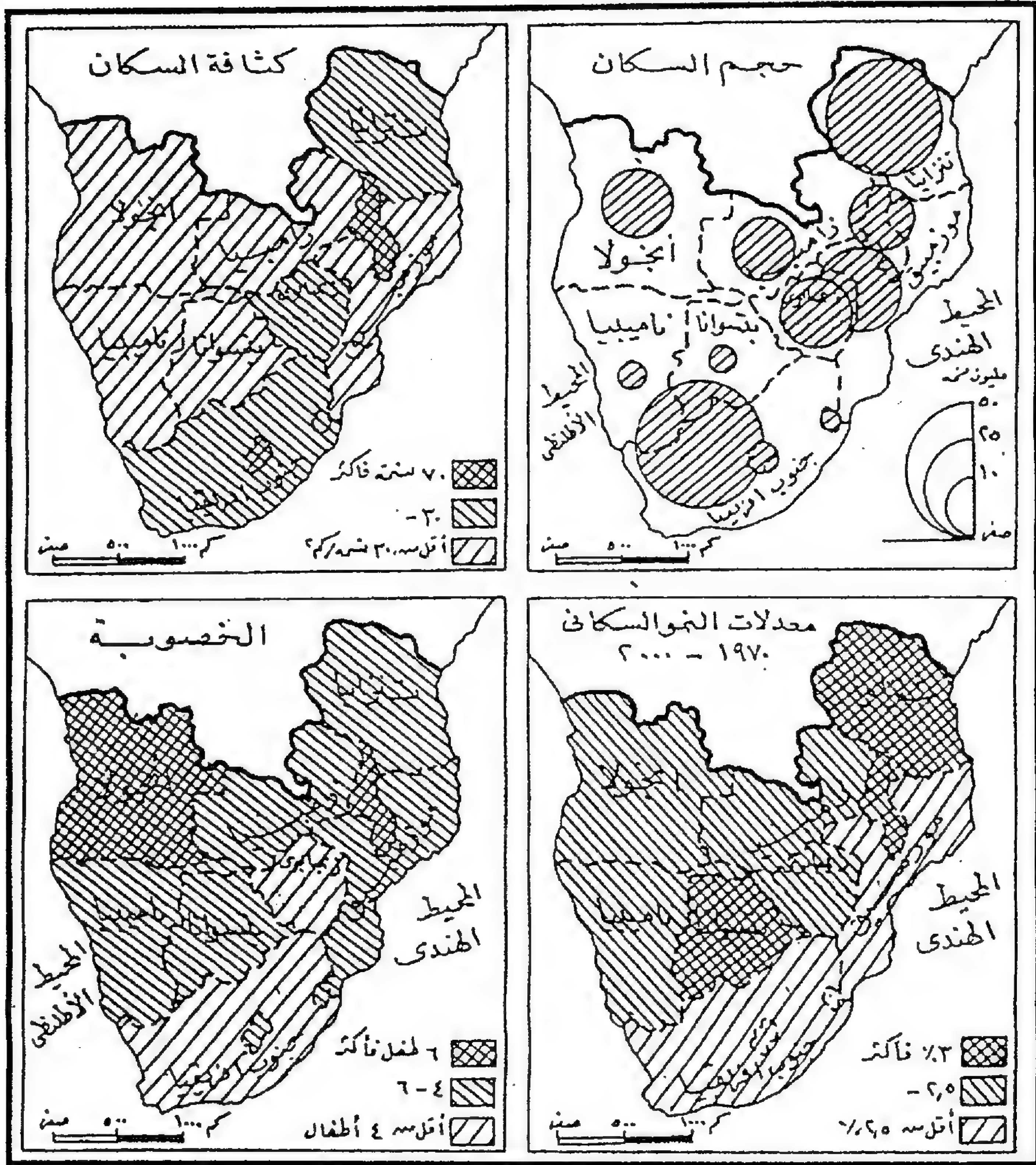
ولقد وضع برنامج الأمم المتحدة للتنمية مؤشرا للتنمية البشرية كمقياس لنوعية الحياة الاقتصادية والاجتماعية وهو مؤلف يتكون من متوسط العمر المتوقع ، المعرفة ومستوى المعيشة . ويقاس مستوى المعيشة بإجمالى الناتج القومى الفعلى للفرد معدلاً على أساس تكلفة المعيشة المحلية (تساوى القوى الشرائية) ومن الجدول رقم (٢) وشكل (٣) يتضح الأتى :

تأتى جمهورية جنوب أفريقيا فى مقدمة دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقى من حيث مؤشر التنمية البشرية والذي بلغ ٧٠.٢ رتليها ناميبيا ، أما أقل معدل للتنمية البشرية فيوجد فى موزمبيق وملاوى .

نجد أن البيئة فى زامبيا وملاوى وتنزانيا بصفة خاصة صعبة وإذا ما علمنا وفقاً لنسبة السكان دون خط الفقر (وهم أولئك الذين لا يستطيعون الحصول على الحد الأدنى من السعرات الحرارية الغذائية لحياة صحية) ، أن نسبة الذين يعيشون دون خط الفقر فى زامبيا نحو ٨٦٪ من إجمالى عدد السكان تليها ملاوى بنسبة ٥٤٪ وتنزانيا بنسبة ٥١٪ من إجمالى عدد السكان .

جدول رقم (٢)
تصنيف دول جماعة تنمية الجنوب الافريقي (SADC)
وفق المحددات الاقتصادية^(١٧)

الدولة	مؤشرات التنمية البشرية	نسبة السكان الذين يعيشون بأقل من ١ دولار يومياً ١٩٨٣ - ١٩٩٩ %	نسبة السكان دون خط الفقر القومي ١٩٨٤ - ١٩٩٩ %	نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي حسب تعادل القوة الشرائية بالدولار ١٩٩٨	نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بالدولار ١٩٩٩	معدل النمو السنوي لدخل الفرد من الناتج القومي الإجمالي ١٩٩٨ - ٧٥
أنجولا	٤٢٢	-	-	١٣٢٤	٢٢٠	١,٦ (-)
بوتسوانا	٥٧٧	٣٣,٣	-	٨٥٤٧	٣٢٤٠	٥,٢
ليسوتو	٥٤١	٤٣,١	٤٩,٢	١٨٢٧	٥٥٠	٣,٥
ملاوي	٣٩٧	-	٥٤,٣	٦٩٥	١٩٠	٣
موزمبيق	٣٢٣	٣٧,٩	-	٩١٣	٢٣٠	٧
ناميبيا	٦٠١	٣٤,٩	-	٤٩٣٢	١٨٩٠	٦ (-)
جنوب إفريقيا	٧٠٢	١١,٥	-	٧١٨٧	٢١٦٠	٧ (-)
سوازيلاند	٥٨٣	-	-	٣٣١٣	١٣٦٠	١,٢
تنزانيا	٤٣٦	١٩,٩	٥١,١	٥١٣	٢٤٠	٣
زامبيا	٤٢٧	٦٣,٧	٨٦,٣	٩١٠	٢٢٠	٢,٢ (-)
زيمبابوي	٥٥٤	٣٦	٢٥,٥	٢٣٢٥	٥٢٠	١



شكل (٢) المحددات الاقتصادية لدول جماعة تنمية الجنوب الأفريقي

وقد أدى اختلاف المستوى الاقتصادي بين أقطار الجنوب الأفريقي إلى اختلاف معدلات الدخل القومي ومتوسطات الدخل الفردي في أقطار الجنوب الإفريقي المستقبلية للمهاجرين ، فطبقاً لتقديرات الأمم المتحدة لعام ١٩٩٩ قدر متوسط الدخل الفردي في بتسوانا ٣٢٤٠ دولاراً وهو أعلى متوسط لدخل الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بالدولار في دول الجنوب الإفريقي مما يدل على أنها ربما تقدم مركز استقبال للمهاجرين بديلاً عن جمهورية جنوب إفريقيا فمعدل النمو

الاقتصادي أكبر منه في جمهورية جنوب إفريقيا بالإضافة إلى الاستخدام الأمثل للموارد المحلية (١٨) كما إنها حققت أعلى معدل للنمو السنوي لدخل الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بلغ ٢,٥٪ سنويا خلال الفترة من ١٩٧٥ - ١٩٩٨ .

- تأتي جمهورية جنوب أفريقيا في المرتبة الثانية بمتوسط ٣١٦٠ دولارا ثم ناميبيا بمتوسط ١٨٩٠ دولارا في حين سجلت ملاوي أقل معدل لنصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي ١٩٠ دولارا.

- بلغ معدل النمو السنوي لدخل الفرد اقصاه في كل من بتسوانا وليسوتو في حين سجلت كل من زامبيا وأنجولا أقل معدل للنمو السنوي لدخل الفرد بلغ (-) ٢,٢٪ ، (-) ١,٦٪ .

ومن التحليل السابق يمكن افتراض الاتجاه نحو الهجرة إلى الخارج يصل الحد الأقصى في أنجولا وملاوي وموزمبيق وناميبيا وزامبيا وزيمبابوي وستكون دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقي التالية : بتسوانا ، جمهورية جنوب أفريقيا من الدول المستقبلية للمهاجرين بصورة خاصة.

ثالثا: العوامل السياسية :

يؤدي عدم الاستقرار السياسي في بعض أقطار الجنوب الإفريقي إلى حث بعض الأفراد على النزوح ، إلى جانب هذا الفقر ، اضافة الصفة العسكرية على الدول وتحويل مواردها النادرة من التنمية إلى نفقات الحماية في حين أن الموقف السياسي غير المستقر أعاق الاستثمارات الأجنبية والمحلية ، كل هذا أدى إلى إعاقة عمليات التنمية وكان له تأثير معاكس على الاستخدام والذي يقوى الاتجاه نحو الهجرة إلى الخارج . وتعتبر الصراعات العرقية الناتجة عن التمييز العرقي كعنصر هام في تحديد الهجرة في الإقليم ، بالإضافة إلى زيادة أعداد اللاجئين والمشردين داخليا ونزوح الأشخاص المهرة وغير المهرة (١٩) .

ففى أنجولا نجد أن الحرب الأهلية الأنجولية نشبت فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين ، وكان واضحاً أن طرفى الحرب ينتسبان ايدولوجيا إلى القوتين العظميين اللتين هيمنتا على عصر الحرب الباردة ، أي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى ، وقد كان لتوزيع الثروات المعدنية فى أنجولا دوره فى تعميم الصدام الإقليمي والقبلى ، حيث إنها تتمتع بمقومات اقتصادية جيدة ، فمن ناحية الزراعة فان ٩٠٪ من اقتصاديات البلاد تعتمد على إنتاج البن والذرة والقطن والسكر وزيت النخيل والكسافا ، فضلاً عن الأخشاب التى يجرى تقطيعها من غابات إقليم كابندا ، كما أنها غنية بثروتها المعدنية (٢٠).

وفى موزمبيق يسود صراع مسلح بين الحكومة وقوات حركة رينامو (RENAMO) وقد أدت هذه الحرب الأهلية إلى قتل الآلاف من المدنيين وهروب آلاف إلى خارج موزمبيق كلاجئين ، إضافة إلى تدمير اقتصاد البلاد ، كما أثرت فى تجارة موزمبيق مع الدول المجاورة ، وعلى الرغم من الاتفاق الذى وقعته الحكومة اليسارية مع المتمردين فى أوائل عام ١٩٩١ ، والذى يتضمن وقف إطلاق النار بين الجانبين إلا أنه لم يدخل مرحلة التنفيذ الفعلى حيث استمر الصراع (٢١).

وقد يكون عدم الاستقرار السياسى من عوامل الدفع للهجرة للبحث عن الأمن والاستقرار فى الدول المجاورة.

- وهناك أربعة أسباب رئيسية تدخلت ضمن سلسلة من الافتراضات التى قُدمت لتوضح لماذا وكيف تحدث الموجات الجديدة من الصراعات والتى تكون مرتبطة بالظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تشمل زيادة الفقر والحرمان المرتبط بالديون وبرامج التكيف الهيكلى وهذه الأسباب هى (٢٢).

١- أدى انخفاض الموارد الاقتصادية والاجتماعية وقلة فرص العمل بسبب الديون وبرامج التكيف الهيكلى لتسوية الصراعات الداخلية بين

المجموعات العرقية ، وذلك لأن هذه الظروف تزيد من الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، بالإضافة الى أن برامج التكيف الهيكلى وحدها تزيد من المخاطر والتقلبات التى تتعرض لها الدولة وتصل بها إلى المستويات الحرجة ، وسيطرة القلة على الموارد العامة للدولة السريعة التناقص والتفاوتات الموجودة قبل برامج التكيف الهيكلى ، كلها تؤدي إلى إثارة الصراعات بين المجموعات.

٢- أن برامج التكيف الهيكلى وحدها تزيد من الفقر بين الفقراء والطبقات الاجتماعية الحساسة ، وتؤدي إلى زيادة الفقر بين من يعملون فى الوظائف المهنية والإدارية أكثر من القوات المسلحة ، كما أن التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية لبرامج التكيف الهيكلى تختلف من إقليم سياسى لآخر ومن مجموعة عرقية لأخرى وبين المجتمعات المختلفة وعبر الدول.

٣- حيثما تتركز المجموعات العرقية المفردة فى قطاعات مختلفة داخل اقتصاد الدولة يبقى تأثير برامج التكيف الهيكلى غير متساو ، وهذه التفاوتات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن الديون وبرامج التكيف الهيكلى تشير الصراعات الإقليمية العرقية.

٤- المجتمعات ، المجموعات العرقية أو الأقاليم السياسية التى يستطيع أفرادها الوصول للقوة أحسن كثيراً من الناحية الاقتصادية من باقى المجموعات الأخرى ، وتتوفر لهم الموارد من المناطق الأخرى التى تعتبر أساساً لثروة الدولة وبذلك عملت على تدعيم التوترات الإقليمية العرقية المرتبطة بالديون وبرامج التكيف الهيكلى.

من العرض السابق نجد أن الظروف الاقتصادية تلعب الدور الأكبر فى التأثير على الهجرة تليها العوامل الديموجرافية والمتمثلة فى زيادة الضغط السكانى على الأرض وارتفاع كثافة السكان وزيادة معدلات المواليد وارتفاع

نسبة الخصوبة ثم العوامل السياسية والتي لها دورها فى خروج أعداد كبيرة من السكان ، وإلى جانب هذه العوامل الثلاث نجد العوامل الاجتماعية لها دورها فى دفع بعض السكان إلى الهجرة فكثيراً من الشباب يتجهون إلى المناطق الحضرية لتحرر من القيود القبلية حيث يشعر كثير من الشباب برغبة فى التخلص من هذا القيد الثقيل ^(٢٣) بالإضافة إلى فرص الحصول على عمل مناسب وكذا البحث عن ظروف تعليمية وخدمات صحية أيسر ومركز اجتماعي مرموق وغيرها من وسائل الراحة الأخرى .

وتوضح الدراسة التى أجريت على عينة من المهاجرين إلى جمهورية جنوب افريقيا عن الغرض من الهجرة إلى جمهورية جنوب افريقيا وهى الموضحة فى جدول (٣) وشكل (٤) الآتى :

- ترتفع نسبة من يذهبون إلى جمهورية جنوب افريقيا لغرض العمل أو البحث عنه فى موزمبيق عنها فى باقى الدول ، حيث ان ٦٨٪ من مهاجرى موزمبيق يذهبون لهذا السبب فى حين بلغت النسبة ٢٩٪ من مهاجرى زيمبابوى ، ٢٥٪ ليسوتو ، ١٣٪ فقط بين مهاجرى ناميبيا .

- نجد أن السبب الرئيسى للذهاب إلى جمهورية جنوب افريقيا بين مهاجرى ناميبيا هو زيارة العائلة أو الاصدقاء أو الذهاب لقضاء الاجازات حيث بلغت نسبتهم ٦٣٪ فى حين بلغت النسبة ليسوتو (٣٦٪) ، (١٧٪) لموزمبيق و ١٦٪ لزيمبابوى .

- ترتفع نسبة من يذهبون إلى جمهورية جنوب افريقيا بغرض بيع وشراء البضائع والتجارة والتسوق من زيمبابوى عنها فى الدول الأخرى ، حيث نجد أن (٥٠٪) من المهاجرين يذهبون لهذه الأسباب الثلاثة ، فى مقابل ٢٤٪ من مهاجرى ليسوتو ، ١٠٪ لناميبيا و ٨٪ فقط من مهاجرى موزمبيق يذهبون لهذه الاسباب .

- ترتفع نسبة من يذهبون إلى جمهورية جنوب افريقيا بهدف الرعاية الطبية فى ليسوتو (٦٪) عنها فى باقى الدول .

- نجد أن نسبة من يذهبون إلى جمهورية جنوب افريقيا بهدف التعليم سواء التعليم العام أو الفنى أو الجامعى تصل إلى أعلاها فى ناميبيا (٤٪) فى حين سجلت ليسوتو وموزمبيق أدنى نسبة (١٪) لكل منهما .

وضع مما سبق أن أسباب الهجرة تختلف من دولة إلى أخرى فى الجنوب الأفريقي.

ثانياً :- التوزيع الجغرافى لأقاليم الصادر والوارد فى العمالة :

يمكن أن نقسم الجنوب الأفريقي إلى ثلاثة أقسام من حيث تصدير واستيراد الأيدي العاملة هذه الأقسام هى :

جدول (٣)

أسباب الهجرة إلى جمهورية جنوب افريقيا حجم العينة ١١٩٩ (٢٤)

الدولة	ناميبيا	ليسوتو	موزمبيق	زيمبابوى
الغرض من الزيارة الحديثة (%)				
البحث عن عمل	٢	٨	٢٢	١٤
العمل	١١	١٧	٤٦	١٥
بيع وشراء البضائع	٢	٣٣	٢	٢١
الدراسة	١	١	١	١
التعليم الجامعى / الفنى	٣	-	-	١
التسوق	١	١٩	٤	٢١
التجارة	٧	٢	٢	٨
زيارة العائلة أو الأصدقاء	٤٤	٣٤	١٢	١٣
أجازه / سياحة	١٩	٢	٥	٣
الرعاية الطبية	٤	٦	٤	٢
أسباب أخرى	٦	٩	٢	٤

- ١ - أقطار استيراد بحت - وتمثلها جمهورية جنوب أفريقيا.
- ٢ - أقطار صادر بحت - وتمثلها ليسوتو ، ملاوى ، موزمبيق ، ناميبيا وسوازيلاند.

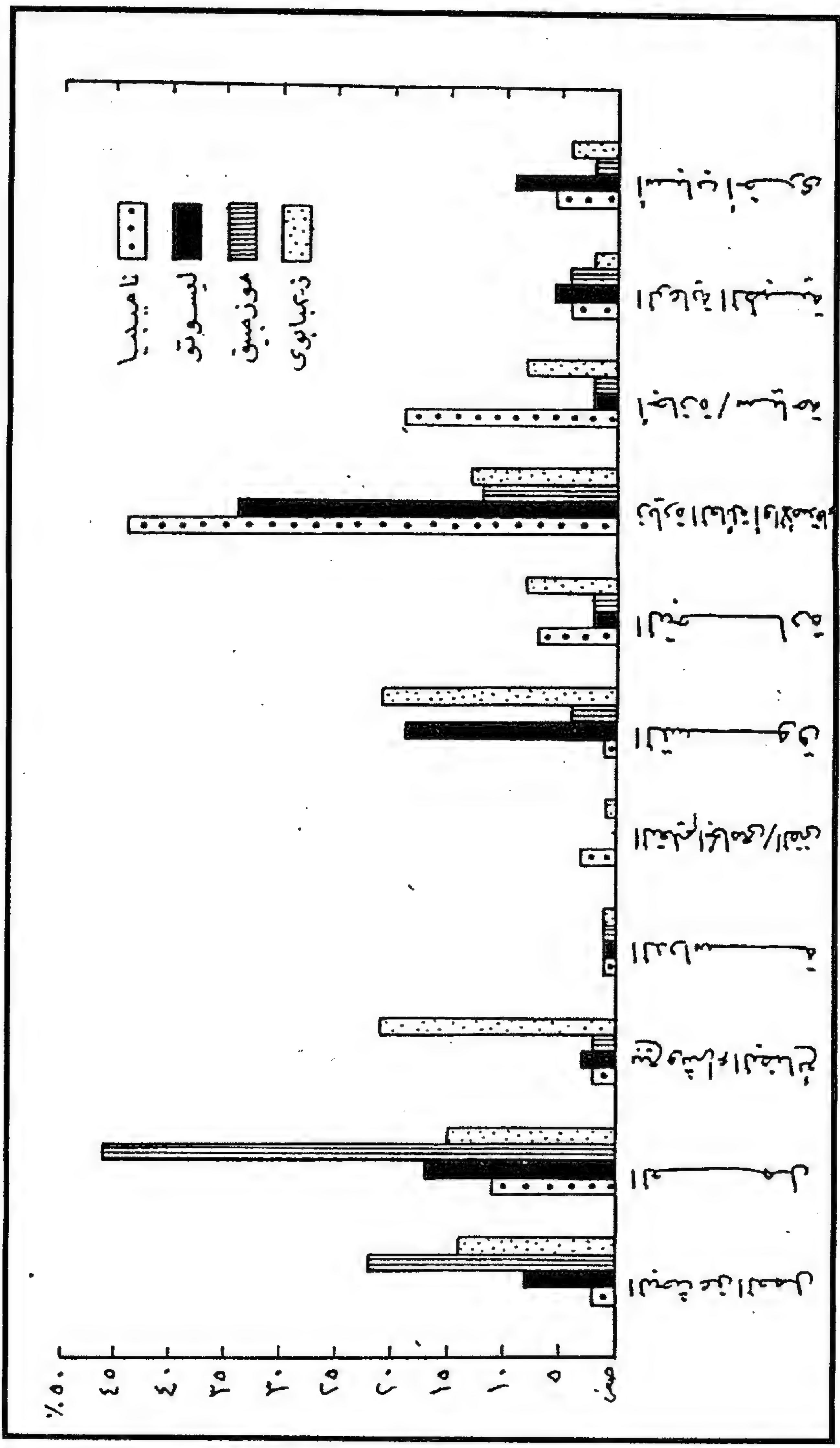
٣ - أقطار صادر ووارد أى أنها تصدر الأيدي العاملة ولكنها تستورد فى نفس الوقت، وتمثلها باقى دول الجنوب الأفريقي وهى أنجولا ، بتسوانا ، تنزانيا ، زامبيا ، زيمبابوى.

١- أقطار الاستيراد البحت أو جمهورية جنوب أفريقيا:

تعتبر جمهورية جنوب أفريقيا الدولة الوحيدة فى قارة أفريقيا التى تعتبر اقليم استيراد بحت للعمالة من الدول المجاورة ^(٢٥) وقد بدأت التنمية الاقتصادية لجمهورية جنوب أفريقيا باكتشاف الماس عام ١٨٦٧ والذهب عام ١٨٨٦ . إلا أن قيام قاعدة اقتصادية عريضة لم تعرفه جمهورية جنوب أفريقيا إلا منذ نشاط الصناعة خلال الحرب العالمية الأولى ، ووضع تعريفه حاميه فى العشرينات وكانت هناك دفعة أخرى فى الثلاثينات بعد الكساد العالمى . وكانت الحرب العالمية الثانية بمثابة دفعة كبرى فى التنمية الاقتصادية حيث اكتشفت مناجم جديدة للذهب وتطورت الصناعة ونمت القوى العاملة فى القطاع النقدى نمواً كبيراً. ^(٢٦) وتنتج جمهورية جنوب أفريقيا بمفردها نحو ثلاثة أرباع الإنتاج العالمى من الذهب ^(٢٧) .

وقد شجعت حكومة جنوب أفريقيا هجرة العمالة الأفريقية إليها من الدول المجاورة ، حيث توجد بها مناطق رئيسية تجتذب المهاجرين من الأيدي العاملة والتى يمكن وصف حركة الهجرة نحوها بأنها هجرة دولية لقطاعات محدودة من القوى العاملة والتى تتميز بأن معظمها من الذكور فى سن العمل المبكر (١٥ - ٤٠) سنة وهذه المناطق هى: إقليم الراند وهو من أغنى أقاليم

شكل (٤) أسباب الهجرة إلى جمهورية جنوب أفريقيا ١٩٩٧



القارة بالثروة المعدنية خاصة الذهب والماس والفحم وغيرها من المعادن ، المزارع الأوروبية ، مجال الخدمات والصناعة وقد جذبت هذه المجالات آلاف العمال الأفارقة غير المهرة للعمل في جمهورية جنوب أفريقيا لسنوات عديدة ، بالإضافة إلى ارتفاع نسبة الزيادة السكانية في الدول المحيطة بجنوب أفريقيا وينسبة أعلي من المعدل الذي يرتفع به اقتصادها القومي مما جعلها مناطق طرد في الوقت الذي تتوافر فيه فرص العمل في جنوب أفريقيا (٢٨) .

وبلغ عدد العمال المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا حوالي ٣٨٠ ألف عامل في عام ١٩٨٦ ارتفع إلى نحو ٣٨٧ ألف عامل في عام ١٩٩٠ . بالإضافة إلى أعداد كبيرة أخرى غير مسجلة أو معروفة حيث قدر العدد الكلي للعمال الأجانب سواء كانوا بصورة رسمية أو غير رسمية بأكثر من ١,٣ مليون عامل (٢٩) وقد قدر معهد أبحاث العلوم البشرية بأن عدد الأجانب يتراوح بين ٢,٥ - ٤,١ مليون ، في حين نجد أن بعض تقديرات الشرطة تذهب بهذا العدد لأكثر من ١٢ مليون . وكل هذه الأرقام مشكوك فيها ومن المحتمل أنه مبالغ فيها كثيراً . وقد قدرت إحصائيات جنوب أفريقيا عدد الأجانب بأقل من ٥٠٠ ألف ، في حين نجد أن بعض الدراسات الحديثة قدرت العدد فيما يتراوح بين ٥٠٠ ألف ومليون . والحقيقة أنه ليس هناك أي بيانات متاحة لتحديد العدد الفعلي للأجانب في جمهورية جنوب أفريقيا وربما لا سبيل لنا لمعرفة هذا العدد (٣٠) .

ويوضح جدول رقم (٤) وشكل (٥) تطور عدد المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا خلال الفترة من ١٩١١ - ١٩٩٥ ومنهما يتضح الآتي :

- ارتفاع أعداد المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا خلال الفترة من ١٩١١ إلى ١٩٥١ ، حيث ارتفع عدد المهاجرين من ٢٢٩,٢ ألف مهاجر عام ١٩١١ إلى نحو ٦٠٦ آلاف عام ١٩٥١ بمعدل زيادة كلية بلغ نحو ٢٦٤٪ للفترة

كلها. وقد بلغت معدلات النمو السنوى اقصاها خلال الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٥١ (١, ٥٪) سنويا.

جدول (٤)

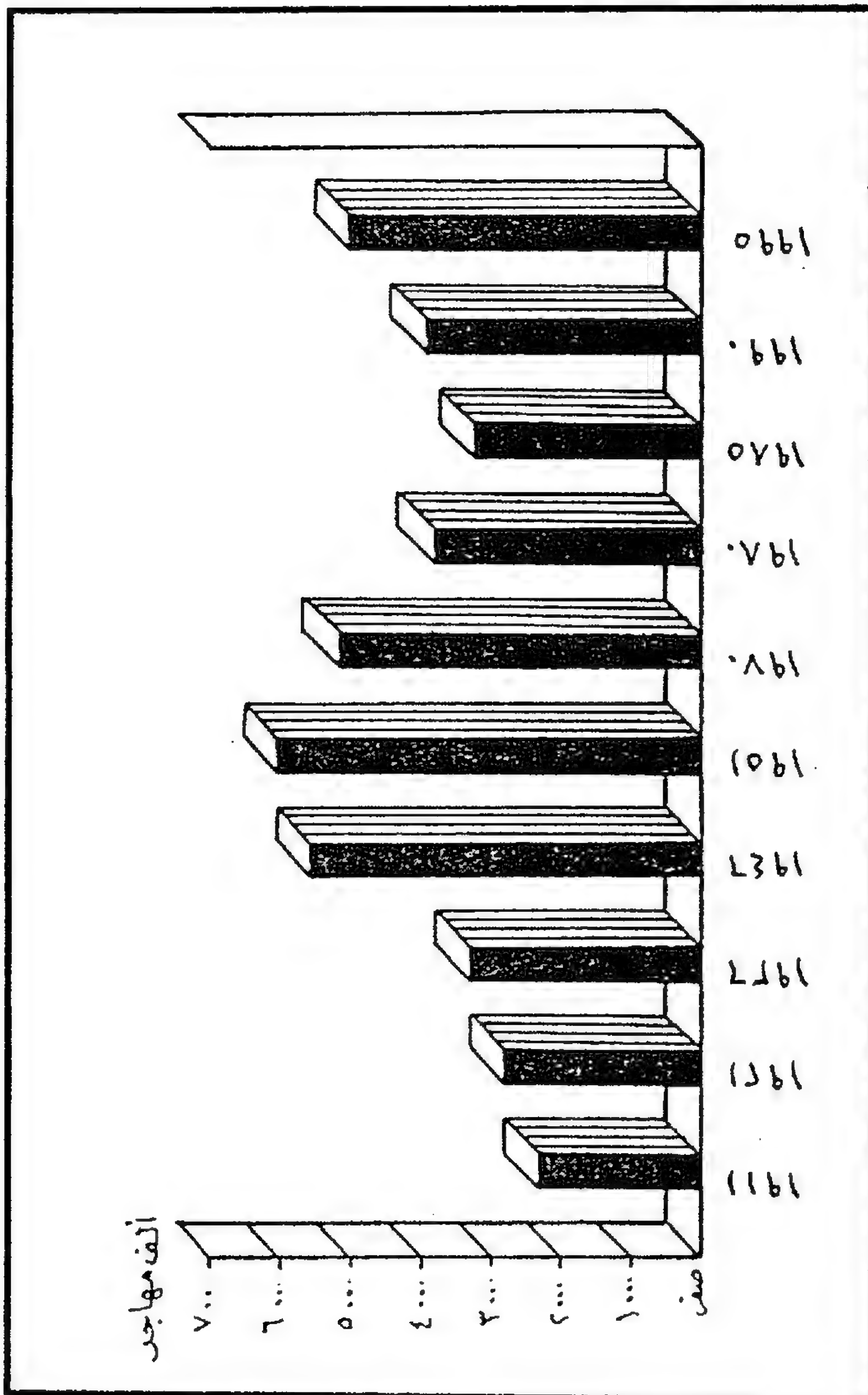
أعداد المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا خلال الفترة من ١٩١١-١٩٩٥ (٣١)

السنة	العدد	معدل النمو السنوى
١٩١١	٢٢٩٢٠٧	-
١٩٢١	٢٧٩٨١٩	-٢ر
١٩٣٦	٣٣٣٧٧٧	١ر٢
١٩٤٦	٥٥٦٨٠٧	٥ر١
١٩٥١	٦٠٥٩٩٢	١ر٧
١٩٧٠	٥١٦٠٤٤	(-) ٨ر
١٩٨٠	٣٧٦٤٨٣	(-) ٢ر٢
١٩٨٥	٣١٧٠١٠	(-) ٢ر٤
١٩٩٠	٢٨٦٦٧٥	-٤ر
١٩٩٥	٥٠٠٠٠٠	٤ر٥

ويرجع ذلك إلى التوسع الصناعى الذى اهتمت به جمهورية جنوب أفريقيا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وما تتطلبه من أيدي عاملة رخيصة.

- بدأت أعداد المهاجرين فى الانخفاض خلال الفترة من ١٩٥١-١٩٨٥ وقد بلغت نسبة الانخفاض أقصاها خلال الفترة من ١٩٨٠-١٩٨٥ (-٤, ٣٪) سنويا. ويرجع ذلك إلى توقف كل من تنزانيا وزامبيا عن إرسال العمالة إلى جمهورية جنوب أفريقيا منذ حصولهما على الاستقلال فى عامى ١٩٦١، ١٩٦٦ على التوالى كما أوقفت ملاوى إرسال عمال لجمهورية جنوب أفريقيا بعد خطة ترحيل المشتغلين بالتعدين من ملاوى (٣٢).

- أخذت أعداد المهاجرين فى الارتفاع منذ عام ١٩٨٥ حيث أرتفعت من حوالى ٣١٧ ألف عام ١٩٨٥ إلى نحو ٣٨٧ ألف عام ١٩٩٠ ثم إلى حوالى ٥٠٠ ألف عام ١٩٩٥ وبمعدل نمو سنوى مقداره -٤,٥٪ سنوياً خلال الفترة من ١٩٨٥-١٩٩٠ ، ١٩٩٠-١٩٩٥ ويرجع ذلك إلى أن معظم دول الجنوب الأفريقي استمرت فى إرسال العمالة لجنوب أفريقيا أولاً:- بسبب نقص فرص العمل فى دولهم وثانياً:- بسبب نمو الاقتصاديات الاستهلاكية



شكل (٥) أعداد المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا

خلال الفترة من ١٩٨١ - ١٩٩٥

والطلب على البضائع المنتجة في جمهورية جنوب أفريقيا ، وأيضاً بسبب المستوى المعيشي المرتفع والاستقرار السياسي النسبي والتسهيلات الجامعية الممتازة. كل ذلك جذب المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا من الدول الأفريقية ككل. وهذا يساهم الآن في مشكلة خطيرة وهي كسب جمهورية جنوب أفريقيا للكفاءات من باقى الدول الأفريقية حيث أصبحت منطقة استقبال ممتازة للعمال الأفارقة المهرة بدلاً عن أوروبا وأمريكا الشمالية (٢٣).

وتعتبر ليسوتو من أهم أقطار الجنوب الأفريقي المرسلة للعمالة إلى جمهورية جنوب أفريقيا ، فقد ارتفعت نسبة المهاجرين منها إلى جمهورية جنوب أفريقيا من ٤٢٪ عام ١٩٨٥ إلى ٥٤٪ عام ١٩٩٠ حيث ارتفعت أعداد المهاجرين منها من ١٣٥,٦ ألف مهاجر إلى ٢١٢,٦ ألف خلال الفترة السابقة على الترتيب ، ويرجع ذلك إلى أنها تعتمد اعتماداً كبيراً على مواطنيها العاملين في جمهورية جنوب أفريقيا فهي محاطة بالكامل بجمهورية جنوب أفريقيا بالإضافة إلى أنها قطر فقير وتعانى من نمو سكاني سريع وجفاف مستمر كما سبق القول . يليها موزمبيق بنسبة ٢٠,١٪ عام ١٩٨٥ ، إلا أن هذه النسبة قد انخفضت إلى ١٥,٣٪ عام ١٩٩٠ ، ويرجع ذلك إلى أن حكومة جنوب أفريقيا حرمت استقدام العمال من موزمبيق بعد حادث الحدود في عام ١٩٨٦ (٢٤). ثم تأتي سوازيلاند في المركز الثالث بنسبة ٩,٧٪ من إجمالي العمال المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا عام ١٩٨٥ ، وقد انخفضت هذه النسبة عام ١٩٩٠ حيث بلغت ٥,٤٪ ، وذلك يرجع إلى التحسن الواضح في اقتصاديات سوازيلاند حيث أنها غنية في مواردها الزراعية. انظر جدول (٥) وشكل (٦) وتسهم هذه الدول الثلاثة بنحو ٧٢,٣٪ من حجم الهجرة الوافدة إلى جمهورية جنوب أفريقيا عام ١٩٨٥ ونحو ثلاثة أرباع الوافدين عام ١٩٩٠ والنسب الأخرى الباقية تساهم بها باقى أقطار الجنوب الأفريقي الأخرى وهي ملاوى ، بتسوانا ، زيمبابوى ، ناميبيا ، زامبيا ، تنزانيا وأنجولا .

ومعظم المهاجرين يعملون فى قطاع المناجم (٨٠٪) فى حين نجد أن ٣,٦٪ يعملون فى الزراعة ، ٣,١٪ فى الخدمات العامة . فى حين بلغت نسبة العاملين فى التصنيع نحو ٢,٤٪ فقط ، وهناك عدد كبير من العمال غير المسجلين معظمهم يعمل فى الزراعة حيث قدر أن هناك ١٠٠ ألف مزارع من موزمبيق فقط (٣٥) .

جدول رقم (٥)

التوزيع العددي والنسبي للعمالة الوافدة إلى جمهورية جنوب أفريقيا
حسب أقطار الصادر خلال الفترة (١٩٨٥-١٩٩٠) (٣٦)

١٩٩٠		١٩٨٥		أقطار صادر العمالة
%	الحجم	%	الحجم	
ار	٢٠٠	ار	٢٩٢	أنجولا
٨,٩	٢٤٢٢٤	٨,٢	٢٦٠١٥	بتسوانا
٥٥ ر -	٢١٢٦١٢	٤٢,٨	١٢٥٥٦٣	ليسوتو
٩ر -	٢٤٧١٢	٩ر -	٢٨٧١٢	ملاوى
١٥,٩	٦١٥٨٤	٢٠,١	٦٣٥٦١	موزمبيق
-	-	٢,٩	٩٢١٠	ناميبيا
٥ر -	١٩٦١٨	٩,٧	٣٠٧٢٢	سوازيلاند
-	-	٣ر	٨٨٧	تنزانيا
٣ر	١٢٠٠	٣ر	٩٢٦	زامبيا
٥,٣	٢٠٧٨١	٢,٢	٧٠١٩	زيمبابوى
٥ر	١٧٤٣	٤,٤	١٤٠٠٣	اخرى
١٠٠	٢٨٦٦٧٥	١٠٠	٢١٧٠١٠	الجملة

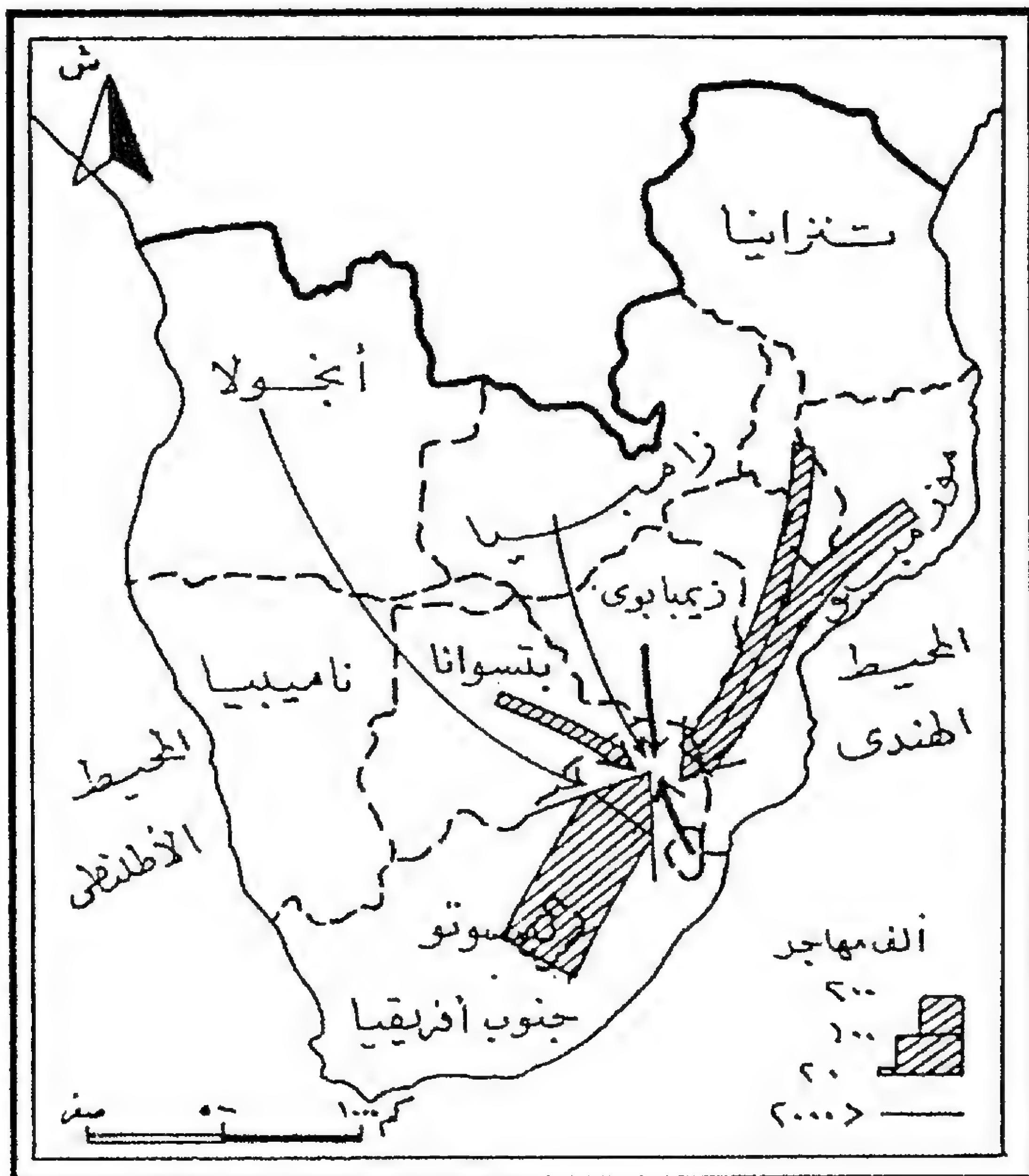
وقد اتخذت اتفاقية الهجرة لمناجم الذهب والماس والفحم ثلاثة اشكال هي (٣٧):

(١) الشكل البدائي خلال الفترة من ١٨٥٠ - ١٩٢٠ .

(٢) الشكل التوسعي خلال الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٧٠ .

(٣) الشكل المنتظم من ١٩٧٠ وحتى الآن .

وكانت الهجرة الأولى من موزمبيق ، ملاوى ، ليسوتو ، وزيمبابوى تأتى للعمل فى مزارع القصب فى ناتال ومناجم الماس فى كمبرلى من ١٨٤٠ وحتى الآن ، وحتى قبل أن توجد جمهورية جنوب أفريقيا نفسها ، وكانوا يأتون لكسب



شكل (٢) المحددات الاقتصادية لدول جماعة تنمية الجنوب الأفريقى

جدول رقم (٦)

إعداد المهاجرين وفقا لاتفاقية الهجرة الى مناجم الذهب في جمهورية جنوب أفريقيا
خلال الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٩٥ (٣٨)

السنة	أنجولا	بوتسوانا	ليسوتو	ملاوى	موزمبيق	سوازيلاند	تنزانيا	زامبيا	زيمبابوى	دول أخرى	الجملة
١٩٢٠	-	٢١١١٢	١٠٤٢٩	٢٥٤	٧٧٩٢١	٢٤٤٩	-	١٢	١٧٩	٥٤٨٤	٩٩٩٥٠
١٩٢٥	-	٢٥٤٧	١٤٢٥٦	١٢٦	٧٢٢١٠	٢٩٩٩	-	٤	٦٨	١٤	٩٤٢٢٤
١٩٣٠	-	٢١٥١	٢٢٢٠٦	-	٧٧٨٢٨	٤٢٤٥	١٨٢	-	٤٤	٥	٩٩٢٥٥
١٩٣٥	-	٧٥٠٥	٢٤٧٨٨	٤٩	٦٢٥٧٦	٦٨٦٥	١٠٩	٥٧٠	٢٧	٩	١١٢٤٩٨
١٩٤٠	٦٩٨	١٤٤٢٧	٥٢٠٤٤	٨٠٢٧	٧٤٦٩٢	٧١٥٢	-	٢٧٢٥	٨١١٢	٧٠	١٦٨٠٥٨
١٩٤٥	٨٧١١	١٠١٠٢	٢٦٤١٤	٤٩٧٢	٧٨٥٨٨	٥٦٨٨	١٤٦١	٢٧	٨٢٠١	٤٧٢٢	١٥٨٩٦٧
١٩٥٠	٩٧٦٧	١٢٢٩٠	٢٤٤٦٧	٧٨٢١	٨٦٢٤٦	٦٦١٩	٥٤٩٥	٢١٠٢	٢٠٧٢	٤٨٢٦	١٧٢٨١٦
١٩٥٥	٨٨٠١	١٤١٩٥	٢٦٢٢٢	١٢٤٠٧	٩٩٤٤٩	٦٦٨٢	٨٧٥٨	٢٨٤٩	١٦٢	٢٢٩٩	١٩٢٩٢٤
١٩٦٠	١٢٢٦٤	٢١٤٠٤	٤٨٨٤٢	٢١٩٢٤	١٠١٧٢٢	٦٦٢٢	١٤٠٢٥	٥٢٩٢	٧٤٧	٨٤٤	٢٢٢٨٠٨
١٩٦٥	١١١٦٩	٢٢٦٢٠	٥٤٨١٩	٢٨٥٨٠	٨٩١٩١	٥٥٨٠	٤٠٤	٥٨٩٨	٦٥٢	٢٦٨٦	٢٢٢٦١٠
١٩٧٠	٤١٢٥	٢٠٤٦١	٦٢٩٨٨	٧٨٤٩٢	٩٢٢٠٢	٦٢٦٩	-	-	٢	٩٧٢	٢٦٥١٤٢
١٩٧٥	٢٤٢١	٢٠٢٩١	٧٨١١٤	٢٧٩٠٤	٩٧٢١٦	٨٢٩١	-	-	٢٤٨٥	١٢	٢٢٠٢٩٢
١٩٨٠	٥	١٧٧٦٢	٩٦٢٠٩	١٢٥٦٩	٢٩٥٢٩	٨٠٩٠	-	-	٥٧٧٠	١٤٠٤	١٨٢٤٤٩
١٩٨٥	١	١٨٠٧٩	٩٧٦٢٩	١٦٨٤٩	٥٠١٢٦	١٢٢٦٥	-	-	-	٤	١٩٦٠٦٨
١٩٩٠	-	١٥٧٢٠	١٠٨٧٨٠	٧٢	٥٠١٠٤	١٧٨١٦	-	-	٢	-	١٩٢٠٤٤
١٩٩٥	-	١٢٧٢٦	١٠٠٨٩٢	٢	٧٢٨٧٤	١٦٧٥٢	-	-	-	-	٢٠٤٢٥٧

المال لشراء البنادق للدفاع عن أنفسهم ضد تعديات المستعمرين ولشراء الأدوات الزراعية للتوسع الزراعى فى بلادهم وكان المهاجرون يجيئون ويذهبون فعلياً كما يحبون حتى وضعت قوانين للعبور وموافقات لتقليص وضبط تحركاتهم .

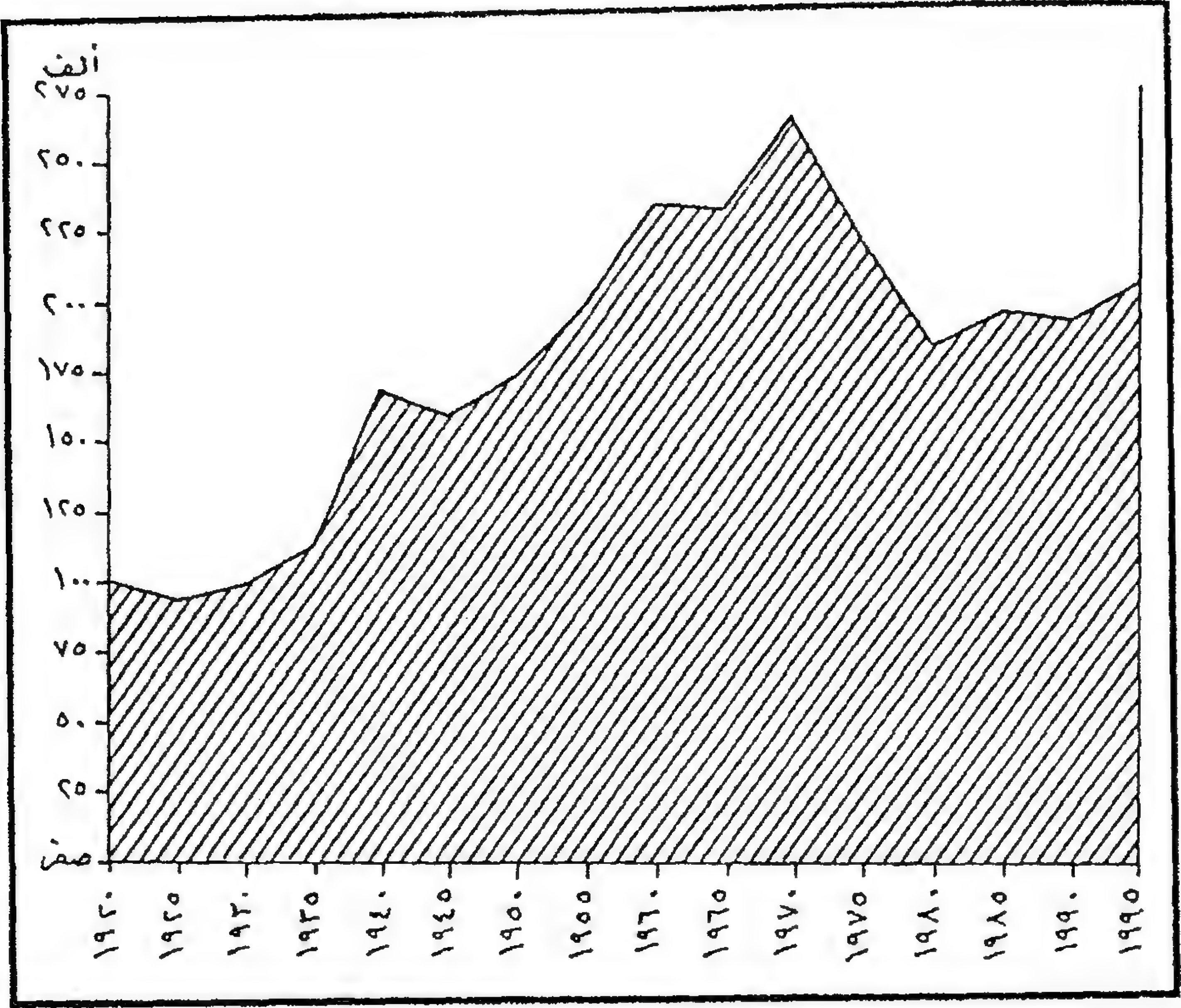
ومع اكتشاف الذهب فى عام ١٨٨٠ ، انشئت مدينة Witwatersrand ونمت جوهانسبرج خلال ٢٠ سنة لتصبح مدينة كبيرة يسكنها أكثر من ٢٠٠ ألف نسمة . وكانت المناجم بحاجة إلى العمالة الرخيصة من الذكور وبدأت المناطق الريفية من كل انحاء العالم لتلبية طلباتهم .

أثناء الشكل البدائى ، كانت هناك منافسة شديدة بين شركات التعدين على العمالة وبدأت الأجور فى الارتفاع . وبعد عدة محاولات مخففة أنشئت وكالة مركزية لاستقدام العمال . وفى عام ١٩٢٠ طردت الوكالة كل المنافسين وأصبحت البوابة الوحيدة لجلب المهاجرين لصناعة التعدين . وأنشأت محطات لاستقدام العمالة خلال الأقليم ونظام نقل حديث لنقل المهاجرين إلى المناجم .

وكانت الدول المجاورة لا ترغب فى فقد المهاجرين باستمرار لذلك كان هناك اتفاقيات بين الحكومات لمد المناجم باحتياجاتها باتفاقيات ثابتة ثم عودتهم لمنازلهم فيما بعد . وذلك خوفاً من بقائهم فى جمهورية جنوب أفريقيا إذا كانت عائلاتهم معهم .

فى عام ١٩٢٠ كان هناك نحو ٧٨ ألف عامل من موزمبيق فى مناجم الذهب ونحو ٤٠ ألف عامل من ليسوتو (أنظر جدول رقم ٦ وشكل ٧) ونحو ٣٠ ألف عامل من سوازيلاند و ١٠ ألف عامل من بتسوانا أما باقى الدول كانت مساهماتها ضئيلة . وكانت تنزانيا وأنجولا لا ترسل مهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا .

اثناء مرحلة التوسع زاد عدد المهاجرين زيادة كبيرة ودخلت دول جديدة كمناطق إرسال للعمالة إلى جمهورية جنوب أفريقيا ، حيث نجد أنه فيما بين



شكل (٧) أعداد المهاجرين إلى مناجم الذهب في جمهورية جنوب أفريقي
خلال الفترة من (١٩٥٥ - ١٩٢٠) حسب إتفاقية الهجرة.

عامي ١٩٢٠ و ١٩٧٠ تضاعف عدد العمال في مناجم جمهورية جنوب أفريقيا من حوالي ١٠٠ ألف في عام ١٩٢٠ إلى ٢٠٠ ألف في عام ١٩٥٥ ، وقد ارتفع العدد في بداية عام ١٩٧٠ ليقترّب من ٣٠٠ ألف . ونحو ٨٠٪ من عمال المناجم كانوا من الأجانب .

وقد كان هناك قيود على جلب العمالة من المناطق الواقعة شمال خط عرض ٢٢ جنوباً خلال الفترة من ١٩١٣ - ١٩٣٠ ولكن هذه القيود القديمة رفعت وأصبح عدد كبير من العمال يجلب من الشمال ، وفي أواخر الستينات كل دول الأقليم كانت تمد المناجم بالمهاجرين وكانت أكبر دول مرسلّة للعمالة لجنوب أفريقيا هي موزمبيق نحو ١٠٢ ألف عامل بنسبة ٤٣,٥ ٪ من إجمالي عمال المناجم عام ١٩٦٠ تليها ليسوتو (نحو ٤٩ ألف عامل) بنسبة ٢٠,٩ ٪ ثم ملاوي

وبتسوانا وسوازيلاند . حتى زامبيا وأنجولا وتنزانيا أرسلت مهاجرين قبل أن تمنع الحكومة المستقلة ذلك . وكانت الدولة الوحيدة التي أرسلت عددا محدودا من المهاجرين هي زيمبابوى (٧٤٧ عاملا فقط) وذلك نظراً لغناها بالثروة المعدنية وتوفر فرص العمل بها .

منذ السبعينات اتخذت اتفاقية الهجرة لجنوب أفريقيا شكلا جديدا ، حيث شهدت الفترة بين السبعينات والثمانينات إعادة تنظيم فى نمط الهجرة للمناجم حيث بحثت جمهورية جنوب أفريقيا تقليل اعتمادها على العمالة الأجنبية وزيادة الاعتماد على القوى العاملة الماهرة من مصادر محلية . وكانت النتيجة واضحة جداً فى المناجم فقد انخفض معدل العمالة الأجنبية من ٧٨٪ فى عام ١٩٧٤ إلى نحو ٤٠٪ فى عامى ١٩٨٤ - ١٩٨٦^(٣٩) واشتركت كل من زيمبابوى وزامبيا وأنجولا فى سحب مهاجريها من جمهورية جنوب أفريقيا وتم طرد المهاجرين من ملاوى بعد النزاع حول عمل فحوصات على الأيدز^(٤٠) وأصبحت المصادر الأساسية للمهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا هى موزمبيق ، ليسوتو ، سوازيلاند وبتسوانا . وتجدر الملاحظة أن صافى عدد المهاجرين من جماعة تنمية الجنوب الأفريقى إلى جمهورية جنوب أفريقيا قد انخفض فى السنوات القليلة الماضية من بتسوانا وموزمبيق وناميبيا . كما أن الميل نحو الهجرة قد تضاعف كثيراً فى جميع الدول باستثناء ناميبيا حيث ظل كما كان عليه ويعود ذلك إلى الأغراءات المحلية أو القوة الجاذبة من ناحية سياسة الهجرة التى تتبعها جمهورية جنوب أفريقيا .

وحيثما كونت دول خط المواجهة مؤتمر التنسيق لتنمية الجنوب الأفريقى سلف جماعة تنمية الجنوب الأفريقى - عام ١٩٨٠ وضعت أهدافها فى إطار الحد من اعتمادها الاقتصادى على جمهورية جنوب أفريقيا وخاصة فى مجالات الاتصالات والصناعة والنقل والزراعة والطاقة . وعاد ذلك بفوائده فى خلق فرص العمل والتنمية البديلة للهجرة^(٤١) .

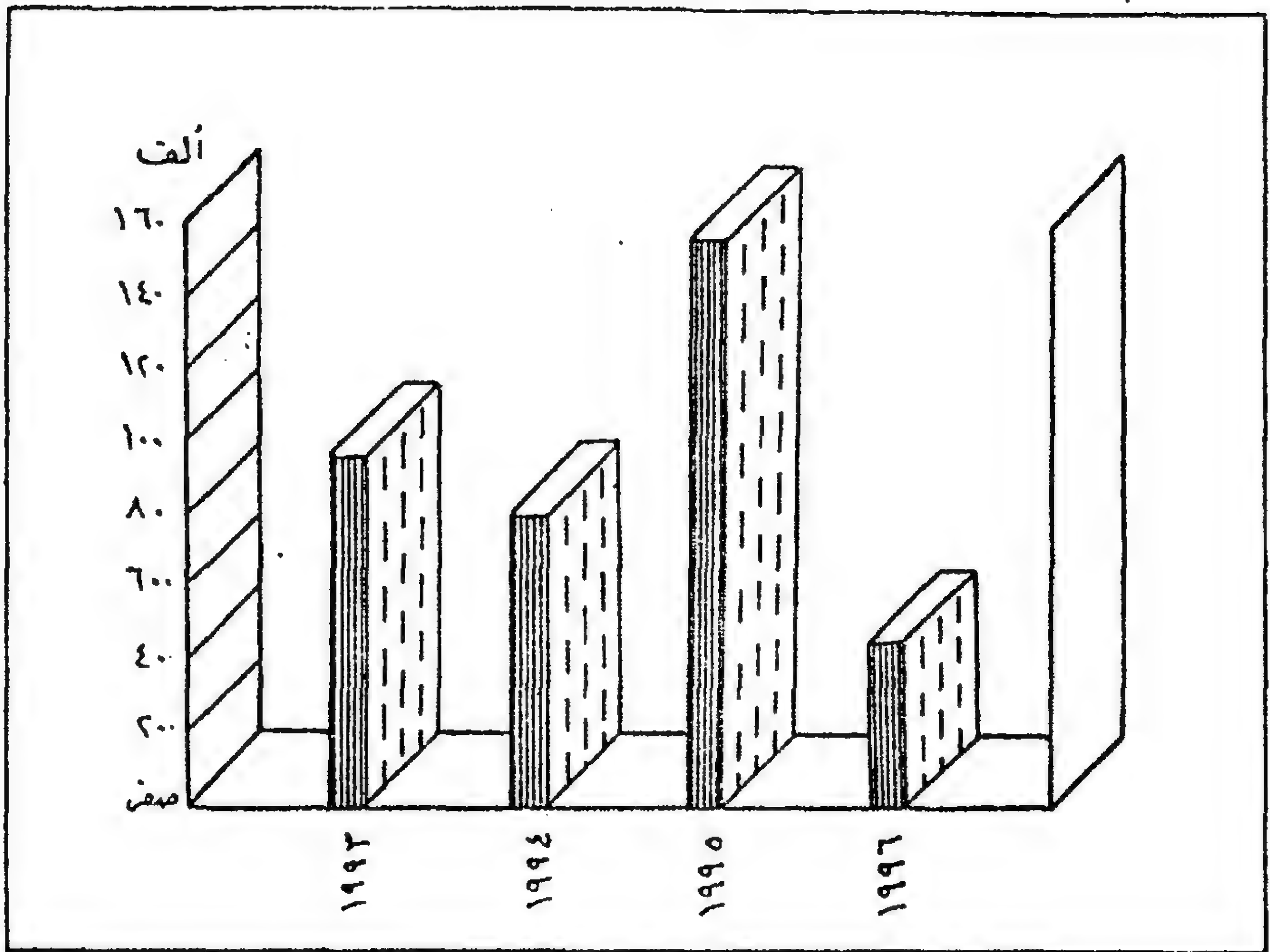
وفى الفترة الممتدة بين عامى ١٩٩٣ - ١٩٩٦ تم استبعاد عدد من الأجانب غير الرسميين من جمهورية جنوب أفريقيا وكانت موزمبيق من أكثر الدول التى تأثرت بذلك حيث أنه تم إعادة نحو ٨١ ألف موزمبيقى عام ١٩٩٣ ، ٧١,٢ ألف فى عام ١٩٩٤ و ١٣١,٧ ألف فى عام ١٩٩٥ وأخيراً ٤٣,٨ ألف فى عام ١٩٩٦ (أنظر جدول (٧) وشكل ٨) ، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من مواطنى زيمبابوى أعيدو خلال الفترة من ١٩٩٠ - ١٩٩٥ ، وعديد من مواطنى ليسوتو فى الفترة من ١٩٩٣ - ١٩٩٦ بالإضافة إلى أعداد قليلة من الدول الأخرى (٤٢).

بلغ حجم الأجانب المعادين إلى أوطانهم اقصاه فى عام ١٩٩٥ ، حيث تم إعادة ١٥٦,٢ ألف مهاجر غير رسمى إلى أوطانهم ، فى حين أنه تم إعادة ٤٣,٨ ألف مهاجر غير رسمى فى عام ١٩٩٦ ، وقد كان معظم المعادين من موزمبيق بنسبة تزيد على ٨٤٪ من حجم المعادين خلال الفترة كلها .

جدول (٧)

الأجانب غير الرسميين الذين أعيدوا إلى أوطانهم من جمهورية جنوب أفريقيا خلال الفترة من ١٩٩٣ - ١٩٩٦ (٤٣)

الدولة	١٩٩٣		١٩٩٤		١٩٩٥		١٩٩٦	
	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
بتسوانا	١٠٥	ار	٤٧	ر٥	١١	-	٧	٥
ليسوتو	٣٠٩٠	٢ر٣	٤٠٧٣	٥ار١	٤٠٨٧	٢ر٦	٢٢٧	ر٥
ملاوى	٢٥٠	ر٣	٣٩٨	ر٥	١١٥٤	ر٧	٦٧	ار
موزمبيق	٨٠٩٢٦	٨٤ر٢	٧١٢٧٩	٨٩ر١	١٣١٦٨٩	٨٤ر٣	٤٣٧٨٣	٩٦ر٧
نيجيريا	٢٢	-	٤٥	ر٥	٦١	-	٩	-
سوازيلاند	٧٨٩	ار	٩٨١	١ر٢	٨٣٧	ر٦	١٦٥	ر٤
تنزانيا	٥٢	ار	٢٤١	ر٣	٨٣٦	ر٦	٢٣	ار
زيمبابوى	١٠٨٦١	١١ر٣	٢٩٣١	٣ر٧	١٧٥٤٩	١١ر٢	٩٨٤	٢ر٢
الجملة	٩٦٠٩٥	١٠٠	٧٩٩٩٥	١٠٠	١٥٦٢٢٤	١٠٠	٤٥٢٦٥	١٠٠



شكل (٨) الأجانب غير الرسميين الذين أعيدوا إلى أوطانهم من جمهورية جنوب أفريقيا

خلال الفترة من (١٩٩٢ - ١٩٩٦)

مما سبق يتضح أنه مع التغيرات السياسية في جمهورية جنوب أفريقيا ، وتنصيب مانديلا رئيساً للحكومة الوطنية ، تغيرت أنماط الهجرة وأثرت على المهاجرين من كل الدول الأفريقية وازداد الطلب على العمال ذوي المهارات العالية سواء من داخل أو خارج أفريقيا . وفي نفس الوقت لم تخلق التغيرات في اقتصاديات جمهورية جنوب أفريقيا وظائف كافية لحفض معدلات البطالة التي ارتفعت من ١ , ٥٪ من إجمالي عدد السكان عام ١٩٩٦ ^(٤٤) إلى ٢٣ , ٢٪ خلال الفترة من ١٩٩٨ - ٢٠٠٠ ^(٤٥) وقد كان للدولة توقعات عالية لتحسين مستوى معيشة الافارقة والذين يشكلون ٧٥٪ من إجمالي عدد السكان . وقد أستولى الوافدون (سواء كانوا شرعيين أو غير شرعيين) على الوظائف من الحكومة . مما سبب الاستياء بين مواطني جمهورية جنوب أفريقيا خاصة بين من

عادوا إليها فوجدوا أنفسهم غرباء الآن مع بعض الأوضاع الأحسن (٤٦) على الرغم من اهتمام الحكومة بحالة العاطلين من مواطني جنوب أفريقيا وفرض قيود على تصاريح العمل الممنوحة للأجانب .

(٢) أقطار صادر الهجرة (نزوح) :

تشترك أقطار صادر العمالة في عدة ظاهرات طبيعية وبشرية فهي تعتبر من أفقر دول القارة ، كما أنها من الدول التابعة لجمهورية جنوب أفريقيا ، وتعاني بشدة من مشكلات التنمية الاقتصادية وتعتمد على الزراعة كمصدر اقتصادي هام . وفيما يلي دراسة لكل دولة على حدة :

(أ) ليسوتو :

ليسوتو دولة صغيرة يسكنها نحو ٢,٢ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ ولا توجد بها موارد طبيعية قابلة للنمو ، وهي محاطة بالكامل بجمهورية جنوب أفريقيا . في عام ١٩٩٦ كان ٤٥٪ من الذكور في القوى العاملة يعملون في مناجم جمهورية جنوب أفريقيا . في حين أن نسبتهم كانت ٥١٪ في عام ١٩٨٤ . ونجد أن ٧٪ من مواطني ليسوتو (٧٧٪ منهم ذكورا) يعيشون خارج البلد منذ عام ١٩٩٦ . تقريباً كل النازحين (٩٦,٨٪) كانوا في جمهورية جنوب أفريقيا. (٤٧)

فقط ١٠٪ من أراضي ليسوتو صالحة للزراعة ، ونمو سكاني سريع وجفاف مستمر جعل الغالبية العظمى من شعبها فقيرا . مع متوسط لدخل الفرد يبلغ ٥٥٠ دولارا في ١٩٩٩ (٤٨) وتعتبر ليسوتو واحدة من أفقر الدول في الجنوب الأفريقي ، ويعمل حوالي ٨٥٪ من القوى العاملة الوطنية في الزراعة المعيشية . وهي تعتمد على هجرة العمال وتساهم تحويلات المهاجرين بدور الأسد في مكاسب الدولة من النقد الأجنبي حيث تساهم بنسبة ٢٤,٤٪ من الناتج القومي في عام ١٩٩٦ .

ويوضح جدول رقم (٥) و جدول رقم (٦) أن ليسوتو تحتل المركز الأول فى إرسال العمالة إلى جمهورية جنوب أفريقيا خلال الفترة من ١٩٨٥ إلى ١٩٩٠ . كما أن عدد عمال المناجم فى جنوب أفريقيا من ليسوتو ارتفع من ١٠ , ٤ ألف عامل فى ١٩٢٠ إلى ١٠٠ , ٩ ألف عامل فى عام ١٩٩٥ أى بنسبة زيادة كلية مقدارها ٩٧٠٪ خلال الفترة كلها . أى أن عدد العمال تضاعف بمقدار عشر مرات خلال ٧٥ عاماً . كما أن المهاجرين من ليسوتو يشكلون نصف القوى العاملة الاجنبية فى المناجم عام ١٩٩٥ .

وفى الدراسة التى قام بها جون جاى^(٤٩) John Gay على عينة مكونة من ٦٩٢ من الباسوتو ، لاحظ أن الباسوتو وجدوا أنه من السهل لهم السفر إلى جمهورية جنوب أفريقيا أكثر من مواطنى موزمبيق أو زيمبابوى . حيث أن ٨٧٪ من العينة لديهم جوازات سفر فى حين أن ٢٩٪ فقط من موزمبيق و ٣٠٪ فقط من زيمبابوى لديهم جوازات سفر . كما أن السفر من ليسوتو أسهل كثيراً وأوفر من موزمبيق وزيمبابوى . كما أوضحت الدراسة أن العمل ليس هو السبب الوحيد للهجرة عبر الحدود ، حيث أن من يذهبون للعمل أو البحث عنه بلغت نسبتهم ٢٥٪ فقط من إجمالى العينة فى حين تصل نسبة من يذهبون لزيارة عائلاتهم أو أصدقائهم حوالى ٣٤٪ ، ١٩٪ يذهبون بهدف التسوق . فى حين أن نسبة ضئيلة هدفها هو التعليم أو السياحة أو الحصول على رعاية طبية .

وقد أثرت سياسة جمهورية جنوب أفريقيا (التى تهدف إلى تقليل الاعتماد على العمالة الأجنبية واستبدالهم بعمالة وطنية . بالإضافة إلى أن بعض العمال من ليسوتو اعتبروا كمواطنين فى جنوب أفريقيا) على حجم التحويلات المرسلة من جنوب أفريقيا إلى ليسوتو ، وطبقاً لقوانين عمل المهاجرين لا يستطيع العمال المهاجرون احضار أفراد أسرهم معهم ولكن كمواطنين يمكن أن يرتبطوا مع عائلاتهم فى جنوب أفريقيا ، وإعادة توحيد العائلة سوف ينهى بعض من تدفقات التحويلات إلى ليسوتو^(٥٠) .

ظلت موزمبيق كحالة خاصة ومبهمة داخل مشروع الهجرة فى الجنوب الأفريقى . وقد بلغ عدد سكانها عام ٢٠٠٠ نحو ١٧,٦ مليون نسمة يعيشون على مساحة تبلغ ٧٨٤ ألف كم^٢ وبكثافة سكانية ٢٢ نسمة / كم^٢ . ويتباين توزيع السكان تبايناً كبيراً على رقعة موزمبيق حيث تتناقص الكثافة فى مناطق كثيرة مثل المناطق الداخلية للهضبة الشمالية ووادى الزمبىزى الداخلى ومعظم السهل الساحلى بين بيراً ومصب اللمبويو^(٥١).

ويعمل نحو ٨١ ٪ من إجمالى القوى العاملة فى الزراعة ، يستخدمون ٩٧ ٪ من الأراضى المزروعة ولكنهم يسهمون بأقل من ثلث الناتج المحلى الإجمالى . ويتميز سكان موزمبيق بارتفاع معدلات الخصوبة والوفيات وارتفاع معدلات النمو السكانى وقد قدر أن ٦٠ ٪ من السكان يعيشون تحت خط الفقر، وهناك حوالى ٤,٥ مليون من المشردين داخلياً وحوالى ١,٥ مليون لاجئ^(٥٢).

وتعتبر موزمبيق المصدر الرئيسى للعمالة إلى مناجم ومزارع جمهورية جنوب أفريقيا لأكثر من قرن كما أن لها تاريخاً طويلاً فى الهجرة إلى جمهورية جنوب أفريقيا ، وهى تمتاز عن باقى الدول الأخرى المصدرة للعمالة مثل ليسوتو وزيمبابوى ثقافياً ولغوياً كما أنها تشترك مع جمهورية جنوب أفريقيا فى الحدود مما أثر عليها اجتماعياً وسياسياً وايضاً اقتصادياً . وكنتيجة لهذا حددت اتفاقية العمالة المهاجرة وخدمات ميناء موبوتو مع ارتباطات كثيرة مع جمهورية جنوب أفريقيا .

وكانت موزمبيق تساهم بعدد كبير من العمال الأجانب فى جمهورية جنوب أفريقيا بلغ نحو ١٥١ ألف عامل فى عام ١٩٧٥ بنسبة ٣٦,٤ ٪ من إجمالى العمال السود الأجانب^(٥٣) . ثم أخذت أعداد المهاجرين من موزمبيق فى الانخفاض حيث بلغ عدد المهاجرين فى عام ١٩٨٥ نحو ٦٣,٦ ألف مهاجر ثم إلى ٦١,٦ ألف مهاجر فى عام ١٩٩٠ . ويرجع ذلك إلى الظروف السياسية

التي لعبت دوراً كبيراً فى أنماط الهجرة ، حيث حرمت حكومة جنوب أفريقيا
استقدام عمالة جديدة من موزمبيق وأجبرت عددا كبيرا من الموزمبيين على
العودة إلى منازلهم لاقتصاد لا يستطيع أن يتحمل إضافة عمال جدد وطبقاً
لتقديرات وزارة العمل ، نجد أن ٨٠٪ من القوى العاملة فى الحضر لا تعمل أو
تعمل فى القطاع غير الرسمى (٥٤).

ويعمل معظم المهاجرين من موزمبيق فى التعدين ، حيث نجد أن ما
يزيد على ثلاثة ارباع (٧٨٪) عمال المناجم فى جنوب أفريقيا كانوا من
موزمبيق عام ١٩٢٠ .

(أنظر جدول ٦) ، كما أنها احتلت المركز الأول بين الدول المصدرة لعمال
المناجم فى جمهورية جنوب أفريقيا . كما نجد أن عدد عمال مناجم الذهب
الموزمبيين بلغ أقصاه فى عام ١٩٦٠ حيث بلغ عددهم ١٠٢ ألف عامل بنسبة
٤٣,٥٪ من إجمالى عمال مناجم الذهب فى جنوب أفريقيا . ويرجع انخفاض
النسبة بين عامى ١٩٢٠ ، ١٩٦٠ إلى اتساع قاعدة الدول المرسله للعمالة لمواجهة
احتياجات جمهورية جنوب أفريقيا اثناء مرحلة التوسع - ثم أخذ العدد فى
الانخفاض بعد ذلك للظروف السياسية التى سبق الحديث عنها .

ويلاحظ أن عمال التعدين الموزمبيين مجموعة غير موهوبة بين نظرائهم فى
جنوب أفريقيا فترتفع بينهم الأمية ، كما أنها تابعة ومستعدة للعمل تحت ظروف
فقيرة ، وهناك ملاحظة أخرى أن الموزمبيين ينفرون من الارتباط بنقابات
وغالباً يعملون كعمال محتقرين . كما أنهم غير محبوبين من نظرائهم بسبب زيادة
الطلب عليهم وانخفاض الطلب على العمال من باقى الدول الأخرى المصدرة
للمهاجرين (٥٥).

وتعتبر الزراعة الحرفة الثانية التى تجذب المهاجرين من موزمبيق للعمل فى
جنوب أفريقيا ، ولفترة طويلة ظلت هناك منافسة بين المناجم والمزارع لاستقطاب

العمالة المهاجرة من موزمبيق ، وعلى العكس فى المناجم فقد سجل عمال موزمبيق فى المزارع كعمال غير رسميين . ولسنوات عديدة ، لخصت فكرة الأجانب (الغرباء) المستعدين لاقتطاع العمل المحلى بالعمل بأجور تعتبر أقل من الأجر المقبول للعيش . بعض الاتحادات كانت أكثر تجانساً وتشعر بأن الموزمبيين غالباً مستغلين بواسطة أصحاب الأعمال الذين يستفيدون من حالتهم غير الرسمية . فالعمل الزراعى المتعلق بالموزمبيين يعتبر واحداً من أسوأ أشكال الاستخدام والظلم . (٥٦)

وفى الدراسة التى قام بها Vletter,F.D., على عينة مكونة من ٦٦١ من الموزمبيين (٦١٪ منهم ذكور ، ٣٩٪ أناث) ومن بين ٢٩٪ ممن استجابوا للإجابة على السؤال عن سبب زيارتهم إلى جمهورية جنوب أفريقيا ، نجد أن ٤٥٪ منهم ذهبوا للعمل ، ٢٢٪ للبحث عن عمل ، ٢٪ لبيع وشراء البضائع ، ٢٪ للتجارة . ونحو ١٢٪ ذهبوا لزيارة عائلاتهم أو أصدقائهم ، والبعض الآخر ذهب للرعاية الطبية أو لقضاء الاجازة أو للتعليم .

كما أن هناك نسبة من مهاجرى موزمبيق تتجه إلى زيمبابوى حيث المناطق الصناعية والزراعية . كما أن نطاق النحاس فى زامبيا يستقطب بعض مهاجرى موزمبيق . وهناك عدد قليل من المهاجرين يذهبون إلى تنزانيا .

(ج) ملاوى :

تعتبر ملاوى واحدة من أفقر الدول فى العالم بعدد سكان يبلغ نحو ١١ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ ، ومتوسط دخل الفرد من الناتج القومى الإجمالى يبلغ ١٩٠ دولار عام ١٩٩٩ ، معدل وفيات الاطفال الرضع نحو ١٥٣ فى الألف وأمد الحياة نحو ٣٩ سنة عام ١٩٩٩ ، ومعدل نمو سنوى مقدارة - ٣٪ خلال الفترة (١٩٧٠ - ٢٠٠٠) سنوياً وكثافة سكانية نحو ١١٧ نسمة / كم^٢ .

وتنقسم الدولة إلى ثلاثة أقاليم إدارية ، الشمالية و الوسطى والجنوبية ، وقد وجدت التنمية الاقتصادية طريقها إلى الأقليم الأوسط حيث توجد أكبر المجموعات العرقية The Chewa والتي تشكل أكثر من نصف عدد السكان (٥٧).

وتعتمد ملاوى فى حياتها الاجتماعية على هجرة العمال إلى جمهورية جمهورية جنوب أفريقيا وزيمبابوى ، كما استغلت بريطانيا أقليم نياسالاند واستغلته كمصدر للعمالة الرخيصة فى مناجم جنوب أفريقيا وزيمبابوى أو لزراعة البن. (٥٨) حيث أنها كانت تسهم بنحو ٤٠٪ من ٢٨٠ ألف مهاجر يعملون فى زيمبابوى فى عام ١٩٥٦ ، كما أن نطاق النحاس فى زامبيا يستقطب مهاجرين من ملاوى. (٥٩) وكانت ملاوى تشغل المركز الثانى بين الدول المرسلّة للعمالة إلى جمهورية جنوب أفريقيا عام ١٩٧٢ حيث بلغ عدد الملاويين نحو ١٣١,٢ ألف بنسبة ٢٩,٧٪ من إجمالى عدد المهاجرين فى جمهورية جنوب أفريقيا. (٦٠) ، إلا أن هذا العدد انخفض إلى ٢٨,٧ ألف فى عام ١٩٨٥ ، بعد أن أوقفت ملاوى إرسال مهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا بعد خطة ترحيل المشتغلين بالتعدين من ملاوى ، ثم بلغ عدد المهاجرين من ملاوى إلى جمهورية جنوب أفريقيا نحو ٣٤,٧ ألف مهاجر بنسبة ٩٪ من إجمالى عدد المهاجرين عام ١٩٩٠ .

(د) ناميبيا :

تعد ناميبيا من الوحدات السياسية الهامة بمساحة تصل إلى ٨٢٣ ألف كيلو متر مربعاً ويسكان قارب عددهم المليونين عام ٢٠٠٠ وبكثافة سكانية تبلغ ٢ نسمة لكل كيلو متر مربع ، وتمتد ناميبيا بين دائرتى عرض ١٨ إلى ٢٨ جنوباً ، ويصل متوسط ارتفاع سطحها إلى أكثر من ٢٠٠٠ متراً فى نطاق الهضاب الوسطى ، ومن هنا يكون التفاوت الكبير فى المناخ . ويتميز اقتصاد ناميبيا بالازدواجية الواضحة ، فهناك قطاع الحرف المتقدمة التى تتركز فى أيدي الأوروبيين مثل الرعى التجارى والتعدين وصيد الأسماك . وتعتمد هذه الأنشطة

على الأيدى العاملة الأفريقية الرخيصة وقطاع الحرف المعاشية التي يمارسها السكان الافارقة مثل الرعى الأولى وزراعة بعض المحاصيل الغذائية مثل الذرة العريضة والذرة الرفيعة . كما يلعب تعدين الماس دوراً رئيسياً في اقتصاديات ناميبيا ، وقد اكتشف سنة ١٩٠٨ قرب مصب نهر الأورنج وفي الأقليم الساحلى الجنوبي ، كما يتم تعدين الرصاص والنحاس والزنك بالقرب من مدينة تسومب (٦١).

وقد بلغ عدد المهاجرين من ناميبيا إلى جمهورية جنوب أفريقيا نحو ٩, ٢ ألف عامل بنسبة ٢, ٩ ٪ من إجمالى عدد المهاجرين عام ١٩٨٥ ، أما بعد ذلك فلم توجد بيانات توضح عدد المهاجرين من ناميبيا إلى باقى الدول الأفريقية فيما عدا الدراسة التى قدمها (٦٢) Frayne, B., and Pendleton, w., عن هجرة الناميبين فى الجنوب الأفريقى لعينة مقدارها ٦٠٠ شخص تغطى كل مناطق ناميبيا ويشكل الذكور ٤٩ ٪ من إجمالى حجم العينة ، كما يمثل الأفريقيون ٧٣ ٪ ومعظم أفراد العينة من الحضر (٨٤ ٪) ، وحوالى ٥٠ ٪ من المهاجرين فى فئة العمر ١٥-٤٤ سنة . والملاحظة الأولى الجديرة بالاهتمام أن ٣٨ ٪ من أفراد العينة يذهبون إلى جمهورية جنوب أفريقيا ، كما أن هناك بعض المهاجرين من ناميبيا يتجهون إلى أنجولا ، وزامبيا ، زيمبابوى وبتسوانا ، حيث يتركز معظمهم على طول الحدود بين ناميبيا وهذه الدول وذلك لوجود تشابه فى نمط الحياة بين السكان على طول الحدود . ولا نندهش عندما نعلم أن ١٤ ٪ من أفراد العينة زاروا أنجولا وكان ٨٩ ٪ منهم أفريقيين ، وحوالى ٦٩ ٪ عاشوا فى المناطق الشمالية و١٢ ٪ من العينة زاروا زامبيا وغالبيتهم كانوا من المناطق الشمالية والمدن .

أما بالنسبة لمن زاروا بتسوانا وزيمبابوى فهناك اختلافات قليلة ، ومعظمهم من البيض والملونيين . أما بالنسبة لمن زاروا أنجولا وزامبيا (٣٧ ٪) و (٤٦ ٪) على الترتيب كانوا من المناطق الوسطى والجنوبية .

وفى الماضى عندما كانت ناميبيا منطقة إدارية تابعة لجنوب أفريقيا لم يكن هناك تحكم فى عبور الحدود وكانت عمليات تسجيل القادمين والمغادرين غير ضروري . وقد قدر أنه فى عام ١٩٩٦ ان ٢٠٠٥٢٣ ناميبى دخلوا جنوب أفريقيا بصورة رسمية منهم فقط ٥٥٦٩ (٣٪ من العدد الكلى) بقوا أكثر من تصاريحهم وهذا دليل على أن حركة المرور بين الدولتين أكثر مرونة . فى عام ١٩٩٦ تم ترحيل ٨٤ ناميبى من جنوب أفريقيا . وطبقاً لنتائج المسح والاحصاءات الموثقة من جمهورية جنوب أفريقيا . فهناك ما لا يقل عن ٢٠ ألف ناميبى يعيشون فى جمهورية جنوب أفريقيا . (٦٣) ويرجع ذلك إلى الأغراءات المحلية أو القوة الجاذبة من ناحية سياسة الهجرة التى تتبعها جنوب أفريقيا .

(هـ) سوازيلاند :

تقع سوازيلاند فى أقصى شرق جمهورية جنوب أفريقيا وتحدها شرقاً موزمبيق وهى أكثر تقدماً من ليسوتو رغم أن مساحتها وعدد سكانها يصلان إلى نصف مساحة وسكان ليسوتو ، كما أن بيئتها الطبيعية أكثر تنوعاً حيث توصف بأنها من أجمل أقاليم افريقيا الجنوبية ، كما أن إمكانيات التنمية بها كبيرة ، وعلى العكس من ليسوتو فلا تلعب هجرة العمال من أبنائها دوراً هاماً فى اقتصادياتها حيث تقل هذه الظاهرة قلة واضحة .

وبلغ عدد سكانها حوالى المليون نسمة عام ٢٠٠٠ فى مساحة تصل إلى ١٧ ألف كيلو متر مربع وبكثافة تصل إلى ٥٩ نسمة / كم^٢ ، ويستغل الجزء الأكبر من أراضى سوازيلاند فى الرعى (٦٣٪ من جملة المساحة) ، وتمثل الماشية حيوانات الرعى الرئيسية كما تقوم الزراعة حيثما سمحت كمية الأمطار بذلك وأهم المحاصيل الذرة والقطن والتبغ ، وتمثل مساحة الأراضى الزراعية نحو ١٠٪ من مساحة البلاد ، وهناك إمكانيات تنمية زراعية على الرى من الأنهار ، ولا تتوافر فى سوازيلاند موارد ثروة معدنية كبيرة ، إلا أن أهمها هو الأسبستوس والحديد الخام. (٦٤)

وبوضح جدول (٥) ، (٦) أن أعداد المهاجرين من سوازيلاند إلى جمهورية جنوب أفريقيا قد انخفض من ٣٠,٧ ألف عام ١٩٨٥ إلى ١٩,٦ ألف عام ١٩٩٠. ومعظمهم يعمل فى المناجم حيث ارتفعت أعدادهم من ٣,٤ ألف عام ١٩٩٠ إلى ١٦,٨ ألف عام ١٩٩٥ وذلك وطبقاً لاتفاقية الهجرة بين جمهورية جنوب أفريقيا وسوازيلاند ، كما أن هناك عددا محدودا من مهاجرى سوازيلاند يتجهون إلى بتسوانا (١١٧ نسمة عام ١٩٩٩).

ثالثا : أقطار صادر ووارد العمالة :

تشارك أقطار صادر ووارد العمالة فى عدة ظاهرات جغرافية واقتصادية فهى تتميز بتنوع الأقاليم الجغرافية والموارد الاقتصادية وهى تشمل بتسوانا ، زامبيا ، زيمبابوى ، تنزانيا . كذلك شهدت تنمية كبيرة فى مواردها المعدنية ، وإن كانت تتفاوت فى مستوى نصيب الفرد من الدخل القومى ، وفيما يلى دراسة لكل دولة على حدة .

(أ) بتسوانا :

تشغل بتسوانا وسط الجنوب الأفريقى فيما بين ناميبيا وزيمبابوى وجمهورية جنوب أفريقيا ، وهى دولة مغلقة تبلغ مساحتها ٥٦٧ ألف كيلو متر مربع وسكانها ١,٦ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ ، ويقع معظمها فى نطاق صحراء كلهارى ، وتتزايد أمطارها بالاتجاه نحو الشمال والشرق . ويكون الأفريقيون من قبائل البانتو الأغلبية العظمى من سكان بتسوانا (٩٧,٥ ٪) ويتركزون فى الأقاليم الجنوبية الشرقية والشرقية والشمالية ، وهم يمارسون الرعى كحرفة أساسية خاصة رعى الماشية ، كما يزرعون بعض المحاصيل المعاشية حيثما سمحت الأمطار بذلك مثل الذرة بنوعيهما . ورغم أن التعدين فى بتسوانا له تاريخ يزيد على مائة عام ، إلا أن منجما واحداً فقط بدأ سنة ١٩٦٦ لإنتاج

المنجنيز قرب لوباتسى ، ثم بدأ إنتاج النحاس والنيكل سنة ١٩٧٣ . (٦٥) كما أنها غنية بالماس وذات اقتصاد نشط ، وربما تقدم بتسوانا مركز استقبال للمهاجرين بديلا عن جنوب أفريقيا فى الاقليم الفرعى ، حيث إن معدل النمو الاقتصادى أكبر منه فى جمهورية جنوب أفريقيا كما سبق القول.

ويوضح جدول رقم (٨) وشكل (٩) التوزيع العددي والنسبى للوافدين إلى بتسوانا ومنهما يتضح الأتى :

- ارتفع عدد المهاجرين إلى بتسوانا من ٨٧٣٣ مهاجرا عام ١٩٨١ إلى ١٨٥٣٨ عام ١٩٩١ بنسبة زيادة كلية مقدارها ٢١٢٪ وبمعدل نمو سنوى بلغ ٧,٥٪ سنوياً.

- تأتى جمهورية جنوب أفريقيا فى المركز الأول بنسبة ٤٣,٦٪ ، ٣٣,٧٪ من إجمالى حجم الهجرات الوافدة إلى بتسوانا خلال عامى ١٩٨١ ، ١٩٩١ على الترتيب حيث ارتفع عدد المهاجرين منها من ٣٨٠٧ إلى ٦٢٥٤ خلال التعدادين السابقين على الترتيب .

- ارتفع عدد المهاجرين من زيمبابوي من ٢٣٧٥ مهاجرا عام ١٩٨١ إلى ٥٣٠٨ مهاجرين عام ١٩٩١ وبنسبة ٢٧,٢٪ ، ٢٨,٦٪ للفترات السابقة على الترتيب . وهى بذلك تحتل المركز الثانى فى إرسال المهاجرين إلى بتسوانا .

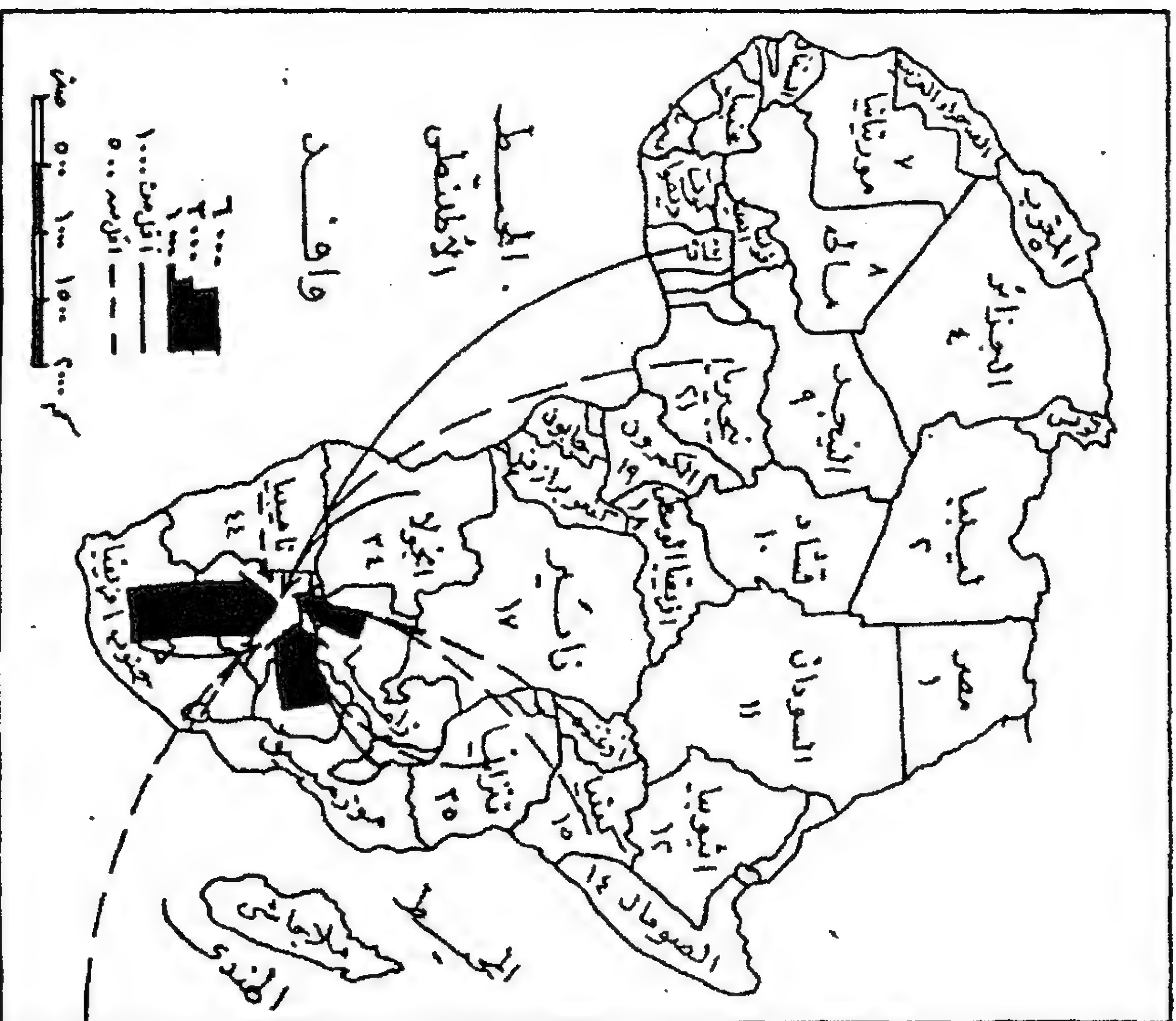
- تشغل زامبيا المركز الثالث فى إرسال مهاجرين إلى بتسوانا بنسبة ١١,٦٪ من إجمالى حجم الهجرات الوافدة عام ١٩٩١ ، فى حين أنها لم تساهم بأى نسبة فى التعداد السابق (١٩٨١) .

- تحتل ليسوتو المركز الرابع بنسبة ٥,٣٪ ، ٣٪ لتعدادي ١٩٨١ ، ١٩٩١ على الترتيب . حيث زاد عدد المهاجرين فيها من ٤٦٤ مهاجر إلى ٥٤٧ مهاجر للفترات السابقة على الترتيب .

جدول (٨)

التوزيع العددي والنسبي للمهاجرين إلى بتسوانا حسب أقطار النزوح
خلال تعدادي ١٩٨١-١٩٩١ (٦٦)

١٩٩١		١٩٨١		أقطار النزوح
%	الحجم	%	الحجم	
٢٢,٨	٦٢٨٤	٤٢,٦	٢٨٠٧	جمهورية جنوب أفريقيا
٢٨,٦	٥٢٠٨	٢٧,٢	٢٣٥٧	زيمبابوي
١١,٦	٢١٥٤	-	-	زامبيا
٤,٢	٧٧١	٢,٧	٢٣٤	ملاوي
٢,٢	٥٩٦	٤,٦	٤٠٣	أنجولا
٢,١	٥٦٩	١,١	٩٢	غانا
٢,٠	٥٤٧	٥,٢	٤٦٤	ليسوتو
٢,٧	٤٩٨	-	-	تنزانيا
١,٨	٢٣١	٧,٠	٦١٢	أفريقيا
١,٧	٢١٩	-	-	أوغندا
١,٧	٢١٦	-	-	موريشيوس
١,٦	٢١٠	٦,٠	٥٢١	ناميبيا
٠,٧	١٢٢	-	-	كينيا
٠,٦	١١٧	١,٤	١٢٥	سوازيلاند
٠,٦	١١٧	١,١	٩٩	نيجيريا
١٠٠	١٨٥٢٨	١٠٠	٨٧٢٢	الجملة



شكل (٩) هجرة العمالة الدولية من بنسوانا واليها عام ١٩٩١

- ارتفع عدد المهاجرين من أنجولا من ٤.٣ مهاجرين إلى ٥٩٦ مهاجرا عامي ١٩٨١ ، ١٩٩١ على التوالي وهى بذلك تشغل المركز الخامس بين الدول المرسلة للعمالة إلى بتسوانا .

تساهم هذه الدول الخمس بنسبة تزيد على ٨٠٪ خلال الفترة السابقة . وبذلك يمكن القول أن معظم الهجرات الوافدة إليها هى من دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقي ، كما أنها تستقبل مهاجرون من غانا ونيجيريا فى غرب أفريقيا وأوغندا وكينيا من شرق أفريقيا . كما يفد إليها مهاجرين من ملاوى وتنزانيا وموريشيوس وناميبيا وسوازيلاند .

وتستقبل بتسوانا نحو ٥٦.٦ مهاجرين أوروبيين عام ١٩٩١ معظمهم من بريطانيا (٦٣,٥٪) وألمانيا (٦,٤٪) والأراضي المنخفضة (٣,٦٪) والنسبة الباقية تأتى من باقى الدول الأوروبية . كما يفد إليها ٤١٩٣ مهاجرا من آسيا ، ويشكل الهنود نصف عدد المهاجرين من آسيا ثم الصين بنسبة ٢٢,٦٪ ، أما النسبة الباقية فهى من باكستان وسرى لانكا وباقى الدول الآسيوية . كما استقبلت بتسوانا نحو ١٥٥ مهاجرا من استراليا. (٦٧)

كما أن هناك عددا من الوافدين غير الشرعيين تم إعادتهم إلى أوطانهم خلال الفترة بين ١٩٩٢-١٩٩٧ حيث بلغ عددهم ٧٤٥٨٢ معظمهم من دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقي (SADC) أساساً من زيمبابوي وجنوب أفريقيا وناميبيا ، فقد تم فى عام ١٩٩٢-١٩٩٣ إعادة نحو ١٧,٩ ألف وافد غير شرعي وفى عام ١٩٩٣-١٩٩٤ ثم إعادة نحو ٨,٨ ألف ، وفى عام ١٩٩٤-١٩٩٥ تم إعادة ١٤,٣ ألف ونحو ١٦,٩ ألف ، ١٦,٦ ألف للأعوام من ١٩٩٦/٩٥ ، ١٩٩٧/٩٦ على الترتيب . (أنظر جدول رقم ٩)

جدول (٩)

الوافدون غير الشرعيين الذين تم استبعادهم من بتسوانا
خلال الفترة (١٩٩٢/١٩٩٣ - ١٩٩٥/١٩٩٧) (٦٨)

السنة	الحجم
١٩٩٣/١٩٩٢	١٧٩٤٣
١٩٩٤/١٩٩٣	٨٨١٠
١٩٩٥/١٩٩٤	١٤٣٤٦
١٩٩٦/١٩٩٥	١٦٩٣٠
١٩٩٧/١٩٩٦	١٦٥٥٣
الجملة	٧٤٥٨٢

ويوضح جدول (١٠) وشكل (٩) عدد النازحين من بتسوانا حسب بلد الوفود خلال عام ١٩٩١ ومنهما يتضح الآتي :

- بلغ العدد الكلى للمهاجرين من بتسوانا نحو ٣٨,٦ ألف مهاجرا بنسبة ٩,٢٪ من إجمالي سكان البلد عام ١٩٩١ ، معظمهم من الذكور (٧٢٪) وتشكل الإناث النسبة الباقية .

- انخفض عدد المهاجرين من بتسوانا من ٥٤٧٣٥ مهاجر فى عام ١٩٧١ إلى ٤٢.١٥ فى عام ١٩٨١ (بنسبة انخفاض مقدارها ٨٤ر٪) ثم إلى ٣٨٦٢٤ فى عام ١٩٩١ .

- معظم المهاجرين من بتسوانا يتجهون إلى دول أفريقية (٩٥,٥ ٪) والنسبة الباقية تتجه إلى أوروبا وآسيا وأمريكا وأستراليا . فتأتى أوروبا فى المركز الثانى لاستقبال المهاجرين من بتسوانا معظمهم فى انجلترا (٨٦٪) وهم يذهبون أما للتعليم أو التدريب . كما أن المهاجرين إلى أمريكا يذهبون للتعليم.

- تستأثر جمهورية جنوب أفريقيا بنسبة ٨٠٪ من المهاجرين من بتسوانا تليها زيمبابوي وناميبيا . فهذه الدول الثلاث يتجه إليها نحو ٩٢,٥٪ من إجمالي النازحين من بتسوانا .

كما سبق يتضح أن عدد الوافدين إلى بتسوانا بلغ نحو ٢٨٤٩٢ وافد وعدد النازحين منها بلغ ٣٨٦٢٤ مهاجر. وهذا يعنى أن بتسوانا خسرت نحو ١٠١٣٢ لصالح الدول الأخرى . ولكن من المحتمل أن تتغير الصورة فى المستقبل بسبب مشاريع التنمية التى تبنتها الدولة منذ عام ١٩٩١ .

(ب) زيمبابوي :

تقع بين نهري الزمبيزى واللمبوبو أو ما بين درجتى عرض ١٥ و ٢٢ جنوباً بمساحة تبلغ ٣٩١ ألف كيلو متراً مربعاً وعدد سكان يبلغ ١١,٧ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ وبكثافة تبلغ نحو ٣٠ نسمة / كم^٢ . ويمثل الأفريقيون فى زيمبابوي أغلبية ساحقة وينتمون فى معظمهم إلى قبيلتين كبيرتين هما الميتابيلى الرعوية التى تتركز فى المناطق الجنوبية والغربية القليلة المطر وقبيلة الماشونا التى تنتشر فى القسم الشمالى الأوفر مطراً وتحترف الزراعة. (٧٠)

وتتكرر فى زيمبابوي ظاهرة الإنتاج الزراعي المزدوج التى تتميز بها كثير من أقطار أفريقيا الجنوبية ، فتوجد الزراعة الوطنية المعاشية التى يمارسها السكان الأفريقيون ، وكذلك الزراعة الأوروبية التجارية التى يقوم بها المستوطنون البيض ، وقد تأثر عدد من الزراع الأفارقة من مشروعات التدريب الحكومى لتطوير الزراعة الوطنية وأصبحوا يمارسون بدورهم زراعة تجارية ناجحة فى أراضيهم .

وكان الذهب أول المعادن التى قام المستوطنون الأوروبيون الأوائل بتعدينها ، رغم أن زيمبابوي عرفت تعدينه قبل مجيء الأوروبيين بعدة قرون . وقد فقد الذهب مركزه الأول بين الأنشطة التعدينية منذ أوائل الخمسينيات عندما بدأ إنتاج الأسبستوس يفوق من حيث القيمة إنتاج الذهب ، ويعدن الكروم فى نفس المناطق

جدول (١٠)
النازحون من بتسوانا عام ١٩٩١ (٦٩)

بلد الاستقبال	جملة		ذكور		إناث	
	الحجم	%	الحجم	%	الحجم	%
افريقيا	٢٦٨٨٤	٩٥,٥	٢٦٨٤١	٩٦,٣	١٠٠٤٣	٩٣,٤
ليسوتو	٢٣١	٠,٦	١٠٣	٠,٤	١٢٨	١,٢
ملاوي	٦٧	٠,٢	٣١	٠,١	٣٦	٠,٣
ناميبيا	٢٤٩٩	٩,٥	١٣٥٧	٤,٩	١١٤٢	١٠,٦
سوازيلاند	١٤٩	٠,٤	٦٧	٠,٢	٨٢	٠,٨
زامبيا	٢٧٥	١,٠	١٧٤	٠,٦	٢٠١	١,٩
زيمبابوي	٢٣٢١	٨,٦	٨٢٨	٣,٠	١٤٩٣	١٣,٩
تنزانيا	٧٠	٠,٢	٤٠	٠,١	٣٠	٠,٣
جمهورية جنوب افريقيا	٢٠٩٩٨	٨٠,٣	٤٢١٤٦	٨٦,٦	٢٨٥٢	٦٣,٨
غانا	٧	-	٤	-	٣	-
نيجيريا	٢	-	-	-	٢	-
أوغندا	٣	-	٢	-	١	-
كينيا	٥٦	٠,٢	٣٦	٠,١	٢٠	٠,٢
موريشيوس	٦	-	١	-	٥	-
باقي افريقيا	١٠٠	٠,٣	٥٢	٠,٢	٤٨	٠,٤
أوروبا	٧٥٢	٢,٩	٤٣٠	١,٥	٣٢٢	٣,٠
إنجلترا	٥٠١	١,٣	٣٠٥	١,١	١٩٦	٠,٨
باقي أوروبا	٢٥١	٠,٦	١٢٥	٠,٤	١٢٦	١,٢
أستراليا	٩٦	٠,٢	٧٤	٠,٣	٢٢	٠,٢
أمريكا	٦٤٧	٢,٧	٣٨٥	١,٤	٢٦٢	٢,٤
الأوقيانوسية	٥٦	٠,٢	٢٧	٠,١	٢٩	٠,٣
غير مبين	١٨٩	٠,٥	١٢٠	٠,٤	٦٩	٠,٦
الجملة	٢٨٦٢٤	١٠٠	٢٧٨٧٠	١٠٠	١٠٧٤٧	١٠٠

التي يعدن فيها الأسبستوس ، كما أنها تملك أكبر مصادر للفحم في حقول وانكى وهى تلي في ذلك جمهورية جنوب أفريقيا . وقد شهدت زيمبابوى تطوراً كبيراً في الصناعة منذ الحرب العالمية الثانية وقد كان الإنتاج الصناعي في بداية الأمر موجهاً للاستهلاك المحلى بصفة أساسية ولكن بدأت الصناعات المختلفة تجد طريقها للأسواق الخارجية فى أفريقيا المدارية وخارجها. (٧١)

وقد بدأ تاريخ الهجرة مع دخول المستعمر الأوروبى إلى القارة وبدأت حاجته إلى اليد العاملة الأفريقية لاستخدامها فى مشاريعه التعدينية والزراعية والصناعية ومد السكك الحديدية . وقد لجأ الأوروبيون فى البداية إلى استقدام اليد العاملة الأفريقية سواء بالقوة أو طواعية وقد طبق الأوروبيون على زيمبابوى ذات السياسة فأجبر الأفريقيون على ترك قراهم للعمل لدى الأوروبيين عن طريق فرض ضريبة الرأس واضطراره للعمل ليحصل على النقد الذى يمكنه من سداد هذه الضريبة . ولقد احتاج البيض فى زيمبابوى مع التطور الصناعى والزراعى والتعدينى إلى اليد العاملة الأفريقية من الدول الأخرى المحيطة بها وذلك منذ بداية القرن الحالى .

وتعتبر ملاوى وزامبيا وموزمبيق المصادر الرئيسية لامداد زيمبابوى باليد العاملة الأفريقية ولقد اختلفت أهمية الوحدات الثلاث فى تصدير اليد العاملة إلى زيمبابوى ففي عام ١٩١١ كان معظم العمال يفدون من زامبيا ، وعلى الرغم من أن ملاوى أصبحت المصدر الرئيسى للعمالة الوافدة منذ عام ١٩٢١ إلا أن زامبيا استمرت فى المساهمة فى قوة العمل بها حتى بعد الحرب العالمية الثانية عندما بدأت تتناقص نسبة العمال الوافدين منها بسبب احتياج نطاق النحاس بها إلى الأيدى العاملة - أما الآن فإن ملاوى تعتبر أولى البلاد الأفريقية تصديراً لليد العاملة إلى زيمبابوى .

أما موزمبيق فتأتى فى المرتبة الثالثة من حيث تصدير العمالة الأفريقية إلى زيمبابوى وقد زاد تدفق العمال من موزمبيق بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة لأزمة العمالة فى زيمبابوى والتي نتجت عن سحب زامبيا لديها العاملة للعمل فى حقول النحاس . وعندما نشأ الاتحاد بين زيمبابوى وزامبيا وملاوى قل الطلب على اليد العاملة الأفريقية من خارج دول الاتحاد لوجود أكتفاء ذاتى بها . وقد أدى ذلك بحكومة زيمبابوى أن سنت تشريعات تُحرم هجرة العمال الأفريقيين من خارج حدود الاتحاد إليها ومنعهم من البحث عن أى عمل فى المدن الرئيسية بها . كما فرضت ضريبة خدمة على كل عامل أفريقى أجنبى . وقد قللت هذه التشريعات من تدفق العمال الأفريقيين من موزمبيق وبالرغم من ذلك فقد استمروا يمثلون عنصراً رئيساً فى قوة العمل الزيمبابوية .

وبعد انتهاء الاتحاد وفى سنة ١٩٦٦ وجدت الحكومة فى زيمبابوى انها بحاجة إلى زيادة عدد العمال الزيمبابويين الأفريقيين فعادت إلى سن التشريعات التى تحد من تدفق الأفريقيين الأجانب إلى زيمبابوى وأعلنت عن غلق معظم المناطق واستثنت من ذلك المناطق الريفية فى الجنوب الشرقى والشرق . وكنتيجة لذلك قل عدد العمال الأفريقيين الأجانب بسبب عودتهم إلى بلادهم الأصلية . وفى منتصف عام ١٩٦٧ عدلت حكومة زيمبابوى عما سبق وسمحت للأفريقيين الأجانب بالبحث عن عمل فى أى منطقة ريفية وليس بالمدن وقد حددت أقصى مدة لإقامة هؤلاء بسنتين يعودون بعدها إلى بلادهم. (٧٢)

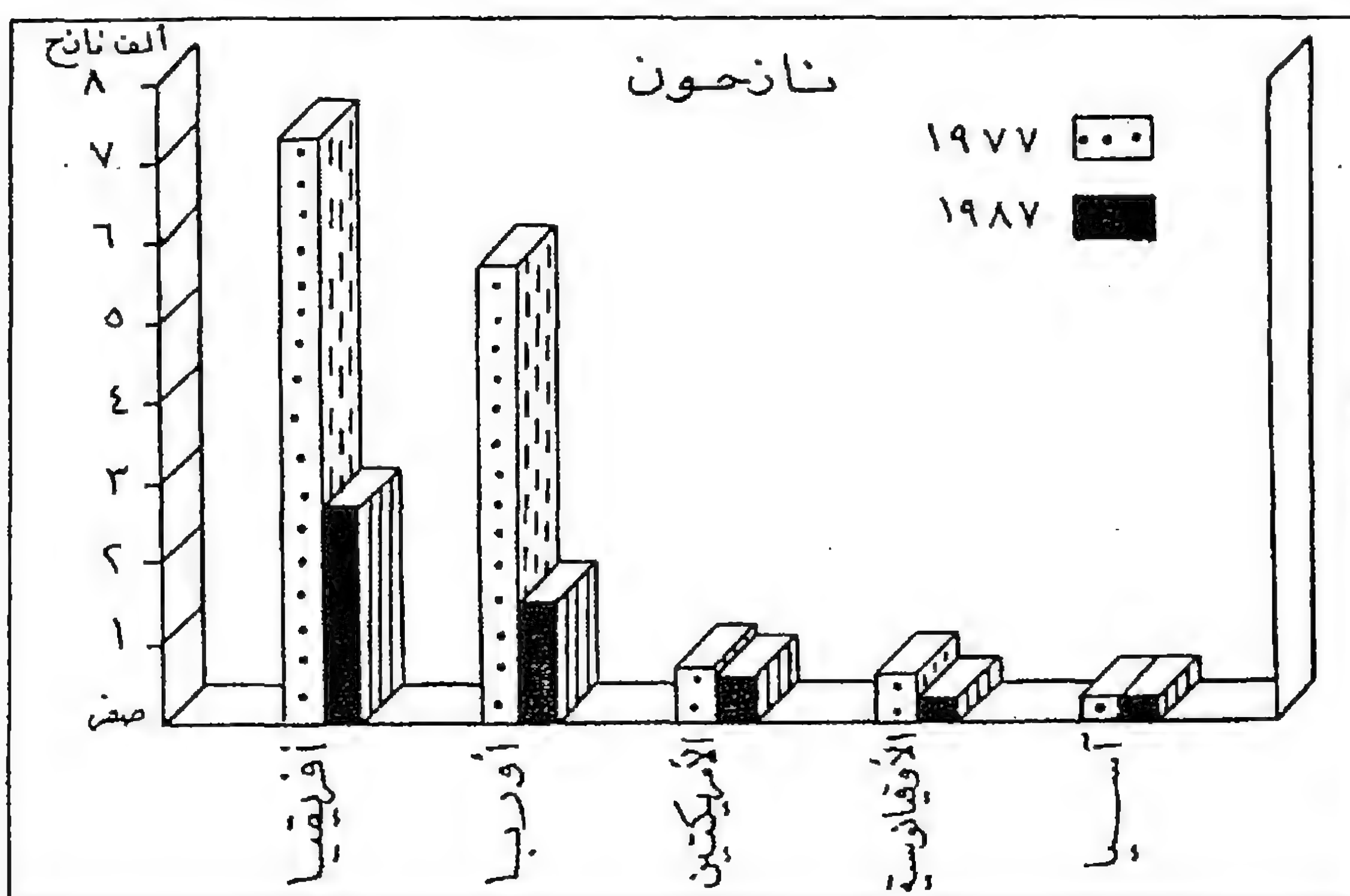
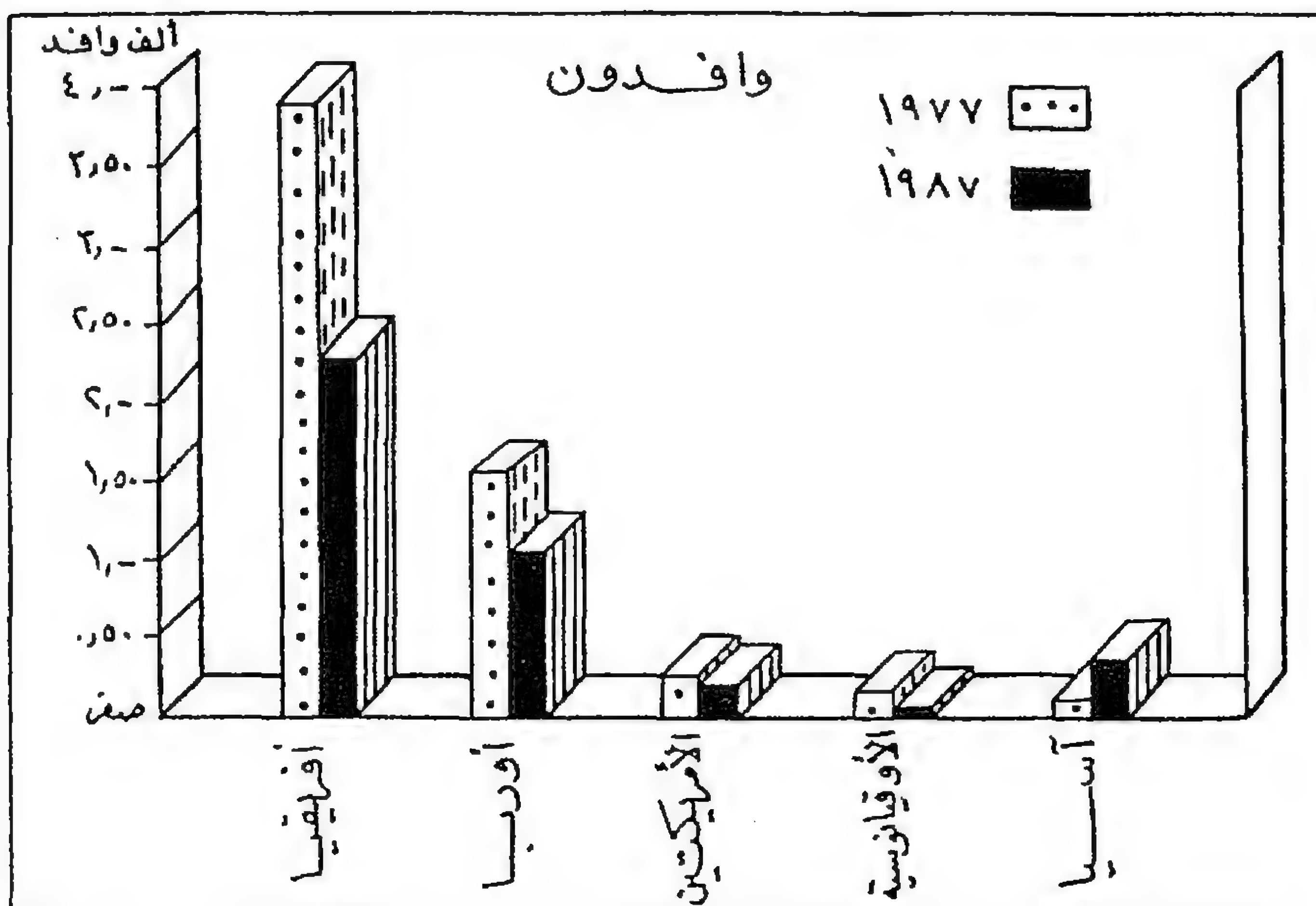
ويوضح جدول رقم (١١) وشكل (١٠) التوزيع العددي والنسبى للوافدين إلى زيمبابوى خلال الفترة من ١٩٧٧ - ١٩٨٧ ومنهما يتضح الآتى :

انخفض عدد الوافدين إلى زيمبابوى من ٥٩١٤ وافداً عام ١٩٧٧ إلى ٣٩٢٥ عام ١٩٨٧ بنسبة انخفاض مقدارها ١ , ٤٪ سنوياً ، ويرجع ذلك إلى أنه قبل الاستقلال كانت جمهورية جنوب أفريقيا تمد زيمبابوى بنحو ٥٤٪ من

جدول (١١)

التوزيع العددي والنسبي للوافدين إلى زيمبابوي حسب آخر منطقة وصول
خلال الفترة من ١٩٧٧ - ١٩٨٧ (٧٣)

١٩٨٧		١٩٧٧		المنطقة
%	الحجم	%	الحجم	
٥٧,٩	٢٢٧٤	٦٦	٣٩٠٣	جملة أفريقيا
١٤,٢	٥٥٧	٥٤,١	٢٢٠٢	جمهورية جنوب أفريقيا
٣٠,٨	١٢١٠	٤,٨	٢٨٤	زامبيا
٥-	١٩٧	١,١	٦٤	ملاوي
٦ر	٢٥	٢,٣	١٣٣	موزمبيق
٧,٣	٢٨٥	٣,٧	٢٢٠	أخري
٥,١	٢٠٢	٣,٩	٢٣٣	جملة الأمريكتين
٣,١	١٢٢	٢,٣	١٣٦	الولايات المتحدة الأمريكية
١,٧	٦٦	٨ر	٤٩	كندا
٣ر	١٤	٨ر	٤٨	أخري
٨,٥	٣٣٢	١,٥	٩١	جملة آسيا
٤,٢	١٦٣	٤ر	٢٥	الهند
-	-	٤ر	٢٦	إسرائيل
٤,٣	١٦٩	٧ر	٤٠	أخري
٢٧,١	١٠٦٤	٢٥,٩	١٥٣٠	جملة أوروبا
١٣,٢	٥١٧	٢٠,٥	١٢٠٨	إنجلترا
٢ر	٦	١,٥	٩٠	البرتغال
٢,٢	٨٧	٧ر	٤٣	ألمانيا الغربية
١١,٥	٤٥٤	٣,٢	١٨٩	أخري
١,٤	٥٣	٢,٧	١٥٧	جملة الأوقيانوسية
١,٢	٤٤	١,٧	١٠٢	أستراليا
٢ر	٩	١ر	٥٥	أخري
١٠٠	٣٩٢٥	١٠٠	٥٩١٤	الجملة



شكل (١٠) إعداد المهاجرين إلى زيمبابوي ومنها حسب آخر منطقة وصول

خلال الفترة (١٩٧٧ - ١٩٨٧)

المهاجرين ثم بدأت منذ عام ١٩٧٩ تقل مشاركة جمهورية جنوب أفريقيا لتصل إلى ١٤٪ فقط من إجمالي عدد الوافدين إلى زيمبابوى .

- معظم المهاجرين إلى زيمبابوى من أفريقيا وبصفة خاصة من دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقى حيث بلغت نسبتهم ٦٦٪ عام ١٩٧٧ ، ٩٠ ، ٥٧٪ عام ١٩٨٧ . فى حين تشغل أوربا المرتبة الثانية من حيث عدد الوافدين إلى زيمبابوى بنسبة ٢٥ ، ٩٪ ، ٢٧ ، ١٪ للعامين السابقين على الترتيب (الغالبية العظمى من انجلترا)

- أما النسبة الباقية فتساهم بها آسيا والأمريكتان والاقيانوسية .

ويوضح جدول (١٢) وشكل (١٠) التوزيع العددي والنسبى للنازحين من زيمبابوى ومنهما يتضح الأتى :

انخفض عدد النازحين من زيمبابوى من ١٤٥٥٦ نازحا عام ١٩٧٧ إلى ٥٣٣٠ عام ١٩٨٧ بنسبة انخفاض مقدارها ١٠٪ سنوياً . وذلك بسبب تحسن الظروف الاقتصادية للبلد مما قلل من حجم النازحين منها إلا أن عدد المهاجرين منها ارتفع مرة أخرى نتيجة لظروف الجفاف التى مرت بها بالإضافة إلى تمسكها ببرامج إعادة البناء الاقتصادى القاسية والتى أنعكس تأثيرها على موقف الاستخدام^(٧٥) حيث نجد أنه فى عام ١٩٩٠ كان نحو ٢١ ألفا يعملون فى جمهورية جنوب أفريقيا وحدها .

وتشير التقديرات إلى أنه بحلول ابريل عام ١٩٩٤ كان ٣٠٠ ألف من الزيمبابويين قد غادروا بلادهم للعمل فى جمهورية جنوب افريقيا . وقد تضمنت هجرة العمالة المذكورة العمال بعقود مؤقتة والعاملين المهنيين المؤقتين والعمال السريين أو غير القانونيين . (٧٥)

ومعظم المهاجرين من زيمبابوى يتجهون إلى دول داخل قارة أفريقيا وبصفة خاصة دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقى ، حيث بلغ نصيب قارة افريقيا نحو

جدول (١٢)

التوزيع العددي والنسبي للنازحين من زيمبابوى

خلال الفترة من ١٩٧٧ - ١٩٨٧ (٧)

١٩٨٧		١٩٧٧		المنطقة
%	الحجم	%	الحجم	
٥٠,٨	٢٧٠٨	٥٠,٢	٧٢٩٧	جملة افريقية
١٥,٥	٨٢٦	٤٧,٢	٦٨٨٠	جمهورية جنوب أفريقيا
٤,١	٢١٨	٢	٢٤	زامبيا
٢٤,٥	١٢٠٦	١,٣	١٨١	ملاوى
٩	٥٠	-	١	موزمبيق
٥,٨	٣٠٨	١,٥	٢١١	دول أخرى
١٠,٨	٥٧٨	٤,٤	٦٤٢	جملة الأمريكتين
٥,٣	٢٨١	٢,٤	٣٥١	الولايات المتحدة الأمريكية
٢,١	١١٣	١,٣	١٩٥	كندا
٣,٤	١٨٤	٧	٩٦	دول أخرى
٤,٦	٢٤٧	١,٧	٢٤٩	جملة آسيا
٢,٨	١٤٩	١	١٠	الهند
-	-	٨	١١٨	اسرائيل
١,٨	٩٨	٨	١٢١	دول أخرى
٢٨,٦	١٥٢٥	٣٩,٢	٥٧٠٩	جملة أوروبا
١٩,٩	١٠٦٠	٢٥,١	٣٦٥١	إنجلترا
٣	١٨	٧,٦	١١١٠	البرتغال
١,٨	٩٣	٧	٩٥	ألمانيا الغربية
٦,٦	٣٥٤	٥,٨	٨٥٠	أخرى
٥,١	٢٦٩	٤,١	٦٠٠	جملة الأوقيانوسية
٤,٢	٢٢٤	٢,٩	٤٢٧	أستراليا
٩	٤٥	١,٢	١٧٣	دول أخرى
١	٣	٤	٥٩	غير مبين
١٠٠	٥٣٣٠	١٠٠	١٤٥٥٦	جملة

١. ٥٠٪ من إجمالي عدد النازحين من زيمبابوى ، معظمهم يتجهون إلى جمهورية جنوب أفريقيا (٣ , ٤٧٪) من جملة النازحين وذلك لتشابه الظروف الاجتماعية والسياسية والتاريخية بين البلدين وذلك عام ١٩٧٧ ، فى حين نجد العكس فى عام ١٩٨٧ حيث كان يتجه معظم المهاجرين من زيمبابوى إلى ملاوى والتي اجتذبت نحو ربع النازحين من زيمبابوى ومعظم هؤلاء النازحين جاءوا أساساً من ملاوى كعمال مهاجرين ولم يستطيعوا العودة قبل غلق الحدود بين زيمبابوى وجيرانها من ناحية الشمال والشرق عام ١٩٨٠ (٧٦).

وتعتبر أوروبا منطقة الاستقبال الثانية لمهاجري زيمبابوى ، حيث يتجه إليها نحو ربع مهاجري زيمبابوى عام ١٩٨٧ (٦ , ٢٨٪) ، ومعظمهم يتجه إلى إنجلترا (٢ , ١٣٪) ، وهذا يوضح العلاقة العكسية مع السكان الذين ذهبوا إلى جنوب أفريقيا أثناء العقد الماضى ، ففي هذه الفترة كسبت زيمبابوى مهاجرين من إنجلترا فقط فى أعوام ١٩٨١ ، ١٩٨٢ . وفى نفس الوقت عندما عاد العديد من الزيمبابويين لبلدهم من الغربة ذهب بعضهم إلى استراليا ليرتفع العدد بعد الاستقلال إلى ١٠٠٠ مهاجر تقريباً لكل سنة ، ثم أخذ العدد بعد ذلك فى الانخفاض (٧٨).

كما أوضح Lovemore Zinyama^(٧٩) فى دراسته عن الهجرة من زيمبابوى من خلال الأسئلة الآتية من ، كم ، متى ، ولماذا التحركات عبر الحدود من زيمبابوى عن طريق الهجرة إلى جنوب أفريقيا ، وقد قام الباحث بعمل مسح فى فبراير ومارس عام ١٩٧٧ على ٩٤٧ زيمبابوى وقد تم اختيار ٣٢ منطقة (١٧ منطقة ريفية و ١٥ منطقة حضرية) وبلغت نسبة الذكور ٥٦٪ من إجمالي العينة وطبقاً لتقديرات المفوضية العليا لجنوب أفريقيا فى هرارى يعيش نحو ٧٥ ألف زيمبابوى فى جنوب أفريقيا عام ١٩٧٥ ، بالإضافة إلى أعداد أخرى غير معروفة ، كما أن تقديرات المفوضية العليا الزيمبابوية تشير إلى أن هناك ما يقرب من ٤٠٠

ألف زيمبابوى مهاجر إلى جمهورية جنوب أفريقيا سواء بصورة رسمية أو غير رسمية يعملون كخدم فى المنازل ، وفى صناعة البناء والتشييد .

وقد أوضحت العينة أن ٤١٪ من الذكور يذهبون لغرض العمل أو البحث عنه فى حين تنخفض هذه النسبة بين الإناث إلى ٣٪ فقط ، وإن ٣٢٪ من الذكور يذهبون لغرض التسوق أو بيع وشراء البضائع ، فى حين ترتفع هذه النسبة بين الإناث إلى ٦٥٪ ، كما بلغت نسبة من يذهبون لزيارة العائلة أو الاصدقاء إلى ١١٪ بين الذكور و١٦٪ بين الاناث .

كما أوضحت الدراسة التى قدمتها Belinda Dodson عن المرأة فى حالة التنقل على عينة مكونه من ٤١٧ امرأة من زيمبابوى أن النساء تهاجرن إما لزيارة أزواجهن أو اصدقائهن أو لبيع وشراء البضائع كما أن نمو الخدمات غير ميسر ومستوى المعيشة منخفض فى دولهن ، أكثر من هذا التهديد الذى تتعرضن له .

مما سبق يتضح أن عدد الوافدين إلى زيمبابوى بلغ ٣٩٢٥ وافدا عام ١٩٨٧ و عدد النازحين منها بلغ ٥٣٣٠ مهاجرا ، وهذا يعنى أن زيمبابوى خسرت نحو ١٤٠٥ عمال لصالح الدول الأخرى .

(ج) زامبيا :

تشغل زامبيا الجزء الشرقى من هضبة وسط أفريقيا بمساحة ٧٥٣ ألف كيلو مترا مربعا ويسكنها نحو ١٠,١ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ وهى بذلك أقل دول حوض الزمبيزى - اللمبوبو فى كثافة السكان (١٤ نسمة / كم^٢) ، وترتفع بها معدلات المواليد والوفيات ومعدلات الخصوبة .

وزامبيا ذات اقتصاد متنوع . وقد أدى موقع زامبيا كدولة مغلقة وبعدها عن سواحل جنوب القارة إلى تأخير التنمية الاقتصادية بها واستمرار النمط المعاشى فى الزراعة والرعى مميّزاً لاقتصادها حتى أوائل القرن العشرين عندما

اكتشفت بها ثروة معدنية ضخمة ممثلة فى نطاق النحاس فى الشمال وترتب على ذلك مد خط السكك الحديدية من بولاوايو فى زيمبابوى حتى لفنجستون سنة ١٩٠٤ ثم إلى نطاق النحاس بعد ذلك بخمس سنوات . (٨١)

ويعتمد اقتصاد زامبيا على إنتاج وتصدير النحاس ، حيث يشكل ٩٥٪ من دخل الصادرات ويساهم بنحو ٤٥٪ من دخل الحكومة ، وقد تغير هذا الموقف بسبب الانخفاض السريع فى أسعار النحاس مما جعلها تحت ضغط خطير . وقد وصل إنتاج النحاس إلى قمته فى عام ١٩٧٦ حيث بلغ ٧١٣ ألف طن ثم انخفض إلى ما يتراوح بين ٣٠٠ - ٤٠٠ ألف طن متري فى عام ١٩٩٦ ، وقد أدى هذا الانخفاض إلى ارتفاع فى تكلفة الإنتاج . (٨٢)

وقد كانت زامبيا ترسل عددا محدودا من المهاجرين للعمل فى مناجم الذهب فى جمهورية جنوب أفريقيا بلغ ١٢ مهاجرا فى عام ١٩٢٠ ثم توقفت عن إرسال مهاجرين فى عام ١٩٣٠ ومنذ عام ١٩٤٠ أخذت أعداد المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا فى الزيادة وقد بلغت أقصاها فى عام ١٩٦٥ حيث أرسلت ٥٨٩٨ مهاجرا ثم توقفت بعد ذلك نتيجة لاكتشاف النحاس فى زامبيا واستغلاله بكميات وفيرة مما جذب الأيدى العاملة من الدول المجاورة ونتيجة لانخفاض إنتاج النحاس نتيجة لهبوط أسعاره عادت زامبيا إلى إرسال مهاجرين مرة أخرى إلى جمهورية جنوب أفريقيا حيث ارتفع عددهم من ٩٢٦ مهاجرا عام ١٩٨٥ إلى ١٢٠٠ مهاجر عام ١٩٩٠ ونسبة ٣ ر / ٪ من إجمالى العمالة الوافدة إلى جمهورية جنوب أفريقيا .

كما أن زامبيا تستقطب عددا من المهاجرين من دول جماعة تنمية الجنوب الافريقى خاصة من زيمبابوى وليسوتو وموزمبيق وملاوى ، حيث قدر عدد الأجانب فى زامبيا عام ١٩٨٠ بنحو ٤, ٢١٣ ألف مهاجر بنسبة ١, ٤٪ من إجمالى سكان زامبيا ومعظمهم من داخل أفريقيا (٩, ٧٩٪) . (٨٣)

(د) تنزانيا :

أكبر أقطار شرق أفريقيا بمساحة تقترب من المليون كيلو متر مربع ، وتطل على المحيط الهندي بجهة ضعف طول الجبهة التي تطل بها كينيا أى نحو ٨٠٠ كم^٢ وفي مواجهتها تقع عدة جزر أكبرها زنجبار .

ونظراً لوقوع تنزانيا فى نصف الكرة الجنوبي بين درجتى ٣ ، ١٢ فإن سواحلها تستفيد بالكامل من الرياح المحيطية الجنوبية . ويعتمد الاقتصاد التنزانى على الزراعة أساساً والتي تمثل ٨٥٪ من قيمة الصادرات . والماس أساس ثروة تنزانيا المعدنية ، اكتشف عام ١٩٤٠ ويستغل من مناجم وليمسن فى الشمال كما يستخرج الذهب أيضاً من ثلاثة مناجم جنوب وجنوب شرق بحيرة فكتوريا . وتمتد خامات القصدير على حدود تنزانيا مع رواندا وأوغندا . وتتركز الصناعة فى ثلاثة أقاليم بصورة أساسية وهى دار السلام وتانجا وأروشا فى الشمال. (٨٤)

وتأتى المناطق الغربية والوسطى والجنوبية كمناطق إرسال رئيسية للعمالة ، ولذلك نجد أهم المهاجرين من قبائل النياموزى والها Ha وألفيبا فى المديرية الغربية ، والحوجو والنتاتورو فى المديرية الوسطى والنياكوسا والنجونى والنجنيد فى الجنوب ونجد أن البيانات عن حجم وخصائص المهاجرين نادرة جداً عن كينيا وأوغندا وتنزانيا ولكن هناك تحركات سائدة للعمالة سواء كانت عمالة زراعية مؤقتة كما أن هناك تحركات للعمالة المهنية والماهرة. (٨٥)

وتتوقف سياسة الهجرة فى شرق أفريقيا على الظروف السياسية السائدة حيث تفتح الحدود وتغلق حسب تغير الأحوال السياسية . وقد قدر عدد الأجانب فى تنزانيا عام ١٩٧٨ بنحو ٤١٥٦٠٤ مهاجرين بنسبة ٤ , ٢٪ من إجمالى سكان البلد. (٨٦) وتتمثل مناطق الجذب الرئيسية فى إقليم تنجا وحول الخط الحديدى الأوسط إلى كيلوسا وترتبط هذه المناطق بزراعة السيسل وإقليم موشى

وأروشا حيث المزارع الأوروبية ويضاف إليها أيضاً المرتفعات الجنوبية فضلاً عن النطاق الساحلى فى المديرية الجنوبية.

وتعتبر مزارع السيسل هى أكبر مستورد للأيدى العاملة المهاجرة ، يقدرون أنها تستخدم وحدها ١٣٠ ألف نسمة سنوياً ، ذلك أن السيسل فى حاجة إلى أيدى عاملة وفيرة لأن جمع الأوراق عملية يدوية تحتاج إلى عمال أقوياء الجسم ، بل إن قبائل معدودة هى القادرة على هذا العمل ، ويأتونها العمال من جهات قد تكون قريبة وقد تكون بعيدة غاية البعد كرواندا وبورندى كما يأتىهم مهاجرون من ملاوى ، وهؤلاء غالباً من سكان الشمال ويتجهون عبر إقليم روفوما نحو كيلوسا وتأخذ هجرات موزمبيق الطريق الساحلى إلى ليندى ودار السلام ومنها ما يتجه إلى تنجا شمالاً وأهم القبائل التى تخرج من موزمبيق إلى تنزانيا هى الماكوا والماكوندى. (٨٧)

كما ترسل تنزانيا بمهاجريها إلى الدول الأخرى وبصفة خاصة جمهورية جنوب أفريقيا حيث بلغ عددهم نحو ٨٨٧ بنسبة ٣ ٪ من إجمالى العمالة الوافدة عام ١٩٨٥ ولكنها توقفت بعد ذلك عن إرسال عمالها إلى جمهورية جنوب أفريقيا ومعظم مهاجري تنزانيا من قبيلة النياكوسا التى تعيش شمال غرب بحيرة نياسا حيث يجد شبابها صعوبة بالغة فى الحصول على أرض لزراعتها . كما أن معظم المهاجرين من تنزانيا يتجهون إلى نطاق النحاس فى زامبيا أو إلى مناطق التعدين وخاصة حقول فحم وانكى فى زيمبابوى ، وقليل منهم يذهب للعمل فى المدن . (٨٨) وتستقبل بتسوانا نحو ٤٩٨ مهاجراً من تنزانيا بنسبة ٢,٧ ٪ من إجمالى العمالة الوافدة عام ١٩٩١ .

(هـ) أنجولا :

تبلغ مساحة أنجولا نحو ١,٣ مليون كم^٢ بسكان قدر عددهم بنحو ١٢,٧ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ وبكثافة ١٠ نسمة / كم^٢ ، كما أنها تتميز بارتفاع معدلات المواليد والوفيات وبارتفاع معدلات الخصوبة الكلية .

وكان لاتساع مساحة أنجولا أثره الواضح فى تنوع أقاليمها التضاريسية والمناخية والنباتية فسواحلها الجنوبية عبارة عن صحراء معتدلة وتتزايد الأمطار بالاتجاه شمالاً وشرقاً . ويمكن تقسيم أنجولا إلى أقليمين كبيرين هما إقليم السهول الساحلية وإقليم الهضاب ، ويعد صيد الأسماك من الحرف الهامة فى النطاق الساحلى ، وقد أقيم الكثير من مصانع تجفيف الأسماك وتعليبه وإعداده للتصدير وتتركز هذه المصانع فيما بين لوبيتو والساحل الجنوبى ، وتعد الهضاب الداخلية مناطق زراعية وتعتبر الذرة المحصول الغذائى الرئيسى فى أنجولا . ورغم أن الاقتصاد الأنجولى يعتمد على إنتاج البن ، فإن موارد الثروة المعدنية تسهم هى الأخرى بنسبة لا يستهان بها ، ويأتى الماس فى مقدمة هذه الموارد والذى يستخرج من حوض كاساي فى الشمال الشرقى من حقوله التى تعد أمتداداً لحقول زائير ، ويتم أيضاً تعدين المنجنيز والفيرو منجنيز والحديد الخام والنحاس وقد أدى هذا النشاط التعدينى إلى تنوع الانتاج وتقليل سيادة البن فى التجارة الخارجية كما اكتشف البترول فى أنجولا سنة ١٩٥٥ وكان لذلك أثر كبير فى اقتصادياتها . أما مصادر الطاقة الأخرى فتتمثل فى الطاقة الكهرومائية المولدة من محطات الكهرباء على بعض الأنهار. (٨٩)

وكانت الهجرة العمالية فى كل من أنجولا وموزمبيق من الظواهر الاجتماعية الملفتة وقد قرر هنريك جالفا وجود نحو ٢ مليون عامل أفريقى من الأقليميين يعملون ويعيشون خارجها ، كما قدر مارسيلو كاتيانو الرقم بنحو مليون عامل وينقل لورد هايلى عن أحد المصادر (مصدر ناقد للنظام التعاونى) عام ١٩٥٤ أن هذا الرقم بلغ فى أنجولا وحدها نحو مليون عامل حتى ذلك الوقت . ويمتد نطاق هذه الهجرة بشكل ملحوظ إلى كل من جمهورية جنوب أفريقيا وتنزانيا . وتقدر بعض المصادر أن الهجرة العمالية إلى جمهورية جنوب أفريقيا وزيمبابوى تبلغ نحو عشرة آلاف عامل فى السنة ، بينما يقدر هوبلر الهجرة العمالية من

أنجولا بنحو ٣٠ ألف عامل سنوياً . وهذا يدل على مدى المعاناة التي كان يعانيها العمال الأفريقيون في المستعمرات البرتغالية . بل أن اتجاه هذه الهجرة إلى جنوب أفريقيا وزيمبابوي وناميبيا بكل ما هو معروف عنها من تفرقة عنصرية يعطى دلالة قاطعة على سوء الأوضاع في هذه المستعمرات البرتغالية . وأنهى العمل الإجبارى وأصبح العامل حراً في العمل لصالحه أو اختيار صاحب العمل كما أنشئت مؤسسة للتنمية الاجتماعية للعمال بهدف وقف العمل الإجبارى ووقف العقوبات البدنية على العمال. (٩٠)

وقد بلغ عدد المهاجرين من أنجولا إلى مناجم الذهب في جمهورية جنوب أفريقيا نحو ٦٩٨ عاملاً في عام ١٩٤٠ ثم أخذ في الزيادة حيث بلغ أقصاه في عام ١٩٦٠ (١٢٣٦٤) ثم بعد ذلك أخذ في الانخفاض نتيجة لتحسن الأحوال في أنجولا مما قلل من عدد المهاجرين منها حيث قدر عددهم في عام ١٩٩٠ بنحو ٢٠٠ عامل فقط في جمهورية جنوب أفريقيا ، كما ترسل أنجولا بمهاجريها إلى زائير وإلى نيجيريا في غرب أفريقيا وإلى زامبيا وبتسوانا.

وتستقبل أنجولا نحو ١٥,٢ ألف مهاجر عام ١٩٨٣ بنسبة ٢ ر / من إجمالي سكان البلد. (٩١)

ثالثاً : الخصائص الديموجرافية للمهاجرين :

تتضمن خصائص السكان المهاجرين عدة ظاهرات ديموجرافية مثل التركيب النوعي والعمرى والمستوى التعليمي والحالة الزوجية وأخيراً الخصائص المهنية وهي ذات أهمية كبيرة لأنها توضح الملامح الرئيسية للسكان المهاجرين.

والمقصود بالخصائص السكانية للمهاجرين هو الوصول إلى أهم القطاعات التي تشغلها كل مجموعة من السكان المهاجرين بالإضافة إلى تحديد الظروف التي يعيشونها ومدى المنافسة غير المتكافئة بينهم وبين السكان الوطنيين ، حيث

أن معظم المهاجرين يمثلون فئة الشباب وهي الفئة الغالبة من الهرم السكاني ، بالإضافة إلى الاختلاف من حيث نسبة مساهمة كل منهما في الأنشطة الاقتصادية وأخيراً المستوى التعليمي يختلف بين هاتين المجموعتين.^(٩٢) وفيما يلي دراسة للخصائص السكانية للمهاجرين.

(١) التركيب النوعي والعمرى للمهاجرين :

يوضح الجدول (١٣) التركيب النوعي والعمرى لعينة من المهاجرين في بعض دول الجنوب الأفريقي ومنه يتضح الآتي :

- ترتفع نسبة الذكور على الإناث وتصل إلى أقصاها في موزمبيق (٨٨٪) في حين سجلت ليسوتو أقل نسبة (٥٦٪) . حيث ان المرشحين للعمل في المناجم كانوا يخضعون لاختبارات بدنية والذين ينجحون ينقلون جواً أو بواسطة السكك الحديدية أو الباصات إلى المناجم حيث يعيشون في بيوت ، ومعظمهم من الذكور في سن الشباب وكانت هناك اتفاقيات تتطلب عودتهم إلى منازلهم بعد عام أو عامين ، فسياسة استخدام العمالة في جمهورية جنوب أفريقيا لا تقود إلى الاستقرار كما يتوقع حسب نظرية الهجرة ، لأن هناك منعا لاستقدام العائلة .^(٩٣)

- ترتفع نسبة السكان في الفئة العمرية ١٥-٤٤ سنة وتصل إلى اقصاها في زيمبابوي (٧٥٪) في حين سجلت موزمبيق ادنى نسبة (٦٠٪) ، هذا يوضح الدور الذي تسهم به الهجرة الوافدة في نمو حجم القوى العاملة حيث ان معظمهم من الشباب في سن العمل والانتاج ، ولأنه من السهل أحياناً إيجاد عمل للصغار بأجور منخفضة .

- ومن ناحية أخرى نجد أن هناك أكثر من نصف الهجرات الأولى تتم قبل الزواج ومعظم الباقي بعد ولادة الطفل الأول ، ولكن بعد سن الأربعين يبدأ الرجل في

جدول (١٢)

الخصائص الديموجرافية لبعض المهاجرين
إلى جمهورية جنوب أفريقيا^(٩٥)

الخصائص الديموجرافية	الدولة	نامبيا	ليسوتو	موزمبيق	زيمبابوى
النوع (%)	ذكور	٥٦	٥٤	٨٨	٦١
	اناث	٤٤	٤٦	١٢	٣٩
الحضر أو الريف (%)	حضر	٩٧	٦٢	٤٤	٩٢
	ريف	٤	٣٩	٥٦	٨
العمر (%)	١٥ - ٢٤	١٦	٢٠	١٤	١٧
	٢٥ - ٤٤	٥١	٥٠	٤٦	٥٨
	٤٥ - ٦٤	٢٦	٢٩	٣٤	١٧
	٦٥ +	٧	٢	٦	٩
الحالة الزوجية (%)	متزوج	٦٨	٦٨	٧٤	٧٣
	مطلق	٣	٥	٢	٣
	أرمل	٧	٩	٤	٢
	غير متزوج	٢٦	١٨	١٩	٢٢
الحالة التعليمية (%)	غير متعلم	٤	٨	١٨	٩
	بعض التعليم الابتدائى	١٤	٣٨	٣٠	١٤
	أكملوا المرحلة الابتدائية	٤	١٧	١٤	١٨
	بعض التعليم العالى	٣٤	٢٥	٢٤	٤١
	أكملوا التعليم العالى	٢٣	٩	١٠	١٢
	تعليم جامعى وما فوق	٢١	٢	٤	٦
عدد أفراد العينة = ٢٩٠٠					

الاستقرار نظراً لالتزاماته المتعددة حيال الأسرة ولأنه يصبح أقدر على الحصول على النقد اللازم لاحتياجاته ، كما أن مطالبه تبدأ في الانكماش من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يصبح قادراً على بذل المجهود الجسماني والفكري الذي تتطلبه هذه الهجرات . (٩٤)

معظم مهاجري ناميبيا وزيمبابوى وليسوتو إلى جمهورية جنوب أفريقيا جاءوا أساساً من مناطق حضرية ، فى حين نجد أن أكثر من نصف مهاجري موزمبيق من مناطق ريفية .

(٢) الحالة الزوجية للمهاجرين :

من دراسة الحالة الزوجية لعينة من مهاجري ناميبيا - ليسوتو - موزمبيق و زيمبابوى (جدول ١٣) نجد أن المهاجرين المتزوجين ترتفع نسبتهم إلى أكثر من ثلثي المهاجرين وتصل النسبة أقصاها فى موزمبيق (٧٤٪) فى حين بلغت أدناها فى ناميبيا وليسوتو (٦٨٪ لكل منهما) .

- يأتى المهاجرون غير المتزوجين فى المرتبة الثانية حيث تبلغ نسبتهم ٢٦٪ لناميبيا ، ٢٢٪ لزيمبابوى ، ١٩٪ لموزمبيق ، ١٨٪ ليسوتو .

- تنخفض نسبة المطلقين والأرامل بين مهاجري الدول الأربع وتصل إلى أقصاها فى ليسوتو (١٤٪) ، فى حين سجلت زيمبابوى أدنى نسبة (٥٪) .

(٣) الحالة التعليمية للمهاجرين :

من دراسة الحالة التعليمية للمهاجرين يتضح الأتى :

- تنخفض نسبة غير المتعلمين بالنسبة لمهاجري الدول الأربع حيث بلغت نسبتهم ٤٪ لمهاجري ناميبيا ، ٨٪ ليسوتو ، ٩٪ لزيمبابوى ، ١٨٪ لموزمبيق .

- ترتفع نسبة حملة المؤهلات العليا وما فوقها وتصل النسبة أقصاها فى ناميبيا (٧٨٪) فى حين سجلت ليسوتو أدنى نسبة (٣٦٪) .

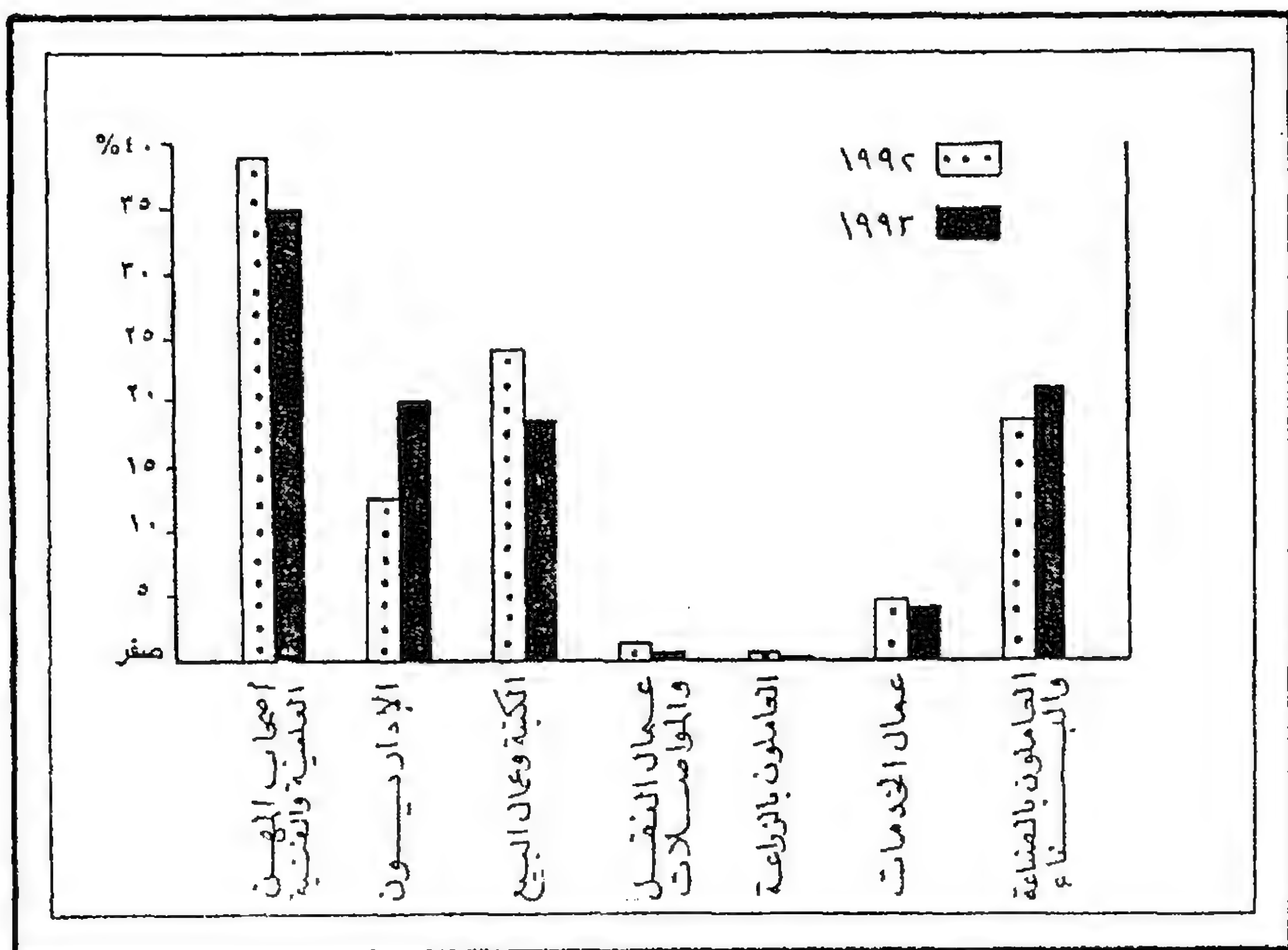
- ترتفع نسبة من لديهم التعليم الابتدائي في ليسوتو (٣٨٪) عنها في باقي الدول .

(٤) تصنيف المهاجرين حسب المهنة :

يوضح الجدول رقم (١٤) وشكل (١١) أعداد المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا وفق التصنيف المهني ومنه يتضح أن أغلبية المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا من المهنيين ولكن هذا هو حال المهاجرين من جنوب افريقيا . إلا أن جمهورية جنوب أفريقيا في نهاية الأمر هي المستفيد الأكبر من المهاجرين المؤهلين وهجرة العقول كما يلاحظ اهلون وستيدمان : " تصنيف هجرة العقول من بقية الأقليم إلى جنوب أفريقيا بعداً آخر لمشكلة الهجرة إذ يتدفق المهاجرون شبه الحرفيين، والمهرة والمهنيون بصورة متزايدة على جنوب أفريقيا التي تدفع عموماً مرتبات أفضل وتوفر فرصاً أحسن للتقدم مما تستطيع أن توفره لهم أوطانهم وفقدان أولئك النفر إلى جنوب أفريقيا قد يكون ضرراً إقتصادياً بالغاً على الاقتصاد الوطني في الدول المجاورة بل قد يصبح مكن توتر ونزاعاً محتملاً بين تلك الدول وجنوب افريقيا " ، وزيمبابوى من أكثر دول الجنوب الأفريقى تأثراً بهجرة العقول فقد خرج نظام التعليم الزيمبابوى مهنيين على أرفع المستويات ولكنهم يهاجرون إلى ناميبيا وبتسوانا وجنوب افريقيا ، ففي عام ١٩٩١ وحده مثلاً هاجر ٢٠٠ طبيب من زيمبابوى إلى بتسوانا وجنوب أفريقيا .^(٩٦) كما قدر أن ١٥ ألفاً من المهنيين تركوا زيمبابوى منذ الاستقلال السياسى فى عام ١٩٨٠^(٩٧) . وفى عام ١٩٩٤ غادر نحو ١٤٠٠ طبيب زيمبابوى للعمل فى جنوب أفريقيا مما أدى إلى الشعور بالذعر فى زيمبابوى وأضطر الرئيس مانديلا إلى التصريح بعد مضى شهر من ذلك بأن جنوب افريقيا لا ترغب فى تجريد جارتها من مواطنيها المهنيين الحاصلين على تدريب رفيع المستوى .

جدول (١٤)
التصنيف المهني للمهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا (٧٧)

المهاجرون إلى جنوب أفريقيا				المهنة
١٩٩٣		١٩٩٢		
%	الحجم	%	الحجم	
٣٥,٢	١٤٥٤	٣٨,٩	١٦٠٨	أصحاب المهن العلمية والفنية
٢٠,٤	٨٤٢	١٢,٦	٥٢٠	الاداريون
١٨,٦	٧٧٠	٢٤,١	٩٩٧	الكتبة وعمال البيع
٥	٢٢	١,٣	٥٢	عمال النقل والمواصلات
٣	١٣	٤	١٧	العاملون بالزراعة
٣,٩	١٦١	٤,٤	١٨٠	عمال الخدمات
٢١,١	٨٧١	١٨,٣	٧٥٧	العاملون بالصناعة والبناء
٤٢,١	٤١٣٤	٤٧,٦	٤١٣٢	جملة النشطين اقتصادياً
٥٧,٩	٥٦٩٠	٥٢,٤	٤٥٥٤	جملة غير النشطين اقتصادياً
١٠٠	٩٨٢٤	١٠٠	٨٦٨٦	الجملة



شكل (١١) التصنيف المهني للمهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا

ويوضح الجدول أيضاً أن أصحاب المهن العلمية والفنية قد انخفضت نسبتهم من ٣٨,٩٪ من جملة النشطين اقتصادياً عام ١٩٩٢ إلى ٣٥,٢٪ عام ١٩٩٣، وفي مقابل ذلك ارتفعت نسبة الإداريين من ١٢,٦٪ إلى ٢٠,٤٪ للعاملين السابقين على الترتيب.

كما انخفضت نسبة الكتبة وعمال البيع والنقل والمواصلات وعمال الزراعة في عام ١٩٩٣ عما كانت عليه في عام ١٩٩٢. وفي مقابل ذلك ارتفعت نسبة العاملين في الصناعة والبناء من ١٨,٣٪ من إجمالي النشطين اقتصادياً إلى ٢١,١٪ عام ١٩٩٣.

مما سبق يتضح أنه مع التغيرات السياسية في جمهورية جنوب أفريقيا أن أنماط هجرة العمالة تغيرت وأثرت على المهاجرين من كل الدول الإفريقية، حيث أنه مع انتهاء سياسة التمييز العنصري ازداد الطلب على المدراء المؤهلين، والعمال الفنيين. (٩٩)

رابعاً : الآثار الايجابية والسلبية للهجرة :

(١) الآثار الاقتصادية للهجرة :

تساهم العمالة بدور كبير في استثمار الموارد الاقتصادية في البلاد المستقبلية للعمالة المهاجرة، إذ هي تكسب أيدي عاملة هي في حاجة إليها خاصة وأن هؤلاء غالباً ما يكونون في سن الإنتاج والمقدرة على العمل، ولا يمكن أن نغفل الدور الذي لعبته هجرة العمالة في تنمية اقتصاد جمهورية جنوب أفريقيا حيث يرجع نمو اقتصادها إلى الدور الذي بذلته وكالات توظيف العمالة المهاجرة فقد استخدمت العمالة الرخيصة في قطاعات التشييد والبناء والحرف اليدوية وفي العمل في المناجم وفي الزراعة التجارية.

وإذا كانت هجرات العمالة ذات أهمية بالغة لأقطار الجذب البشري للنهوض بأعبائها ومواجهة مشكلات التنمية الاقتصادية بها، إلا أنها تخفف من حدة

مشكلة البطالة التي تعاني منها الأقطار المرسله للعمالة ، حيث تؤدي إلى إتاحة فرصة عمل للمهاجر ورفع مستواه المعيشي هو وأفراد أسرته ، كما أن هؤلاء المهاجرين برحيلهم يساهمون في تخفيف عدد المستهلكين غير المنتجين الذين يشكلون عبئاً على اقتصاد دولهم دون المساس بمستوى الإنتاج إلا أنه يترتب على هجرتهم آثار سلبية من الناحية الاقتصادية ، فنحن نسلم بأن معظم المهاجرين من الشباب الأقوياء في سن ١٥ - ٤٠ سنة لذلك من المؤكد أن يؤدي هذا إلى هبوط في انتاجية الغذاء محلياً إذا كان معدل النزوح مرتفعاً . كما أن غياب الذكور أدى إلى نقص خطير في بعض الوظائف مثل عمل الكومات ، أسقف المنازل ، عصر ثمار نخيل الزيت فكل هذه الأنشطة تحتاج إلى جهود الذكور . فقد سجلت بعض العائلات في أجزاء من بتسوانا عدم القدرة على إنتاج غذاء كاف بسبب غياب الذكور. (١٠٠)

ومن النتائج الإيجابية للهجرة هو انتقال رأس المال من الأقطار المستقبلية إلى الأقطار المرسله لهم . فهي تعتبر مصدراً هاماً للحصول على النقد الأجنبي والذي يشكل مكسباً لا يستهان به لاقطار الطرد البشري والتي يمكن أن تحقق أثراً ايجابياً على الوفورات المحلية والاستثمارات وميزان المدفوعات . فهذه التحويلات تستخدم بطرق كثيرة فهي كثيراً ما تستخدم في شراء سلع استهلاكية وبناء المنازل وقد توجه أيضاً إلى الاستثمار في الإنتاج . وقد تستخدم في دفع رسوم التعليم والخدمات الصحية ، فهي تسهم بوجه عام في رفع مستوى معيشة الأسر المعيشية التي تعتمد عليها. (١٠١)

ومن بين ما يشير إلى الفوائد الاقتصادية التي تعود على دول المنشأ أنه في عام ١٩٧٦ حول عمال المناجم في جنوب أفريقيا حوالي ٥ , ٤ مليون إيما لانجيني إلى سوازيلاند من أصل جملة حصيلتهم البالغ ٩ , ١٢ مليون . وفي ليسوتو تحصل الأسرة على ٤٠ ٪ من دخلها من تحويلات العمال المهاجرين الذين يعملون

فى قطاعى التعدين والزراعة فى جنوب أفريقيا. (١٠٢) كما أنها تساهم بنسبة وصلت لأكثر من ١٠٦٪ من الناتج القومى الاجمالى فى ليسوتو عام ١٩٨٣ . وربما أعاق نظام أمداد العمالة المهاجرة لسد احتياجات جنوب أفريقيا تنمية الاقتصاد فى الدول المرسله لأنها تضعف الحافز لتنمية الانتاج الزراعى ومد البديل للأنشطة الاقتصادية المحلية . أكثر من هذا خلقت اقتصاديات تعتمد على جنوب افريقيا وجعلت الدول المرسله للعمالة عرضة للتغير فى سياسة هجرة العمالة فى جنوب أفريقيا .

(٢) الآثار الاجتماعية للهجرة :

يعتبر كثير من الكتاب أن الخسائر الاجتماعية للهجرة العمالة أكثر خطراً من الخسائر الاقتصادية ، فهى تساهم فى إضعاف التماسك القبلى واتلاف سلطة الزعماء فى القرى كما أن هجرة العمالة أيضاً أدت إلى حدوث تفكك أسرى وما أدى إليه غياب رب الأسرة من زيادة معدلات الاجرام والتشرد بين الأحداث وانحطاط تام للآداب العامة وانتشار السرقات وتعاطى المخدرات بين الأحداث .

وقد لوحظ بين قبائل التونجا فى موزمبيق أن ٥٠٪ من ذكور التونجا النشطين اقتصاديا غائبون عن منازلهم ومعظمهم يذهب للعمل فى مناجم جنوب أفريقيا ، وطبقاً لـ Harris مثل هذا الفقد هدد بقدرة السكان على البقاء أو التكاثر بسبب تأثيره على تناقص معدل المواليد فى القرى المصدرة للسكان. (١٠٣)

نستطيع من خلال العرض السابق لهجرة العمالة فى الجنوب الأفريقى أن نخلص إلى ما يأتى :

- تعد العوامل الاقتصادية ذات أثر حاسم فى الهجرة ، وترتبط هجرات العمالة فى الجنوب الأفريقى بعاملين أساسيين هما عاملا الطرد والجذب ، فهى

تحدث نتيجة لعدم التوازن بين الموارد الاقتصادية من جهة والسكان من جهة أخرى . فالمناطق التى يهاجرها سكانها هى المناطق التى لم تنل حظاً وافراً من التقدم الاقتصادى . مما يدفع مواطنيها إلى الهجرة إلى المناطق المجاورة المتطورة تعديناً أو زراعياً أو صناعياً .

- تتميز أقطار وارد العمالة (جمهورية جنوب أفريقيا) بتنوع الأقاليم الاقتصادية بها فتتوفر بها الثروات المعدنية من الذهب والماس والفحم ، بالإضافة إلى المزارع الأوروبية ، وغو الخدمات والصناعة .

- تشترك أقطار صادر العمالة فى عدة ظاهرات طبيعية مشتركة ، فهى تعاني من الجفاف ، تعاني بشدة من مشكلات التنمية الاقتصادية ، تعتمد على الزراعة كمصدر اقتصادى هام . كما أنها تتميز بارتفاع معدلات المواليد وارتفاع معدلات الوفيات وارتفاع معدلات الخصوبة ، وينخفض بها نصيب الفرد من الناتج المحلى الاجمالى ، كما ترتفع بها نسبة من يعيشون دون خط الفقر . وقد انعكس هذا على سكانها مما اضطر بعضهم إلى الهجرة إلى دول أخرى بحثاً عن ظروف أفضل .

- تتميز أقطار صادر ووارد العمالة بتنوع الاقاليم الطبيعية وبالتالي تنوع الأنشطة الاقتصادية ، ويمكن فى المستقبل أن تنافس جمهورية جنوب أفريقيا كأقطار جاذبة للهجرة (بتسوانا) التى زاد فيها معدل النمو الاقتصادى عنه فى جمهورية جنوب أفريقيا .

- للهجرة آثار واضحة فى تركيب السكان من حيث الجنس أو النوع وبالتالي تتأثر معدلات الخصوبة والزواج ، فقد أثبتت الدراسة أن معظم المهاجرين غالباً ما يكونون من الذكور الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥-٤٤ سنة .

- اثبتت دراسة الحالة الزوجية للمهاجرين أن معظمهم من المتزوجين ، كما أن معظم المهاجرين من ذوى المهن العلمية والفنية أو الاداريين.

- ساهمت الهجرة فى تنمية الموارد الاقتصادية فى أقطار الجذب البشرية ، فاستثمار الموارد الطبيعية بها يعتمد اعتماداً كبيراً على هجرة تلك القوى العاملة . كما أنها تعتبر مصدراً هاماً للحصول على النقد الاجنبى والذي يشكل مكسباً هاماً لا يستهان به لأقطار الطرد البشرى . إلا أنها خلقت دولا ذات اقتصاديات تابعة لجمهورية جنوب افريقيا .

وأخيراً فالهجرة الدولية سمة من السمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للجنوب الافريقى ، ولكن هناك نقصا شديدا فى البيانات المتعلقة بحصر تحركاتها ومعرفة مشاكل المهاجرين . ولذلك لابد من حل مشكلة نقص البيانات وعلاج مشكلات المهاجرين على المستويين القومى والدولى وذلك عن طريق التعاون والتشاور بين دول جماعة تنمية الجنوب الافريقى .

الهوامش

- (١) فتحى محمد أبو عيانة ، جغرافية السكان ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦ ، ص ٢٨١ .
- (٢) محمد عبدالرحمن الشرنوبى ، جغرافية السكان ، الأنجلو ، ١٩٧٨ ، ص ١٣١ .
- (٣) محمد عبدالغنى سعودى ، هجرة العمالة فى شرقى أفريقية ، مجلة الجمعية الجغرافية ، العدد الخامس ، السنة الخامسة ، ١٩٧٢ ، ص ٣٧ .
- (٤) فتحى محمد مصيلحى ، الجغرافيا البشرية المعاصرة ، دار الإصلاح بالدمام ١٩٨٤ ، ص ٢٧٧ .
- (٥) Adepoju. A., The Dynamics Of Emigration: Sub-Saharan Africa, Causes of International Migration. Proceeding of a workshop. Luxembourg, 14-16 December 1994.p.188.
- (٦) الجدول من حساب الباحثة عن
The World Bank , African Development Indicators 2002, Washington, U.S.A, 2002. p.5.269.
U.N. Economic Commission For Africa. African socioeconomic Indicators, 1994, Ethiopia 1999, p.1.
- (٧) Adepoju.A., Linking population policies to International migration in Sub-Saharan Africa, in: Emigration Dynamics in Developing Countries vol.1: Subsahran Africa. Edited by : Reginald Appleyard, Ashgate, England, 1998, pp.302-306.
- (٨) The World Bank, World Development Indicators 2001, The International Bank For reconstruction and Development, The World Bank, Washington. 2001,p.46
- (٩) UNDP. Human Development Report 2000. New York, oxford university press 2000,p.226.
- (١٠) Adepoju. A., The Dynamics of Emigration : op-cit. p.188.
- (١١) المتولى السعيد أحمد ، هجرة العمالة بين بعض دول غرب أفريقيا وأثرها على التنمية الاقتصادية (داسة فى الجغرافيا الاقتصادية) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، قسم الجغرافيا ، جامعة القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٢٤ .
- (١٢) Russell, S.S., Migration Between Developing Countries in Sub-Saharan Africa and latin America. in population Distribution and Migration, Department of Economic and social Affairs, population Division, U.N., NEW York, 1998. p.236.
- (١٣) U.N., Department of Economic and social Affairs. population Division, International Migration policies. ST/ESA/SER.A 161. New York, 1998.p-145.
- (١٤) Milazi. D., Migration with in the Context of Poverty and land lessness in southern Africa, in Emigration Dynamics in Developing countries, vol.1: sub-saharan Africa. Edited by: Reginald Appleyard, Ashgate, England. 1998. p-149
- (١٥) Adepoju. A., The Dynamics of Emigration, op-cit. p. 194.
- (١٦) Udo. R.K., The Human Geography of Tropical Africa. Nairobi, 1983. p. 87.

UNDP, Human Development report 2001, New York, oxford, 2001, pp.141-144, pp. 149-151.

UNDP, Human Development report 2001, New York, oxford, 2000, pp-184-185.

African Development Bank, African Development Report 2001, oxford, New York, 2001, p.235.

The World Bank, African Development Indicators, opcit, p-310.

Adepoju,A., The Dynamics of Emigration, op-cit,p-194. (١٨)

Ibid, p- 189. (١٩)

(٢٠) السيد على أحمد فليفل ، الجذور التاريخية للحرب الأهلية الأنجولية، ندوة الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، تاريخ المصريين رقم ٩٥، ١٩٩٦ ، ص ١٤٥ ، ١٧١ ، ١٧٢.

(٢١) محمد محمود ربيع ، إسماعيل صبرى مقلد وآخرون ، موسوعة العلوم السياسية ، جامعة الكويت ، ١٩٩٤ ، ص ١٤٣٧.

(٢٢) Adekanyeji,b., "Conflicts, loss Of state capacities and migration in contemporary Africa" In:Emigration Dynamics in Developing countries, vol.1. sub-saharan Africa, Edited by: Reginald Appleyard, Ashgate, England, 1998,pp.175-176.

(٢٣) محمد عبد الغنى سعودى ، أفريقيا ، دراسة فى شهوية القارة وشهوية الأقاليم ، الأنجلو المصرية ، ١٩٨٣ ، ص ١١٦.

(٢٤) Frayan. B.& Pendleton,W., "Namibians on South Africa: Attitudes towards cross-border migration and Immigration policy, in: on Borders, perspectives on International migration in southern Africa, Edited by: David A. McDonald, southern African migration project, st.Martins press. North America,2000, p. 94.

(٢٥) Hance,W.A., Population , migration and urbanization in Africa, Columbia university press. New York. 1970, p.160.

(٢٦) محمد عبد الغنى سعودى ، أفريقيا ، مرجع سابق ، ص ٣٩٤.

(٢٧) فتحى محمد أبو عيانة ، جغرافية أفريقية ، دراسة أقليمية مع التطبيق على دول جنوب الصحراء ، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٨٣ ، ص ٣٨٦.

(٢٨) فاطمة مصطفى أحمد مهران، جمهورية جنوب أفريقيا، دراسة فى الجغرافيا السياسية، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، قسم الجغرافيا، جامعة القاهرة، ١٩٩٤ ، ص ٩٢.

(٢٩) Vletter. F.d., Prospects for foreign migrant workers in a democratic South Africa. MIG.WP-48. International Labour office, Geneva, 1990,pp.1-2.

(٣٠) McDonald, D.A(et-al). The lives and times of African migrants and Immigrants in post-apartheid south Africa, in on Borders: Perspectives on International migration in southern Africa. Edited by: David A. McDonald, southern African migration project st. Martin's press. 2000,p.168.

(٣١) الجدول من حساب الباحثة عن:

Ibid. p. 168 (-)

Crush, J., Migrations past: An historical overview of cross-border movement in (-) southern Africa, in on Borders. Perspectives on International Migration in southern Africa, Edited by: David A. McDonnald, southern African migration Project st. Martin's press, 2000, p.18.

(-) فاطمة مصطفى أحمد مهران، مرجع سابق، ٣٩.

U.N., Department of economic and social Affairs, Population Division, International Migration Policies, Op.Cit, P.151. (٣٢)

Ibid, pp. 151-154. (٣٣)

Ibid, p.151. (٣٤)

Stalker, P., The work of strangers, A survey of International labour migration, International Labour office, Geneva, 1994, p.236. (٣٥)

(٣٦) نفس مصدر الجدول السابق

Crush, J., op. cit, p.14. (٣٧)

Ibid, p.15. (٣٨)

Russell, s.s., op. cit, p.231. (٣٩)

Crush, J., op.cit, p.16 (٤٠)

(٤١) منظمة العمل العربية، منظمة الوحدة الأفريقية، تقرير الأمين العام حول هجرة العمالة الدولية في الجنوب الأفريقي، الندوة الأفريقية عن الهجرة (جنوب / جنوب) في أفريقيا، (القاهرة ٥ - ٩) ١٩٩٥، ص ٧.

Oucho, J.o., Regional Integration and labour mobility in Eastern and southern Africa, in: Emigration Dynamics in Developing Countries, vol. 1: sub-saharan Africa, Edited by: Reginald Appleyard, Ashgate, England 1998, p.292. (٤٢)

Ibid, p.292. (٤٣)

ILO, Year book of labour statistics, 1998, pp. 463-473. (٤٤)

The world Bank, World Development Indicators 2002, washington, 2002, p.62. (٤٥)

UN. Department of Economic and social Affairs, Population Division, International Migration Policies, op-cit, p.155. (٤٦)

U.N, IOM, OIM, world Migration Report 2000. (٤٧)

International organization For migration and the united Nations, 2000, p. 147.

African Development Bank, op. cit, 235. (٤٨)

GAY.J., Lesotho and south Africa: Time for anew Immigration compact. in: on Borders, perspectives on International Migration in southern Africa. Edited by: David A. McDonald, Southern African Migration Project, St. Martin's Press, 2000, pp.25-45. (٤٩)

UN, Department of Economic and social Affairs, population Division, International migration policies, op. Cit, p.151. (٥٠)

- (٥١) فتحى محمد أبو عيانة، جغرافية أفريقيا، مرجع سابق ، ص ٤٤٣.
- (٥٢) Vletter, Fd., Labour Migration to south Africa: The Life blood for southern mozambique, in: on Borders. Perspectives on International Migration in southern Africa, Edited by : David A.Mcdonald, southern African Migration projects, st. Maratin's press 2000, p.49.
- (٥٣) Vletter. U., Recent Trends and prospects of Black migration to south Africa. The Journal of Modern African studies, No. 23. vol.4, 1985, p. 672.
- (٥٤) UN. Department of Economic and social Affairs. Population Division, International Migration policies, op.cit. p.151.
- (٥٥) Vletter, F.D., U., labour migration to south Africa, op.cit, p 51.
- (٥٦) Ibid. same page.
- (٥٧) ABIRI,E., Migration and security from a North-south perspective.sweden and Malawi, in: Migration. Globalisation and Human security: Edited by: David T. Graham and Nana IL Poku, New york, 2000, p.77.
- (٥٨) محمد محمود ربيع، إسماعيل صبرى مقلد وآخرون ، مرجع سابق ، ص ١٤٢٣.
- (٥٩) UDO,R.K., op. cit, p. 86.
- (٦٠) VILETTER, F.D., Recent Trends and Prospects of Black Migration to south Africa, op. cit, P.672.
- (٦١) فتحى محمد أبو عيانة، جغرافية افريقية، مرجع سابق، ص ٣٩٩ - ٤٠٥ .
- (٦٢) Frayne, B.. and Pendleton, w., Namibians on south Africa: Attitudes towards cross-border Migration and Immigration Policy. in: on Borders. Perspectives on International Migration in southern Africa, Edited by: David A. Mcdonald, southern African migration Project, st. Martin's press, 2000, pp. 89-94.
- (٦٣) Ibidq pp. 95-96.
- (٦٤) فتحى محمد أبو عيانه، جغرافية أفريقية، مرجع سابق، ص ٤٠٩ - ٤١٠ .
- (٦٥) المرجع السابق، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .
- (٦٦) المصدر:
- Oucho. J.. & Campbell,E.. & Mukamaambo,E., Botswana: Migration Perspectives and prospects. series Editor: Jonathan crush. Southern African Migration Project 2000, Migration Policy series NO. 19, p. 13.
- (٦٧) Ibid, P.14.
- (٦٨) المصدر:
- (٦٩) نفس مصدر الجدول السابق
- (٧٠) محمد عبدالغنى سعودى، أفريقيا، مرجع سابق، ص ٤٢٨ . ٤٢٩.
- (٧١) فتحى محمد أبو عيانة، جغرافية أفريقية، مرجع سابق، ص ٤٢٠ . ٤٢٦.

(٧٢) أحمد سامى سيد أحمد خليل، روديسيا: دراسة فى الجغرافية السياسية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الجغرافيا، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٧٦، ص ٥٨ . ٦٠.

(٧٣) Zinyama, L.M., International Migrations to and from zimbabwe and the influence of political changes on Population movements, 1965-1987, in: International migration Review, vol-24, winter 1990, p.761.

(٧٤) Adepoju, A., The Dynamics of Emigration : sub-saharan Africa, op.cit. p.194.

(٧٥) Zinyama, L.m., op. cit, p. 765.

(٧٦) منظمة العمل العربية، منظمة الوحدة الأفريقية، تقرير الأمين العام عن هجرة العمالة الدولية فى شرق أفريقيا، الندوة الأفريقية عن الهجرة (جنوب/جنوب) فى أفريقيا، القاهرة (٥-٩ ديسمبر) ١٩٩٥، ص ٣١.

(٧٧) Zinyama, L.M., op. cit, p. 762.

(٧٨) Ibid, p.765.

(٧٩) Zinyama, L.M., who, what, when and why: cross border Movement from zimbabwe to south Africa, in: on Borders. Perspectives on International migration in southern Africa Edited by: David A.Mcdonald, southern African migration Project. st.Martin's press, 2000, pp.71-85.

(٨٠) Dodson, B., women on the move: Gender and cross-border migration to south Africa from Lesoto, Mozambique and zimbabwe, in: on Borders, Perspectives on International Migration in Southern Africa Edited by: David A.Mcdonald, Southern African Migration Project. St. Martin's press, 2000, pp.119-151.

(٨١) فتحى محمد أبو عيانة، جغرافية أفريقيا، مرجع سابق، ص ٤٢٦ - ٤٢٩

(٨٢) Central statistical 'office. Ministry of Health, zambia Demographic and Health survey 1996, Lusaka, zambia, 1997, pp.1-2.

(٨٣) Russell, s.s., op. cit, p. 230.

(٨٤) محمد عبد الغنى سعودى، أفريقيا، مرجع سابق، ص ٣٤٩ - ٣٥٢.

(٨٥) UN, IOM, OIM, op-cit, p.151

(٨٦) Russell, s.s., op- cit, p.230.

(٨٧) محمد عبد الغنى سعودى، هجرة العمالة فى شرقى أفريقيا، مرجع سابق، ص ٦٤-٦٦.

(٨٨) المرجع السابق، نفس الصفحات.

(٨٩) فتحى محمد أبو عيانة، جغرافية أفريقيا، مرجع سابق، ص ٣٤٠ - ٣٤٧ .

(٩٠) محمد محسن محمد عوض، أنجولا دراسة فى الجغرافية السياسية، رسالة ماجستير غير المنشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، قسم الجغرافيا، جامعة القاهرة، ١٩٧٤، ص ١٥٨ - ١٦٠.

(٩١) Russell, s s., op- cit 9 p. 230.

(٩٢) فتحى محمد أبو عيانة، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، ١٩٧٧، ص ٣٧١ - ٣٧٣ .

- (٩٣) Castles, S., & Miller, M.J., The Age of migration, International population movements in the modern -world, london. 1993, p.144.
- (٩٤) محمد عبد الفنى سعودى ، هجرة العمالة فى شرقى أفريقيا ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .
- (٩٥) Frayne, B., and Pendleton, w., op. cit. pp. 91-92.
- (٩٦) منظمة العمل العربية ، منظمة الوحدة الأفريقية ، هجرة العمالة الدولية فى الجنوب الأفريقى ، مرجع سابق ، ص ١١ .
- (٩٧) Matlapeng, A., Brain Drain and Gain in science and Technology in southern Africa, in: migrants," citizens and the state in southern Africa. Edited by : Jim whitman, macmillan press LTD, Great Britain, 2000, p. 204.
- (٩٨) منظمة العمل العربية ، منظمة الوحدة الأفريقية ، هجرة العمالة الدولية فى الجنوب الأفريقى ، مرجع سابق ، ص ١٠ .
- (٩٩) UN, Department of Economic and Social Affairs, population Division, International migration policies, op- cit. p.154. UDO, R.K., op. cit. p.89.
- (١٠٠) صندوق الأمم المتحدة للسكان ، القضايا السكانية ، ١٩٩٦ ، ص ١١٦ .
- (١٠١) منظمة العمل العربية ، منظمة الوحدة الأفريقية ، هجرة العمالة الدولية فى الجنوب الأفريقى ، مرجع سابق ، ص ١٢ .
- (١٠٢) UDO, R.K.9 op. citq P-90.
- (١٠٣)

سفارات الدولة البيزنطية إلى الحبشة وجنوب غرب الجزيرة العربية

فى النصف الأول من القرن السادس

دراسة من خلال المصادر الكلاسيكية

منيرة الهمشوى (*)

من المعروف أن اللجوء إلى الطرق الدبلوماسية فى التعامل بين الدول يعتبر فى أحيان غير قليلة مرحلة تسبق أى عمل عسكرى ، وتعتبر السفارات التى أرسلت من قبل الدولة البيزنطية إلى الحبشة وجنوب الجزيرة العربية فى النصف الأول من القرن السادس إحدى حلقات الصراع السياسى والاقتصادى من قبل الدولة البيزنطية والذى اتخذ شكل الدبلوماسية فى كثير من مراحله ، وذلك فى مواجهة القوة الكبرى الأخرى وهى فارس التى كانت تمثل طرفاً آخر فى التحكم فى مصير العالم القديم منذ أوائل العصر الرومانى .

والدراسة التى نحن بصددھا تعالج الوضع الحساس للبحر الأحمر والتجارة الشرقية فى تلك الفترة التى أخذت فيها أكسوم وضعاً فريداً خصوصاً بعد سيطرتها على جنوب غرب الجزيرة العربية . ثم نناقش ما حدا بالأباطرة البيزنطيين فى تلك الفترة بالذات أن يبدأو تلك الخطوة الجريئة التى تتمثل فى إرسال السفارات وهل كانت تلك البعثات الدبلوماسية محاولة فعلاً لاستقطاب التجار الأحباش وإغرائهم لحثهم على الاستئثار بتجارة الحرير ، وبذلك يتغير مسار تلك التجارة التى كان يسيطر عليها الفرس أم كان الهدف منها شيئاً آخر فرضته الظروف العالمية والصراع الدائر بين بيزنطة والفرس فى تلك الفترة .

(*) الأستاذ المساعد - كلية الآداب - جامعة المنوفية .

ولإلقاء نظرة سريعة على تجارة البحر الأحمر ومدى أهميتها منذ العصر الهلينيستي ، وحتى الفترة المتأخرة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية وبخاصة في ذلك الوقت الذي أرسلت فيه تلك السفارات التي نحن بصدد الحديث عنها ، نقول أنه من المعروف أن البحر الأحمر كان من المحاور الرئيسية للتجارة العالمية منذ العصور القديمة ومع بداية العصر الهلينيستي زادت قيمته في مجال التجارة العالمية كخط تجاري إلى جانب خطوط التجارة البرية ، والتي كانت مراكزها بين أيدي عرب جنوب الجزيرة العربية والعرب الأنباط ^(١) ، إتخذت الخط التجاري البحري في البحر الأحمر .

وقد حرص حكام مصر البطالمة على تأمين تلك التجارة حيث ازدادت أهمية هذا الطريق بعد معرفة الاستفادة من الرياح الموسمية حتى غدا البحر الأحمر من أهم طرق التجارة في العالم القديم خلال عصر الإمبراطورية الرومانية بعد ذلك ^(٢) .

وكما نعلم أنه في العصر الروماني ازداد اهتمام الرومان بالبحر الأحمر منذ دخولهم مصر حيث كان الهدف من حملة جالوس على جنوب الجزيرة العربية عام ٢٤ ق.م ليس فقط الاستيلاء على ثروة الإقليم ، ولكن مراقبة المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، وأيضاً مراقبة الطريق البري الذي يسير إلى الجرها ، في شرق الجزيرة العربية خلال وسطها ، لذلك أسسوا لهم نفوذاً على طول الشاطئ ، الشرقي له وقاموا بتأكيد سيادتهم بين القبائل هناك ، ومن ناحية أخرى تم مراقبة الطرق البرية من ليوكي كومي (الحوراء) وأيلة إلى البتراء وغزة مثل طريق وسط الجزيرة العربية إلى الجرها ، تماماً .

كما أخبرنا استرابون أنه فى أيامه (عاش بين ٦٤/٦٣ ق.م. و ٢١ م. على الأقل) كانت التجارة الآتية خلال البحر الأحمر إلى مصر من الهند والجزيرة العربية وإثيوبيا تحمل إلى النيل حيث كان هناك طريق ممتد من البحر الأحمر إلى النيل مزوداً بالمياه (٣) . ويبدو أن هذا الطريق كان ذا نشاط كبير منذ عصر البطالمة وقد ذكره بلىنى عند ذكره الطريق إلى الهند (٤) ، وظهر هذا الزخم الذى أتى للتجارة الرومانية واضحاً فى كثير من الكتابات القديمة (٥) .

وتلخص الكتابات الحديثة تلك الطرق بأن التجار كانوا يسلكون طريقين فى البحر الأحمر ، أحدهما يمتد من الإسكندرية فى النيل ، ثم يعبر الصحراء إلى أحد الموانئ فيه على الشاطئ الغربى ومنه يسلك البحر الأحمر حتى أدوليس ثم إلى أكسوم عاصمة الحبشة فى الداخل إذا دعت الضرورة . وكان الطريق الآخر يبدأ من أيلة ، ويمتد على طول الشاطئ العربى وكانت السفن ترسو فى الليل عند أحد المراسى الطبيعية على ذلك الشاطئ ، خوفاً من مضاحله ، وقد يكون المقصد أحد موانئ حمير ، وكان هناك تجار يونان فى سوقطرة (سقطرى) ولكن لا ريب أن أدوليس كانت عندئذ أهم مراكز للتبادل التجارى بين الإمبراطورية الرومانية وبلاد المحيط الهندى (٦) .

وإذا ألقينا نظرة على العالم الشرقى فى بداية عصر الإمبراطورية الرومانية الشرقية نجد أن القسطنطينية قد أصبحت عاصمة للإمبراطورية بدلاً من روما فى عام ٣٣٠ م ، وفى فارس حلت الأسرة الساسانية محل البارثيين حوالى عام ٢٢٥ م وشجعت الملاحة الفارسية وأسس أول ملوكها أردشير الأول (٢٢٥ - ٢٤١) عدة موانئ بحرية ونهرية وعقد نرسى (٣٩٢ - ٣٠٣) صلات مع ملك شعب

الزنج فى شرق الصومال ، وازداد الصراع بين الإمبراطوريتين العظيمنتين علاوة على ما كان بينهما من صراع دينى ، وفى جنوب البحر الأحمر كان الحميريون الذين جمعوا سبأ وغيرها فى دولة واحدة ، وعلى الجانب الآخر كانت مملكة أكسوم الحبشية تزداد قوة وكان نشاط أكسوم التجارى يشمل البحر الأحمر والمحيط الهندى عن طريق أدوليس حيث كانت سفنها تنقل العاج إلى الهند وفارس وحمير وبيزنطة وتقل المصادر خلال الفترة من القرن الثالث إلى الخامس حول تجارة البحر الأحمر ^(٧) ولكن رغم عدم وجود معلومات عن الجزء الشمالى من البحر الأحمر وخليج العقبة خلال تلك الفترة ^(٨) ، نجد أن المصادر تذكر عن تجار سبئيين فى سيلان عام ٤١٤ م .

بدأت اسواق البخور فى الانهيار منذ بداية القرن الرابع وكان انتشار المسيحية من أكثر أسباب هذا الانهيار حيث منع استخدام البخور فى الطقوس الدينية فى الكنائس ، حتى إذا كانت نهاية القرن الرابع منع الإمبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥) إقامة الطقوس الوثنية بما فيها استخدام البخور .

كانت هناك أيضا أزمة داخلية وتضخم شديد قد بدأ يشل الاقتصاد البيزنطى وأدى النزاع الداخلى فى الإمبراطورية إلى عدم الأمان ليس فقط على طول طريق البخور ، ولكن أيضا فى جنوب الجزيرة العربية نفسها ، ومن المشكوك فيه استمرار التجارة البرية فى العصور خلال القرن الرابع ، بينما استمرت التجارة البحرية لكن بدرجة أقل وكانت سيلان تمثل مركز التجارة بين الصين والشرق الأدنى فى تلك الأوقات ، وإذا كانت السفن الصينية تسير غرباً حتى سيلان فإن التجارة فيما بين سيلان والمناطق الواقعة غربها كان يتولى أمرها الفرس والأحباش ^(٩) .

وظلت تجارة الشرق تعتمد على البحر الأحمر كأحد الطرق الرئيسية التي تتجنب بها الإمبراطورية البيزنطية الخطر الفارسي ، وكان هو والطريق الشمالي الأقصى الذي يمتد حتى البحر المتوسط ، ويعتمد على الاستقرار النسبي بين أمم تلك المناطق ، كانا هما الطريقين اللذين يتجنبان المرور بأرض فارس - حيث كانت تفرض في ذلك الطريق رسوماً جمركية عالية على التجارة - وحتى هذا الطريق كان منطقة تهديد مستمر لتجارة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، حيث كان يتم قطعه نهائياً عند الحروب .

كانت جميع سلع الإمبراطورية تنقل بواسطة هذين الطريقين فيما عدا تجارة الحرير التي ظلت تسير براً خلال فارس إلى محطتي التجارة للإمبراطورية وهما نصيبين ودورا ، ومن هناك ينقل بدوره إلى المصانع في صور وبيروت على أن بعضه كان يحمل مع غيره من سلع الهند بالطريق البحري . ثم يأتي القرن السادس الميلادي الذي يعتبر أكثر عهود تجارة الشرق ازدهاراً ، حيث بدأ الانتعاش منذ عهد أناستاسيوس (٤٩١ - ٥١٨) والسنوات الأولى من حكم أسرة جستنيان (١٠)

وقد توفر لدينا كثير من المعلومات حول تجارة البحر الأحمر في النصف الأول من هذا القرن وهي الفترة التي نظمت فيها المكوس من قبل الإمبراطورية البيزنطية ، حيث نجد كتابات كل من الجغرافي كوزماس (Cosmas In-dicopleustes) الذي كتب حوالي عام ٥٤٧ عن البحر الأحمر مستعيناً بمعلوماته الشخصية إذ كان قد زار أدوليس تاجراً في شبابه وأنطونيوس (Antonius Mar-tyr (٤٩١-٥٧٨) الذي امتدت كتاباته (John Malalas) ، وجون مالالاس (٥٢٥ - ٥٦٥) وثيوفانس (Theophanes) الذي

يرجع تاريخه للفترة من (٥٦٦ - ٥٨١) وبروكوبيوس مؤرخ عصر جستنيان *
أيضا فيلوستورجيوس Philostorgius (٣٧٨ - ٤٢٥) وننوسوس Nonnosus
سفير جستنيان إلى الحبشة وجنوب الجزيرة العربية . وقد نقل عن الإثنين الأخيرين
فوتيوس Photius الذى تولى منصب بطريك القسطنطينية فى الفترة من (٨٥٨ -
٨٦٧) ومن (٨٧٨ - ٨٨٦) .

ومن خلال كتابات كل هؤلاء نستطيع أن نخرج بصورة واضحة عما كان عليه
النشاط التجارى فى البحر الأحمر وكذلك عن القوى السياسية التى أحاطت به
ومدى علاقة الإمبراطورية البيزنطية بكل هؤلاء من خلال دراستنا للنصوص التى
كتبت عن السفارات موضع الدراسة . حيث يبدو أن الإنتعاش فى تجارة البحر
الأحمر ووجود قوى متحكمة فيه وهى الموجودة على كل من شاطئيه الشرقى
والغربى ثم احتياج بيزنطة للقوى الموجودة فى داخل الجزيرة العربية لدرء أى خطر
فارسى هو الذى حدا بالدولة البيزنطية لإرسال تلك السفارات ، سواء إلى أكسوم
أو جنوب غرب الجزيرة العربية أو إلى قواد القبائل العربية فى وسط الجزيرة .

وتبدو صورة هذا الإنتعاش الإقتصادى فى المصادر القديمة حيث يذكر
كوزماس^(١١) الذى كتب عام ٥٤٧ أنه " على شاطئ إثيوبيا ، على بعد ميلين
من الشاطئ هناك مدينة تدعى أدوليس Adoules ، حيث توجد ميناء
للأكسوميين ويؤمها عدد من التجار الآتين من الإسكندرية ومن خليج إيلات " ،
ويشير كوزماس وبروكوبيوس^(١٢) إلى وجود ملاحين من أدوليس فى موانئ
سيلان ولعل سفن الحبشة هى التى كانت تنقل العاج الذى يذكر كوزماس أنها
كانت تصدره إلى الهند وفارس وحمير والإمبراطورية الرومانية .

ولقد كانت سيلان مركز التجارة البحرية بين الصين والشرق الأدنى وكانت سفن الصينيين كذلك سفن شعوب الشرق الأقصى تسير غرباً حتى سيلان حيث كانت التجارة بينها وبين المناطق الواقعة غربها فى أيدى التجار الفرس والأكسوميين ، وكانت السفن التجارية اليونانية تسير حتى أدوليس أو تتجاوزها حتى باب المندب (١٣).

كذلك كتب بروكوبيوس (١٤) عن البحر الأحمر واصفاً إياه بعد خروجه من خليج العقبة بالبحر المفتوح الذى يضطر فيه البحارة إلى الرسو على الجانب الأيسر عندما يحل عليهم الليل حيث الموانئ الطبيعية . ويذكر أنطونيوس مارتير (١٥) حوالى عام ٥٧٠ م أن أيله والقلزم كانتا نهاية المطاف للسفن القادمة من الهند . أما ننوسوس Nonnosus ومالالاس John Malallas ويذكر بروكوبيوس Procopius أيضاً أن أدوليس كانت أهم مراكز للتبادل التجارى فى الإمبراطورية البيزنطية (١٦).

كان الإتصال المباشر بين الدولة البيزنطية والهند عن طريق البحر الأحمر سبباً مهماً لأن تؤمن الدولة البيزنطية طرقها البحرية وتجاريتها فى هذا الشريان الحيوى، ويبدو أن هذه السفارات التى سوف نتحدث عنها كانت جزءاً من سياستها لتأمين نقل التجارة فى البحر الأحمر فنجد أن جستنيان (٥٢٧-٥٦٥) أقام حامية عسكرية فى أيلة حيث يجرى نقل التجارة براً إلى البحر المتوسط عن طريق فلسطين وسوريا . كذلك أمن الميناء الآخر (القلزم) الذى يقع فى أقصى الشمال الغربى من شاطئ البحر الأحمر ، والذى يجرى فيه الإتصال أيضاً بالبحر المتوسط ، وأقام جستنيان نقطة للمكوس فى جزيرة تقع فى مدخل خليج العقبة

وهى جزيرة Iotabe (تيران) حيث تجرى جباية المكوس على السفن التى تجتازها والمتجهة إلى كل من أيله والقلم ، وترتب على ذلك أن تحتم على جستنيان أن يقيم علاقات وثيقة مع الأحباش المسيحيين (١٧).

كان هناك صراع دائر فى تلك الفترة بين القوتين الكبيرتين وكانت الجزيرة العربية إحدى محطاته بما تمثله من أهمية إقتصادية وكذلك أهمية سياسية تتجسد فى كونها تضم أهم طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب طوال العصور القديمة والعصور الوسطى (١٨) ، ولم يكن غريباً أن توجه بيزنطة سفاراتها إلى الحبشة .

لم تكن سفارات القرن السادس إلى الحبشة واليمن بالشىء الجديد على الدبلوماسية البيزنطية فى تلك المنطقة فنحن نعلم أنه منذ القرن الرابع تمتعت الحبشة بأقصى ما يكون من القوة والمنعة ووصل الشعب إلى أقصى ما يدرك من الإنتعاش ، حيث كانت أكسوم هى المركز الرئيسى للتجارة فى هذا الجزء من العالم وقصدها التجار من جميع الأجناس ليرتادوا أسواقها العامرة بالتجارة إلى حد التخمة وكانت أدوليس بالنسبة للحبشة مثل ما كانت عليه الإسكندرية بالنسبة لمصر ، حيث وجدت نقوش عشر عليها مكتوبة بالحشية والاعريقية والسبئية تدل على تنوع الأجناس فيها (١٩) ، وهو أمر يشير بشكل واضح إلى نشاط التبادل التجارى بها .

تحدثنا المصادر عن بعثة أرسلها الإمبراطور قنسطنطيوس (٣٣٧-٣٦١) فى عام ٣٥٦ م حيث يذكر Photius (٨٥٧ - ٨٨٦) نقلاً عن Philostorgius (٢٠) (٣٦٨ - ٤٢٥) أرسل قنسطنطيوس سفراء إلى هؤلاء

الذين كانوا يسمون سبثيين ولكن يعرفون الآن باسم الحميريين والتي تسمى أراضيهم باليونانية (العربية السعيدة) وهي التي تمتد على مساحة كبيرة منها على المحيط وعاصمتهم سبأ وهي المدينة التي ذهبت منها ملكة سبأ إلى سليمان وهم يقدمون القرابين لآلهتهم المحلية ، الشمس والقمر ، أرسل لهم قنسطنطيوس بعثه ليقنعهم في الدخول في العقيدة المسيحية " .

ولكن نجد في السفارة تلميحاً للمحافظة على التجارة البيزنطية علاوة على التبشير بالمسيحية حيث يذكر Philostorgius :

" ان ثيوفيلوس (الراهب) طلب منهم السماح ببناء كنيسة لأجل البيزنطيين الذين يأتون إلى هناك عن طريق البحر وللمقيمين في البلد الذين يعتنقون المسيحية ، وقد نجح ثيوفيلوس في أن يقنع حاكمهم باعتراف المسيحية وإقامة ثلاث كنائس واحدة في ظفار والثانية في السوق حيث يتجمع الرومان (البيزنطيون) مقابل البحر في عدن حيث إقامة الرومان ، وقد أقيمت الثالثة في (السوق الخاصة بالفرس) " .

واضح من النصوص أن بناء الكنائس كان في أماكن تجمع التجار حيث يذكر الكاتب أن الكنائس الثلاثة كانت في الأسواق لخدمة التجار والمقيمين الرومان وذلك لتشجيعهم كمسيحيين على استمرار نشاطهم التجاري في جنوب الجزيرة العربية ، ورغم أن التبشير بالمسيحية هو الظاهر من تلك البعثة إلا أننا نستشف من المصادر أن هناك غرضاً آخر هو تأمين تجارة الإمبراطورية * . وهو أمر يصبح وارداً بل محتملاً مع اعتناق حاكم أكسوم لنفس عقيدة الإمبراطورية البيزنطية واستجابته لإقامة ثلاث كنائس في ثلاثة أماكن من بينها السوق الخاصة بالفرس.

ولا يستبعد أحد المؤرخين المحدثين^(٢١) . أن يكون ثيوفيلوس قد حمل إلى جانب مهمته التبشيرية مهمة أخرى تتعلق بالتفاوض مع ملكى أكسوم وحمير لضمان حسن معاملتهم للتجار الرومان الذين يعبرون بتجارتهم عن طريق اليمن والعمل معاً لمجابهة السيادة التجارية البحرية للفرس فيما وراء هذه المنطقة باتجاه الشرق * .

ومن هنا نرجح أن البعثات التبشيرية لم يكن الهدف منها فقط نشر الدين ولكن حماية التجار والتجارة البيزنطية التى تمر فى جنوب الجزيرة العربية حيث تشير تلك المصادر إلى تعرض جماعات من التجار العابرين للقتل ضمن حملة اضطهاد المسيحيين فى ظفار ونجران فى عهد ذى نواس الحميرى^(٢٢) ، ومن الممكن أن يكون ذلك هو ما حدا ببيزنطة إلى إرسال السفارة الأولى .

ومن المحتمل أنه كانت هناك عدة سفارات قد أرسلت من قبل الدولة البيزنطية فى تلك الفترة (النصف الأول من القرن السادس) ، ولكن الذى بين أيدينا سفارتان ، يبدو أن الأولى قد أرسلت فيما بين عامى ٥٢٥ - ٥٢٧ وكتب عنها Theophanes و Cosmas و John Malalas أما الأخرى فكانت لاحقة عليها وذكرت عند Photius ، وهناك من المصادر ما خلط بين السفارتين كما سنرى فى دراستنا لنصوص بروكوبيوس .

يذكر Theophanes^(٢٣) (٥٦٦-٥٨١) " أنه فى عام ٥٢٧ نقض الرومان والفرس معاهدة السلام وتجددت الحروب الفارسية أرسل الرومان السفير (جوليان) * من الإسكندرية راكباً النيل ، ثم خلال البحر الأحمر مع خطاب سرى مبحراً إلى Arethas " الملك Kaleb " ** ملك أثيوبيا ، استقبله

الملك بحفاوة شديدة ، حيث كانت هناك صداقة تربط Arethas بالإمبراطور الرومانى منذ فترة طويلة * عندما قرأ (الملك) الرسالة وجد أنها كانت طلباً بتسليح نفسه ضد الملك الفارسى لتخريب الإقليم الفارسى القريب منه، الأكثر من ذلك فان الخطاب اتخذ الترتيبات بأن ترتبط أرض الحميريين بالعمل (بالتجارة) مع الإسكندرية المصرية عن طريق النيل وذلك بتسيير التجارة إلى البحر الاحمر وذلك لتهديد الساسانيين. وبالنظر فى السفارة بدأ الملك Arethas مباشرة فى الحشد وبدأ الحرب بالتحرك ضد الفرس ، وأرسل للعرب الذين عملوا تحت قيادته ، وأيضا ذهب بنفسه ضد الإقليم الفارسى وهزم كل الذين كانوا فى تلك المناطق. وبعد أن هزمهم أعطى الملك Arethas جوليان قبلة النصر على رأسه (وبشر الملك Arethas جوليان بالنصر) وأرسله مع حاشية كبيرة وحمله بالهدايا .

نلاحظ أن السفارة لم يكتب فيها اسم الإمبراطور الذى أرسلت فى عهده ولكنه ذكر (ρομαίοι) كذلك نلاحظ أن السفارة أرسلت بعد تجدد الحروب بين فارس وبيزنطة لذلك من الممكن أن تكون السفارة لأجل احتواء بيزنطة لحلفائها من ناحية ولفت أنظار الفرس من ناحية أخرى .

السفارة الأخرى هى التى أرسلها الإمبراطور جستنيان وهى التى أرسل فيها سفيره الذى كتب بنفسه عن السفارة ^(٢٤) والتى فقدت ولكنها حفظت فى كتابات Photius الذى تولى منصب البطريركية فى القسطنطينية ما بين (٨٥٨ - ٨٦٧) وما بين (٨٧٨ - ٨٨٦) ^(٢٥) .

« هذا الملخص من السيرة المفقودة لنوسوس ، أحد الأفراد من أسرة خدمت الإمبراطورية الرومانية (البيزنطية) كسفراء لشعوب البحر الأحمر خلال ثلاثة أجيال حيث قدموا نظرة صائبة في السياسة المعقدة وكانت فكرتهم واضحة وذلك لامتداد المعرفة الرومانية لأكسوم * خلال عصر جستنيان » .

يذكر فوتيوس أيضا « نقرأ في تاريخ نوسوس الذي يحتوى على سفارته عام ٥٣٠م إلى الأثيوبيين والحميريين وعرب الحيام ، كان (قيس) قائد العرب هذا حفيداً (Arethas) وهو القائد الذي أرسل له نوسوس الجند كسفير خلال حكم أناستاسيوس (٤٩١-٥١٨) لعقد معاهدة سلام ، ثم أرسل Abrames ابن نوسوس في سفارة لنفس المهمة (عقد سلام) مع المنذر قائد اللخمين " أحد القبائل في شمال غرب العربية بالحيرة " وهو قائد عرب الحيام خلال حكم جستين (٥١٨ - ٥٢٧) وقد نجح في تدبير إطلاق سراح (Timostratus) و (John) القائدين الرومانيين اللذين أسرا في الحرب ، قيس هذا الذي أرسل له نوسوس (الحفيد) كان قائدا لاثنتين من القبائل العربية المشهورة (الكنديين) و (المعديين) وقبل أن يختار نوسوس سفيراً كان جستنيان قد أرسل أباه (Abrames) إلى نفس قيس هذا وعقد (معه) معاهدة سلام شريطة أن يؤخذ Mavias (معاوية) بن قيس كرهينة في بيزنطة بعد ذلك عهد نوسوس ثلاث مهمات (مهمة ثلاثية) .

- إلى قيس ليحثه على زيارة القسطنطينية .

- إلى (Kaleb) Elesbaas ملك الأكسوميين .

- إلى حمير

ويشرح Photius بعد ذلك واصفاً أكسوم والمخاطر التي مرت بنوسوس، ولكنه استطاع إكمال مهمته بنجاح وعاد سالماً إلى وطنه .

يذكر فوتيوس " أن ننوسوس ذكر أن قيس ، بعد أن أرسل اليه Abrames (والد ننوسوس) للمرة الثانية ، شرع في الذهاب إلى بيزنطة ، وقبل ذلك قسم رئاسة قبيلته بين (أخيه) Ambrus (عمرو) و Yazid ، لقد أخذ عدداً كبيراً من حاشيته معه، وقد عينه الإمبراطور حاكماً إدارياً (فيلارخوس؟) على فلسطين ".
واضح من نص فوتيوس المنقول عن ننوسوس أن به الطابع العام للسفارات وهي الإبهام التام في المعلومات خصوصاً ذكره " إلى حمير " وعدم ذكر اسم الحاكم .

وعبارة للمرة الثانية عند الحديث عن إرسال Abrames (أبوننوسوس) إلى قيس تعنى أنه قد أرسلت عدة سفارات للقائد العربى هذا قبل سفارة ننوسوس لذلك كان يحثه على الذهاب إلى بيزنطة .

وواضح من حديث فوتيوس أنه تعددت الأغراض من زيارة ننوسوس إلى الحبشة وحمير ووسط الجزيرة (نجد) .

كاتب آخر ذكر عن أحد تلك السفارات هو كوزماس (Cosmas Indicopleustes)^(٢٦) الذى كتب حوالى عام ٥٤٧ .

يذكر " عندما كنت فى هذا الجزء من القطر " يبدو أدوليس " منذ خمسة وعشرين عاماً مضت أكثر أو أقل ، فى بداية حكم الامبراطور جستين (٥١٨- ٥٢٧) فإن Elesbaan الذى كان ملكاً للأكسوميين أعد الحملة ضد الحميريين على الجانب الآخر من الخليج " .

حديث كوزماس لا يدع مجالاً للشك في أن الحملة كانت في عهد الإمبراطور جستين أيضاً أنها ضد الحميريين في اليمن وليس مكاناً آخر .

ومن المرجح أن اضطهاد ذي نواس للمسيحيين لم يكن يخلو من بعد اقتصادي حيث مارس ذلك الاضطهاد كذلك على التجار الأحباش والرومان .
ومما لا ريب فيه أن يكون ازدياد نفوذ التجار العابرين والمقيمين قد أثار حفيظته إذ رأى ما يجنيه هؤلاء من ثروات طائلة من جراء ممارستهم أو سيطرتهم على طريق التجارة الرئيسي عبر جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر إلى شمالها وحتى البحر المتوسط ، إنتهاءً ببلاد الشام أو مصر في طريقهم إلى الإمبراطورية البيزنطية ، وربما أنه رأى المسيحيين في ظفار ونجران أعواناً لهؤلاء الرومان والأحباش ، لذلك راح يمارس سياسته والأمل يحدوه في أن يتحول هذا الثراء لليهود ، إذا ما حلت تجارتهم محل أولئك الأجانب (المسيحيين) ولعبوا دورهم في حركة التجارة النشطة بين مناطق المواد الخام والتوابل والبخور والحرير في شرق آسيا وجنوبها الشرقي ، وشرق أفريقيا وأسواق الإستهلاك في الإمبراطورية البيزنطية ، ومن ثم فإن سياسة الملك الحميري تجاه المسيحيين إذا كانت لا تخلو من نغمة التعصب الديني إلا أنها في الوقت نفسه تنطوي على أهداف إقتصادية بعيدة ويبدو أن الناجين من الاضطهاد قد استنجدوا بملك الحبشة أو استنجدوا بالإمبراطور (جستين) في القسطنطينية^(٢٧) .

أما بروكوبيوس فيذكر^(٢٨) في ذلك الوقت ، عندما كان (Hellestheaeus) يحكم الأثيوبيين ، وكان Esimiphaeus يحكم الحميريين، أرسل الإمبراطور جستينيان سفيره Julianus بطلب من الشعبين من أجل حسابات دينية وهي نفس حسابات الرومان من أجل شن الحرب على الفرس .

لقد افترض انه بشراء الأثيوبيين الحرير من الهند وبيعه للبيزنطيين سوف يصيبون مكاسب كبيرة ، حيث يحصل عليه الرومان عن طريق واحد وذلك يفرض عليهم بالقوة دفع الكثير لأعدائهم ، هذا هو الحرير (ΜΕΤΑΞΑ) الذي اعتادوا على صناعة الملابس منه والذي سماه اليونان (Μηδικής) وهو الذي يسمى حالياً (σηρικης)* ، وكما حدث مع الحميريين كان البيزنطيون راغبين في وضع (قيس) اللاجئ كقائد على المعديين ويمكن مهاجمة أرض الفرس بجيش كبير من رجالهم مع العرب المعديين .

كان (قيس) قائداً بطبيعته (من سلالة قواد) وبصفه خاصة كان مقاتلاً ولكنه كان قد قتل أحد أقارب (Esimiphaeus) ، وهرب في أرض بعيدة معزولة ، وعداه الملكان بأن يضعاً رغبته موضع التنفيذ ، وبعد انصراف السفير ، لم يستطع أحد منهم تحقيق ما طلب منه ، لم يكن من الممكن للأثيوبيين شراء الحرير من الهنود ، حيث اعتاد التجار الفرس الذين كانوا لقرب بلادهم يقيمون في الموانئ (موانئ سيلان) التي تأتي إليها سفن الهنود أول ما تأتي ، وحيث اعتادت (تلك السفن) على شراء الشحنات بأسرها (من ناحية أخرى) كان من الواضح أنه من الصعب على الحميريين عبور إقليم صحراوي ، ممتد لمسافة بعيدة جداً ، وكانت الرحلة تحتاج وقتاً طويلاً (للقيام) بالرحلة عبره ، والذهاب إلى (هناك) ضد أناس لهم خبرة بالحرب أكثر منهم (متمرسين على الحرب) أكثر منهم " .

إذا قارنا النصوص السابقة ببعضها وما تطابق فيها من أقوال وما اختلف بالنسبة للسفارات ، نجد أن حديث ثيوفانس ذكر فيه أن الملك الأثيوبي عندما قرأ رسالة الإمبراطور وجد أن فيها طلباً بتسليم نفسه ضد الملك الفارسي وتخريب

الإقليم الفارسي القريب منه ، ومن الممكن أن يفسر قوله الإقليم الفارسي القريب منه على أنه اليمن وليس أرض الفرس نفسها أو إقليم العرب الفرس (الحيرة) وذكره الملك الفارسي من الممكن أن يكون الملك الحميري التابع للفرس .

ذكر ثيوفانس أن الخطاب اتخذ الترتيبات بربط أرض الحميريين بالتجارة مع الإسكندرية عن طريق البحر الأحمر وذلك لتهديد الساسانيين ولم يذكر نوع هذه التجارة ، لذلك لا نستطيع أن نؤكد أن هدف السفارة كان الحرير فقط .

تذكر السفارة أن الملك الأثيوبي بدأ الحشد وأرسل العرب وذهب بنفسه ضد الإقليم الفارسي (الإقليم التابع للفرس) ، ونهبه وبشر السفير جوليان شخصياً بأن أعطاه قبله النصر على رأسه ، معنى ذلك أنه ذهب إلى أرض الحميريين لأنه لا يفهم أن الملك الأثيوبي تحرك ضد الفرس في شمال الجزيرة العربية ، أما قوله (أرسل العرب) من المحتمل أنهم القبائل العربية في نجد لمساعدة الملك الأثيوبي في الهجوم على حمير * .

إذن نستطيع - من خلال هذه السفارة - أن نقول أن تلك السفارة كانت السفارة التي أرسلت في عهد جستين (٥١٨ - ٥٢٧) إلى الملك الأثيوبي فقط حيث أنه واضح من السفارة أنها كانت لحث ومساعدة أثيوبيا على التحرك لمهاجمة الملك الحميري ذي نواس حاكم جنوب الجزيرة العربية الذي كان يهودياً وبدأ في اضطهاد المسيحيين . حيث يذكر كوزماس (٢٩) أنه كانت هناك استعدادات للحملة عندما كان في أدوليس عام ٥٢٢ * .

ومن الممكن أن سفارة جوليان كان بها الأخبار الأكيدة عن تحرك سفن حربية بيزنطية لمساعدة الأحباش في الهجوم على اليمن ** ، حيث تذكر المصادر

أنه كان هناك فى ذلك الوقت تجمع سفن من أيلة والقلزم وجزيرة جوتاب (تيران) فى أدوليس (٣٠) ، ويبدو أن الملك الأثيوى كان ينتظر هذا المدد لأن بلاده لم تكن تمتلك إلا اسطولاً تجارياً (٣١) .

وواضح من استعدادات الحملة أنها كانت حملة عسكرية كبيرة ، تلك التى استدعت اشتراك أسطول بحري بيزنطي كبير لهذه الدرجة .

لقد كانت سيادة اليهود فى اليمن تثير مخاوف السياسة البيزنطيين إلى حد كبير ، ليس فقط بدافع العداء بين اليهود وبيزنطة ، وما نتج عنه من إعتداءات على التجار البيزنطيين فى اليمن ، ولكن لما تمثله السيادة اليهودية على اليمن من امتداد للنفوذ الفارسى فى هذه المنطقة الحيوية الهامة بالنسبة للتجارة البيزنطية . وتأكدت هذه المخاوف بعد المراسلات التى دارت بين ذى نواس الحميرى وملك الحيرة اللخمى ، الذى كان يدور فى فلك السياسة الفارسية (٣٢) هذا بالإضافة إلى أن عدداً من يهود الفرس قد انخرطوا فى الخدمة العسكرية فى الجيش الفارسى وحظوا بالإحترام (٣٣) وكانت جماعات منهم قد عملت بالتجارة وجنى الساسانيون من ورائها ثروات طائلة وذلك بإرسالهم سفن تجارية تعمل لحسابهم إلى منطقة القرن الأفريقى (٣٤) لذلك رحبت ولعبت الامبراطورية البيزنطية دوراً أساسياً فى أن تمد مملكة أكسوم نفوذها إلى الشاطئ الآسيوى للبحر الأحمر بدلاً من أن يقفز إليها - عبر اليهود - النفوذ الفارسى ، وقد أقام الأحباش بعد ذلك سلطاناً فى حمير حيث كانوا يستطيعون تبرير ذلك برسالة المسيحية التى كانوا يحملون لواءها (٣٥) .

السفارة الأخرى كان السفير فيها هو ننوسوس وكما يذكر (فوتيوس) أن (ننوسوس) كان من أسرة دبلوماسية خدمت الإمبراطورية طوال ثلاثة أجيال

خصوصاً فى منطقة الجزيرة العربية والبحر الأحمر وكان جده سفيراً إلى الحيرة ،
ووالده سفيراً أكثر من مرة لنفس (قيس) هذا - القائد العربى لقبائل المعديين
حيث يذكر (فوتيوس) أن Abrames والد ننوسوس قد أرسل إلى قيس للمرة
الثانية ، واختيار ننوسوس كسفير فى السفارة الثانية له مغزاه حيث كان الملك
الأثيوبى قد استولى على أرض حمير ، بعد سفارة جوليان ، وعين فيها ملكاً
حميرياً تحت وصاية الأثيوبيين ويبدو أنه كان على شيء من الضعف * وكان
قيس العربى قائد المعديين قد هرب بعد أن قتل أحد أقارب هذا الملك (٢٦) ،
وبذلك يكون الملجأ الوحيد له هو الدولة البيزنطية الذى كانت له علاقة سابقة بها
عن طريق (Abrames) والد (ننوسوس) .

كانت سفارة (ننوسوس) كما يوضح (فوتيوس) لها ثلاث مهمات إلى
قيس فى معد ، إلى ملك أكسوم ، إلى حمير . ويبدو أن هدف السفارة هذه كان
جمع القوى الثلاث من أثيوبيا وحمير والجزيرة العربية للهجوم على الأرض
التابعة للفرس فى الشمال الشرقى (الحيرة) أو على الأقل محاولة درء خطر
الفرس عن الأملاك البيزنطية فى شمال وشمال غرب الجزيرة العربية وساحل
البحر الأحمر وفتح جبهة على الدولة الفارسية بحيث تضعفها فى صراعها الدائم
مع بيزنطة ، لأن قيس (كما يذكر فوتيوس) ذهب إلى القسطنطينية بعد أن
قسم أملاكه بين أخويه Ambrus (عمرو) و Yazid ويذكر (فوتيوس) أن
الإمبراطور عينه حاكماً ادارياً (فيلارخوس) على فلسطين الثالثة وهى تلك
التي تشمل شمال الجزيرة العربية (٢٧) ، حيث عين الحارث بن جبلة على شمال
غرب الجزيرة ، واستخلص جزيرة جوتاب (تيران) من اليهود الذين كانوا
سكنوها (٢٨) عند رحيلهم من اليمن بعد الغزو الأثيوبى لحمير .

بالنظر إلى حديث بروكوبيوس ، نجد أنه خلط في الأحداث بين السفارتين فأخذ من الأولى إسم السفير وهو جوليان وأنه ذهب إلى الحبشة وأخذ من الثانية أن هذا السفير قد ذهب إلى أثيوبيا وحمير ومعد وأن (εσιμιφάιος) كان يحكم اليمن في حين أن هذا الملك الحميري قد حكم اليمن بعد سفارة جوليان وانتصار الحبشة على اليمن ومن ثم تنصيبه ملكاً على اليمن بعدها .

ثم أن السفير الذي ذهب إلى أكسوم وحمير ومعد هو ننوسوس حسب حديث (فوتيوس) وليس جوليان كما يذكر بروكوبيوس .

ولتوضيح ذلك :

- بالنسبة لنص بروكوبيوس عن السفارة فقد اتفق مع ثيوفانس في حديثه عن السفارة الأولى بالنسبة لإسم السفير وهو جوليان والغرض من السفارة وهو تسهيل تسيير التجارة بين الحميريين والإسكندرية البيزنطية ولو أن ثيوفانس لم يذكر تحديداً تجارة الحرير التي ذكرها بروكوبيوس * .

اتفق بروكوبيوس أيضاً مع ثيوفانس أن السفارة كان بها تحريض على مهاجمة الفرس وكما ذكرنا من قبل فإنه من الواضح من حديث ثيوفانس عن سفارة جوليان أنه يقصد مهاجمة اليمن التي بها عملاء الفرس لأنه ذكر الإقليم القريب ، ويبدو أن هذا هو الهجوم الذي قام به الملك الأثيوبى على (ذى نواس) الحميرى ، ومن ثم لم يكن هناك بعد حاكم أثيوبى أو عربى وهو الذى اطلق عليه بروكوبيوس (εσιμιφάιος) (٣٩) وذكر في المصادر بعد ذلك أنه حكم اليمن بالفعل وتذكره المصادر العربية بإسم السميعف . ولكن بروكوبيوس ربما قصد بذكره غزو ارض الفرس (ἐαβσλωσιν ἐς τήν Περσῶν γῆν) هو مهاجمة الفرس في شمال الجزيرة العربية (ربما الحيرد) .

لم يذكر ثيوفانس أن جوليان ذهب إلى اليمن لكن بروكوبيوس يذكر أن جوليان طلب الشعبين (الأثيوبي والحميري) .

(πρεσβευτην Ἰουλιανόν ἐπεμψεν ἁξιῶν ἁμφω)

وهذا ما يتفق فيه بروكوبيوس مع السفارة الثانية التي كان السفير فيها هو (ننوسوس) من حيث أن السفارة أرسلت إلى كل من أكسوم وحمير وإلى قيس قائد المعدين الذي كان هارباً بعد قتله أحد اقارب حاكم حمير العربي (εσιμιφάιος) وهذا يؤكد أن السفارة التي يتحدث عنها بروكوبيوس تتفق مع سفارة ننوسوس الثانية بعد إضافة ما سمعه عن سفارة جوليان فاختلفت مصادره وكتب عن السفارة بهذا الشكل * خصوصاً أنه يذكر في حديثه ما يتطابق مع سفارة جوليان التي ذكرها ثيوفانس في أن بيزنطة ترغب في شن الحرب على الفرس لأجل التجارة .

نص بروكوبيوس يوضح نتيجة السفارة - إذا اعتبرنا أن حديثه يتطابق مع حديث فوتيوس عن السفارة الثانية - وهو أنه رغم أن الملكان (ملك أكسوم وملك حمير) وعدا السفير أن يضعوا رغبتهم موضع التنفيذ ، إلا أن أحداً منهما - حسب تعبير بروكوبيوس - لم يستطع تحقيق ما طلب منه ، من حيث شراء الحرير من الهنود وأن يحلوا محل الفرس في توريد الحرير للإمبراطورية البيزنطية ، كان من المستحيل على الأثيوبيين أن يشتروا الحرير من الهنود لأن التجار الفرس الذين كانوا لقرب بلادهم يقيمون في موانئ سيلان التي تأتي إليها سفن الهنود أول ما تأتي اعتادوا شراء الشحنات بأسرها ولم يكن جوار الفرس فقط هو السبب ولكن لم يشأ أهل سيلان أن يخسروا عملاءهم القدامى بالتعامل مع منافسيهم ، أيضاً لم يستطيعوا مهاجمة الفرس حيث أنه - حسب تعبير بروكوبيوس - كان من الصعب على الحميريين أن يعبروا إقليماً صحراوياً لمحاربة أناس على درجة كبيرة من المهارة (الدراية) بالحروب .

أما مقولة بروكوبيوس أن جستنيان قد أرسل جوليان لأجل الحسابات الدينية التى هى نفس الأسباب عند البيزنطيين فهذا ينطبق بصورة أكبر على السفارة الاولى المذكورة عند ثيوفانس والتى كان بها حض من البيزنطيين لأثيوبيا لشن الحرب على حمير حيث كان السبب الظاهرى بها هو إنقاذ المسيحيين من يد حاكم حمير اليهودى ويبدو أن ذلك كان ستاراً اتخذته بيزنطة لتحقيق كثير من أهدافها فى تلك الفترة خصوصاً مع الدولة الفارسية .

ينطبق حديث كوزماس^(٤٠) مع حديث ثيوفانس عن السفارة الأولى فى أن الحملة التى أعدها ملك أكسوم على الحميريين كانت فى بداية حكم الإمبراطور جستين (٥١٨ - ٥٢٧) وهو يعطينا تأكيداً باستعداد أكسوم قبل مجىء السفير جوليان ، لأن زيارة كوزماس لأدوليس كانت فى بداية حكم جستين ، كما يذكر أن الحملة ضد الحميريين على الجانب الآخر من الخليج .

بالرجوع الى جون مالالاس ، نجد أنه ذكر عن بعثة أرسلها الإمبراطور جستين إلى ملك الأكسوميين الذى ذكره باسم Elesbaas ، ولحسن الحظ فإن وصفه محفوظاً فى كتاباته^(٤١) ، ويعتبر حديثه مطابقاً لما ذكره كوزماس ، حيث أشار مالالاس إلى أن الفرصة كانت مواتية لحملة Elesbaas ، وذلك بقتل الحميريين للقديس الحارثه St. Arethas ومطابق لسفارة جوليان فى أن السفير طلب من الأحباش أن يأتوا بالسلع عبر أراضى حمير . لقد حدد تاريخ موت الحارثه بعام ٥٢٢ حيث كان العام الخامس من تولى الامبراطور جستين الحكم (٥١٨-٥٢٧) ، وكانت زيارة كوزماس لأدوليس - طبقاً لحديثه - فى عام ٥٢٥ وكانت بعثة جوليان بعد ذلك .

والخلاصة أننا نستطيع القول أنه يتبين من النصوص أنه كانت هناك عدة سفارات وصلت إلى منطقة المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، وظهرت لدينا في المصادر الكلاسيكية هاتان السفارتان اللتان - فيما يبدو - كانتا متلاحقتين ، ويبدو على ضوء حديث كوزماس ومالالاس أنه بعد مقتل القديس الحارث عام ٥٢٢ م بدأ الأكسوميون - متحينين فرصة تلك الحادثة - في الاستعداد لغزو اليمن ، ويبدو أن جوليان كان قد وصل بسفارته التي ذكرها (ثيوفانس) وكانت الإستعدادات قد تمت ، ولم تكن الحبشة لديها أسطول عسكري بالقدر الذي كان عليه أسطول التجارى ، لذلك نجد أنه تزامن وجود سفن من القلزم وجوتاب (تيران) وأيله فى أدوليس وبالطبع لم يكن ذلك صدفة بالنسبة للسفير الذى تحرك من مصر وله صلاحيات واسعة بالنسبة لموقعه كأحد رجال الخدمة السرية للإمبراطورية . ومن الممكن أن نعتبر أن الحملة كانت فى عام ٥٢٧ حيث يشير ثيوفانس إلى تجدد الحروب بين الفرس والبيزنطيين بعد نقضهم المعاهدة عام ٥٢٧ .

والواقع أن الروايات العربية لا تبتعد عن الحقيقة ^(٤٢) والمصادر تشير إلى تجمع سفن بيزنطية فى ميناء أدوليس التابع للأحباش لنقل القوات الحبشية ، حيث لم تكن أكسوم تمتلك إلا سفناً تجارية ، وهى سفن من القلزم وعيتاب (تيران) .

لقد كانت القسطنطينية تدرك صعوبة الغزو العسكرى المباشر لشبه الجزيرة العربية وذلك لطبيعة المنطقة وبعدها لذلك ازداد الإهتمام بتقوية أسطولها فى البحر الأحمر وتحسين علاقاتها السياسية مع زعماء القبائل العربية وتعزيز تحالفها مع مملكه أكسوم للحفاظ على مصالحها الإقتصادية وتحقيق أهدافها

السياسية ، وكانت ترى فى تدعيم سيادة حلفائها الأحباش على بلاد (العربية السعيدة) تدعيماً لسيادتها فى البحر الأحمر وعلى جانبه كجزء أساسى من صراعها المستمر مع الإمبراطورية الفارسية ، إقتصادياً وسياسياً وعقائدياً ، ولذلك لم تتوان عن تقديم أسطولها ليحمل الأحباش إلى اليمن (٤٣) .

ويخبرنا مخطوط استشهاد الحارثه* أن وفداً من أهل نجران قد استنجدوا بالإمبراطور البيزنطى ، وأن رجلاً من نجران تمكن من الوصول إلى ملك الحبشة ليستنجد به (٤٤) - ويذكر كاتب المخطوط أنه عندما وصلت رسل الإمبراطور إلى ملك الحبشة وجدته قد استعد بالفعل لأمر الغزوة ، وهذا ما نجده فى كتابات (ثيوفانس) أنه بمجرد وصول البعثة (السفارة) بدأ الملك الأثيوبى فى الحشد وبدأ التحرك .

وخرجت الحملة وانتصر الأحباش على ذى نواس ، وهذا ما يفسر ما ذكره ثيوفانس أن الملك الأثيوبى وضع قبلة النصر على جبين جوليان ، وحمله بالهدايا عند عودته ومن الممكن أن يكون قد بشره بتحقيق الهدف من السفارة بأن التجارة سوف تسير بين جنوب الجزيرة العربية والاسكندرية إذن فإن البيزنطيين قد سدحوا وساعدوا هذه الحملة لغرض دينى نعم ولكن لا بد أن تؤتى السفارة ثمارها بتأمين تجارة الامبراطورية فى أرض اليمن .

أما سفارة ننوسوس التى يذكر فيها أنه زار كلا من أكسوم ، حمير ، معد فإنه يفسر لنا ليس لاستجلاب الحرير أو محاولة تغيير طريق تجارته لأن جستنيان يدرك تماماً بخبرته الدبلوماسية أنه ليس بإرساله سفارة يغير مسار تجارة سلعة مهمة كهذه استطاع الفرس الاستئثار بها منذ بداية الإتجار فيها وحيث كان

البيزنطيون يحصلون عليها عن طريق واحد كما يذكر بروكوبيوس^(٤٥) . ولكن للاطمئنان على استتباب الأوضاع فى أكسوم وحمير ، ثم داخل الجزيرة العربية فى أرض معد التى تربط البيزنطيون بهم تحالفات قديمة لأن ننوسوس ذكر أن (قيس) قسم إمارته بين أخوته ويبدو أن ذلك استعدادا لتولييه فيلارخية فلسطين (الثالثة) ويدخل فيها غرب الجزيرة العربية التى بها خليج العقبة ، ذلك الشريان البحرى الهام للبيزنطيين الذى يوجد بمدخله جزيرة جوتاب (تيران) وهى التى بها نقطة من أهم مراكز المكوس البيزنطية فى البحر الأحمر ، كذلك مواجهة اللخميين وهم العرب التابعين لفارس فى شمال شرق الجزيرة العربية ومنعهم من الوصول إلى الأملاك الرومانية . ومن المحتمل ان تكون السفارة الثانية كانت طلباً لرد الجميل على إرسال بيزنطة الإمدادات إلى أكسوم لغزو اليمن خصوصاً الأسطول البيزنطى وكان هذا الرد من وجهة النظر البيزنطية هو إحداث مناوشات وبليلة وذلك بدعوى جلب الحرير عن طريق أكسوم والأهم من ذلك هو الزحف على شمال شرق الجزيرة العربية لتأمين الجبهة البيزنطية من ناحية فارس .

نلاحظ كثرة تعقيد العلاقات السياسية فى تلك الفترة وبالطبع لا تنسى بيزنطة عبور الملك الفارسى سابور الثانى (٣١٠-٣٦٩) الخليج العربى ، بعد وفاة قسطنطين ، وذبحه الكثير من أهل البحرين وإقامة جالية فارسية وزحفه إلى نجد بمساعدة بعض القبائل العربية حتى وصل لأطراف الحجاز^(٤٦) . وبيزنطة بنشاطها هذا فى الجزيرة العربية من إرسال ننوسوس إلى معد فى وسط الجزيرة وما تبعه من تقسيم (قيس) مناطق بين أبنائه وذهابه إلى القسطنطينية وتولييه فيلارخية فلسطين ، إنما هو منع للخطر الفارسى عن غرب الجزيرة لأنه كما ذكرنا كان للفرس وجود فى ميناء أدوليس وليس من المستبعد أن يكون تجارهم قد زاروا

حمير منذ زمن بعيد ولهم تواجد هناك (٤٧) ، كما كانوا يرسلون قوافلهم التجارية إلى اليمن ويوكلون حراستها لجماعات من العرب يختارونهم من زعماء القبائل المعروفين الذين يتمتعون بالمهابة في قومهم (٤٨) وهذا كان يثير الريبة في نفوس البيزنطيين ، لأنه لو تم التقارب بين الساسانيين وملوك حمير لوقعت الطرق التجارية الرئيسية المؤدية الى بيزنطة في قبضة الفرس ، ومن الممكن أن جستنيان لم يرض للإمبراطورية البيزنطية أن تعتمد في إقتصادها على فارس فعقد عزمه على أن يتلمس طريقاً تجارياً إلى الصين لا يخضع للنفوذ الفارسي (٤٩) .

من ناحية أخرى ربما كان الهدف من بعثة (نتوسوس) هو أن يجد جستنيان تجاوباً لدى الأحباش بهدف لفت أنظار الفرس إلى تلك المناطق عن طريق جرهم في مناوشات عند منطقة الخليج ليخفف الضغط عن الجبهة الشمالية الشرقية ، وقد سعى جاهداً لتحقيق تقارباً بين قوات الأحباش في اليمن والقبائل العربية في نجد مثل قبيلة (المعديين) وذلك للتعاون من أجل الوصول بقواتهم معاً إلى شرق الجزيرة العربية تهديداً للأراضي الفارسية والنفوذ الفارسي (٥٠) ورغم تحقق السلام بين الفرس وبيزنطة عام ٥٣٢ في السنة الثانية من حكم كسرى انوشروان كانت إثارة الحرب متوقعة دائماً (٥١) ، إلا أنه من الصعب التصور أن جستنيان أراد من الأحباش بعد استيلائهم على اليمن - بناءً على إرسال السفارة الأولى - أن يتعاونوا مع القبائل العربية في نجد بحيث يدخلون في حرب مع الفرس في شرق الجزيرة العربية لأن هذه القبائل لم تكن أقل تبصراً من الأحباش بنتائج تلك المغامرة غير المأمونة كما يذكر بروكوبيوس (٥٢) ، وكما يذكر المؤرخون المحدثون أنها (صفقة المغبون) (٥٣) ولكنه أرسل البعثة الثانية للإطمئنان على

استتباب الأمور بعد الغزو وكذلك لتجديد الدعوة لقائد عرب وسط الجزيرة للحضور للقسطنطينية وقد رأينا من حديث ننوسوس أنه (قيس) قسم أملاكه بين أخوته ليتفرغ هو لمواجهة العرب الفرس (اللخمين) في شمال شرق الجزيرة العربية لأنه يبدو أن غاية ما كان يسعى إليه جستنيان في تلك المرحلة هو وجود حد آمن بين الاملاك البيزنطية وتهديد اللخمين عملاء الفرس وواضح أن اختيار بيزنطة كان في محله حيث يذكر ننوسوس ان هذا العربي كان مقاتلاً بطبيعته ومن سلالة قواد كما يذكر بروكوبيوس^(٥٤).

ولكن هل أدت السفارات من بيزنطة إلى الحبشة وجنوب الجزيرة العربية ووسطها الغرض منها...؟؟؟... وذلك على ضوء الأحوال السياسية في العالم الشرقي في تلك الفترة.

من الواضح أننا امام ، ليس فقط سفارات من بيزنطة تحت الأكسوميين والحميريين على شراء الحرير من شرق آسيا وتوريده للإمبراطورية ، وبذلك تخرج بيزنطة من دائرة الإحتكار الفارسي لهذه السلعة أو حتى التحالف مع أكسوم وحمير وعرب وسط الجزيرة لغزو فارس ، ولكننا أمام سياسة متكاملة بدأتها بيزنطة بديبلوماسية غاية في التعقيد في تلك الفترة ، كذلك بدأتها بتوقيت مهم جداً لمحاولة تشتيت جهود الفرس ، حيث كان من اللازم للإمبراطورية البيزنطية تأمين جبهاتها الشمالية والشمالية الشرقية ، وكما وجدنا في نص ثيوفانس^(٥٥) أن السفارة الأولى جاءت للحبشة بعد " تجدد الحروب بين الفرس والرومان ، بعد نقضهم معاهدة السلام التي كانت بينهما " .

لقد فتحت الدولة البيزنطية - خصوصاً جستنيان - جبهات متعددة للحرب سواء منها الهجومية ضد الممالك الجرمانية في غرب أوربا ، الدفاعية عن

أطراف الإمبراطورية ضد فارس فى الشرق أو الصقالبه فى الشمال (٥٦) فى الوقت الذى عاصر فيه جستنيان أحد أقوى ملوك فارس هو كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩) ، الذى كان عصره فتحاً لأزهى فترة من فترات الدولة الساسانية حيث استقرت الحالة الدينية ، كذلك ساد الأمن فى بلاده وأصلح النظام الإجماعى والضرائب والجيش (٥٧) ، فكان لزاماً على جستنيان أن يكون أكثر قوة وأكثر حذراً فى مواجهة إمبراطورية بهذا القدر من الاستقرار والإزدهار .

خلاصة

لقد كانت شبه الجزيرة العربية إحدى محطات الصراع الدولى الدائر فى ذلك الوقت بين القوتين الكبيرتين بما تمثله من قوة إقتصادية وبالتالى سياسية تتمثل فى كونها أهم طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب فى العصور القديمة والوسطى ، ولا تقل أهمية لدى الدولة البيزنطية عن مناطق الشمال والشرق من الإمبراطورية . وبغض النظر عن أهميتها فى حد ذاتها لبيزنطة إلا أنها فى الوقت نفسه مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب وصولاً إلى مصر ، أهم ولاياتها فى ذلك الوقت من الناحيتين السياسية والعسكرية فضلاً عن الناحية الإقتصادية .

لقد كان يؤلم القسطنطينية أن يسيطر الفرس على الطريق الرئيسى للحريز القادم من الصين عبر وسط آسيا ، وأيضاً تحكم التجار الفرس فى كميات الحريز المتجهة إلى بيزنطة عبر البحر الأحمر ، وكانت سيادة فارس على تجارة الحريز براً وبحراً تسبب مشكلة كبيرة لبيزنطة ، وكانت أكسوم تتحكم بموانئها خصوصاً أدوليس فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر الذى كانت الإمبراطورية البيزنطية تمتلك القسم الشمالى منه ، وكان البحر وما يحاذيه على ساحله الشرقى يمثل واحداً من

أهم الطرق التجارية الرئيسية آنذاك وان لم يكن أهمها على الإطلاق (٥٨) ، فكان لازماً على بيزنطة أن تعمل على تحسين علاقاتها بالأمم الموجودة على طرفى مدخل البحر الأحمر من الجنوب .

كانت العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية وأكسوم لا تحكمها فقط المصالح الدينية ، بل لأن كلاً منهما كانت له مصالحه الخاصة فى تلك المنطقة (جنوب الجزيرة العربية) والتي تتفق مع بعضها فى أغلب الأحيان ، وكانت أحداث جنوب الجزيرة العربية من اضطهاد للمسيحيين ، سبباً مباشراً للعمل سوياً من أجل تحقيق هذه المصالح التى كانت الجهود العسكرية الحبشية - البيزنطية ، إحدى الوسائل خلال الربع الثانى من القرن السادس ، ويبدو مع إدراك جستنيان أن الأسباب المعلنة للسفارات من محاولة تغيير مسار تجارة الحرير أو غزو فارس نفسها أو أراضى العرب اللخميّين لم يكن أكثر من فتح أبواب للصراع الإقتصادي بينه وبين الفرس حتى لا يضيع منه خط تجارة باب المندب ويذهب للساسانيين وكانت السفارات حلقة من سلسلة الصراع الإقتصادي بين بيزنطة وفارس الذى اتخذ فى فترة سبيل الدبلوماسية وفى فترة ستار الدين وفى ثالثة الصراع المسلح .

لقد كان من اللازم لبيزنطة تأمين المدخل الجنوبي للبحر الأحمر بعد اتساع التجارة وتدفقها فى هذا الشريان الحيوى الذى حدا بجستنيان إلى إنشاء نقاط للمكوس فى شماله فى كل من القلزم وأيله وجزيرة Iotabe (تيران) فى مدخل خليج العقبة ، وكما كان على جستنيان تأمين المدخل الوحيد للبحر الأحمر كان لازماً عليه تأمين ساحله الشرقى حتى لا تصل إلى شرق الجزيرة يد الفرس كما حدث من قبل (حملة سابور الثانى بعد وفاة قسطنطين مباشرة) * ، ولم تكن

دعوة (قيس) قائد العرب المعدين إلى بيزنطة ، وتعيينه فيلارخوس على إقليم فلسطين الثالثة بعد تقسيم مناطق نفوذ وسط الجزيرة بين أخويه الإثنين كما ذكر فوتيوس في حديثه عن بعثة ننوسوس بالشبيء الجديد فى السياسة البيزنطية ، ولكنها إجراء من مجموعة إجراءات لتأمين الأملاك الرومانية فى غرب الجزيرة وساحل البحر الأحمر فقد سبق وعين ليو الأول (٤٥٧ - ٤٧٤) أحد العرب الآبقين من سلطنة الفرس قبل ذلك بعد مناورات عدة أخذت سنوات معه ، عينه فيلارخوس على تلك المنطقة وحاكماً على تلك الجزيرة الهامة (Iotab) وجابياً لمكوسها (٥٩) .

وليس هناك دليل على أن فكرة مهاجمة فارس أو أرض العرب الفرس اللخميين فكرة غير صائبة أكثر من أنه عندما سير حاكم اليمن الحبشى الذى دعتة المصادر بإسم Abramos والذى يذكر بروكوبيوس (٦٠) أنه بنى قوته فى سرية تامة واعدأ جستنيان بمهاجمة أرض فارس ولكن بمجرد سير الحملة عادت من وسط الجزيرة بعد فشلها قبل وصولها إلى أرض فارس فى الشمال . وبناء على حديث بروكوبيوس يمكن أن تكون تلك الحملة جزءاً من تخطيط بيزنطة لغزو فارس .

ومن المحتمل أن سير الحملة لم يكن وفاءً لوعده Abramos هذا لجستنيان : حيث رأى هذا الحاكم - معتمداً على قوته - أن بيزنطة تسيطر على البحر الأحمر بأسطولها الموجود فى القلزم وأيلة وتيران ، وفارس بسفنها فى الخليج العربى والمحيط الهندى حتى سيلان وبموقعها على الطريق البرى عبر وسط آسيا ، فأقدم على البحث عن طريق يخصصه له فكانت حملته تلك ليكسب طريقاً وسط

الجزيرة العربية وهو الطريق القديم الذي كان يبدأ من صنعاء ويتجه شمالاً ليمر بالمدن الرئيسية كالطائف ومكة ويثرب إلى دمشق (٦١) .

لم تخف الجهود الدبلوماسية تلك بين بيزنطة وأكسوم وشيوخ القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية عن السياسة الفارسية ، خصوصاً مع تقديرهم خطورة الإمتداد البيزنطى إلى قرب حدودهم الجنوبية الغربية ، لذلك لم يقنعوا باحتكارهم السلعة الرئيسية وطريق التجارة وسط آسيا وحصولهم على الجزيرة السنوية (٦٢)

لكن نجد أن هناك وفوداً فارسية حضرت لليمن عام ٥٤٢ - ٥٤٣ (٦٣) . على أى الأحوال فإن الفرس ظلوا يحتكرون تجارة الحرير حتى منتصف القرن السادس الميلادى حتى تمكن الإمبراطور جستنيان من الحصول على بيض دودة القز وبذور شجر التوت عن طريق راهبين مسيحيين توغلا إلى وسط آسيا حتى مملكة خوتان Khotan ووصلا إلى القسطنطينية يحملان سر دودة القز وبيضها فى عكازيها الأجوفين (٦٤) فأقام بذلك أساساً لصناعة بيزنطية للحرير .

وعقدت معاهدة سلام بين بيزنطة وفارس عام ٥٦٢ لمدة خمسين عاماً اتفق فيها أن يترك للطرفين مالهما من أراضى قديمة ، وأيضاً حرية التجارة بين فارس وبيزنطة ، وحرية الديانة ، وعدم التبشير بين الطرفين فى أى من الدولتين ، ثم تحديد نقاط المكوس على التجارة فى الدولتين (٦٥) .

الحواشي

- ١ - عن السلع وطرق التجارة من جنوب الجزيرة العربية إلى بلاد الأنباط :
انظر : مصطفى كمال عبد العليم : تجارة الجزيرة العربية مع مصر في المواد العطرية في
العصرين اليوناني والروماني .
مجلد تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ، ١٩٨٤ ، ص ٢٠٢ .
- ٢ - عن حالة الأنباط آنذاك عند إنتعاش التجارة بعد معرفة الإستفادة من الرياح
الموسمية.
أنظر : Pliny : N.H. VI,100;104 .
Prepl. : 57.
وأصبحت السفن المحملة بالعطور والتوابل تصل مباشرة إلى موانئ مصر في الأوقات
المناسبة ، ومن هناك يمكن نقلها إلى البحر المتوسط .
أنظر :
Bowersock, G.W. : Roman Arabia, London, 1983, P. 21 .
- ٣ - Strabo : XVII .1.45 .
- ٤ - Groom, N. : Frankincense and Myrrh, London , 1981 , P. 210 .
عن الرحلة من مصر إلى الهند
انظر :
Strabo : XVII.13 .
Pliny : N.H. VI.26.102 -3 .
ويبدو أن تراجان فكر أيضا في ربط الأنباط بمصر وذلك عبر صحراء سيناء
- Warmington, E.H. : The Commerce between The Roman Empire and
India , Cambridge, 1928,P97 .
وأن ذلك قد تم بحفر قناة تراجان بين البحر الأحمر من نقطة على خليج القلزم إلى النيل.
- ٥ - عن حجم التجارة بين مصر والهند انظر : Strabo : XVII.I.13.
عما تنفقه الإمبراطورية في سلع الرفاهية من الصين والهند والجزيرة العربية .

أنظر : Pliny : XII.14.84.

Pliny : VI.26.101 عما تدفعه الإمبراطورية في تجارتها مع الهند أنظر

٦ - جورج حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٠٠-١٠١

Bury, J.B. : History of the Later Roman Empire, New York , 1958, II, PP. 216-21.

٧ - عن نشاط أكسوم في البحر الأحمر والمحيط الهندي أنظر :

Procopius : Persian War : I.XIX.

John Malalas : Chronographia, XVIII.456-9 .

Amm. Marc: Res Gestae, XXIII .6.10-11; 45-6.

ذكر أن الخليج الفارسي كان يعج بالملاحة

وذكر Groom, N. : Frankincense P. 173.

ان السلع المستوردة من خارج الجزيرة العربية كانت تمثل نسبة كبيرة من حجم التجارة في شرق الجزيرة ، وخصوصاً عمان ، ويذكر أنها كانت تفرغ حمولتها في موانئ الخليج العربي في شرق الجزيرة وعمان ويتم نقلها وتخزينها في مخازن عليها حراسة وتضاف إليها السلع المحلية حين تصديرها .

Musil, A. : The Northern Higaz , A topographical Itinerary , New York, - ٨ 1926, P. 306.

* من الممكن أن يكون جنوب الجزيرة العربية له دور في التجارة في ذلك الوقت رغم عدم وجود النشاط العربي الواضح في شمال البحر الأحمر ، حيث لاحظ الحاج الصيني فا - هن وجود التجار السبئيين Sa-Bo في سيلان .

انظر الطبري : ج ٢ ، ص ٨٢٠

انظر حوراني : المرجع السابق ص ٩٢ - ٩٣ ، حاشية (٤٠) .

كانت التجارة القادمة من جنوب شرق آسيا وشرق أفريقيا تتجمع في عدن التي كانت تعرف بإسم (المخزن الروماني) ومنها تنقلها السفن الحبشية والبيزنطية إلى القلزم ومنها إلى النيل عبر القناة التي تربط خليج القلزم بالنيل ثم إلى البحر المتوسط أو إلى أيلة على رأس خليج العقبة ومنها إلى دمشق ماراً بالبتراء وبصرى إلى الساحل .

انظر : رأفت عبد الحميد : بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ١٥٧ .

ويذكر John Malalas : Chro . P. 433 انه كان هناك ليس القليل من التجار البيزنطيين يذهبون إلى أكسوم عن طريق أيلة وخليج العقبة أو من الإسكندرية ، بل أن بعضهم كان يركب سفناً حبشية إلى الهند .

Bury, J.B. : History of the Later Roman ... PP.316-333.

انظر أيضا : رأفت عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ حوراني : ص ٩٦ .

* عن فارس وتهديد التجارة والطريق الشمال الأقصى الذي يعتمد على الهدوء النسبي بين تلك الأمم وطريق البحر الأحمر الذي تتحكم فيه أكسوم . كذلك عن الطريق الشمالي (طريق الحرير) .

انظر : Warmington, E.H. : The Commerce Between The Roman Empire and India, Cambridge, 1928, P.22-28 .

Runciman ,S. : Byzantine Civilization , London , 1961 , P. 163 .

Heyd, W. Histoire du Commerce du levant au Moyen - age .

Leipzig , 1885,I, pp. 1-24.

* الذي ضمن كتابه عن الحروب الفارسية قسماً قصيراً عن الأحداث والأماكن حول البحر الأحمر حيث يلقي عليها ضوءاً قوياً انظر حوراني : ص ٩٥ .

Cosmas : II. 140 .

Cosmas : XI . 337-8 .

Procop . : Persian War , I, XX, 9-13 .

Bury, J.B. : History of the LaterII,PP.316-321.

Runciman, S. : Byzantine Civilization ... P. 165 انظر أيضا

Procop . : Persian War : I, XIX.5-7.

Antonius Martyr : Die Locis Sanactis , Itinera, Hierosolynitana , Tobler, Molinier, I.P.113;116 .

Procop . : Persian War, I,XIX.1-16 .

١٧ - السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٨٨ .

١٨ - رأفت عبد الحميد : المرجع السابق ص ١٥١ .

١٩ - الحيمى الحسن بن أحمد : سيرة الحبشة ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٤٨ .

٢٠ - Philostorgius: The Ecclesiastical History, B.III,Ch.4. as Epitomised by Photius, Parriarch of Constantinople .

* تسجل لنا المصادر سفارة من أوائل القرن الثانى ، ولا نستبعد أن تكون من أجل الحرير حيث ذكر ان تراجان (٩٨-١١٧) بعد عودته إلى روما حوالى عام ١٠٦ م قابل عدة سفراء من البرابرة كذلك تذكر سفارة من الهند ، وكان طريق الحرير خلال بارثيا قد أغلق وتحصل روما عليه فى ذلك الوقت عن طريق المحيط الهندى انظر:

Warmington, E.H. The Commerce... P.95 .

عن طريق الحرير فى عصر تراجان انظر : Warmington: P.137

عن طريق الحرير البرى من الصين للإمبراطورية انظر :

Warmington: iloid P.155 .

وقبل ذلك كان الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) قد توصل فى أواخر القرن الثالث الميلادى إلى إتفاق مع الملك الفارسى نارسيس (٢٩٢-٣٠٣) (بحيث تصبح مدينة نصبين الفارسية هى السوق الرئيسى للحرير المستورد من الصين ومنها يصدر إلى مدن الإمبراطورية .

انظر : Divornik F.: Origin of the Intelligence Services, New Jersey, 1974; P.168.

٢٠ - Divornik, F. : Origin of the Intelligence Services , New Jersey, 1974, P. 164 .

* يبدو أن السفارات من الإمبراطورية الرومانية لم تكن غريبة على الحبشة وجنوب الجزيرة العربية لأن البعثات التبشيرية لم تنقطع طوال القرن الرابع حيث وصل خلال هذا القرن تسعة من رجال الدين قادمين من الدولة الرومانية الشرقية لتنظيم عبادات الدين الجديد وترجمة الكتب اللازمة .

انظر : الحيمى الحسن بن أحمد : سيرة الحبشة ... ، ص ٥٠ .

٢٢ - رأفت عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ١٥٠-١٥١ .

٢٣ - Theophanes : Chronographia, AM 6064.

* عمل جوليان كـ *agens in rebus* وهى وظيفة يمكن أن يطلق عليها الآن وظيفة إستخبارية .

** اختلفت المصادر فى إسم ملك أكسوم .

أطلق عليه ثيوفانس إسم *Arethas* أو *Kaleb*

هذان إسمان عربيان " الحارثة " و " كلب " ، وكان العرب يطلقون لقب ملك فى كثير من الأحيان على شيوخ مجموعات القبائل ، حيث نجد ذلك كثيراً فى النصوص الأثورية التى تشير إلى هؤلاء الشيوخ ، و كلب و كليب من أسماء الأفراد ، و كلاب إسم قبيلة كانت رفيعة الشأن كما يظهر فى شعر العرب فى الجاهلية .

من المحتمل أن يكون هناك تجاوز عن طريق الإشارة إلى ملك عربى معدى تابع للحبشة على أنه الملك الذى يمثل أثيوبيا فى المنطقة خصوصاً أنه ذكر فى نفس النص "الملك الفارسى" للدلالة على الملك الحميرى التابع للفرس ، كذلك ذكر فى نفس النص أن (*Arethas*) بدأ مباشرة فى الحشد وبدأ الحرب بالتحرك ضد الفرس وأرسل للعرب الذين عملوا تحت قيادته .

ومن المحتمل أن (*Arethas*) هذا هو الذى ظهر فى نص سفارة ننوسوس - الذى سيأتى ذكره بعد ذلك - إنه جد قيس الذى كان قائداً لإثنين من القبائل العربية المشهورة (الكنديين) و (المعديين) .

أو يكون الحارثة أو (كلب) شخصية ذات مركز رفيع فى البلاط الحبشى ، ليس ملك أثيوبيا ولكنه ممثلاً لملك أثيوبيا أو نائبا لملك أثيوبيا وموكل إليه مقابلة السفير جوليان الذى كان هو الآخر سفيراً (فوق العادة) .

- أطلق عليه ننوسوس *Elesbaas* .

- أطلق عليه بروكوبيوس *Hellestheaeus* .

- أطلق عليه كوزماس *Elesbaan* .

*** ذكر ثيوفانس بعد ذلك نقلاً عن جوليان مظاهر إلاستقبال فى البلاط الأثيوبى ومراسم استلام الخطاب .

*** يفترض بيورى .

Bury, J.B. : The History of the Later Roman Empire, , New York, 1952 , II, P. 324 N.1.

إن تلك البعثة كانت فى عام ٥٢٤ - ٥٢٥ فى عهد جستين (٥١٨-٥٢٥) استناداً إلى نقش حميرى وجد فى حصن الغراب يبدو أنه يسجل هذه الحوادث حيث يحى ذكرى غزو أكسومى وهزيمة وموت الملك الحميرى .

Nonnosus : Hist. Gr. Min. I. 474-475 . - ٢٤

Nonnosus : Bibliotheca of Photius,3 . - ٢٥

* يذكر فوتيوس أن ننوسوس ربط الرياح الموسمية فى الأراضى العالية لأثيوبيا مع فيضان النيل وكانت حساباته فى ذلك أكثر دقة من أى من الكتاب الكلاسيكيين .

** كان غربياً على بيزنطة هذه التصرفات فقد كانت لا تسمح للعرب بزيارتها إلا فى حدود .

Malchus : Ex Historia Malchi Rhetoris Philadelphensis , Excerpta

De Legationibus Gentium AD Romanos, 1-2 .

Cosmas : II , 140 - 141 . - ٢٦

* يذكر ناشر حديث كوزماس :

Crindle, J.W. : The Christian Topography of Cosmas, An Egyptian Mank, London , 1894 , P.55-56,n.3 .

إن Elesbaan ملك أكسوم هذا ، قد هزم مملكه الحميريين فى تلك الحملة التى ذكرها كوزماس ، هزم (ذو نواس) ملك إليهود الذى أصاب المسيحيين بعذاب رهيب وقد عرف Elesbaan هذا بإسم آخر هو (Caleb) ومجده العرب والإغريق والأثيوبيين وقد ذكر عنه (ننوسوس) وآخرون كذلك ذكر أن إسم الملك فى نسخة الفاتيكان (Ἐλλαίξοβαά) .

٢٧ - انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١ ، ص ٢٥٣ .

ابن هشام : التيجان فى ملوك حمير ، ص ٣١٢ .

السيرة ، ج ١ ، ص ٣١ .

ابن قتيبة : المعارف ، ص ٦٣٧ .

إليعقوبي : تاريخ إيلعقوبي ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

الأزرقى : أخبار مكة ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

ويلاحظ أن المصادر العربية تؤكد حدوث وتاريخ السفارة الأولى التي كان السفير فيها هو جوليان .

انظر : رأفت عبد الحميد : المرجع السابق ص ١٥٢ .

٢٨ - Procop . Persian War : I, XX,4-13 .

* سنرى بعد ذلك أن هناك عداء قد بدأ بين نجد وحمير بعد تنصيب ملك حميرى من قبل أكسوم .

٢٩ - Cosmas : II, 140-141 .

* كتب كوزماس فى عام ٥٤٧ وذكر أنه كان فى أدوليس منذ خمسة وعشرين عاماً وكانت هناك استعدادات للحملة .

** كان جوليان سفيراً فوق العادة إذا صح هذا التعبير حيث أنه كان من مجموعة الإستخبارات كما نطلق عليها حديثاً ، كان أحد الـ *agens in rebus* لذلك أرسل ومعه الأخبار الأكيدة بتحريك السفن البيزنطية من الموانئ المذكورة وعلى ذلك بدأ الملك الأثيوبى بالتحرك .

٣٠ - يذكر مخطوط استشهاد الحارث (Acta Sanactae Arethae) .

أن الملك الأكسومى لأجل استعداده للحملة استعد بالسفن التجارية واستعان (أمام جزيرة فرسان) بخمس عشرة سفينة من أيله وعشرين من القلزم وسبع من برنيكى واثنين من جوتاب وسبع من فرسان نفسها وتسع من الهند

انظر Johnson, A.Ch. : Byzantine Egypt : Economic Studies, London, 1944, P.138

٣١ - يذكر آرثر كريستنسن : إيران فى عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، بيروت ، ص ١١٦ ، أنه فى عام ٥٢٣ ، حين أراد ملك الحبشة محاربة سكان بلاد الحجاز ، أعد بجانب سبعمئة سفينة شيدها لهذا الغرض ستمائة سفينة رومانية وفارسية .

٣٢ - رأفت عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

٣٣ - Euseb. Hist. Eccl, V, 16

٣٤ - عن اشتغال إلهود بالتجارة فى تلك الفترة انظر :

Heyd ,W. : Histoire ,.... I, pp.125-8.

Procop. : Persian War, XX,1-2 .

- ٣٥

John Malalas : XVIII,433-434 .

Cosmas : II, 140-141.

* وهو الذى أطلق عليه فى المصادر الكلاسيكية إسم (Ἑσιμιφάιος).

انظر على سبيل المثال : I,XX,1 : Procop.

وأطلق عليه فى كثير من المصادر العربية إسم السميعف.

** لأنه بعد فترة استولى حاكم أثيوبى من قبل أكسوم على اليمن وهو الذى تسميه المصادر

القديمة Abramus .

انظر على سبيل المثال : I,XX,13 : Procop. Pers. War وأطلقت عليه المصادر

العربية إسم (أبرهة)

انظر على سبيل المثال الطبرى : ج ٢ ، ص ٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ،

١٥٤ .

Procop. : Pers. War , I, XX,10.

- ٣٦

٣٧ - عن تقسيم وتسمية تلك المناطق فى شمال الجزيرة العربية انظر :

Musil, A. : The Northern Hegaz, A Topographical Itinerary, New Yourk,

1926, App.III;IV,PP .

انظر أيضا :

Al-Wahaibi, A. : The Northern Higaz in the Writings of the Arab

Geographers, 800-1150,Riyadh, 1973,P.

Procop . : Persian War, I,XIX,5-7.

* نلاحظ أنه لم يذكر عند أى كاتب تحديداً تجارة الحرير سوى عند بروكوبيوس فى هذا النص

Procop. : Pers. War : I.XX.

- ٣٩

* من الممكن أن يكون حديث بروكوبيوس عن السفارة واختلاط الأمر عليه نتيجة أنه (سمع) ذلك من أحد ، لأنه قبل ذلك في حديثه عن شمال البحر الأحمر ووصفه لخليج العقبة وجزيرة lotabe (تيران) يذكر (ὥσπερ μοι εἴρηται) عند ذكره أن العبرانيون قد سكنوا الجزيرة منذ أمد بعيد ، ويبدو أنهم كانوا قد سكنوها منذ خروجهم من اليمن وتفرقهم بعد الهجوم الحبشى على ذى نواس الحميرى

** حورانى ص ١٠٢-١٠٣ .

٤٠ - Cosmas : II , 140-141.

٤١ - John Malalas : XVIII.456-59.

لكن يضيف مالالاس أنه (السفير) طلب إلى الأحباش أن يأتوا بالسلع عبر أراضي حمير التى يحكمونها

٤٢ - Shahid, I . : Byzantium in South Arabia, P.25.

٤٣ - رأفت عبد الحميد : بيزنطة ص ١٥٩ .

* Martyrdom of st. Arethas (انظر حورانى ص ٩٦) .

٤٤ - تعددت الروايات فى المصادر العربية :

ويذكر كلاً من : ابن هشام ، التيجان فى ملوك حمير ، ص ٣١٢ .

ابن قتيبة : المعارف ، ص ٦٣٧ .

إليعقوبى : تاريخ إليعقوبى ، ج ١ ، ص ١٩٩ إن اسمه دوس بن ثعلبان واستنجد بملك الحبشة والبعض الآخر يذكر أنه ذهب إلى الإمبراطور البيزنطى انظر :

ابن هشام : السيرة ج ١ ، ص ٣١ .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١ ، ص ٢٥٣ .

أما الطبرى : ج ٢ ، ص ١٠٦ فيورد الروايتين .

الأزرقى فى أخبار مكة ج ١ ، ص ١٣٥ . يذكر أن ثعلبان لما ذهب إلى القسطنطينية أرسلها الإمبراطور إلى الإسكندرية وهى الرواية التى تتفق مع مخطوطة استشهاد الحارث .

٤٥ - Procop : Persian War , I,XX,9.

ومن المحتمل أن التنظيم المحكم لنفوذ التجار الفرس فى أسواق سيلان جعلت مساعى جستنيان وأصدقائه الأثيوبيون لإنهاء احتكار الفرس للحريز تبوء بالفشل .

Bury, J.B. : L.R. E. , II , P. 330

انظر :

Ammianus Marcellinus : Res Gestae : XX,6,7.

٤٦ -

وكان عرب البحرين قد عبروا الخليج قبل ذلك عام ٣١٠ واعتدوا على غرب الدولة الفارسية ، وكان عبور سابور وحملته عليهم لتأديبهم حتى أنه دعى بعد هذه الحملة بسابور ذو الأكتاف لأنه - كما يقال - نقب أكتاف الأسرى لربطهم ببعضهم عند أسرهم فى تلك الحملة .

٤٧ - فى سفارة ثيوفيلوس خلال القرن الرابع إلى حمير ، يذكر فوتيوس نقلاً عن فيلوستورجيوس

Philostorgius : The Ecclesiastical History, III,4,as Epitomised by photius, Patriarch of Constantinopole .

إن ثيوفيلوس نجح فى بناء كنيسة ثالثة فى (السوق الخاص بالفرس) .

٤٨ - جواد على ، ج ٢ ، ص ٦٣٢ .

وعن تواجد الساسان فى حمير .

Cosmas : X1,337-9

انظر

Vasiliev A.A. : History of the Byzantine Empire , (324-1453), London, 1984 P. 163

انظر أيضا : السيد الباز العرنى : الدولة البيزنطية ، ص ٨٨ .

Runciman, S.: Byz. Civil. PP - 164- 5

ويذكر

أن الحروب بين جستينان والفرس أوقفت ورود الحرير الذى كان التجار الفرس يحملونه فى الخليج العربى أو خلال أرض فارس إلى محطتى تجارة الإمبراطوريتين عند (نصيبين) فى فارس (ودورا) فى الإمبراطورية البيزنطية ، ومن ثم ينقل ليصنع فى المصانع الموجودة فى صور وبيروت ولم تؤدى محاولته لإبقاء سعره منخفضاً إلا إلى نتيجة واحدة وهى ركود صناعة الحرير فاشترت الدولة المصانع وتحولت تلك الصناعة - بطريقة عرضية - إلى احتكار إمبراطورى .

ويذكر بروكوبيوس 13, XXV, Procop.H.A.,

أن الدبلوماسية البيزنطية حاولت إختراق الحصار الفارسى لتجارة الحرير وذلك بمحاولة

الإلتفاف حول مناطق السيادة الفارسية شمالاً للوصول إلى الحرير الصيني وذلك بأن تتصل بالأتراك في إقليم ما وراء النهر بعد ما استطاعوا توحيد آسيا الوسطى تحت سلطانهم ولكن هذا العمل كان فوق طاقة الدبلوماسية الإمبراطورية .

انظر :

Divarnik, F. : Origins of Intelligence Services, New Jersey, 1974, P.168

Bury, J.B. : History of the Later Roman Empire, II, New York , ٤٩ - 1952, P. 330-32.

Procop. : Persian War, I,XX,9 . ٥٠ -

· رأفت عبد الحميد : بيزنطة ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

٥١ - آرثر كريستنسن : إيران في عهد الساسانيين ، ص ٣٥٧ .

Procop. : Pers. War, I,XX,11-12 . ٥٢ -

Kowar : Byzantium and Kinda p.61 ٥٣ -

انظر : رأفت عبد الحميد : بيزنطة ... ، ص ١٧٩ .

جواد علي : ج ٣ ، ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

Bury, J.B. : LRE . II p 325.

Procop. : Pers. War, I, XX,10 . ٥٤ -

Theophanes : Chronog. AM 6064 . ٥٥ -

٥٦ - عن حروب جستنيان انظر :

السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٦٧-٧٨ .

٥٧ - آرثر كريستنسن : إيران ، ص ٣٤٨ - ٣٥٧ .

٥٨ - رأفت عبد الحميد : بيزنطة ، ص ٩٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ - ١٥٨ ، ١٧٢-١٧٣ .

* انظر حاشية (٤٦) .

Malchus : Ex Historia Malchi....., 1-2 ٥٩ - انظر

Procop. : Pers. War. I,XX,13 . ٦٠ -

٦١ - رأفت عبد الحميد : بيزنطة ... ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

٦٢ - كانت العملة الفارسية تسك من الفضة ، لذلك حرص الفرس على العملة البيزنطية الذهبية .

انظر :

Chirsman, R. : Iran From the Earlist time to the Islamic Coquest , Benguin Books , Paris, 1954, P 341.

أيضا : رأفت عبد الحميد : ص ١٧٠ .

٦٣ - رأفت عبد الحميد : ص ١٨٠ .

Procop. : Gothic War , IV.17 . - ٦٤

Procop. : Pers. War , I , 20 , 13 .

John Malalas : XVIII,456-454 .

حوراني ، ص ١٠٢-١٠٣ .

Theophanes : Chronographia, AM 6055 . - ٦٥

الظاهرة الإثنية : المفهوم واستعمالاته

د. محمد جويلي (*)

مدخل :

تراجع العلوم الاجتماعية مفاهيمها ومواضيعها باستمرار وتبحث عن صيغ لبناء الواقع الاجتماعي ذي المداخل المتعددة والقراءات المختلفة والتحويلات المتسارعة. وقد تكون بعض المفاهيم - في ظلّ هذه التحويلات - غير قادرة على فهم الواقع الاجتماعي وتحليل معطياته وتفاعلاته بل وحتى إعطاء تعريف له . من هنا هذا السعي الذي قاد العلوم الاجتماعية إلى إعادة التفكير في أدواتها وموضوعاتها ومناهجها .

في علم الاجتماع يتمّ الحديث اليوم ، "علم الاجتماع تحت الضغط " وهو عنوان مقال اختتمت به المجلة الفرنسية " الكراسات العالمية لعلم الاجتماع " انطولوجيتها بمناسبة مرور خمسين سنة على بدايتها سنة ١٩٤٦ ، ويشير هذا المقال لفكرة الضغوطات الجديدة التي يواجهها علم الاجتماع وهي ظواهر العولمة الاقتصادية والتشظى الثقافي الاجتماعي وأخيراً صعود الفردانية المتنامي^(١) . وكان السؤال المركزي هو : كيف سيعيد علم الاجتماع قراءة هذه الضغوطات وتأويلها ؟ وهل له القدرة على معاينة معطيات بدا وكأنه يلهث وراءها بحثاً عن شرعية تعطيه مبرر وجوده وتواصله في سياق بدأت فيه اختصاصات أخرى تشاركه مواضيعه "التقليدية" ؟

(*) باحث في علم الاجتماع ، بالجامعة التونسية.

(1) Michel WIEVIORKA. La sociologie sous tension. in cahiers Internationaux de sociologic. volume 101, 1996.

هذا اللهاث وراء معطيات معقدة ،ومتسارعة دفع بمجلة كندية هي "علم الاجتماع والمجتمعات" Sociologie Sociétés فى أخذ أعدادها إلى أن تقترح على علم الاجتماع أن يمتلك "نفسا ثانيا" un second souffle ليواصل تصديه لتعقيدات الواقع الاجتماعى المتسارعة^(٢) . ولا يعنى هذا النفس الثانى تجديد علم الاجتماع لمواضيعه فقط بل يعنى أيضاً عملية تفكير نظرى وإبستمولوجى فى مفاهيم البنية والفاعل والثقافة وغيرها.

فى الأنثروبولوجيا وقعت مراجعة لعدد المسائل منها ما يهم الموضوع الأنثروبولوجى ذاته الذى لم يعد وفيما لمرحلة التأسيس وانتقل من المجتمعات المسماة "عجائبية" "وتقليدية" إلى المجتمعات الغربية نفسها فلا نستغرب اهتمام الباحث الأنثروبولوجى بمترو باريس^(٣) أو بجمهور كرة القدم فى مرسيليا وميلان^(٤) أو بطقوس عروض الأزياء فى روما. ولم تعد الآخرة كمفهوم تبنى عليه الأنثروبولوجيا تقتصر على الآخرة البعيدة المحببة لأجيال من الباحثين والتي أعطتهم فضاءات خاصة بهم داخل الاختصاص، إذ ظهرت الآخرة القريبة كتحول نوعى فى بناء الموضوع الأنثروبولوجى حين يهتم الباحث بمواضيع له معها تداخلات عديدة وقراءة يومية.

إنّ أحد المفاهيم التى تم تجديدها فى الأنثروبولوجيا وإخضاعها لعمليات تفكير وإعادة بناء هو مفهوم "الاثنية" L'ethnicité الذى تقف وراء اختيارنا له مبررات لعل أهمها :

(2) Sociologie et sociétés, volume xxx, n°1, printemps, 1998.

(3) Marc AUGE, un ethnologue dans le metro, Paris, Editions Hachette, 1991.

(4) Christian BROMBERGER, Le match de football, ethnologie d'une passion partisane a Marseille, Naples et Turin. Paris, Maison des sciences de l'homme, 1995.

- الغموض الكبير الذى يحيط بالمفهوم من حيث تغطيته لوقائع متباينة ومن حيث احتراز الأنثربولوجين من استعماله.

- اقتراب المفهوم وتداخله مع مفاهيم مجاورة له مثل مفهوم القبيلة والأمة والعرق.

- لم يغب مفهوم الجماعة الاثنية عن الاهتمامات السوسيولوجية وماكس فيبر أول من كتب عنه.

- اقتران المفهوم بما يسميه "سميث" بـ "الصّحوة الاثنية" ما يستدعى مفهوما آخر هو مفهوم "الهوية" خصوصاً حين ينظر للعلاقات بين الأفراد والمجموعات استناداً إلى مرجعيات عرقية تتحصّن وراء قلاع ثقافية ثابتة وإقصائية نتيجتها الدرامية ذاك العنف غير المتوقع لهذه العلاقات. فتصبح "الاثنية" محددة فى بناء الفعل الاجتماعى.

- ظهور ما يدعى بـ "الاثنيات الجديدة" Les nouvelles ethnies داخل المجتمعات الغربية نفسها مستندة إلى مرجعيات جديدة لا علاقة لها ضرورة بالقرابة والأصل واللغة والدين ، إنها تشكيلات انبثت على انتماءات مختلفة قد تكون جماعات المهاجرين أو جماعات المافيا أو جماعات الجنسية المثلية أو طوائف عبدة الشمس وغيرها.

يسعى هذا المقال إلى محاولة تتبع مفهوم "الاثنية" من حيث محتوياته واستعمالاته منطلقاً مما يتداول عند الأنثربولوجيين على أنه تفكيك للموضوع الإثنى La déconstruction de l'objet ethnique أما إعادة صياغة المفهوم فهى تعنى أن :

(١) الاثنية بناء اجتماعى

(٢) الاثنية تفاعل رمزى

(٣) الاثنية تنظيم اجتماعى

١ - "الإثنية" : محاولة للتعريف

١-١ المعنى الايتمولوجى

يعود لفظ " الجماعة الإثنية " Une ethnie أو مفهوم " الظاهرة الإثنية " L'ethnicité إلى جذور يونانية نجدها فى كلمة "إنتوس" . " وإتنوس " عند اليونانيين هى تسمية لوصف الشعوب التى لم تكن منظمة فى شكل مدينة دولة والتى لم ترق إلى المستوى الإنسانى فبقيت شبيهة بالمجموعات الحيوانية فى تجمعاتها وحركتها ، وتسند كلمة "إتنوس" بعد ذلك فى التقليد الكنسى لمن نعتوا بالإحيائيين أى الذين لا دين لهم خلافا للمسيحيين^(٥).

بدأ أصل الكلمة مشحونا بصفات سلبية وإقتصادية ليعاد استعماله مع بداية القرن التاسع عشر بمحتوى عرقى هذه المرة^(٦) ، و يعنى هذا الاستعمال بالأساس اختلاط الأعراق وتداخلها مع ما يخلفه من انحطاط للنوع البشرى.

يختلف استعمال " الجماعة الإثنية " عند الفرنسيين مقارنة بالتقليد الجرماني والأنكلوساكسونى. فعند الفرنسيين تمثل " الجماعة الإثنية " جماعة لغوية بالأساس تنفرد بخصائص لغوية تفرقها عن الجوار. أما فى التقليد الجرماني فهناك تركيز فى تعريف المصطلح على فكرة الشاعر أو الاعتقاد فى الانتماء لمجموعة وهو ما سنجده لاحقا عند ماكس فيبر ، وخلافا لهذين الاستعمالين يميل الاستعمال الأنكلوساكسونى إلى اعتبار " الجماعة الإثنية " أقلية ثقافية^(٧).

(5) Jean Loup-AMSELLE, Article << ethnic >>, in Encyclopedie Universalis, corpus 7.

(6) Ibid.

(7) Taylor A.C. Article << ethnic >>, in Dictionnaire de l'Anthropologie et l'ethnologie, Publié sous la direction de P. BONTE et M. IZARD. Editions. PUF 1991.

لقد بقى مضمون "الجماعة الإثنية" وفيما لأبعاد متصلة بالمجتمعات "الوحشية" مجتمعات اللاتاريخ واللاذوية فى تمايز عن شكل آخر من المجتمعات المسماة متحضرة. وساد هذا التمشى فى الأنثربولوجيا الكلاسيكية طويلا ووجد تطبيقاته فى مجتمعات غير مألوفة تبحث عن مكشفها.

وعلى خلفية هذه النظرة مثلت الإثنولوجيا ذاك العلم الذى يلتفت للمجتمعات "العجائبية" معرّفا بخصائصها ومصنفا لمكوناتها ومحللا لظواهرها الاجتماعية والثقافية^(٨).

٢- المعنى السوسولوجى والأنثربولوجى

٢-١ ماكس فيبر والانتماء الإثنى

يخصص «ماكس فيبر» فى مؤلفه "Economie et société" جزءا للعلاقات الإثنية ويكشفه نصه حرصا على عدم استعمال لفظ "Ethnie" إلا فى دلالاتها الوصفية والنعّية . وقد يكون دافعه الرغبة فى الابتعاد عن الشحنة السلبية والإقصائية للكلمة . وقد تكون أيضا غياب اقتناعه بوجودها فعليا إلا كمشاعر أو كتصورات واعتقادات . ولا تعترضنا فى نصه إلا الاستعمالات التالية : "المجموعة الإثنية: " والشرف الإثنى " والإتفاقيات أو التعارضات الإثنية".

يعطى "ماكس فيبر" التعريف التالى للمجموعات الإثنية نسمى مجموعات إثنية عندما لا تمثل مجموعات قرابة. والمجموعات الإثنية هى هذه المجموعات الإنسانية التى تغذى اعتقادا ذاتيا فى جماعة أصل مرتكزة على تشابهات فى التقاليد الخارجية وفى الآداب أو الاثنين مفا أو ارتكاز على ذكريات متصلة

(8) Guy NICOLAS. Fait "Ethnique" et usages du concept d'Ethnie". In Cahiers Internationaux de sociologie. Volume LIV 1973 p. 96

بتجربة استعمارية أو بهجرة بطريقة يصبح فيها هذا الاعتقاد ضروريا وهاما لنشر تجمع بلدى Communalisation وذلك بقطع النظر عن الوجود الموضوعى لشراكة الدم ... والعيش المشترك "الإثنى" يختلف عن جماعة القرابة. والعيش المشترك "الإثنى" ليس جماعة ولكنه عنصر لتشكيل تجمع بلدى^(٩).

لا يمكن فهم الاعتقاد الذاتى الذى يعده « فيبر » محوريا فى تعريف الجماعة الإثنية دون الالتفات إلى ما يسميه "الشرف الإثنى" وهو شرف جماهيرى مميز لأنه مفتوح لكل الذين ينتمون إلى جماعة أصل يعتقدون فيها ذاتيا^(١٠) ولكن هذا الشرف الإثنى لا يبنى إلا من خلال الإيمان بامتياز قيم هذا الشرف وعاداته وبدونية القيم والعادات الأجنبية .

يقر فيبر بصعوبة التحكم فى مفهوم الجماعة الإثنية لأن مضمون نشاط جماعة على قاعدة إثنية ممكن ولكنه غير محدد^(١١) . ورغم ذلك أمكن تحديد المقاربة "الفيبرية" لمفهوم "الجماعة الإثنية" فى ثلاثة عناصر هى :

١ - الاعتقاد الذاتى فى أصل مشترك الذى انطلق منه "فيبر" فى تعريف الجماعة الإثنية لا يعنى إمكانية البحث عن جذور الظاهرة الإثنية فى ملامح مشتركة بين الأفراد مهما كان نوعها^(١٢) .

(9) Max WEBER, Economie et societe, Editions Plon, 1971 et Editions Pocket, 1995, Tome 2, p 130.

(10) Ibid, p. 133.

(11) Philippe POUTIGNAT et Jocelyne STREIFF-FENART, Theories de L'ethnicite, Editions PUF, Paris 1995, p. 41.

(12) Ibid, p41.

٢ - يتم البحث عن جذور الظاهرة الإثنية فى الأنشطة المتصلة بانتاج الاختلافات ورعايتها وتعميقها. وهذه الاختلافات ذات الحضور الموضوعى لا يمكن تقييمها باستقلالية عن الدلالة التى يسندها الأفراد لها فى مسار علاقاتهم الاجتماعية . وحينها ينظر للظاهرة الإثنية كبناء اجتماعى فى وضعية إشكالية دائمة (١٣).

٣ - تبنى الهوية الإثنية عبر الإختلاف ، وينظر لهذا الاختلاف كمسار تواصلى بين من يعتقد فى انتماء يميزه عن الآخرين وبين هؤلاء الآخرين الذين يعدون كأجانب .

ولأن هذا الاختلاف هو مسار تواصلى فإن الإنكفاء حول الذات لا يخلق هذا الشعور أو الاعتقاد فى الانتماء الإثنى. ويبرز هنا مفهوم الحدود الإثنية التى يضعها الأفراد كل مرة ليعرفوا أنفسهم ويعرفوا من هو فى عددا الآخرين (١٤).

تصور "فيبر" للظاهرة الإثنية مشروط بحضور التحليل التاريخى والسوسيولوجى للوعى وللاعتقاد الذى تحمله المجموعة البشرية حول نفسها وحول محيطها فى زمن معين ومكان محدد . وهذا التصور مرتبط بالظاهرة الإثنية كبناء اجتماعى مستمر يستدعى تأويل عناصر الانتماء ومضامين الاعتقاد فيها ومن ثمة إعادة تأويلها كلما اقتضت الضرورة .

٢-٢ الظاهرة الإثنية موضوع انتروبولوجى

تبدو القرابة اللغوية بين "إثنية" و"اتنولوجيا" مؤثرة فى تعريف الموضوع الأساسى لما يسمى فى التقليد بـ "الأتنولوجيا" Ethnologie ويتجه موريس

(13) Ibid, p 41 .

(14) Ibid, p 42 .

لينهارت إلى تعريف الإثنولوجيا بأنها علم الإثنيات (١٥) .، وأوجدت "الإثنولوجيا لنفسها مجالات بحث وبحث موضوعها في اتصال مع مجتمعات إثنية خارج المجال الجغرافي الأوروبي وبدت المجتمعات الأفريقية والأسبوية وغيرها المعرف البارز لهذا الاختصاص العلمى . أما الاتنوغرافيا وهى المرحلة الأولى من الاتنولوجيا فقد اعتنت بتجميع المعطيات وتصنيفها ميدانيا ارتكازا على مفهوم الجماعة الإثنية الذى تم تبنيه ، ولكن الفاعلين الذين صنعوا هذه المعرفة العلمية كانوا من مشارب عدة منهم الإدارى المتصل بالدوائر الاستعمارية ومنهم العسكرى والحالة ومنهم العلماء ، وهؤلاء جميعاً وبصيغ مختلفة لم يراكموا معرفة حول المجتمعات والثقافات التى تولوا رصدها فحسب بل استعملوا مفاهيم لا تتلاءم مع الواقع الذى تمت دراسته ميدانيا (١٦) .

وبرز مفهوم الجماعة الإثنية كأحد هذه المفاهيم ليغطى وقائع يتم التعبير عنها بتسميات أخرى كالعراق والقبيلة والعشيرة كما يستدعى مفهوم الجماعة الإثنية ليكشف عن خلط فى تقسيم الوحدات الاجتماعية والثقافية والسياسية لهذه المجتمعات مع ما ينتجه هذا الخلط من قراءة متكلسة للواقع فى حين أنه واقع متحرك تتغير داخله لأشياء وفق رهانات الفاعلين الاجتماعيين واستراتيجياتهم .

15 Jean POIRIER, Ethnologie regionale, In Encyclopédia de la pleiade. Editions Gallimard, 1972, p. 3

(16) Jean Loup AMSELLE, L'ethnicité comme volonté et comme représentation, A propos des Peul du Wasolon. In Annales. Economie, Societescivilisation, 42eme Année n ٨ !Mars-Avril 1987, p. 466

سعت الإثنولوجيا "الاستعمارية" الفرنسية منها والبريطانية إلى بناء معرفة حول المجتمعات الأفريقية قائمة على تجارب اتنوغرافية أعطت من الخرائط الإدارية والأطالس والتحديدات الإثنية الشيء الذي سهل على الاستعمار احكام سيطرته على شعوب هذه المجتمعات (١٧) . وتنطلق هذه المعرفة المتنوعة من فرضيات ومفاهيم تنسجم مع التطلعات الاستعمارية ومع تصور هذه الاتنولوجيا لتطور المجتمعات ، وهو ما يفسر إعادة الاعتبار لمفهوم " الجماعة الإثنية" خلال المرحلة الاستعمارية لقراءة المجتمعات غير الأوروبية . وتزامن ذلك مع مرحلة مهمة في بناء الأنثروبولوجيا لمقاربتها ومناهجها ومواضيعها سميت بالتيار التطوري Le courant évolutionniste في القرن التاسع عشر ، وهو تيار في الأنثروبولوجيا يؤكد على أن المجتمعات مرت بمراحل بدأت بالوحشية ثم البربرية وأخيراً وصلت إلى الحضارة ، وعبر كل مرحلة تنشأ المعتقدات والقيم والتقنيات الخاصة بها وتتدعم سيطرة الإنسان عليها إلى أن وصلنا المجتمعات إلى أن وصلنا إلى المجتمعات الصناعية وكان " Lewis H. Morgan أهم رموز هذا التيار الأنثروبولوجي (١٨) . لقد اقترن ظهور التيار التطوري باكتشاف مناطق عديدة مثل إفريقيا وأمريكا الشمالية والجنوبية وجزر المحيط الهادي وأستراليا وارتبط أيضا ب بروز منهجية انتروبولوجية تعتمد الملاحظة والمقارنة النسقية لأنماط الحياة في هذه المجتمعات المدروسة . فوقع نقل مفاهيم المرحلة ليجد

(17) Jean -Loup AMSELLE, Logiques metisses, Anthropologie de l'identité en Afrique et ailleurs, Editions PAYOT, 1990, p.29.

(18) Jean-Fran.cois DORTIER, Les sciences humains, Panorama des connaissances, Editions sciences humains. Janvier 1998. p. 26-27.

الأنثروبولوجى المتأثر بالمقارنة التطورية نفسه أمام مجتمعات أمام مجتمعات وثقافات تأتى فى أغلبها ضمن الحالة الأولى من التطور البشرى ، ولكن الخطأ القاتل الذى وقعت فيه الأنثروبولوجيا الاستعمارية أنها بنت معرفتها حول المجتمعات الافريقية باستعمالها ألفاظاً وتسميات وكلمات لمؤسسات هندو - أوروبية واستنجاها بالفكر السياسى اليونانى القديم^(١٩) . واستنجد الأنثروبولوجيون بالمقولة التى تلخص تصورهم للمجتمعات التى يسمونها بدائية وهى أن البدائيين هم أجدادنا المعاصرون . وعلى هذه الخلفية يحضر مفهوم « الجماعة الإثنية » Ethnie بمضامينه القديمة قصد قراءة واقع مختلف عن واقع مختلف عن واقع المجتمعات الأوروبية ، ويظل الأهم من ذلك أن تحديد نطاق « الجماعة الإثنية » أى ضبط حدودها الجغرافية واللغوية والدينية والسياسية وكل ما يشكل تفاصيلها الأخرى قد أضحى مهمة هذه الأنثروبولوجي التى تولت إخراج شبكة تضم عديد الإثنيات فى إفريقيا وغيرها : فأصبحت " الجماعة الأثنية " ابتكاراً أو إنجازاً استعمارياً بما يتطلبه من مسار كامل لنشأة جماعة أثنية لم تكن موجودة سابقاً^(٢٠) وإنما أوجدتها مصالح استعمارية شتى هاجسها السيطرة على مجموعات وإدماجها فى وحدة اجتماعية تسهل قيادتها فيتغير السؤال أذن من سؤال عن وجود " جماعة أثنية " من عدمه إلى سؤال عن

(19) Jean-Loup AMSELLE. Logiques metisses, op. cit, p 30.

(20) Jean-Pierre DOZON. Les Bete: une creation coloniale, In au cceur de l'ethnie. Sous la direction de Jean Loup AMSELLE et elikia M'BOKOLO, Editions la decouverte, Paris 1985, pp 49-85.

ينفى « جون بيار دوزون » J.P. DOZON وجود وحدة إثنية اسمها « البتي » "Les bété" قبل المرحلة الاستعمارية ويؤكد أن « البيتي » كجماعة إثنية إنتاج وإبتكار استعماري .

الشروط الكامنة وراء ظهورها ونشأتها (٢١) . ويقصد بالشروط كل ما يتعلق بالسياق الذي ظهرت فيه هذه "الجماعة الإثنية" وبالتسميات التي استعملتها لتؤسس كيائها الخاص وبآليات التي تم تشغيلها لتحديد المنتمي وغير المنتمي أو كيف تصبح من أعضاء هذه "الجماعة الإثنية" وكيف تخرج عنها ، وإن وراء هذه الشروط رهانات واستراتيجيات تجعل من "الجماعة الإثنية" مجالا خصبا للصراع ببأشكاله المادية والرمزية بين فاعلين اجتماعيين فتكف عن كونها وحدة اجتماعية مستقرة وثابتة لتبرز لنا كوحدة في حالة ديناميكية وتفاعلية لها تصورات لهويتها وتسعى دوما للحفاظ على حدودها والإبقاء عليها في علاقاتها مع الوحدات الاجتماعية المجاورة .

هذه النقلة في زاوية النظر للجماعة الإثنية كمفهوم وكمارسة أعطت للدراسات السوسولوجية والأنثروبولوجية انطلاقة غير معهودة ، فتقدمت إلى الواجهة تعريفات جديدة لمفهوم "الجماعة الإثنية" تنطلق من فكرة محورية وهي أن التعريف المتداول لهذا المفهوم كما صاغته الأنثروبولوجية الاستعمارية لا يتلاءم مع واقع تمت دراسته من هؤلاء الذين أحدثوا هذه النقلة النوعية للجماعة الإثنية (٢٢) . ويبرز من بينهم "نادال" NADEL ومرسييه MERCIER وبارث F.BARTH المتصلة بأبحاثهم بالفضاءات الإفريقية جنوب الصحراء ، فلم تعد "الجماعة الإثنية" ذلك المعطى المحدد مسبقا وكأنه كيان جاهز لا يتحرك. ولم تصمد التقسمات والتحديدات الإثنية الاستعمارية مرجعا لتعريف الجماعة لتعريف الجماعة الإثنية، فنحن إذا أمام عملية إعادة تعريف للموضوع الإثني

(21) Jean BAZIN, A chacun son Bambara, In au coeur de l'éthnie. Op. cit, p 112.

(22) Jean-Loup AMSELLE, L'éthnicité comme volonté, op. cit, p 466.

تأخذ بالاعتبار البُعد الديناميكي لتشكيل الجماعة الإثنية والبعد التفاعلي الذي يحرك مساراتها والعد الاستراتيجي الذي يعتمد الفاعلون الاجتماعيون عند تعريفهم لذواتهم ولعلاقاتهم بالآخر.

١-٢-٢ فريديرك بارث F.BARTH والحدود الإثنية

يستعمل " فريديرك بارث " مفهوم " المجموع الإثنية Le groupe ethnique ويرى أنه يقدم خدمة للأدبيات الأنثروبولوجية لأنه يضع لها التعريف التالي:
المجموعة الإثنية هي مجموعة بشرية (٢٣):

- ١ - تتواصل بيولوجيا على نطاق واسع.
 - ٢ - تحمل قيماً ثقافية أساسية أنجزتها هذه المجموعة ضمن أشكال ثقافية لها وحدة ظاهرة.
 - ٣ - تمثل مجالا للتواصل والتفاعل.
 - ٤ - تتشكل من أعضاء لهم هوية ويساهم الآخرون في إسنادهم هوية ويمثلون وحدة يمكن تمييزها عن الوحدات الأخرى من نفس النظام.
- يعلق "بارث" على هذا التعريف ويعتبره نموذجاً مثالياً ويُعده تعريفاً غير بعيد عن الاقتراحات التقليدية التي تجمع بين العرق والثقافة واللغة والتي يصبح بموجبها المجتمع وحدة ترفض الآخرين أو تمارس ضدهم إجراءات تمييزية (٢٤).
- ويضيف "بارث" أن الخطر جرأً هذا التعريف هو الاكتفاء فقط بالخصائص

(23) Fredrick BARTH, Les groupes ethniques et leurs frontieres, In theories de l'ethnicite, op. cit, p 206.

(24) Ibid, p 206.

المكونة للمجموعة الإثنية دون الإعتناء بالحدود الإثنية كإشكال يفتح آفاقاً لفهم الظاهرة، فالحدود الإثنية بالنسبة إلى "بارث" مؤسّسة للمجموعة الإثنية وعليها يتركز بناؤها. وهي ليست نتاجاً طبيعياً للإنزواء الذى تفرضه الخصائص المعتمدة فى تعريف المجموعة الإثنية الأخرى^(٢٥). ويدافع "بارث" على فكرة الاشتراك فى ثقافة واحدة - وهي أهمّ خصائص المجموعة الإثنية - ليست مهمّة فى ذاتها. فهذا المعطى - أى الاشتراك فى ثقافة واحدة - هو نتيجة أو خلاصة وليس خاصيّة أولى معرفة ومحدّدة لتنظيم المجموعة الإثنية^(٢٦). هي إفراز لتفعيل الحدود الإثنية.

ويستدعى "بارث" تعريفاً للمجموعة الإثنية كشكل من أشكال التنظيم الاجتماعى. فيُسند فى هذه الحالة أهمية بالغة إلى الركن الرابع فى التعريف المقترح وهي التصنيفات التى يعطيها أعضاء المجموعة الإثنية لأنفسهم واستقبالهم للتصنيفات التى يلحقها الآخرون بهم ويستعمل الفاعلون الاجتماعيون لذلك هويات إثنية لغايات تفاعلية، إنهم يشكلون عبر تبادل هذه التصنيفات مجموعات إثنية بالمعنى التنظيمى^(٢٧).

لا تعمى الخصائص المميّزة للمجموعة الإثنية عند "بارث" تلك السمات الموضوعية التى فى جميعها تشكل الاختلافات البارزة بين مجموعة إثنية وأخرى وما يهّم "بارث" هو ما يعتبره الفاعلون اختلافات ذات دلالة^(٢٨)، ولكن هذه

(25) Ibid, p 207.

(26) Ibid, p 207.

(27) Ibid, p 211.

(28) Ibid, p 24.

الدلالة غير ثابتة ولا أهمية لها إلا ضمن سياق ومصالح ورهانات واستراتيجيات يحملها الفاعلون معهم في علاقاتهم التفاعلية المختلفة. إن بعض الخصائص الثقافية المعتبرة هامة في وجود المجموعة الإثنية تفرغ من مضمونها ودلالاتها عندما يكتشف الفاعلون عدم جاهزيتها وصلوحيتها وجدواها في ظروف أو سياق محدد. تُبنى الاختلافات الإثنية عند "بارث" لذلك هو منشغل أساساً بالحدود الإثنية كمنتج للهويات وبالتالي لهذه الاختلافات. فليس الاختلاف عن الآخر معطى متكلس إنه على العكس ممارسة اجتماعية ومسار ينجزه أعضاء المجموعة الإثنية لحماية حدودهم الإثنية والأبقاء عليها. إن أطروحه "بارث" عن الآخر في النهاية هي أن الحدود الإثنية كشكل تفاعلي هي التي تعطى تعريفاً للمجموعة الإثنية وليست عناصرها وأدواتها الثقافية منظورا إليها ما قبلها. والحدود الإثنية لدى "بارث" لا تعنى بالضرورة حدودا جغرافية، رنما أيضا حدود اجتماعية ورمزية دائمة التشكل والحركة يستنجد بها الفاعلون لمعاينة هوياتهم ومتابعتها فضلا عن بنائها وإعادة بنائها والمفاوضة من أجلها (٢٩).

يدخل بنا "بارث" ومن قبله "ماكس فيبر" مسارا يمنح البعد الذاتى فى بناء الظاهرة أو المفهوم حضوراً لائقاً لأنه ثمة رغبة فى عدم إعطاء قيمة لما يسمى بالمعطيات الموضوعية التى تميز الظاهرة الإثنية، وهذه مقاربة اشتغلت لوقت طويل خلال المرحلة الاستعمارية مؤكدة على أن المجموعة الإثنية أو غيرها من الوحدات الاجتماعية هى نماذج ممكن التعرف عليها بسهولة عبر تحديد سلسلة من الخصائص

(29) Lucette VALENSI, La tour de Babel, groupes et relations ethniques au Moyen-orient et en Afrique du Nord, In Annales E.S.C, juillet -aout, 1986 n° 1 p 829.

المتميزة لها والمتناقلة عبر الأجيال وهى ذات قدرة على تثبيت شكلها. إن المقاربة الذاتية على النقيض من ذلك تتجه أكثر نحو المسارات وشكلها ونحو الشبكات أكثر من المجموعات ونحو الاستراتيجيات بديلا عن الموروثان (٣٠).

٣- الجماعة الإثنية ومفاهيم مجاورة: العرق والأمة

والقبيلة، علاقات التداخل

تتداخل مفاهيم الجماعة الإثنية والقبيلة والأمة تداخلا يصعب إيجاد حدود فاصلة بينها فلا نعرف أين تنتهى حدود الجماعة الإثنية وأين تبدأ حدود القبيلة. ويعاد نفس الشئ بين الجماعة الإثنية والعرق وغالبا ما يقع استعمالهما مترادفين فى حين أنهما يعبران عن واقع متباين الخصائص.

لا تخلو الكتابات عن الظاهرة الإثنية من تعريج على مفاهيم تبدو متقاربة الإستعمال *L'appartenance raciale* ليميزه عن الانتماء الإثنى، فالأول يحضر عند القرابة البيولوجية الفعلية فى حين يتجسد الثانى كجملة من المشاعر والمعتقدات والتصورات ويشارك مفهوم الأمة *La nation* مع مفهوم الجماعة الإثنية فى حملة نفس الخصائص (٣١). ولكن السائد خلال القرن التاسع عشر أن العرق *La race* عُدَّ أحد العوامل المفسرة لما هو اجتماعى وخضعت تصنيفات البشر لمقارنات فيزيائية مثل حجم الدماغ ولون البشرة. وبالرغم من السوسيولوجيا الأنكلوسكسونية لا تهتم الآن بالعرق فى ذاته وتتجه أكثر نحو العلاقات العرقية واستتبعاتها الثقافية والاجتماعية فان التداخل بين المفهومين

(30) Lucette VALENSI, Presentation du numéro: les sociétés plurielles, In Annales E.S.C, op. cit, p 748.

(31) Max WEBER, Economie et société, Tome 2, op. cit, pp 124-125.

لا يزال قائماً لأن مجرد إدخال البعد العرقى فى العلاقات البشرية يثير تأويلات فى الاستعمال ولأن مفهوم العرق بخصوصياته الوراثة هو كذلك بناء اجتماعى (٣٢) . ولا يمكننا الحديث عن حياة فمجرد النظر فى الاختلافات الفيزيائية الوراثة بين البشر وتصنيفهم فى ضوءها هو إمكانية مفتوحة لإلحاق هذه الاختلافات بمستوى آخر هو العلاقات الاجتماعية. وهنا تبرز الظاهرة العنصرية كخلاصة للجمع بين مبدأين أساسيين هما اللاتكافؤ والاختلاف، الأول له حجج بيولوجية والثانى ذو حجج ثقافية (٣٣) . ويشير "آلان توران" معرّفاً الظاهرة العنصرية إلى تلك التصورات التى تحمل عن شعب بعبارة أقل قيمة لاعتبارات طبيعية مستقلة عن فعله وإرادته ويعيش العنصرين Le raciste ذونية هذا الشعب كتهديد له فيتماهى مع قيم كونية ومع ثقافة يعتبرها إيجابية فيسعى بالتالى إلى حماية مجتمعه من هذا التهديد عبر إجراءات إقصائية للطرف الآخر" (٣٤) .

إنّ اللاتكافؤ البيولوجى بين الشعوب ليس حاسماً بمفرده عند بناء الظاهرة العنصرية لأن تكامله مع الاختلاف الثقافى هو الذى يعطى معنى للظاهرة العنصرية التى تتأكد إلا عند الشهور بالتهديد والخوف فتترجم إلى أفعال مواقف. إن العرق موجود من قبل لأنه معطى بيولوجي ولكن العنصرية ظاهرة جديد تأكدت عند الالتقاء بين الشعوب فى إطار المرحلة الإستعمارية خصوصاً ويصفها "آلان توران" بكونها المرض الاجتماعى للحدثة .

(32) Philippe POUTIGNAT, Les theories de l'éthnicité, op. cit, pp 43-44

(33) Alain TOURAINE, Le racisme aujourd'hui. In Racisme et modernité, sous la direction de Michel WIEVIORKA. Editions la découverte. 1993. p 24.

(34) Ibid, p 23.

Une maladie sociale de la modernité (٣٥) هذه الحداثة التي يصعب عليها قبول الاختلاف فتولّه إلى لا تكافؤ (٣٦) .

لقد تأثرت تعريفات المجموعة الإثنية بمفهوم العرق إلى حد لا يمكن تجاهله وثمة من اعتبره أحد عناصر الظاهرة الإثنية. إذ يقدم "بولمر" Bulmer التعريف التالي : المجموعة الإثنية هي مجموعة أفراد أعضاء في تجمع أوسع يشتركون في أصول فعلية أو افتراضية وفي ذاكرة تاريخية وهوية ثقافية ترتكز على عنصر رمزي أو أكثر وقرابة ودين ولغة ومجال مشترك وقومية أو ملامح فيزيائية " (٣٧) يبدو لنا هذا التعريف مدمجا لبعدين هامين هما الثقافة والبيولوجيا في تحديد المجموعة الإثنية أي الانطلاق نحو اعتبار العرق عنصرا مكونا للمجموعة الإثنية وفي هذه الحالة يمنح هذا التعريف اتجاهها نحو تداخل المفهومين وتصبح العنصرية مبنية على تغذية الجانب البيولوجي بعناصر ثقافية وتبرز الفوارق بين الأعراق استنادا على الثقافة .

ويتجلى مسار التداخل بين مفهومي العرق والانتماء الإثني في ما يحمل عن السود من تصورات في ذات الوقت بيولوجية - تعهد على اعتبار العرق الأبيض أفضل جينيا من العرق الأسود - وثقافية لأنه يقع تحويل هذه الأفضلية البيولوجية إلى أفضلية ثقافية تنعت الأسود بأنه كسول وغير ذكي ومنحرف وعلي استعداد دائم لممارسة العنف (٣٨) . تكشف هذه الستيريوتيبات العرقية

(36) Alain TOURAINE, Le racisme aujourd'hui, op. cit p 27.

(37) Blumer, cite par T.K Oommen, In les relations entre race, ethnicite et classe, Revue Internationale des sciences sociales, n ١٢٩ . !Fevrier 1994, p 112.

(38) T. KOOMMEN, Les relations entre races, ethnicite et classe, In Revue Internationale des 39 sciences socilaes, n ١٢٩ . !Fevrier 1994, p105.

المنشرة داخل المجتمعات المتعددة الأعراق عن تداخل مفهومي العرق والجماعة الإثنية بالرغم من أن العرق الواحد يمكن له أن يحتضن مجموعات إثنية متعددة مثلما يحمل أعضاء من عرق ما اختلافا في الديانة واللغة ونمط العيش^(٣٩). إن عدم التفريق بين المفهومين لا يؤدي فقط إلى خلط في فهم الوقائع المتباينة بل إنه يحاصر مفهوم المجموعة الإثنية أو الظاهرة الإثنية ويجعله تورية لمفهوم العرق غير المرغوب في استعماله الآن على الأقل في العلوم الاجتماعية الفرنسية^(٤٠). ولهذا يشحن الخطاب العنصري الجديد في أوروبا مفهوم الإثنية بدلالات عرقية عنصرية تقوم على الخوف من الإثنيات الأخرى.

٢-٣ المجموعة الإثنية والأمة

لا ينتهي الغموض في تعريف المجموعة الإثنية بمجرد محاولة تفريقه عن العرق ويبقى التساؤل حول التجربة الإنسانية التي لا تضمن لنا دوما عدم التداخل بين ما هو بيولوجي وما هو ثقافي في تعريف الذات والآخر. وقد تزداد الوضعية غموضا عند اقتران مفهوم المجموعة الإثنية بمفهوم الأمة La nation فكلاهما يحيل على ما هو ثقافي.

يعرف OOMMEN الأمة بأنها أرض شعب يمتلك ثقافة والمجال أي عندما تحمل مجموعة من الأفراد أو شعب ثقافة في أرض ليست لهم. ويحصل هذا في حالات الهجرة والاستعمار مثلا^(٤١). ويمكن للمجموعة الرثنية أن تتحول إلى

(39) Ibid, p 27.

(40) Jon ROWLEY, Ethnicite, Nation et contrat social, In theories du Nationalisme, Gil DELANNAI et P.A. TAGUIEFF (Dir), Editions KIME, 1991, p 180.

(41) OOMMEN T.K. les relations entre race, ethnicité et classe, op. cit. p 107.

أمة كلما استطاعت أن تعلن سيظرتها وتصرفها وامتلاكها لمجال ودون أن يؤدي ذلك بالضرورة إلى إنشاء دولة (٤٢).

يميز OOMMEN بين نوعين من الإثنية . ثمة الإثنية الرمزية والإثنية الأداة . تسعى الأولى إلى الدفاع عن هويتها وثقافتها وتحاول أن تضمن الحد الأدنى من رموزها رغم أنها لا تمتلك امتيازات اقتصادية وسياسية وهذه حال أغلب المجموعات الإثنية . أما الإثنية الأداة فهي تلك الرغبة في مقاومة اللامساواة المادية والبحث عن ظروف عيش أفضل والمناواة بالحقوق الاقتصادية والسياسية والثقافية لأفرادها ، ولكن عندما تكون هذه المجموعة الإثنية أغلبية في مجال معين فإن بإمكانها أن تؤلف بين الإثنية الرمزية والإثنية الأداة مثلما هو وضع المجموعة الفرنكفونية في الكيباك (كندا) فتتحول بالتالي إلى أمة بالرغم من أنها لم تتجسد كدولة (٤٣) .

يتحرك مفهوم الأمة داخل صياغتين لكل واحدة منهما علاقة ما بمفهوم المجموعة الإثنية . تتمثل الصياغة الأولى في الخليفة اليعقوبية Jacobine والسياسية التي بفضل العقد الاجتماعي تأسست وحدة سياسية قادت الفرد إلى أن يضع هويته كمواطن فوق كل الهويات الأخرى وأن يلتزم بشروط هذه الهوية (٤٤) . وخلافا لذلك كشفت الصياغة الثانية عن خليفة ثقافية بموجبها لم تكن الأمة نتاجا لشكل من العقد الاجتماعي أو انتماء لوحدة سياسية ولكنها التعبير عن انتماء لمجموعة ثقافية ترتكز على نفس اللغة والديانة والهوية

(42) Ibid, p 107.

(43) Ibid, p 108.

(44) Bertrand BADIE, Culture, identité, relations internationales. In Etudes Maghrebines, n°7, 1998, p11.

والانتماء الإثنى والعرقى (٤٥) . وإذا ما تنبت دولة ما هذا المفهوم الثقافى وتأسست عليه وشكلت وفقه انتماها القومى فإنها كدولة أمة ستمارس التفرقة الإثنية وفى حالات قصوى التطهير الإثنى وسيؤدى الاختلاف الثقافى إلى اعتبار صنف من المواطنين صنفا من درجة ثانية أو أقلية مرفوضة (٤٦) . لا تعنى الصياغة الأولى للدولة الأمة أنها بمنأى عن رفض الآخر "الإثنى" برغم حالة التعاقد بين مواطنيها على أساس التساوى واحترام الاختلاف . وتكشف الحروب والصراعات التى خاضتها هذه الدول عن حضور البعد الإثنى بدرجات مختلفة إضافة إلى طريقتها فى التعامل مع الوافدين إليها من المهاجرين أساسا . ومع هذا تميزت الصياغة الأولى بأن آخريتها لم تكن مصدرا لإقصاء مطلق لمن لا يشاركها الثقافة والدين واللغة والعرق.

تعرف المجموعة الإثنية بضعف حضور السياسى بل هى فى الأغلب على هامشه وبالمقابل يقع التأكيد على أنها تشكيلة اجتماعية ثقافية (٤٧) ، ولكنها حين تحاول افتكاك المجال السياسى فإن الأمة تشعر بالتهديد الذى قد يطل وجودها . يحدث هذا فى السياق الفرنسى فالأمة الفرنسية غير قلقة من ظهور مؤسسات تهتم بشعوب "الباسك" والبروتون" كالمؤسسات التربوية التى تستعمل لغة غير الفرنسية. إلا أنها بالتأكيد ترفض وتقاوم الحركة السياسية "الباسكية" لأنها تجاوزت البعد الإثنى لتدخل المجال الوطنى وتراجع لديها الثقافى لفائدة السياسى (٤٨) . إن الانتماء لمجموعة إثنية هو التزام بحدود ثقافية ورمزية .

(45) Ibid, p 12.

(46) Ibid, p 12.

(47) Guy Nicolas, Fait ethnique, op.cit, pll3.

(48) Ibid, p 116.

ولا يعنى هذا فك الارتباط عن الأمة وفى نموذج الأقليات الإثنية الأمريكية ما يؤدي أن هذه المجموعات مرتبطة بأمتها الأصلية لكنه ارتباط رمزى شعورى لا ينفى بالضرورة الإرتباط السياسى بالأمة الأمريكية . فالإيطاليون والإرلنديون والبولونيون وهم يشكلون أقليات إثنية فى المجتمع الأمريكى يدافعون عن إرثهم الأوروبى لغة وتقاليدهم وشعورا بالانتماء لأمتها وقد يقاومون بشكل صريح إدراجهم الكلى فى ما يسمى بـ melting pot الأمريكى لكنهم فى النهاية غير قادرين على التنصل السياسى من الأمة الأمريكية (٤٩) .

٣-٣ المجموعة الإثنية والقبيلة

إذا كانت الفوارق بين المجموعة الإثنية والعرق هى فوارق بين الثقافى والبيولوجى - ولا يقصى هذا تداخلها - وإذا كان التمييز بين المجموعة الإثنية والأمة تميزا بين الثقافى والسياسى فماذا عساها تكون خطوط الفصل بين المجموعة الإثنية والقبيلة ؟؟

فى التعريفات السوسىولوجية والأنثروبولوجية المتداولة ثمة قرابة كبيرة بين المفهومين إلى حد أن الإستعمال الفرنسى لا يفرق بينها (٥٠) ، بل أن الأدبيات الأنثروبولوجية والتاريخية ، ولزمن طويل ، تناولت الظاهرة الإثنية فى الفضاء المغاربى باستعمال تسميات ذات مرجعية قبلية (٥١) . ويأتى التمايز الأول من الأنثروبولوجيين الأنقلساكسونيين الذين تعاملوا مع القبيلة كشكل من التنظيم

(49) Ibid, p 102-103.

(50) Jean Loup AMSELLE, Au cœeur de l'ethnie, op. cit, p 15.

(51) Mondher KILANI. Lignages et identité ethnique dans l'oasis de Gafsa, In IBLA, n° 160, tome 50, 1987, p301.

الاجتماعى له خصوصياته ويعنون بذلك المجتمعات الانقسامية (٥٢) حتى أن "غيلنر" رفض تطبيق مفهوم القبيلة أو المجموعة الإثنية على المناطق الريفية لشمال افريقيا معتبرا أنها لا تحتضن إلا تنظيمات ذات نمط انقسامى (٥٣) . ويرى غيلنر أن وجود قبائل عربية وأخرى بربرية يمنع من اعتبار مجموع عرب شمال افريقيا قبيلة أو مجموع بربر المنطقة يمثلون قبيلة والسبب هو وجود تواصل ثقافى واجتماعى وتداخل قرابى بينهما فرضته الأحداث وحتمه التعايش على مدى التاريخ الوسيط والحديث (٥٤) . بين القبيلة والمجموعة الإثنية هناك اختلاف فى البناء فالمجموعة فى البناء فالمجموعة الإثنية أكثر اتساعا من المجموعة القبلية (٥٥) . ويحدث أن تضم المجموعة الإثنية قبائل متعددة . ويقدم التشكيل القبلى نفسه على قاعدة سياسية بالأساس فى حين يحافظ تعريف المجموعة الإثنية على الملامح الثقافية (٥٦) .

يتم التأكيد عند دراسة القبيلة كشكل من أشكال التنظيم الاجتماعى على عناصر أساسية هى الإقليم والإنحدار من جد مشترك واقعى أو خيالى واللغة والدين والمعتقدات يضاف إليها الشكل البنائى أى تلك التقسيمات الفرعية المشكلة من عائلات وأفخاذ وعروش . وينظر إلى القبيلة من خلال الاعتقاد الداخلى الذى لدى أعضائها كونهم يؤلفون استقلالية سياسية . لقد أعطت

(52) Jean Loup AMSELLE, Auceurdel'ethnie, op.cit, p15.

(53) Ibid, p 16.

(٥٤) محمد نجيب بو طالب ، سوسولوجيا القبيلة في المغرب العربي ، نشر مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان ، ٢٠٠٢ ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٥٥) المرجع نفسه ، ص ٥٩ .

(56) Guy NICOLAS, Fait ethnique, op.cit, pll3.

الناحية السياسية مبررا لعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا كى يعمقوا هذا البعد وخصوصاً لدى الانقساميين حين اهتموا بالدور السياسى للصلحاء فى إعادة التوازن بين القبائل وبالعلاقة هذه الأخيرة بالدولة المركزية مما كتف الأسئلة حول الفاعلين القبليين وبالخصوص الصلحاء منهم . فهل هم خارج اللعبة السياسية القبلية ودورهم تحكىمى بالأساس يمتصون به مخزون اللامساواة الكامن لدى فئات العوام ؟ (٥٧) أم أن هؤلاء الصلحاء ليسوا خارج السياق الاجتماعى ورهاناته لأنهم جزء من تراتبية اجتماعية وسياسية يفعلون فيها ويستثمرونها ؟؟ أعطت مثل هذه الأسئلة وغيرها إمكانية لا يستهان بها لإعادة التفكير فى تعريف مفهوم القبيلة . لقد فتح "جاك بيرك" هذا التوجه منذ كتب مقالته "فى مدلول القبيلة" بشمال افريقيا .

وهى مقالة نشرت فى بداية الخمسينات من القرن الماضى وبدت تتويفا لمعرفة حول الظاهرة القبيلة التى مارسها "بيرك" فى المغرب والجزائر بأشكال متعددة.

من المفيد الإشارة إلى أن "بيرك" قد استعمل تعبيرات إثنية فى هذا المقال والأقرب أنه استعملها مرادفة لمعنى القبيلة . وما يهمنا أكثر أن "بيرك" قد بدأ فى التساؤل عن مدلول كلمة قبيلة بدعوته إلى تتبع تاريخها والبحث فى صنوف

(٥٧) عبد الله الحمودي ، الانقسامية والتراتب الاجتماعى والسلطة السياسية والقدااسة ، ملاحظات حول أطروحات كلينر ، الأنثروبولوجيا والتاريخ (مؤلف جماعى) ، دار تويقات للنشر . الدار البيضاء ، المغرب ١٩٨٨ ، ص ٧٠ .

* Jacques BERQUE, « Qu'est-ce qu'une tribu nord-africaine ? », L'éventail de l'histoire vivante. Mélanges Lucien Fevre, 1954.

استعمالها (٥٨). ويرمى تساؤله هذا إلى إخراج مفهوم القبيلة من مستوى المعطى الجوهري الأساسى القائم على ركائز ثابتة إلى مستوى آخر يضع القبيلة كتشكيلة اجتماعية من حركة التاريخ وبالتالي ضمن ديناميكية المجتمعات الباحثة عن أشكال مختلفة لهويتها تنتجها وتدافع عنها وترممها وتفاوض من أجلها.

يدخل "بيرك" متغير اللغة لفهم نشأة القبيلة وينفذ إلى العلامات التى تحوم حول ظهور هذه الوحدة الاجتماعية . ويرى فى اسم القبيلة وفى كيفية بروزه خطاً رفيعاً يكشف الوقائع ويبررها "إن ما يهم بطبيعة الحال ، هو الأسم لأن له قيمة اجتماعية كبرى (٥٩) ويضيف فى موقع آخر فاذا ركزنا على الظواهر اللغوية ، قد نتقدم فى فهم عبقرية ذلك الرجل الذى كثيراً ما ساهمت ميوله الخطابية وقدرته على إعادة التأويل فى تغطية الوقائع أو حتى تشويهها (٦٠).

فالأسم محرك مثير للتصنيفات وبالتالي للصراعات فهو العلامة الأولى لهوية أية مجموعة بشرية والاسم رهان أيضاً لأنه يطرح الأسئلة التالية : من يتولى مسؤولية التسمية ؟؟

داخل أى سياق تظهر ؟ من هو المعنى بها ؟؟ ما هى مضامينها ؟؟ وماذا تفيد استعمالاتها ؟؟

تخرجنا هذه الأسئلة من سياق لتضعنا فى آخر مخالف له فهى تحملنا من التفكير فى طبيعة الأشياء ، إلى التفكير فى استعمالاتها أى فى تلك الحركة

(٥٨) جاك بيرك ، « فى مدلول القبيلة » بشمال إفريقيا ، كتاب الأنثروبولوجيا والتاريخ ، مرجع

مذكور سابقاً ، ص ١١٣ .

(٥٩) نفس المرجع ، ص ١١٧ .

(٦٠) نفس المرجع ، ص ١١٨ .

المانحة معنى لكل مجهود يبذل من أجل تعريف الذات وإعلان الاختلاف عن الآخر . إن البحث في تاريخ التسمية هو إطلالة في العمق على الذاكرة الشفوية التي توزع الأسماء والأحداث والوقائع ولكنها ذاكرة انتقائية تثمن كل ما يتصل باستراتيجيتها وتنسى أو تقصى كل ما يعيقها . إن ذاكرة الأسماء التي دعا "بيرك" إلى تفكيكها تخفى تقاطعات جغرافية وسياسية ورمزية إذ تتكرر نفس أسماء المجموعات هنا وهناك عبر مجال المغرب الكبير ^(٦١) ويستثمر الاسم في تأكيد الذات وتقويتها كما تنخرط داخله مجموعات أخرى باحثة عن هوية مرتقبة وتمنح حركات الهجرة في هذا المجال المتسع إمكانيات عديدة لإقامة التحالفات وصون الامتيازات هذا الحراك الكبير الذي عاشته منطقة المغرب الكبير كشفته الرموز والعلاقات وبدت الكلمات ذات فاعلية في ترتيب الأشياء وإعادة ترتيبها من جديد.

وبهذا فتح "بيرك" نافذة لا تزال فاعلة إلى الآن لتناول الظاهرة القبلية وهي نافذة الظاهرة اللغوية وما يتبعها من علامات ورموز عند بناء الأفراد والمجموعات لهوياتهم وعند الرغبة في التمايز عن الآخرين .

فهل القبيلة أو المجموعة الإثنية من هذا المنطلق بناء لغوي ورمزي ؟؟ وهل الحدود بين المجموعات هي أيضاً حدود لغوية ورمزية وإذا تقدمنا بالسؤال إلى الأمام هل يمكن القول بأن القبيلة أو المجموعة الإثنية غير موجودة إلا في أذهان من يبتكرها بما أن لكل قبيلته ولكل مجموعته الإثنية ؟؟ وماذا عن التضارب الكبير عند تصنيف القبائل بين إدارة إستعمارية لها خلفياتها وأهالي يقدمون معلومات في أغلبها فخاخ؟

(٦١) جاك بيرك ، « في مدلول القبيلة » بشمال إفريقيا ، كتاب الأنثروبولوجيا والتاريخ ، مرجع

مذكور سابقاً ، ص ١١٧ .

مقاربات الظاهرة الإثنية:

يستدعى التعرض لنظريات الظاهرة الإثنية التفريق بين الجماعة الإثنية والظاهرة الإثنية L'éthnicité فإذا كانت الجماعة الإثنية تلك التشكيلية الاجتماعية ذات العناصر المحددة والتي نقيس بها مجموعة بشرية لنميزها عن مجموعات أخرى فصادف أن استعمالها الانتروبولوجيون وصنفوا بها البشر ، فإن الظاهرة الإثنية هي ذاك المسار الاجتماعي الذي تنسجه الجماعة الإثنية لتأكيد وجودها والدفاع عنه والاستمرار في التعبير عنه . إن الظاهرة الإثنية هي الهوية الإثنية في حالة حركة وفعل (٦٢).

يرجع ظهور مفهوم الإثنية في العلوم الاجتماعية الأمريكية إلى أربعينيات القرن الماضي وكانت كلمة ethnicity تعنى في البداية انتماء لا يدخل ضمنه الأنقلوا - أمريكيين وهي المجموعة البيضاء الوحيدة التي ليس لها أصل قومي خلافا للإيطاليين والإيرلنديين وغيرهم (٦٣) . واستعمل المفهوم كمتغير مستقل مثل الجنس والعرق والديانة لدراسة تأثيرات الإثنية على سلوك الأفراد والمجموعات (٦٤) واعتمدت الاستبيانات التي تقوم بها مراكز الأبحاث والجامعات الأمريكية على هذا المتغير أي الانتماء الإثني من خلال إدراج السؤال التالي من أي بلد ينحدر أغلب أجدادك (٦٥)؟

(62) Philippe BATAILLE, La sociologie des mouvements sociaux et l'ethnicité, Une comparaison internationale, In Sociologies et sociétés, volume XXIX n°2, automne, 1997, pp 172-173.

(63) Philippe POUTIGNAT et Jocelyne STREIFF-FERNART, theories de l'ethnicité, op. cit, p22

(64) Ibid, p 22.

(65) Ibid, p 23.

إلا أن الاستعمال المكثف لمفهوم الإثنية فى العلوم الاجتماعية الأمريكية يعود إلى سبعينيات القرن العشرين مع إصدار مجلة مختصة هى Ethnicity سنة ١٩٧٤. (٦٦) واقترن هذا الاستعمال بنشأة الصراعات التى سميت آنذاك بالصراعات الإثنية سواء فى المجتمعات الصناعية أو فى مجتمعات العالم الثالث وفى المجتمعات المتعددة الإثنيات كما فى المجتمعات التى تبدو متجانسة ثقافياً مثل كندا وبلجيكا.

ما يهم فى هذا الشأن أن تصبح الإنتماءات والاختلافات الإثنية شكلاً من أشكال التراتب الاجتماعى. وهذا ما ذهبت إليه العلوم الاجتماعية الأمريكية وحاولت تأكيده. ولكننا أمام اعتبار الإنتماء الإثنى أحد عناصر قراءة الواقع الاجتماعى وربما يكون الأهم فى نظر السوسولوجيا الأمريكية فانه من المفيد أن تقدم الملاحظتين التاليتين.

- الملاحظة الأولى هى: انتقال مفهوم الظاهرة الإثنية إلى سياق آخر هو سياق المجتمعات الصناعية بعد أن عرف بداياته الأولى فى مجتمعات "تقليدية" واستثمرية الأنثروبولوجيا لتصنيف المجموعات البشرية ودراستها. إن عودة المفهوم إلى فضاءات المجتمعات الصناعية هى إمكانية أكبر للسوسولوجيا كى تدخله ضمن مفاهيمها لقراءة المجتمعات المركبة وخصوصاً تلك التى تعرف تعددية إثنية. ما يعنى إعادة النظر فى المضامين والفوراق بين المجتمعات "التقليدية" والمجتمعات المسماة "متحضرة".

- الملاحظة الثانية: إن سباقية بروز مفهوم الإثنية فى العلوم الاجتماعية الأمريكية وتصدّره المفاهيم المستعملة لقراءة الواقع الاجتماعى لا يرجع فقط إلى

(66) Ibid, p 24.

أن المجتمع الأمريكي هو مجتمع تعددي الإثنيات بل لأن هذا المفهوم قد أفعى إلى حد كبير علماء الاجتماع الأمريكيين من قراءة مجتمعهم قراءة طبقية أى باستعمال مفهوم الطبقة الاجتماعية للدلالة على الترابية الاجتماعية مثلما فعلت السوسيولوجيا الأوروبية.

لا تضع السوسيولوجيا الأمريكية الصراع الطبقي والمشكلات الطبقة ضمن محاور اهتماماتها (٦٧). فهي سوسيولوجيا تبحث عن الاندماج وأشكال تجسيده وسؤالها البارز هو كيف الوصول إلى مجتمع يحقق فيه الفرد اندماجه فى المجموعة؟ وكيف العمل لإدماج الأقليات الإثنية ضمن النسيج المجتمعى القومى ؟ (٦٨) يقول "بول براس" Paul BRASS إن المجموعة الإثنية هى شكل بديل عن التنظيم الاجتماعى الطبقي والظاهرة الإثنية هى شكل هوياتى بديل عن الوعى الطبقي (٦٩).

إن اعتماد مفهوم الظاهرة الإثنية داخل نسيج العلوم الاجتماعية يكشف هن تحول عميق فى قراءة الواقع الاجتماعى وبالذات واقع المجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية . لقد دافعت نظريات التحديث دوما على ثنائيات التقليد والحداثة، الجماعة والمجتمع، الفرد والمجموعة، التضامن والتفكك واستعملتها بصيغ تنافرية لتمييز بين المجتمعات والثقافات فأوجدت من جهة المجتمعات

(67) Raymond ARON, La société américaine et sa sociologie, In cahiers Internationaux de sociologie, volume XXVI, 1959, reapparu dans les cahiers, volume 101, 1996, p 132.

(68) Ibid, pp 130-131.

(69) Paul BRASS. Cite par POUTIGNAT et STREIFF-FERNART, In theories de l'éthnicité, op. cat, p 26.

التقليدية المتجانسة والتضامنية وعديمة الحركة وأظهرت من جهة ثانية المجتمعات المتطورة والفردانية والمتحركة. يبرز هنا مفهوم الظاهرة الإثنية ليبين أن ما اعتُبر حكرًا على المجتمعات التقليدية يمكن أن يتواصل داخل المجتمعات الصناعية وأن التضامانات التي هي علامة من علامات المجتمعات التقليدية هي على العكس جزء من النسيج المجتمعي الصناعي. وأن الروابط الإثنية بعيدة عن أن تكون ضحية من ضحايا مسارات التحديث التي تعرفها المجتمعات. وعلى الطرف الآخر لم تكن المجتمعات "التقليدية" ساكنة وثابتة ومتجانسة وهي ليست مجتمعات متكونة من مجموعات بشرية متلاصقة ومتجاورة سميت قبائل أو مجموعات إثنية إنها على العكس مجتمعات متحركة تؤثر في محيطها وتتأثر به المجموعات الإثنية بروابطها المختلفة لا تكف عن الظهور والاختفاء، عن التكون والانحلال. وهي في علاقات مع حركات الهجرة والتجارة والحروب وظهور الدول واختفائها لذلك لم تكن لهذه المجموعات الإثنية في إفريقيا مثلاً هوية ثابتة لا تخضع للتغير. ويتحدث "جون لوب أمسال" J.L AMSELLE عن المجتمعات الإفريقية حتى قبل دخول القويلاستعمارية على أنها تشكل سلسلة مجتمعات Chaines de societes (٧٠) تجمع بينها علاقات تجارية وسياسية واجتماعية ودينية. لقد أنتجت هذه الروابط مجموعة فضاءات ما قبل استعمارية هي بالأساس فضاءات إنتاج وتبادل واستهلاك مثلما أفرزت فضاءات سياسية وحربية غلّطت مناطق ممتدة من إفريقيا.

ليس هناك إذا ما يبرز استعمال المجموعة الإثنية أو الظاهرة الإثنية لتفسير مع يقع في المجتمعات الإفريقية. لأن هذه المجتمعات ليست مخصصة دون غيرها

(70) Jean Loup AMSELLE, Au cœur de l'ethnie, op. cit, p 23.

فى إنتاج الظاهرة الإثنية، لأنها ظاهرة كونية. ثم أن استعمال الصراعات هى الصراعات السياسية والإقتصادية والإجتماعية تستنجد بها القوى الإستعمارية سابقا وحتى الدول الوطنية الآن. (٧١) قد يكون البعد الإثنى إجابة ثقافية عن مشكل (٧٢) ولكنه من غير الممكن أن يختزل لوحده كل أبعاد الصراع... إن انعدام مبرر استعمال ما هو إثنى لوصف المجتمعات الإفريقية على سبيل المثال يعود إلى المراجعات التى خضع لها مفهوم الظاهرة الإثنية وإلى إعادة التعريف التى خضع لها مفهوم الظاهرة الإثنية وإلى إعادة التعريف التى مكنته منها مقاربات جديدة وإلى الفضاءات غير المتعود عليها والتى أصبح من اليسير استعمال مفهوم الظاهرة الإثنية لقراءتها . ويعود أيضاً إلى أن التعارض الكلاسيكى بين التقليدى والحديث قد فقد أهليته لتفسير الاختلافات بين المجتمعات وفهمها .

١ - الظاهرة الإثنية كمعطى جوهري

تستعيد هذه المقاربة على الرغم من تراجعها الكبير الانتماءات الأولية للأفراد وتقرها أساسية لتكون الظاهرة الإثنية أو الهوية الإثنية . والانتماءات الأولية هى تلك الإنتماءات المرتكزة على روابط الدم واللغة والأصل والدين والقيم المشتركة والمغذية شعورا طبيعيا بالانتماء لمجموعة دون أخرى . ويقوى الشعور بالتضامن بين أفراد المجموعة الإثنية ذلك الاعتقاد بأن قرابة دموية واقعية أو خيالية تجمعهم . (٧٣) فيبرز بينهم هذا الإستعداد للتعبير وبأشكال

(71) Ibid, p 40.

(72) Philippe POUTIGNAT, theories de l'éthnicité, op. cit. p 92.

(73) Ibid, p 98.

متعددة عن انتماء لروابط أولية مجموعة حاجات مثل الحاجة إلى الانتساب والحاجة إلى أن يكون الفرد مقبولا من الآخرين والحاجة إلى امتلاك صورة جيدة حول ذاته . ومن بين الانتماءات العديدة المتاحة يرى الفرد فى الانتماء لمجموعة إثنية ذاك الملاذ الوحيد الذى لا يشعر داخله الفرد بالعزلة والاقصاء . (٧٤)

إن ما هو جوهرى فى المجموعة الإثنية هو الإيمان بخصوصية الروابط الأولية خلافاً لأية روابط أخرى ممكنة . والجوهرى هو النظر لها كمعطى أولى وأساسى وبالتالى عزل كل ما ينجر عنها من تفاعلات . فالنظرة الماقبلية للانتماء الإثنى تعنى الوقوف عند المحددات المسماة موضوعية والخارجة عن نطاق الأفراد والمستقلة عن وجودهم دون التفكير فى الكيفية التى تنشأ بها هذه المحددات ودون التنبه إلى أنها محدّدات متحركة .

تعرضت هذه المقاربة إلى انتقادات عديدة . وأهمها التى اتجهت نحو اعتبار الإكتفاء بالمعطيات الجوهرية والأولية لتفسير الانتماء الإثنى من شأنه أن يغيب السؤال المحورى وهو نشأة الروابط الإثنية وتكونها والآليات الثقافية التى ولدت مشاعر الانتماء وقامت برعايتها . (٧٥)

فمشاعر الانتماء الإثنى غير القابلة للوصف والمنفلتة عم قدرات الافراد وتحكمهم فيها ليست مشاعر معرفة موضوعيا وليست بمنأى عن التفاعل الاجتماعى والتعامل معها لا يقصى القدرة لدى الفاعلين للتساؤل دوماً حول شروط انتمائهم الإثنى . ويتغير السؤال عم ماهية الوجود الإثنى إلى سؤال عن

(74) Ibid, p 99.

(75) Ibid, p 100.

متى ولماذا يكون البناء الاجتماعي للواقع منجزاً باستعمال مفردات إثنية ؟؟ (٧٦)
أى ما هي شروط ظهور الهوية الإثنية ؟؟

يقدم "غيرتز" GEERTZ قراءة ديناميكية لما يمكن تسميته بالإنتماء الإثني،
وفى ظل هذه القراءة يتراجع التعريف الإثني للذات كتعريف موضوعي ونهائي
وثابت . ويأخذ "غيرتز" مفهوماً متداولاً وقريباً من التجربة اليومية هو مفهوم
"النسبة" في منطقة "صفرو" المغربية "و النسبة" هي ذاك النسق الثقافي
والاجتماعي الذي تتفاعل داخله وتتحرك مختلف الهويات وتعبر عن وجودها
وهي تلك الأداة الرمزية التي تميز الناس عن بعضهم وتعطي صورة عن المعاني
التي يكون بها الإنسان إنساناً . (٧٧) ويطرح "غيرتز" فكرة مفادها أن "النسبة"
هي استراتيجية توقع Une stratégie de positionnement يختارها الفرد أو
يستعملها كلما تطلب السياق ذلك . وهذه "النسبة" هي فسيفساء من الانتماءات
تتيح للفرد حركة أفضل ليحبر عن ذاته ويعرفها وتكسبه ثقة يستطيع بها أن
يكون براغماتياً ومتمكناً وقادراً على التبدل مع كل الأحداث . ولأنها
استراتيجية توقع فإنها تنشط وفق شبكة العلاقات المتنوعة التي يمتلكها الفرد .
فيترك جانباً المضمون الجوهرى لهويته مثل الأصل واللغة والدين وغيرها ليلتفت
إلى السياقات الأخرى المفتوحة أمامه والتي يتفاعل داخلها مع فاعلين آخرين مثل
سياقات العمل والمبادلات التجارية والفعل السياسى ، هنا سيطوع الفرد هويته
وينتقى منها ما يراه مناسباً على قاعدة الربح والخسارة فى أبعادها المادية

(76) Ibid, p 92.

(77) Clifford GEERTZ, savoir local, savoir global, Editions PUF, 1986, Traduit de
l'anglais par denise PAULME, p 83.

والرمزية . كل شئ رهين فى جزء كبير منه بالوضعية (٧٨) التى يتخذها الفرد كلما أراد أن يعرف نفسه ويعرف الآخرين من حوله .

٢ - الظاهرة الإثنية كنسق ثقافى

تمنح المقاربة حضوراً مكثفاً للبعد الثقافى وترى فيه المحرك الأساسى للانتماء الإثنى أو لتشكيل الهوية الإثنية . وتقف هذه المقاربة على النقيض من إعتبار الانتماء الإثنى إنتماء جوهرياً ومتأصلاً ، كما ترفض وجهة النظر الأداتية التى ترى فى المجموعة الإثنية مجرد تعبير عن مصالح اقتصادية وسياسية وإجتماعية ولا تعترف بالنشاط الرمضى الذى تخوضه المجموعة الإثنية . (٧٩)

تعرف المقاربة الثقافية الظاهرة الإثنية بأنها ذلك النسق الثقافى الذى يتمكن به الافراد من تحديد مكتنهم داخل نظام إجتماعى أوسع . (٨٠) ولكن النسق الثقافى الذى تعطيه هذه المقاربة مكانة متميزة يقدم بدوره تعريفاً للثقافة يتجاوز التعريف التقليدى الذى يعدها معطى كلى متجانس ومندمج أو أنها مجموعة العناصر أو الملامح القابلة للوصف . (٨١) وتسعى هذه المقاربة إلى رؤية الثقافة كمسار يقع بناؤه وكتفاعل يحصل بين مختلف الفاعلين فيعطونه الدلالة المناسبة . إن الثقافة هى هذا النسق من المعانى الذى يفسح المجال أمام الأفراد ليتباداوا القيم والرموز وهى أيضاً تلك المعانى التى يسندوها الفاعلون الاجتماعيون لأفعالهم بشكل مستمر ومتواصل وهى بالتالى معانى متحركة وغير ثابتة ولهذا

(78) Ibid, p 87.

(79) Philippe POUTIGNAT et..., op. cit, p 120.

(80) Ibid, p 120.

(81) Ibid, p 121.

يصعب في نظر هذه المقاربة أن نحصر الثقافة ماقبلياً في مجموعة من القيم والعادات ونقيم عليها سياجاً ونضبط لها حدوداً دائمة تفصلها عن الثقافات الأخرى . الثقافة هي ما تجعل اللعبة الاجتماعية قابلة لأن تمارس . (٨٢) انطلاقاً من الخلفية الديناميكية للثقافة يعرض "دريمون" DRUMMOND نموذجاً لرؤية الظاهوة الإثنية من حيث أنها " نسق رمزي أي مجموعة من الافكار المجبرة على التمييز بين الأنا والآخرين والتي تشكل قاعدة للفعل ومرتكزاً لتأويل أفعال الآخرين . (٨٣) ويؤدي هذا النموذج إلى النتيجة التالية وهي أنه لا توجد مجموعات إثنية معرفة ومحددة مسبقاً ولكن ثمة مجموعة متغيرة من المقولات Catégories التي لا تحمل دلالات إلا حين تسعف بتعريفات وباستعمالات من بشر لهم فهمهم وانتظاراتهم المشتركة حول موضوع الاختلافات الأساسية التي تفصل بين الأشخاص في مجتمعهم . (٨٤)

ما يشغل هذه المقاربة إذن هو توضيح المضمون الثقافي والعلاقات الداخلية بين المقولات الإثنية والتي بداخلها يتحقق التواصل الدلالي للاختلاف بين الافراد . وتبدو الظاهرة الإثنية في هذه الحالة مرتبطة بالرؤية الخاصة التي لهذه المقاربة حول مفهوم الثقافة كسياقات من المعنى سنتجها الفاعلون ويعيدون إنتاجها . فتجد هذه المقاربة نفسها لا أمام مجموعات إثنية بل أمام سياقات ما بين - إثنية يضمنها الفاعلون وهم في وضع تفاعلي ما يسميه "فتغنشتاين" ألعاباً لغوية

(82) Clifford GEERTZ, cite par Bertrand BADIE, in cultures, identité, relations internationales, op. cit, p 9.

(83) DRUMMOND. L, cite par Philippe POUTIGNAT et ..., op. cit, p 121. Philippe POUTIGNAT et... op. cit, p 121. Ibid, p 122.

(84) Ibid, p 135.

يمكن أن تكون حسب الوضعية متماثلة أو متشابكة أو غير محددة . (٨٥) ولكن الاختلافات الثقافية فى ذاتها ليست مصدرا لبروز الظاهره الاثنية إنه التواصل الثقافى الذى يسمح برسم الحدود بين المجموعات عبر رموز مفهومه ومتداولة. (٨٦)

٣ - الظاهرة الإثنية شكل من التفاعل الاجتماعى

يدخل الفاعلون الاجتماعيون وهم يمارسون حياتهم فى أشكال متعددة ومختلفة من التفاعلات الاجتماعية . وتؤدى بهم هذه التفاعلات الاجتماعية إلى بناء فكرة عن ذواتهم وعن الآخرين . ويتصرفون كأناس لهم دراية بما يحوم حولهم وينشطون كلما تعلق الأمر بانجاز الحدود المادية والرمزية التى تفصلهم عما يسمونه آخر . ولكن وصولهم إلى بناء أخرى يعرفون من خلالها أنفسهم إنما يتم عبر التفاعل الاجتماعى . الانزواء والعزلة لا يخلقان صورة عن الذات ، والاكتفاء باللامح الثقافية كلامح متأصلة وثابتة وجوهرية يعيق إلى حد بعيد فهما دقيقاً للذات وللآخر . يمارس الافراد إذن هويتهم ويتولون بناءها باتباع مسارات متعددة ولا يعنى هذا غياب عناصر ثقافية أو قيم تساهم فى هذا البناء . إن حضورها ليس ثابتاً وليس معطى غير قابل للحركة ، إذ فى تفعيل هذه العناصر الثقافية وشحنها كل مرة بمضامين مناسبة للوضعية وللسياق تكمن القدرة التفاعلية للفاعلين الاجتماعيين .

إن الظاهرة الإثنية بما هى شكل من أشكال التفاعل الاجتماعى لا تتناسب مع المقاربة الجوهرية لأن التفاعل الاجتماعى هو فى الوقت نفسه حركة مستمره

(85) Ibid. p 122.

(86) Ibid. p 135.

وسعى إستراتيجى وبحث عن دلالة وتلاؤم مع سياق وتكيف مع حدث وإنتاج لرموز ومفاوضة من أجل معنى وصراع حوله . وبما أن الظاهرة الاثنية شكل من أشكال التفاعل الاجتماعى فهذا يعنى أنها مسار متواصل من أجل التمييز بين الأنا والآخر لا يمكن إنجازه ولا يحقق جدواه إلا ضمن نسيج من العلاقات الاجتماعية ذات البعد التفاعلى .

يؤكد "فريدريك بارث" فى نظريته حول الحدود الإثنية أن ما نسميه مجموعات إثنية لا يستوى إلا حين نعرفها كوحداث تتحرك من أجل الإبقاء على حدودها . ويعنى تحركها للإبقاء على هذه الحدود ورعايتها أنها فى حالة تفاعل اجتماعى . فكلما تحركت المجموعة الإثنية من أجل هذه المهمة كان ذلك ضامناً لوجودها . ويصبح السؤال المهم متعلقاً بالشروط الاجتماعية المولدة لظهور الفوارق مع التغيرات الثقافية (٨٧) .

تشكل الهوية الإثنية وهى فى حالة إنجاز تقورها استراتيجيات الفاعلين ورهاناتهم . وتعنى حالة التشكل هذه تغير المضامين التى يلحقها الناس برموزهم وبمعيشهم الاجتماعى . فنقف كل مرة على تحوير فى دلالات الأشياء نابع من الاستعمالات المختلفة لهذه الأشياء وفق الوضعيات السياقات التى قدر الفاعلون أنها مناسبة لهم . فليس للأشياء طبيعة ثابتة بل لها على العكس استعمالات متعددة ومضامين متجددة .

يظهر تجدد المضامين فى ما تخفيه هوية السود فى واحات نفراوة مثلاً . فهل يمكن الحديث عن هوية جامدة لهذه المجموعة ترتكز أساساً على عناصر اللون

(87) Ibid, p 124.

والأصل والوضعية الاجتماعية المتردية وكأنها عناصر موروثة؟ أم أننا أمام حالات تعاقدية تفاوضية يسعى بمقتضاها السود إلى إعطاء معنى جديد لحدودهم الإثنية وبالتالي لهويتهم الإثنية؟؟

تجربتنا في دراسة حول قرية واحية بنفراوة^(٨٨) يعيش فيها البيض والسود دلت على أن هوية السود ، والشواشين إذا استعملنا العبارة المحلية ، بناء اجتماعي يتشكل تفاعليا مع الآخرين أى البيض . فأن تكون من الشواشين في هذه القرية يختلف إلى حد كبير عما كان عليه "الشواشين" فيها سابقا . إن تغير الوضعية وبالتالي تغير النظرة والحدود يعود إلى أن هؤلاء "الشواشين" قد دخلوا الآن فئة مالكي غابات النخيل ولم يعد "الشوشان" إذا عرفناه هو ذلك الشخص الذي يتبع سيده ويقوم بكل الخدمات الزراعية في الواحة وتتولى زوجته "الشوشانة" الإعتناء بكل طلبات المنزل. إن "الشوشان" داخل هذا السياق لاحق له في الملكية وغياب هذا الحق أبدى لأن هؤلاء "الشواشين" جعلوا لخدمة "أسيادهم" من البيض ولأنهم سود فهذا مبرر كاف كي يتم إقصاؤهم عن مواقع الحياة الرئيسية . هذا شكل من الحدود الإثنية التي يرسمها الفاعلون لتعريف ذواتهم وتعريف الآخرين ولكن هذه الحدود ليست ثابتة ، وإنما تقع صياغتها وإعادة تشكيلها من جديد . فهؤلاء "الشواشين" تمكنوا من إعطاء تعريف مغاير لهويتهم يركز على دخولهم فئة المالكين لغابات النخيل. ولكن كيف تم بناء هذه الهوية المبتكرة؟؟

(٨٨) محمد جويلي : سود الواحات : دراسة سوسيو - أنثربولوجية في استراتيجيات المعنى ، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، تونس ، فيفري ٢٠٠٢ ، إشراف ، د. طاهر لبيب .

لقد انفتحت أمام "الشواشين" مجالات الهجرة منذ بداية السبعينات
ومكنتهم هذه الظاهرة من مراكمة ثروة مناسبة لشراء النخيل فى القرية .
واستغلوا تراجع اهتمام مالكيها الأصليين بها ليشتروا ما يرونه مناسباً لهم.
ويتمثل تراجع الاهتمام بغابات النخيل من طرف البيض أولاً فى توقف استمرارية
العمل فى هذه الغابات ، فمن جهة شهدنا مغادرة الذين كانوا يعملون فى الغابات
إلى بلدان الهجرة ومن جهة ثانية دخل أبناء المالكين من البيض إلى الوظائف
الحكومية وغادروا القرية إلى جهات مختلفة ومنها العاصمة فلم تعد ملكية غابات
النخيل لوحدها مناسبة للإرتقاء الاجتماعى . هذا الفراغ استثمره "الشواشين"
الذين هاجروا إلى فرنسا واقتنوا مزارع نخيل كانوا فيها خداماً فى السابق
فأصبحوا الآن أسيادها . شكل من الثأر الرمزي يريد "الشواشين" تحقيقه فى القرية
ليثبتوا لأنفسهم وللآخرين أن مضمون تسمية "شوشان" قد تغيرت . وأن
اللايقين الذى ميز هويتهم الإثنية قد غدا شعوراً بالثقة والفخر . يذهب
"الشواشين" إلى أبعد من هذا فى بناء هويتهم الجديدة إنهم يؤجرون عمالاً من
جهات مجاورة للإشتغال فى غابات نخيلهم . ولكن المثير فى هذا أن هؤلاء
الأجراء هم من البيض . وكأن "الشواشين" يريدون بذلك تذكير أنفسهم وخصوصاً
البيض بأنهم أصبحوا الآن أسياد القرية.

لم يكن دخول "الشواشين" لفئة المالكين لغايات اقتصادية فقط إنما هم
يبحثون عن الرموز وعن المعنى الذى يساعد على بناء تصورات مغايرة لما كانوا
عليه فى السابق . وتكفى الإشارة إلى أن القيمة الرمزية لغابات النخيل المقتناه
ليست واحدة إذ تأتى فى القمة عملية اقتناء لغابة كان شاربيها أحد "الخماسة" ممن

تولوا زراعتها والاعتناء بها. هذا حدث مثير فى القرية لأنه يشكل خرقا مهما للحدود الإثنية التى بناها البيض بل أنه المستوى الأكثر إهانة من الناحية الرمزية لمن يعتقد بأن الحدود الإثنية حدود أزلية لا تتغير.

إن البناء الرمزي للحدود الإثنية فى هذه القرية هو بناء تفاعلى يخضع لرؤية الفاعلين ولتعاملهم مع الوضعيات والسياقات المختلفة. ولذلك يميز " الشواشين" بين مكونات فئة المالكين فلا تشابه بين من اشترى غابة نخيل كان فيها "خماسا" وبين من امتلك غابة نخيل هبة من الدولة . بين الإثنين ثمة فوارق فى الأداء وفى رد الاعتبار وفى القدرة على المفاوضة لا من أجل امتلاك غابة النخيل فقط بل امتلاك الوضعية واكتساب القدرة على تعريفها.

لقد منح دخول "الشواشين" لفئة مالكي غابات النخيل مضمونا جديدا للواجهة التى يريدون بها تفاعلاتهم فى الفضاءات القروية المختلفة. وأعطى هذا الدخول شحنة مغايرة لمعنى أن تكون من "الشواشين" كهوية يقع توارثها . البعد التعاقدى خلافا للبعد الموروثى منتجا لعلاقات جديدة ورموز متجددة وحدود إثنية فى حالة تفاعل رمزي. والإبقاء على هذه الحدود الإثنية ورعايتها إنما بتأثيرات من تحريك هذه الحدود والسعى إلى إعادة تشكيلها كل مرة وابتكارها بطريقة يتخلص بها "الشواشين" من أسر مرجعية لطالما أرهقتهم هى الهوية المبنية على عناصر اللون والأصل والماضى. وهى غير قابلة فى نظرهم لأن تبقى ثابتة ودائمة كما يريدونها الآخرون ... الظاهرة الإثنية فى هذه الحالة جاهزة لأن تكون ظاهرة تفاوضية باستمرار...

ليست الظاهرة الإثنية معطى اجتماعيا إنها على العكس بناء اجتماعى .
والفارق بين المعطى والبناء هو أن الأول ثابت فى حين أن الثانى متحرك وتكفى
الإشارة هنا إلى مجموعات المهاجرين فى الدول الغربية أو غيرها . فبمجرد وصول
المهاجر إلى بلد الاستقبال تنفتح أمامه أشكال لا حصر لها لتعطيه هويته الجديدة.
وتبدأ الحدود الإثنية بالتشكل عبر مسارات اجتماعية ورمزية متعددة . وتدخل
فى بناء هذه الإثنية الجديدة مفاهيم الاندماج والاستيعاب والتكاتف وغيرها .

لقد برزت الظاهرة الإثنية كبناء اجتماعى مع مدرسة "شيكاغو"
السوسيولوجية فى دراساتها حول العلاقات الإثنية التى تشكلت بتوافد المهاجرين
على المجتمع الأمريكى . واتجهت اهتمامات هذه المدرسة السويولوجية إلى بحث
الأشكال التى توفر لهذا المجتمع توازنا يستوعب به التنوع الإثنى وخلقاته.

اقترح "بارك" Park وهو أحد علامات السوسيولوجيا الخضرية الأمريكية دورة
للعلاقات الإثنية متركبة من أربعة عناصر^(٨٩) هى:

- | | |
|-----------|-------------|
| - التنافس | - التكيف |
| - الصراع | - الإستيعاب |

وتعنى هذه العناصر، وهى مترابطة، الكيفية التى يؤسس بها الأفراد
علاقاتهم الاجتماعية اعتمادا على اختلافاتهم الإثنية.

• **التنافس** : هو الشكل الأولى للفاعل ولكنه تفاعل دون اتصال اجتماعى.
ويتأسس هذا التنافس من غير أن تكون بين الأفراد علاقات

(89) Alain COULON, L'école de chicago, que saisje, P.U.F. 1994, p 37

اجتماعية. ولكنه بالمقابل منفذا لتوزيع العمل وتأسيسا لقاعدة اقتصادية مميزة لكل مجموعة. ويسمح هذا التنافس بتشكيل علاقات ارتباط اقتصادية تبدأ ببلورة اتجاهات الأفراد نحو الصراع والتكيف والإستيعاب^(٩٠).

• الصراع : ينشأ بين المجموعات والأفراد عندما يظهر لديهم هذا الوعى بأنهم متنافسون مع مجموعات أخرى. ويقترن هذا الصراع بحالة اندماج أكبر فى المجتمع فتظهر أشكال بين الأقليات ويبرز البعد السياسى الذى يتدخل لتقوية شعور الأقلية بذاتها وباستعدادها للمواجهة^(٩١).

• التكيف : هو المجهود الذى يبذله الأفراد والمجموعات التى يواجهونها خلال مرحلتى التنافس والصراع. ويتولى التكيف الإبقاء على وضعيات التنافس بين المجموعات أو الأقليات ولكنه يجعلها قابلة للإختلافات. ويقع تنظيم العلاقات الاجتماعية بين المجموعات بهدف التنقيص من الصراعات ومراقبة التنافسات وضمان أمن الأفراد واستقرارهم^(٩٢).

• الاستيعاب : هو وضعية تتغير معها أشكال العلاقات الاجتماعية السابقة ومضمونها. ويحدث خلال هذه المرحلة أن يقترب الأفراد أكثر من بعضهم البعض بالرغم من اختلافاتهم الكبيرة. ويحلّ الآخر محلّ الذات ويشترك الأفراد فى مسائل كانت تفرّقهم فى الماضى مثل

(90) Ibid, p 38.

(91) Ibid, p 38

(92) Ibid, p 39

الذاكرة والمواقف والمشاعر والتجارب الشخصية. إن الاستيعاب هو مسار يتولى خلاله الأفراد أو المجموعات أو الأقليات المشاركة في أداء وظائفهم كعناصر في مجتمع مع المحافظة على خصائصهم الثقافية^(٩٣).

تمثل هذه المراحل الأربع نموذجاً لأهم النظريات الاستيعابية التي سادت طويلاً في الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن يفقد هذا النموذج إلى خلفية تاريخية وإلى رؤية ديناميكية لأنه يحصر العلاقات الإثنية في مجرد تطور نحو الاندماج والثقاف^(٩٤) وحتى المحافظة على الخصوصيات التي يعتبرها هذا النموذج جزءاً من عملية الاستيعاب لا تعدو أن تكون سوى خصوصيات إثنية بلا حركة أي أنها مجرد خصوصيات وصفية أو إسنادية. وخلافاً لهذه الرؤية الستاتيكية للعلاقات الإثنية ولوجود المهاجرين في مجتمع متعدد الإثنيات والثقافات يقترح "ميشال فيفيوركا" Michel WIEVIORKA شكلاً لبناء المجموعة الإثنية لذاتها ولعلاقاتها مع الآخرين ويأخذ نموذج المجموعات المهاجرة في فرنسا التي مرت بثلاث مراحل حتى تدخل ضمن الفضاء الإثنى الفرنسي^(٩٥).

المرحلة الأولى:

هي مرحلة الصّحوة الإثنية مع نهاية الستينات من القرن الماضي والمقتربة ب بدايات أزمة الدولة الأمة في أوروبا. وسعت المجموعات الإثنية المختلفة في هذه

(93) Ibid, p 40.

(94) William A. DOUGLASS et Stanford M. LYMAN, L'ethnie: structure, processus et saillance, in cahiers Internationaux de sociologie, volume, LXI, 1976, p 210.

(95) Michel WIEVIORKA, la democratie a l'épreuve, nationalisme, populisme, ethnicité. Editions la decouverte, Paris. 1993. pp 10-15.

المجتمعات إلى التعبير عن خصوصياتها الثقافية وبدأت فى البحث عن جذورها وتحركت من أجل إعلان خصوصياتها. وبدأت الظاهرة الإثنية تأكيداً ثقافياً بالرغم من شحنتها الاجتماعية.

المرحلة الثانية:

بدأت هذه المرحلة مع الثمانينات من القرن الماضى واتّسمت بحضور مكثف للمهاجرين فى تأكيد الهوية الإثنية وهؤلاء المهاجرون هم أساساً قادمون إلى فرنسا بعد حصول مستعمراتها القديمة على استقلالها. وميزة هذه المرحلة أنها بدأت تشهد مسارات متعدّدة من الإقصاء والميز العنصرى وكُره الأجانب ضمن سياق اقتصادى مشحون بالبطالة وبأزمة اقتصادية عالمية وتوجه نحو تراجع الدولة عن مهامها التقليدية. لقد أصبح المهاجر فى هذه الظروف حاملاً بصورة المنافس لأهالى البلد وجزءاً من حالة التردى العام. ومن هنا أصبح المهاجرون يدخلون شيئاً فشيئاً لما يُسمّى المجموعات الإثنية وبدأت وسائل الاتصال العام تستخدم المصطلحات الإثنية لتمييز تلك المجموعات المهاجرة عن بقية المجموعات الأخرى أو لوصف الفضاءات التى يرتادها المهاجرون أو يستقرّون بها. وعلى النقيض من هذا المسار المتجه نحو نعت المهاجرين بأوصاف إثنية لم يكن ينظر للمهاجرين قبل هذه المرحلة إلا باعتبارهم عمّالاً مهاجرين لا زالوا يحافظون بشكل واضح على اختلافاتهم الثقافية والاجتماعية ويندمجون فى سوق العمل ولا يشكلون مأزقاً أمام الثقافة السائدة.

المرحلة الثالثة:

هى مرحلة بدأت تتضح فيها الرؤية للمجموعات المهاجرة وأخذت فكرة الدفاع عن الحدود الإثنية فى التبلور على كلّ المستويات. وظهرت مخاوف عديدة

لدى الأغلبية من أن المجتمع الفرنسى وثقافته يعيشان تهديدا مستمرا وخصوصا إذا اقترنت أشكال إثبات الهويات الإثنية بالبُعد الدينى. وتحركت المواقف المعادية للمجموعات الإثنية على أسس البحث عن الأمان والإستقرار وذلك بطرد من هم فى وضع غير قانونى وعزل البقية أو إخضاعها لقيم الثقافة السائدة أو إدماجها. كليا فى المجتمع الفرنسى. وظهرت فى هذا السياق أو صاف عديدة تخصّ علاقات هذه المجموعات الإثنية بكل الفضاءات المستعملة كان توصف أحداث الشغب الحضرية بأنها أحداث شغب إثنية أو الأحياء التى يقطنها المهاجرون بأنها أحياء إثنية وهناك من الباحثين فى العلوم الاجتماعية من لا يتوانى عن استعمال مفهوم الفاعل الإثنى *L'acteur ethnique*.

لم يكن المهاجرون لماقدموا إلى فرنسا يشكلون مجموعات إثنية ولم يكون يُنظر إليهم كذلك. ولكن حين ظهرت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية وتناقضت المعالم وتباينت الاستراتيجيات وتكاثرت الأزمات الحضرية وصعدت الخصوصيات الثقافية وقتها نُعت الأجنب والمهاجرون خصوصا بصفات إثنية وبرزت الظاهرة الإثنية كتشكيلة اجتماعية تصنع الهويات وتدافع عنها.

لقد نظر لهذه الهويات الصاعدة فى علاقتها الجدالية مع المواطنة كتهديد مستمر لمبادئ الجمهورية ومنها مبادئ اللاتكية واعتبرت المجموعات الإثنية فى الفضاءات الحضرية بالخصوص أكثر ترشيحا من غيرها لحمل هذا التهديد^(٩٦). ويكاد يكون هذا التهديد منحصرا فى المجموعات الإثنية ذات المرجعية الدينية الإسلامية.

(96) Christian RINAUDO, L'ethnicite dans la cite, jeux et enjeux de la categorization ethnique, Editions l'Harmattan, 1999, pp 8-9.

خاتمة

لم يكن سهلاً إعطاء تعريف للجماعة الإثنية وللظاهرة والإثنية. وتتواصل هذه الصعوبة إذا اخترنا المقاربة الديناميكية التي لا تكفى بالنظر للجماعة الإثنية كجملة معطيات وصفية إسنادية ثابتة وجوهرية. إن الجماعة الإثنية على العكس من ذلك بناء اجتماعي ما يستدعى البحث في السياقات التي أفرزت هذه التشكيلة الاجتماعية. ولم تكن الجماعة الإثنية بناء أنثروبولوجيا نشأ في سياق استعماري، إنها أيضاً صياغة أو ابتكار ما قبل استعماري ولكن بأدوات وخلفيات وظروف مغايرة. إلا أن المثير في كل هذا هو انتقال المفهوم من مجتمعات سُميت "تقليدية" إلى مجتمعات صناعية وما بعد صناعية أنجزت هي الأخرى جماعاتها الإثنية. فبدأت بمجموعات المهاجرين الوافدة وأعطتها الصفات والنعوت الإثنية كل حسب أصوله ولغته وديانته ولونه وظروف قدومه . ولهذا يتميز الأمريكيين بين المجموعات الإثنية ذات الأصول الأوروبية والتي يسهل عليها الاندماج وبين الأقليات العرقية كالسود والهنود الذين يصعب عليهم التلاؤم والتكيف مع القيم السائدة في المجتمع.

ولم تكتف العلوم الاجتماعية برصد الظاهرة الإثنية كظاهرة مهاجرين بل تجاوزتها إلى البحث في أشكال التضامن الناشئة في هذه المجتمعات وبرزت الإثنيات الجديدة كطوائف عبدة المش ومجموعات الضغط الاقتصادية وجماعات الدفاع عن البيئة وغيرها والمشتغلة بمنطق مخالف عن إثنيات المهاجرين. ولكن ما يتميز الظاهرة الإثنية في المجتمعات الغربية أنها نتاج لحركة هذه المجتمعات وفي الوقت ذاته تنقيض لمبادئها الكبرى كالمواطنة والملائكية والفردانية والمساواة ما يجعل الظاهرة الإثنية رهانا ثقافيا ورهانا سياسياً أيضاً.

المراجع باللغة العربية

- ١- جاك بيرك، "فى مدلول القبيلة" بشمال إفريقيا، فى كتاب الأنثروبولوجيا والتاريخ (مؤلف جماعى) دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب ١٩٨٨.
- ٢- محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة فى المغرب العربى، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ٢٠٠٢.
- ٣- عبد الله الحمودى، الإنقسامية والتراتب الاجتماعى والسلطة الساسية والقداسة، ملاحظات حول أطروحات كلينر، الأنثروبولوجيا والتاريخ (مؤلف جماعى)، دار توبقال للنشر. الدار البيضاء، المغرب ١٩٨٦.
- ٤- محمد جويلى: سُود الواحات : دراسة سوسيو - أنتربولوجية فى استراتيجيات المعنى ، أطروحة دكتوراه فى علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس، فيفري ٢٠٠٢، إشارف، د. طاهر لبيب.

المراجع باللغة الفرنسية

- 1- Jean Loup-AMSELLE, Article «ethnic», in Encyclopédia Universalis corpus 7.
- 2- Jean Loup AMSELLE, L'ethnicité comme volonté et comme représentation, A propos des Peul du Wasolon, In Annales, Economie, Sociétés civilisation, 42ème Année n°2 Mars-Avril 1987.
- 3- Jean -Loup AMSELLE, Logiques metisses, Anthropologie de l'identité en Afrique et ailleurs, Editions PAYOT, 1990.
- 4- Marc AUGÉ, ethnologue dans le métro, Paris, Editions Hachette, 1991.
- 5- Raymond ARON, La société américaine et sa sociologie, In cahiers Internationaux de sociologie, volume XXVI, 1959, reapparudanslesc ahiers, volume 101, 1996.
- 6- Fredrick BARTH, Les groupes ethniques et leurs frontières, In théories de l'ethnicité.
- 7- Bertrand BADIE, Culture, identité, relations internationales, In Etudes Maghrébines, n°7, 1998.
- 8- Jean BAZIN, A chacun son Bambara, In au cœur de l'éthnie.
- 9- Philippe BATAILLE, La sociologie des mouvements sociaux et l'ethnicité, Une comparaison internationale, In Sociologies et sociétés, volume XXIX n°2, automne, 1997.
- 10- Blumer, cite par T.K Oommen, In les relations entre race, ethnicité et classe, Revue Internationale des sciences sociales, n°139, Février 1994.
- 11- Paul BRASS, Cite par POUTIGNAT et STREIFF-FERNART, In théories de l'ethnicité.
- 12- Christian BROMBERGER, Le match de football, ethnologie d'une passion partisane à Marseille, Naples et Tunis, Paris, Maisan des sciences de l'homme, 1995.
- 13- Jhon CROWLEY, Ethnicité, Nation et contrat social, In théories du Nationalisme, Gil DELANNAI et P.A. TAGUIEFF (Dir), Editions KIME, 1991.
- 14- Alain COULON, L'école de Chicago, que sais-je, P.U.F, 1994.
- 15- Jean-François DORTIER, Les sciences humaines, Panorama des connaissances, Editions sciences humaines, Janvier 1998.
- 16- Jean-Pierre DOZON, Les Bété: une création coloniale, In au cœur de l'éthnie, Sous la direction de Jean Loup AMSELLE et elikia M'BO-KOLO, Editions la découverte, Paris 1985.

- 17- DRUMMOND. L, cite par Philippe POUTIGNAT .
- 18- William A. DOUGLASS et Stanford M. LYMAN, L'ethnie: structure, processus et saillance, in cahiers Internationaux de sociologic, volume, LXI, 1976.
- 19- Clifford GEERTZ, savoir local, savoir global, Editions PUF, 1986, Traduit de l'anglais par denise PAULME.
- 20- Mondher KILANI, Lignages et identité ethnique dans l'oasis de Gafsa, In IBLA, n°160, tome 50, 1987.
- 21- Guy NICOLAS, Fait « Ethnique » et usages du concept d'Ethnie », In Cahiers Internationaux de sociologic. Volume LIV 1973 .
- 22- T. KOOMMEN, Les relations entre races, ethnicite et classe, In Revue Internationale des sciences socilaes, n°139, Février 1994.
- 23- Philippe POUTIGNAT et Jocelyne STREIFF-FENART, Theories de L'ethnicite, Editions PUF, Paris 1995.
- 24- Jean POIRIER, Ethnologie regionale, In Encyclopédie de la pleiade, Editions Gallimard, 1972.
- 25- Christian RINAUDO, L'ethnicité dans la cite, jeux et enjeux de la catégorization ethnique, Editions l'Harmattan, 1999.
- 26- Taylor A.C, Article << ethnic >>, in Dictionnaire de l'Anthropologie et ltethnologie, Publié sous la direction de P. BONTE et M. IZARD, Editions, PUF 1991.
- 27- Alain TOURAINE, Le racisme aujourd'hui, In Racisme etmodernite, sous la direction de Michel WIEVIORKA, Editions la découverte, 1993.
- 28- Lucette VALENSI, La tour de Babel, groupes et relations ethniques au Moyen-orient et en Afrique du Nord, InAnnalesE.S.C, juillet-aout, 1986 n°4.
- 29- Lucette VALENSI, Presentation du numéro: les societesplurielles, In Annales E.S.C.1986,n°4.
- 30- MaxWEBER, Economieetsociete, Editions Plon, 1971 et Editions Pocket, 1995, Tome 2.
- 31- Michel WIEVIORKA, La sociologic sous tension, in cahiers Internationaux de sociologic, volume 101, 1996.
- 32- Michel WIEVIORKA, la democratic à l'épreuve, nationalisme, populisme, ethnicité, Editions la découverte, Paris, 1993.

حول إطار نظري لمستقبل اللغات النيلية - الصحراوية في دارفور

د. كمال محمد جبار الله

مقدمة :

تحاول هذه الورقة استنباط إطار نظري يمكن من خلاله استشراف مستقبل اللغات النيلية - الصحراوية في دارفور استناداً على ميادين الدراسات المستقبلية للعلوم ، وذلك عبر دراسة وقائع وضع هذه اللغات في الماضي والحاضر ومن ثم محاولة تبني فرضيات تقضى إلى تصور مستقبل نظري لهذا اللغات .

ولكى تحقق هذه الورقة ما ترمى إليه فإنها ستفرد حيزاً للموضوعات

التالية :

١- الوضع اللغوي في دارفور وتصنيف لغاتها .

٢- اللغات النيلية - الحصراوية في دارفور .

٣- اللغات النيلية - الحصراوية في دارفور في مواجهة اللغة العربية .

٤- مستقبل اللغات النيلية - الحصراوية في دارفور .

الوضع اللغوي في دارفور وتصنيف لغاتها :

تمثل دارفور منطقة تقليدية تاريخية لعدد من اللغات مثل لغة الفور ولغة المساليت ولغة الزغاوة ولغة الداجو وغيرها على الرغم من أن هناك حيوا لهذه اللغات تقل وتكثر خارج منطقة دارفور تمت بفعل الهجرات الفردية والجماعية .

١ (*) شعبة اللغات الإفريقية - مركز البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة إفريقيا العالمية .

ومما يلاحظ أن بدارفور لغات حية استطاعت أن تصمد فى ظل صراع حضارى طويل مثل اللغات التى عرفت بحكم الجغرافيا والتاريخ ارتباطا بالمنطقة التى ذكرنا منها طئفة قبل قليل ، وعلى العكس من ذلك فإن هنالك لغات أخرى عجزت عن مواصلة مسيرتها عبر حقبة التاريخ انقرضت لتفسح المجال للغات غيرها أكثر فاعلية للحياة ، وأقدر على العيش بين رصيد معتبر من اللغات المحلية واللهجات العربية المتنوعة ، منها اللغات التالية : البرتى والبرقد والبيقو والقيلى (الفونجورو) (١) .

إن الخريطة اللغوية لدارفور تكشف لنا أن هناك فصيلتين لغويتين رئيسيتين ، الأولى هى مجموعة اللغات الدارفورية تمثل اللغات التقليدية والتاريخية بالمنطقة، وهو تصنيف جغرافى فى المقام الأول . والثانية تشمل اللغة العربية ولهجاتها المختلفة (بنى هلبه وهبانية وماهرية ومعاليا...) هذا إلى جانب بعض لغات غرب ووسط إفريقيا كالقولانى والهوسا والمبا (لغة البرقو) وبعض لغات جنوب السودان كالدينكا .

كم عدد اللغات المتحدثة فى دارفور ؟ هذا السؤال حاول بعض الباحثين الإجابة عن . يرى ثوال (٢) أن هناك على الأقل ست عشرة لغة محلية غير العربية تتحدث فى دارفور وقد أقرنها بنسبة المتحدثين بها كلغة أم (العربية ٥٥٪ والفور ٢١٪ والمسالي ١٢.٥٪ والزغاوة ٥٪ من مجمل سكان دارفور) (٣) .

والحق أن تلك النسب التى أوردها ثوال فى دارسته إنما تعبر عن مرحلة سابقة فى حياة دارفور . تلك الفترة التى أقيمت فيها الدراسة ، أما الآن وقد مر على دارسته عقدان ونيف حدثت فيهما تحولات كبرى أهمها المجاعة والجفاف

والتصحّر الذى ضرب دول إفريقيا جنوب الصحراء ٨٣ - ١٩٨٥ ، بالإضافة إلى ظروف دارفور الخاصة بها منزحف صحراوى وحروب مستمرة إلى الآن وصراعات قبلية مزمنة كل تلك ساعد ويساعد فى الهجرة والتجهير القسرى نحو المدن الكبرى بالولاية كنيالا والفاشر الجنيينة بالإضافة إلى هجرة متزايدة نحو كردفان ووسط السودان والعاصمة وربما حركة لجوء إلى الدول المجاورة ، ولا شك أن لهذه أثره على الوضع الديمغرافى وبالتالى اللغوى بالولاية.

وفى دراسة لغوية يورد لنا يوسف الخليفة أبو بكر والأمين أو منقا (٤) اثنين من لغات دارفور المحلية ذات الأكثرية المتحدثة فى السودان ، وهما : الفور (٦٦٣٩١٣ متحدث) ، والمساليث (٤٠٦٣١٠ متحدث) ، وذلك ضمن ثلاث عشرة لغة سودانية محلية غير العربية تتميز بأكثرية المتحدثين بها كلغات أم ، وذلك بعد أن اهتمت بما قدمه سيد حامد حريز وهيرمان بل (١٩٧٥) (٥) ، ثم حولاً نسبة المتحدثين وعددهم من تعداد سكان السودان عام ١٩٥٦م إلى تعداد ١٩٩٣م حسابياً . غير أن مثل هذه الطريقة النظرية تعوزها الدقة فهى إذا صلحت فى بناء تقدير حسابي يقرب من فهم الوضع اللغوى فى السودان ارتكازاً على معلومات تاريخية قديمة فإنها لا تستبطن خصوصية دارفور التى تناولناها قبل قليل .

وبما أن كثيراً من الدراسات اللغوية - الاجتماعية التى أجريت حول الأوضاع اللغوية فى السودان أفضت إلى اكتساح اللغة العربية لمساحات واسعة كانت وقفاً للغات سودانية محلية دون استثناء لمناطق القطر كافة - فإن تلك الظروف البيئية وغيرها فى ولاية دارفور والتى تمت الإشارة إليها تكون قد ساعدت فى زعزعة التوزيع التقليدى التاريخى للقبائل بالمنطقة ، وعليه يتوقع أن تكون العربية قد

كسبت أرضاً جديدة خلال العقدين السابقين من القرن الماضي في مقابل انحسار
لغات الدارفورية وغيرها (٦) وستناول وضع اللغة العربية في دارفور في وضع
متأخر ضمن هذه الورقة .

نستنتج مما سبق ذكره عن اللغات في دارفور أن هذه المنطقة بها عدد قليل
من اللغات إذا قارناها - مثلاً - بجنوب السودان الذي يعتبر امتداداً جغرافياً لما
يسمى بالحزام شبه الصحراوي للتفتت اللغوي المنطلق من فكرة ديفيد دالبي الذي
يعتبر أكثر مناطق العالم من حيث التعقيد والتباين اللغوي ويتحدث فيه ٢/٣
من مجمل اللغات في إفريقيا (٧) .

سنحاول هنا أن نصنف لغات دارفور وفقاً لتصنيف عالم اللغة الأمريكي
جوزيف غرينبيرج للغات إفريقيا التي ضمنها في كتابه «لغات إفريقيا»
Language of Africa ، وهو تصنيف رائع في بابه ويعتد بالعلاقة الوراثة. وقد
رجعنا في تناولنا لتصنيف لغات دارفور بالإضافة إلى كتاب غرينبيرج - إلى عدد
من الكتب والمقالات الخاصة باللغات واللغويات الإفريقية والسودانية (٨) .
وكان نتاج ذلك أن وجدنا أن بدارفور لغات تنتمي لثلاث أسر من الأسر
الأربع التي صنف بها غرينبيرج لغات إفريقيا (عدا الكويسانية) ، وهي :

١- أسرة اللغات الإفريقية والآسيوية .

٢- أسرة اللغات النيجر - كردفانية .

٣- أسرة اللغات النيلية - الحصراوية .

وبما أن للأسرة الأخيرة نصيب الأسد من اللغات بدارفور كما هو الحال نفسه
بالنسبة للغات في عموم السودان (تقدر بحوالي ٧٠ ٪) فسوف يتم التركيز

عليها فى الموضوع التالى ضمن هذه الدراسة باعتبارها (الأسرة) قضية أساسية فيها (الدراسة) بينما سنشير إلى الأسرتين الأخرين إشارات غير متأنية .
تتمثل أسرة الإفريقية والآسيوية فى دارفور بثلاثة أفرع وهى (٩) .

١- السامى وتمثله العربية بلهجاتها المختلفة .

٢- التشادى وتمثله الهوسا .

٣- البربرى ، وتمثله الطارقية (التماشيك) (١٠) .

إما أسرة اللغات النيجر - كردفانية فتمثلها على الأقل فى دارفور لغة واحدة ، وهى اللغة الفولانية التى تندرج تحت فرع غرب الأطلسى ، وبذا تكون هذه الأسرة أقل الأسرة حضوراً فى دارفور .

٣- اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور :

تسجيل اللغات النيلية - الصحراوية حضوراً كبيراً فى دارفور بغرب السودان ، ووفقاً لتصنيف غرينبيرج الذى تبيناه فى هذه الورقة فإن هذه الأسرة حظيت بتمثيل أربعة أفرع من ستة (١١) . وبالإمكان تفصيل ذلك فيما يلى :

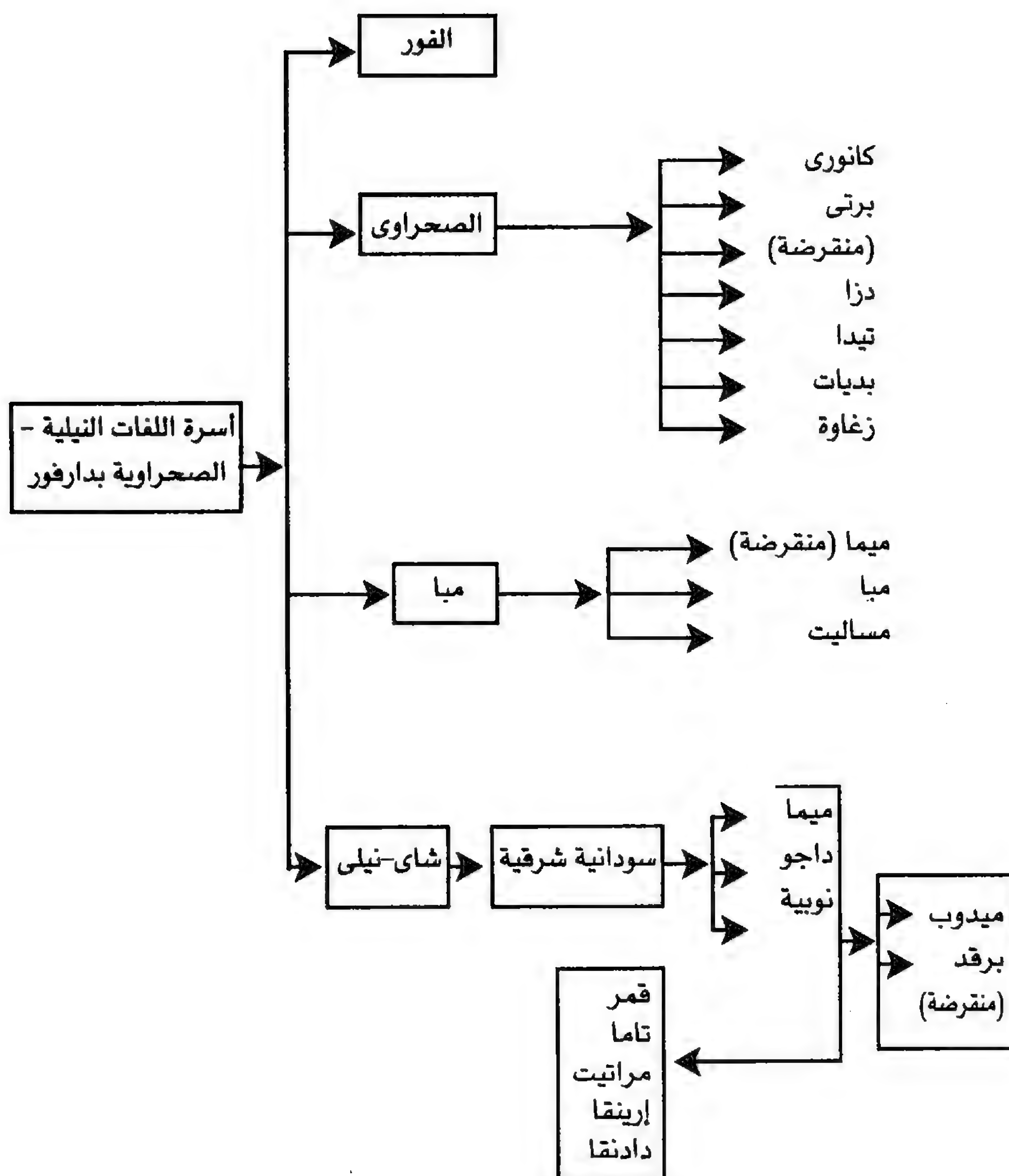
١- الفور ، وتمثله لغة الفور .

٢- الصحراوى وتمثله البرتى (منقرضة) والزغاوة والبديات والتيدا والدزا والكانورى .

٣- المبا ، وتمثله المساليت والمبا (لغة البرقو) والميما (منقرضة) .

٤- الشارى - نيلى ، وهو فرع تندرج تحته اللغات السودانية الشرقية التى تنفلق إلى التاما والداجو والنوبية لتنشطر التاما إلى التاما والمرات والقمر والإرينقا والدادنقا . وتنشطر النوبية إلى الميدون والبرقد (منقرضة) .

وبما أنه ليس هناك إحصاءات علمية حول المتحدثين بهذه اللغات في دارفور فإن هناك دراسة تدرج لغتين نيليتين - صحراويتين بدارفور وهما الفور والمساليت ضمن اللغات المحلية ذات الأكثرية المتحدثة في السودان (١٢). وقد نستشهد بهذه الجزئية مرارا وتكراراً .



شكل يوضح أسرة اللغات النيلية - الصحراوية في دارفور

كيفما كان الحال ، وارتكازا على ما أجملنا سابقاً نستطيع أن نعرض اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور فى الشكل التالى ثم نعلق على بعض ملاحظات فيه :

إذا قمنا الشكل السابق يمكننا زن نخرج بالملاحظات التالية :

١- تتمثل أسرة اللغات النيلية - الصحراوية على الأقل بأربعة أفرع فى دارفور وهى الفور والمبا والشارى - نيلى والصحراوى .

٢- أن فرع الشارى - نيلى يستأثر بأكبر عدد من اللغات فى دارفور (مجموعة اللغات السودانية الشرقية) . وهذا الفرع على مستوى اللغات النيلية - الصحراوية يحتوى على معظم اللغات داخلها (١٣) .

٤- اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور فى مواجهة اللغة العربية :

يتحتم علينا قبل أن نضع العنوان أعلاه فى إطار التناول أو نفرد حيزاً لتاريخ اللغة العربية فى دارفور ووضعها ثم ندلف إلى وضع هذه اللغات ومن بعد ذلك نسعى إلى معالجة موضوع هذه اللغات فى مواجهة العربية .

من خلال ما توفر لنا من معلومات تاريخية يمكن أن نطمئن إلى أن العربية دخلت دارفور فى فترة مبكرة وذلك أنها كانت بجانب لغة الفور تمثل لغة البلاط بمملكة الفور (١٤) . ويفهم من هذا أن العربية سبقت قيام المملكة الحضرية إلى المنطقة ، إذ يرجع تاريخ دخول العرب إلى دارفور إلى القرن الرابع عشر الميلادى، أما قبل ذلك فقد وفدوا إليها كأفراد لقصد التجارة أو الحماية. وتكون بتدفق العرب على دارفور قبائل البقارة فى الجنوب ورعاة الإبل فى الشمال (١٥) .

وقد كان هناك شبه اتفاق عند المؤرخين وغيرهم الذين تناولوا موضوع الجهات التي دخل منها العرب إلى دارفور . فقد ذكرت كل الاتجاهات عدا الجنوب . ونرى زن المحصلة النهائية لهذا الأمر يمكن إجمالها في الآتي : وهي أنهم دخلوا إلى دارفور من الشمال والغرب والشرق ، ودخلهم من الشرق لم يكن بذي الأثر الجوهري ، بينما دخولهم من الغرب كان لهم عظيم الأثر في حياة الدارفوريين ، أما طريق الشمال فقد كان تغلب عليه التجارة .

مهما يكن من أمر فإن العرب دخلوا دارفور من جهات عدة يحملون معهم الدين الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية واللغة العربية وأصبح للغة العربية في دارفور شأن عظيم لارتباطها بالدين الإسلامي الذي وجد موطن قدم في البيئة التي كانت تنتشر فيها الوثنية .

ومما ساعد على انتشار العربية في دارفور أسباب عديدة منها : بروز مدينة الفاشر العاصمة السياسية والدينية والاقتصادية التي غدت إذ ذلك تجذب تحت رعاية السلاطين أعداد هائلة من العلماء من مصر والحجاز وغيرها ، ومن طلاب الدين والدينا ولا شك أن لهؤلاء دوراً مباشراً في نشر الإسلام واللغة العربية^(١٦) . ومنها أيضاً نزوح كثير من القبائل العربية إليها للاحتماء بأراضيها الواسعة ، وهذه القبائل ترجع إلى خلفيات مختلفة مما ساعد على تنوع اللهجات العربية فيها ، ومرد هذا النزوح أن هذه المنطقة لم تنشأ فيها ممالك في قوة الممالك التي ظهرت في شمال ووسط السودان ، إذ حالت الظروف دون قيام دويلات قوية ، وهي بهذه الصفة تعتبر جنة في حساب عرب البادية الذين ينفرون بطبعهم من أية سلطة مركزية^(١٧) .

كيفما كان الحال فإن اللغة العربية أقداما راسخة فى دارفور. وعلى الرغم من وجود كثير من القبائل العربية بالمنطقة إلا أنها تصنف لغويا بمنطقة للتداخل اللغوى لأنها أيضا تعج بالقبائل غير العربية (الدارفورىة وغرب ووسط الإفريقية وغيرها) . وعندنا أن أنتشار العربية فى دارفور على مر الحقب على حساب لغات المجموعات القبلية التى دخلت الإسلام مرده إلى قوة وفعالية العامل الدينى وأثره فى نفوس أصحاب تلك اللغات ، وبهذا تختلف دارفور قليلا أو كثيرا عن مناطق التداخل اللغوى الأخرى فى السوادن كجنوب النيل الأزرق وجبال النوبة ، إذ قد يكون أنتشار العربية مرتبطاً بأسباب أخرى ليس من بينها هذا العامل الذى يعد حاسماً وجوهرياً يتضافر مع عوامل أخرى .

هل لنا أن نسأل بعد هذا العرض المسهب عن ماهية وضع اللغة العربية فى دتوفور ؟

حاول عدد من الدراسات المتخصصة لإجابة عن سؤال ، حيث يرى ثلوال أنها تقوم بدور اللغة الوسيطة فى أنحاء ولاية دارفور (١٨) . وترى أنجيليكا ياكوبى أن العربية تستخدم لغة للتواصل بين المجموعات متعددة الأعراق فى دارفور ، وأنها فى حالة تزايد مستمر لاستخدامها كلفة أم ، فالولدان يفضلان تعليم الأطفال العربية فى فترة مبكرة ليستفيدوا منها عندما يلتحقون بالمدارس ، ولتعود عليهم بالنفع عندما يلتحقون بحرفة التجارة . كما ترى ياكوبى أيضا أن تسارع أنتشار اللغة العربية يبرز فى شرق وجنوب دارفور على نحو أخص، وقد أدى هذا إلى زن تكف كثير من القبائل عن التحدث بلغاتها الأصلية كالبرد قد والبرتى والميما والبيقو (١٩) . وأغلب الظن أن أنتشار اللغة العربية على حساب

اللغات المحلية لا يتم بصورة معتمدة ، بل هو التحول الذى يحدث فى ظروف الأغلبية مع الأقلية أوسيطرة ثقافة على أخرى .

وفى دراسة أخرى لا يستبعد دورنبوس أن العربية بعد أن أصبحت لغة التواصل ولغة التجارة التعليم أن تصبح اللغة الأم لأغلبية سكان دارفور بلا منازع^(٢٠) وهو بذلك يحكم لها بمستقبل باهر انتشار وتمددا ويذهب جابر محمد جابر فى بحث له إلى أن الغالبية العظمى لسكان دارفور تتحدث لغة واحدة هى العربية حيث يتحدثها ٨٢ ٪ ، والعدد المتبقى يتحدث لغتين إحداهما العربية^(٢١) . غير أنه لا يذكر لنا كيف تحصل على هذه النسبة .

أما دراسة هاشم محمد محمد صالح بمنطقة نيرتنى فتوضح بجلاء أن اللغة العربية تنتشر من خلال حركة تغير مستمرة فى الإوضاع اللغوية باتجاه الاستخدام المتزايد للغة العربية . ويتمثل هذا الانتشار فى سيطرة اللغة العربية الكاملة على مجالات التواصل بين الجماعات وفى الاستخدام المتزايد لها من قبل أطفال المجموعات العرقية غير العربية داخل البيت وتحول بعضهم نحو اتخاذها لغة أولى بدلا عن اللغة المحلية^(٢٢) . وإذا علمنا أن نيرتنى إحدى قرى الفور المتميزة - ولغة الفور تسند على إرث ثقافى وسياسى تليدين - لأدركنا أن اقتحام العربية لا يتمحور فى مناطق اللغات ذات الثقل الديمغرافى القليل فحسب وربما يتجاوز ذلك إلى واحدة من أكبر اللغات المحلية فى دارفور إن لم تكن أكبرها إطلاقا .

وإذا ولجنا دار الزغاوة (كنموذج للدارات القبلية الحصينة فى دارفور) نجد أن العربية سيدة الموقف فى هذه الدار وتتمتع بوضع خاص بحيث لا تنافسها لغة أخرى فى هذا الأمر حتى لغة الزغاوة نفسها ، لذا تظل العربية فى حالة تمدد ، بل

أكثر من ذلك بحيث يتوقع لها المزيد من الانتشار ، وربما يؤدي هذا إلى إنهاء دور لغة الزغاوة فى المنطقة كلغة للتواصل بين الزغاوة أنفسهم ، وما يدل على ذلك أن هناك مناطق فى دار الزغاوة لا يتحدث أفرادها لغة الزغاوة وإنما يستخدمون العربية كلغة بديلة لها ^(٢٣) ويفهم من هذا أنه على الرغم مما عرف عن ازغاوة من تشبث بلغتهم وتراثهم لم يشفع لهم كل ذلك فى انسراب هذه اللغة من بين أيديهم وتبنى لغة أخرى تقوم لهم بدور التواصل مع الجامعات الأخرى وفيما بينهم أنفسهم .

وعليه يمكن القول إن دارفور كجزء من السودان وكمناطق للثنائية اللغوية تشهد تحولا من هيمنة اللغات المحلية إلى هيمنة اللغة العربية ، وهذه العملية تؤكد حقيقة تاريخية ثابتة وهى تقدم العربية حساب اللغات المحلية وفقا لكل المسوحات اللغوية - الاجتماعية التى تناولت رصد أنماط السلوك اللغوى فى السودان ^(٢٤) .

عرفنا من عرضنا السابق وضع اللغة العربية فى دارفور فماذا عن وضع اللغة المحلية فى دارفور خصوصاً اللغات النيلية - الصحراوية فى الحياة العامة ؟

عادة ما يعنى مصطلح الحياة العامة فى عزف علم اللغة الاجتماعى : الإعلام والإدارة والمحاكم وماشابهها . والذى يمكن الإشارة إليه فى هذا المجال - ابتداء - أن الحياة العامة فى دارفور وربما تكون هذه المنطقة ليست استثناء) تشهد سيطرة محكمة للغة العربية ، فلا مجال للغة محلية للاستخدام فى المحاكم والإدارة ^(٢٥) - أما الإعلام فكان يلجأ فيه للغات المحلية لا سيما

فى الإذاعة والتلفزيون المحليين فى حالات خاصة وعلى نطاق ضيق جدا مثل حدوث مشكلة قبلية أو إشكال أمنى^(٢٦) ويلاحظ ههنا أن الاستعانة باللغات المحلية طابعها توظيف هذه اللغات وفقا للإدارة السياسية . ومن أمثلة اللغات التى كان يلجا إليها لغة الفور والمساليات والزغاوة وذلك نسبة لما تمثله جميعها من ثقل ديمغرافى .

وعلى ذلك يمكن الاستنباط بأن اللغات النيلية - الصحراوية كجزء من اللغات المتحدثين فى دارفور - لا تجد فرصا فى الحياة العامة لاسيما فى الإدارة والمحاكم ، بينما تجد فى الإعلام النذر اليسير. وكل هذا يشى بأن هذه اللغات ستفقد عنصر الاستمرارية تدريجا . وأغلب الظن أن المرحلة الحالية التى تمثل حالة كمونها داخل البيت فى أحسن الأحوال - كما أسلفنا الذكر - وتحدثها فئة عمرية محددة تمهيد لتوقف التحدث بها نهائياً .

لنرجع الآن إلى الموضوع الذى تصدرنا به هذا الجزء من هذه الدراسة وهو وضع اللغات النيلية - الصحراوية فى مواجهة اللغة العربية .

نستطيع أن نجمل القول بأن اللغة العربية ظلت فى مواجهة مستمرة مع اللغات المحلية فى السودان، وذلك منذ دخول العرب بلغتهم إليه . وقد استطاعت العربية بعد طول صراع أن تدحر عددا منها . وقد استطاع البعض الآخر من هذه اللغات أن يتهادن معها مهادنة مؤقتة ينتظر دوره فى سلم الانقراض التدريجى . وكان هذا أيضا حال اللغات النيلية - الصحراوية فى السودان مع مختلف النسب .

وإذا انتقلنا إلى اللغات النيلية الصحراوية فى دارفور سنجد أنها ظبت فى مواجهة غير متكافلة فى العربية إذ استطاعت العربية مدعومة بأسباب لا علاقة

لها باللغة نفسها ، وأسباب وراءها الاقتصاد والسياسة والبيئة والأيدولوجيا وغير ذلك ، استطاعت أن تحجم دور تلك اللغات تمهيداً لاجتثاثها والقضاء عليها . ومن هذه الأسباب ما يلي :

أولاً : الجفاف والتحصن والزحف الصحراوي : وهى كوارث بيئية ضربت دارفور لاسيما فى الثلاثة عقود الأخيرة من القرن الماضى مما أدى إلى حركة نزوح وزحف من المناطق الأصلية التى سكنتها القبائل الدارفورية عبر حقبة التاريخ والتى كانت توفر بيئة متجانسة لها تجد فيها اللغة المحلية مساحة واسعة للتحديث بها . فأصبحت المناطق الأصلية بفعل هذه الكوارث تفقد قاطنيها تدريجيا ليتمركزا حول المدن الكبرى بالولاية كالفاشر ونيالا والجنين أو لبدأوا رحلة شاقة تجاه العاصمة القومية .

ثانياً: ظاهرة نشأة المدن وتوسعها : وهذه الظاهرة كانت إفرازا لازم كوارث الجفاف والتصحر والحرب . إذ هناك توسع هائل للمدن بدارفور بل أخذت الأحياء الجديدة تتضاف إلى المدن بصورة متسارعة لا يكاد يحكمها ضابط . وذلك أن هذه المدن أخذت تستقبل موجات كبيرة من النازحين الباحثين عن الخدمات والأمن بعد تداخل الأوضاع الأمنية والاقتصادية فى البيئات الأصلية . وقد أدى هذا الحراك الديمغرافى إلى خلق وإضافة تركيبة سكانية ولغوية جديدة ومعقدة فتريفت بذلك المدن الكبرى فى دارفور (٢٧) .

ثالثاً : نشوء الأسواق ذات الطابع الشعبى : وهى أسواق تكتظ بتجمعات سكانية متزاخمة لقبائل مختلفة إثنية وثقافيا ولغويا احتاجت للغة للتواصل فيها بينها بيعا وشراء وتواصلا .

رابعاً : التوسع فى التعليم بمستوياته المختلفة (الأساس والثانوى الجامعى الذى تم تعريبه مؤخراً) وقد ساعد فى معدل نشر العربية، إذ إنها لغة التدريس ولا يتعلم متعلم إلا بها .

خامساً : تأثير الآلة الإعلامية بوسائلها المختلفة (إذاعة وتلفزيون وصحف وأطباق فضائية) (٢٨) .

سادساً : انتقال المجتمع الدارفورى فى معاملاته المحلية الضيقة إلى آفاق أكثر انتفاحاً بمجتمع المدينة وبالتالي بمجتمع السودان القومى .

سابعاً : الحرب القائمة الآن فى دارفور وما تحمله من إفرازات تقلب الولاية رأساً على عقب .

نستنتج مما سبق ذكره من أسباب داعمة للغة العربية فى الانتشار والسيطرة على اللغات المحلية فى دارفور - زن اللغات النيلية - الصحراوية فى مواجعتها مع العربية تقود معركة خاسرة ، المنتصر فيها تسليح بكل عدة وعتاد والمنهزم فيها أعزل لا يقوى على شئ إن المستقبل أمام العربية تسنده قوة دفع ذاتية لا تفتقر، كما تسنده سياسات لغوية تتبناها الدولة السودانية منذ عقود بصورة مباشرة وغير مباشرة (٢٩) . وعلى ضوء ما ذكرنا فهل يمكن وضع تصور نظرى لمستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور انطلاقاً مما ت عرضه فى هذه الدراسة ؟

مستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور؛

هل بالفعل يمكن تصور مستقبل للغات النيلية - الصحراوية فى دارفور على نحو علمى منطلقه دراسة هذه اللغات ماضياً وحاضراً ؟ أم أن هذا النوع من التصور ضرب من الفرضيات الوهمية ؟

الحق أن إدارج هذا النوع من الأسئلة التي يطلع للأجابة عنها بعض الدراسات اللغوية الاجتماعية - أصبح علماً تفسح له الدراسات المستقبلية ميادينها ومناهجها الخاصة وذلك بعد أن أصبحت لهذه الدراسات التي تعنى بالمستقبل مداخلها العلمية ومناهجها البحثية . وقد أخذت تعبر بأن المستقبل لا ينشأ من فراغ وإنما تتحدد معالمه وتتبلور أشكاله من خلال قضايا الواقع ، ومن خلال بزوغ أشياء كانت الجنيئات لها موجودة في أرض الواقع (٣٠) .

وانطلاقاً من هذا المفهوم الذي قدمناه ، واستناداً على ما تم تناوله من موضوعات تتصل بمتضى وواقع (حاضر) اللغات النيلية - الصحراوية في دارفور يصبح بالإمكان استشراف مستقبل هذه اللغات ولو على المستوى النظرى الجدلى .

إن أول ما يقال في هذا المضمار هو أن مستقبل اللغات النيلية - الصحراوية في دارفور يختصر في ثلاث لغات هي الفور والمساليات الزغاوة (٣١) ، وهي لغات يتوقع لها أن تستمر متحدثة لأطول فترة ممكنة للغات محلية في دارفور وذلك تم تحديده لاعتبارات منها أنها :

- ١- تكاد تكون متحدثة في جميع أنحاء دارفور ولاسيما في المدن الرئيسية .
- ٢- تمثل الثقل الديمغرافى الذى يسمح لها بالتوظيف في مجالات عديدة .
- ٣- بعض أصحاب هذه اللغات ذوو تطلعات سياسية ، مما حدا بالاهتمام بلغاتهم ومحاولاتهم الجادة لحاق أبجديات لها مثلاً .
- ٤- ضمنها لغتان هما : الفور والمساليات تعدات ضمن أكثر ١٣ لغة محلية غير العربية تمثل اللغات الكبرى المتحدثة في السودان .

مما يجدر التطرق إليه هو أن فهمنا لمستقبل هذه اللغات يمكن تصوره نظرياً واستشرافه جنينياً من خلال محددات سياسية لعل أهمها :

أولاً : يمكن فهم المستقبل لهذه اللغات من خلال السياق العام لأنماط الاستخدام اللغوى فى السودان على جهة العموم ، وهو أن اللغات المحلية تشهد ترجعاً كبيراً وانحساراً متسارعاً عن مواقع استخدامها فى مقابل تقدم كاسح مهيمن للغة العربية ، والدارفور (على الأخص فى شرقها وجنوبها) خصوصة فى هذا المجال تتميز بها مناطق الثنائية اللغوية والتداخل اللغوى فى كونها أكثرها تقبلاً للثقافة العربية الإسلامية التى تتجلى مظاهرها فى انتشار الخلاوى وهى خصوصية يسندها العامل الدينى .

ثانياً : يمكن فهم المستقبل لهذه اللغات من خلال السياسات اللغوية التى ظلت تتبع فى السودان لاسيما فى الخمسة عقود الأخيرة من القرن الماضى . ولا يخفى ما تقوم به السياسات اللغوية فى تحديد مستقبل اللغات . والذى يلاح عليها فى السودان أنها مازال تلعب دوراً مباشراً فى دعم العربية ، والذى يتبدع فى قصر هذه السياسات فى أطر التنظير وعدم إنزالها إليها إلى أرض الواقع ركوناً إلى ضعف التنفيذ وضالة الإمكانيات ، فقط حبيسة الدساتير المتتالية والاتفاقيات المتعاقبة (ولاشك أن العربية استفادت وتستفيد من هذا الوضع المتفرد) .

ثالثاً : يمكن فهم المستقبل لهذه اللغات من عدم وجود فرص لها - وقد يكون هذا أحد إفرازات السياسات اللغوية المتبعة - فى الحياة العامة مثل الإعلام والإدارة والمحاكم وكذلك التعليم . بل إن الاتصال البينى (بين القبيلة الواحدة بلغتها المحلية) قد تراجع فى أحسن الأحوال إلیالاستخدام لها بالمنزل

ناهيك عن الاتصال البين - قلبى (بين القبائل المتعددة بلغة محلية) . وهذا يشير إلى عدم وجود لغة تواصلية أو مشتركة من بين هذه اللغات غير ما ذكرنا من قبل من أن لغة الفور تتحدثها قبيلتان غير الفور ، هما الداخو والسنير واللتنان تقطنان بوادى كاجا ووادى أزوم ، وقد كان هذا مرده التزاوج بين القبيلتين مع الفور (٣٢) . وغير ما ذكرنا فى أطروحاتنا عن مدينة الفاشر حيث أن بعض أفراد القبائل فى دارفور تتحدث بلغة أو لغات غيرها (٣٣) . ومن المعلوم بالضرورة أن اللغة متى ما انسحبت من أداء وظيفتها فى الحياة العامة كان ذلك أوعى إلى انحسارها .

رابعاً : يمكن فهم المستقبل لهذه اللغات من خلال حقيقة تاريخية ثابتة وهى أن عدد هذه اللغات فى تناقص مستمر إذ انقرض عدد معتبر منها كالبرتى والقمر والميما والبيقو والبرقد فى القرن الماضى . وجميعاً بالتالى يعكس استعراباً كاملاً أو شبه كامل ، وآية ذلك أن - مبلغ علمنا - فيها أكبر معدل للانقراض العام للغات السودانية المحلية .

بقى أن نقول إن التصور النظرى لمستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور يمكن تلمسه من خلال تلك الأسباب التى ذكرناها مجملة ، وهو تصور يعكس إنزواء كاملاً لهذه اللغات يقابلة اندياح كامل للغة العربية فى السودان عبر حقبة من الزمن قد لا تكون بعيدة .

خاتمة

نلخص مما سبق تناوله فى هذه الدراسة حول اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور أنه يتحتم علينا نظريا - إذا استمرت الأوضاع على ما هو عليه الحال - إسقاط كل تصور مستقبلى لاستمرار حيوية هذه اللغات فى الإستخدام والتواصل فى ظل هيمنة اللغة العربية وسيطرتها وإغلاق كل نافذة أمام هذه اللغات. كما يستبعد كل تصور لوجدة ثنائية لغوية تتعايش فيها هذه اللغات مع اللغة العربية، وهى الحالة الراهنة التى عليها ما تبقى من هذه اللغات التى يستخدمها الناس فى نطاق ضيق أغلبه داخل المنزل ، ويستخدمون اللغة العربية فى المجالات الرسمية وغير الرسمية . وفى رأينا أن هذه الحالة انتقالية لن تصمد بأية حال من الأحوال أمام اندفاعية العربية .

كما نخلص إلى ما خلص أحد الباحثين من قبلنا حين ذهب إلى أنه فى إطار عملية السريان التاريخى المتسارع للغة العربية والمدعوم اقتصاديا وسياسيا وأيدولوجيا ، يضحى الحديث عن تطوير اللغات المحلية فى السودان والمحافظة عليها وحمايتها من الأندثار ضربا من ضروب التفاؤل^(٣٤) ويصدق هذا مع توالد الظروف المساعدة لهيمنة العربية وتجدها - على جميع اللغات المحلية فى السودان بما فيها اللغات قيد الدراسة .

الهوامش والأحالات المرجعية

- 1- See : Doornbos , P. (1984) : "Language use in Western Sudan" . a paper presented to Ist International Linguistics Conference (13-16 Oct) Khartoum I.A.A.S., University of Khartoum , P.(1)
- 2- See : Thelwall , R.S.(1978) : Aspects of Language in the Sudan . Cleraine The New University of Ulster , P.p. (8 - 9).
- ٣- أنظر : ثيويولد ، أ. ب. (١٩٩١) : على ينار آخر سلاطين دارفور ، ترجمة : صديق إبراهيم (نسخة مكتوبة باليد ومصورة) ، ص (٣١) .
- 4- See : Abu - Bakr , Y.A. and A. Abu - Manga (1997) : "Language Situation and Planning in the Sudan " , a paper presented to the Inter-governmental Conference and Language Policies in Africa (17 - 21 March) Harare, Zimbabwe , P. (3).
- 5- See : Hurreiz , S.H. and H. Bell (1975) (eds) : Directions in Sudanese Linguistics and Folklore , Sudanese Studies Library , No (4) I.A.A.A., Khartoum , Khartoum University Press .
- ٦- انظر : مثلاً هاشم محمد محمد صالح (١٩٨٧) : الأوضاع اللغوية في نيرتتي ، دراسة في التحول اللغوي - الاجتماعي ، رسالة ماجستير ، الدراسات الإفريقية والآسيوية ، جامعة الخرطوم ، وأنظر أيضاً : كمال محمد جاهد & (٢٠٠١) : الأوضاع اللغوية في مدينة الفاشر دراسة في التحول اللغوي - الاجتماعي ، رسالة دكتوراه ، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية ، جامعة الخرطوم .
- ٧- انظر : دالي د. (١٩٨٠) : « خريطة لغوية لإفريقيا » تاريخ إفريقيا العام ، المنهجية وعصرنا ما قبل التاريخ ، المجلد الأول ، إشراف : ج . زيربو (اليونسكو) ، تورينو (إيطاليا) : مطالع كانالي ، ص (٣٢٢) .
- 8- See : Bell , H. (1970) : Place Names in the Belly of Stones , Linguistic Monograph Series No (5) , Sudan Research Unit , Faculty of Arts , Uofk., Doornbos , P. (1984) :, Opcit , and Tucker , A.N. and M.A. Bryan (1956) : The Non - Bantu Languages of North - East Africa , London , O.U.P.

٩- يختفى من أسرة اللغات الإفريقية فرعام فى دارفور وهما الكوشى والمصرى القديم المنقرض أصلاً.

١٠- يوجد بدارفور إعداد من الطوارق المثلثين الذى يسمون محلياً « بالكنين » . وقد استوطن بعض هؤلاء مدينة الفاشر وبعض القرى حولها . قدم الطوارق إلى دارفور فى مفتتح القرن العشرين هروباً من المستعمر الفرنسى .

١١- الفرعان لا تمثلهما لغة فى دارفور هما الكوما والسنغاي .

12- See : Abu - Bakr , Y.A. and A. Abu - Manga (1997) : , Opcit ,P.(3)

١٣- انظر : ج. (١٩٨٠) : « تصنيف لغات إفريقيا » تاريخ إفريقيا العام ، مرجع سابق ، ص (٣١٤) .

١٤- انظر : عبد الرحمن موسى أبكر (١٩٨٩) : « انتشار الإسلام واللغة العربية العربية فى دارفور » ، نقله إلى العربية : بشير عبد الواحد بشير ، دراسات إفريقية ، إصدار : مركز البحوث والترجمة ، جامعة إفريقيا العالمية ، العدد (٥) ، أكتوبر ، ص (١٣٦) .

١٥- انظر : موسى المبارك الحسن (١٩٧٠) : تاريخ دارفور السياسى (١٨٨٢) - (١٨٩٨) ، الخرطوم : أو الطباعة بجامعة الخرطوم ، ص (٢١) .

١٦- انظر : يوسف أحمد عبد البارى (١٩٩٣) : « الفاشر مدينة محورية » ، صحيفة دارفور الجديد ، تصدر عن ولاية دارفور ، العدد (٦٠) ، ص (٤) .

١٧- انظر : عبد الرحمن موسى أبكر (١٩٨٩) : ، مرجع سابق ، ص (١٣٣) .

18- See : Thlwall , R.S. (1978) :, Opcit , P. (9).

19- See : Jakobi , A. (1999) : “Current research on language of Darfur a paper presented to the Sudanese - German Conference on Sudan on Sudan studies with special reference to Darfur , Al - Fashir (6 - 8 Oct.) University of Al-Fashin ,P.(1)

20- See : Doornbos , P. (1984) , P.(1) .

٢١- انظر : جابر محمد جابر (٢٠٠٠) : التنوع الثقافى والتداخل اللغوى ، أم درمان : دار جامعة القرآن الكريم والنشر ، ص (٧٢) .

٢٢- انظر : هاشم محمد محمد صالح (١٩٨٧) : مرجع سابق .

- ٢٣- انظر : عصام عبد الله على (٢٠٠٤) : « الزغاوة : اللغة والتاريخ » ، أوراق من منتدى مركز البحوث والدراسات الإفريقية ، المجموعة الأولى ، إصدار رقم (٤٦) تحرير : كمال محمد جاه الله (د.ن) ، ص (١٠٧) .
- ٢٤- لق قمنا بعرض عدد من الدراسات التي تناول موضوع المسح اللغوي في السودان ، انظر : كمال محمد جاه الله (٢٠٠١) مرجع سابق ، ص (١٢ - ٢٠) .
- ٢٥- مقابلة مع الملك رحمة الله محمود ومعه شيخان كبيران بمكتبه المحكمة الشرعية بالفاشر بتاريخ ٢٧/١٠/١٩٩٩ م .
- ٢٦- استقى الباحث هذه المعلومات من زيارته لإذاعة وتلفزيون ولاية شمال دارفور بالفاشر ولقائه بالمسؤولين هما بتاريخ ٢٧/١٠/١٩٩٩ م .
- ٢٧- يمكن تطبيق ما ذكرنا على مدينة الفاشر انظر : كمال محمد جاه الله (١ - ٢٠) ، مرجع سابق ، ص (٦٤ - ٨٦) .
- ٢٨- أثناء زيارتنا لمدينة الفاشر في مهمة بحثية رأينا أن بعض الجهات مثل الحدائق العامة تفرض فيها في الغالب قنوات معينة كالجزيرة ، والـ MBC ، ونتوقع أن تكون قد أضيفت فيما بعد « العربية » لأسباب لانكاد نتحقق منها .
- ٢٩- انظر : كمال محمد جاه الله : « السياسات اللغوية في السودان مع التركيز على عهد حكومة الإنقاذ الوطني » ، غير منشورة .
- ٣٠- انظر : محمد بريس (٢٠٠٠) : دراسة المستقبل حديث حول المفهوم ، اتجاهات مستقبلية ، تصدر عن مركز دراسات المستقبل الإسلامي ، وإيران : قم ، العدد (٤) ، ص (١٤) .
- ٣١- لغة الزغاوة لم تذكر ضمن أكثر ١٣ لغة محلية ذات أكثرية متحدثة في السودان ، ولكن دراستنا لمدينة الفاشر المشار إليها سابقاً ترى أن هذه اللغة معتبراً يحتاج إلى مزيد من الدراسة .

32- See : Thelwall , R.S. (1978) : , P.(9).

- ٣٣- أنظر : كمال محمد جاه الله (٢٠٠١) ، مرجع سابق ، ص (١٠٩ - ١٢٢) .
- ٣٤- انظر : عشاري أحمد محمود (١٩٨٥) : « جدلية الوحدة والتشتت في قضايا اللغة الواحدة الوطنية في السودان » المجلة العربية للدراسات اللغوية ، إصدار : معهد الخرطوم الدولي للغة العربية ، العدد الأول المجلد الرابع ، أغسطس ، ص (١٢٢ - ١٢٣) .

الحقيقة والمجاز في لغة الهوسا
دكتور/ صبري إبراهيم على سلامة (*)

مقدمة:

لغة الهوسا واحدة من أوسع وأكبر اللغات الإفريقية انتشاراً ، وهي إحدى لغات الفرع التشادي الذي ينتمي إلى أسرة اللغات الأفروآسيوية. (١)
وهذه اللغة في الحقيقة تجمع بين عدة ظواهر لغوية ومتنوعة تميزها ، الأمر الذي يجعلنا نقول إن هذه الظواهر تمثل القواعد والأعمدة الأساسية التي تقوم عليها هذه اللغة . لأنه بدون واحدٍ منها تهتز دعائمها ، فهي كل متكامل لا يتجزأ ، ولا يمكن لأحد من متعلمي هذه اللغة أو دارسيها أن يغفل هذه الدعائم.

والظواهر التي تمثل هذه الدعائم في لغة الهوسا خمس ، هي:

١ - المجاز. ٢ - التراكيب.

٣ - النبر. ٤ - النغمة Tone .

٥ - طبيعة الحرف المتحرك "ما بين كونه حركة طويلة أم قصيرة".

وإننا في هذا البحث سوف نتناول ظاهرة "المجاز" باعتبارها أحد هذه الظواهر

الخمس الأساسية.

(*) أستاذ مساعد لغة الهوسا وآدابها - معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة
(١) أحمد عوض - تصنيف اللغات الإفريقية - المجلد الثالث - معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة ١٩٩٧م .

ولكن هناك إشكالية تواجه المقبل على عمل مثل هذه الدراسة في أية لغة من اللغات ، وهذه الإشكالية تحددها عدة استفسارات ، أهمها : أهذه الدراسة تعد دراسة لغوية ؟ أم دراسة أدبية ؟ أم ماذا ؟ . وفي الحقيقة وللإجابة عن هذه الاستفسارات أرى أن ظاهرة المجاز في واقعها ظاهرة بلاغية ، وهي امتداد أو أحد مشتملات علوم اللغة ، والبلاغة تظل اللغة بأكملها وترتبط ارتباطاً مباشراً بالمعنى ومعنى المعنى ، ولا فرق هنا بين النص الأدبي والنصوص اللغوية الأخرى . ويمكن للباحث تناولها من خلال مواد لغوية مختلفة ، لأنها بالفعل متناثرة في اللغة ، فنراها تارة في النص النثري البحت وأعني بالنص النثري المقال والخبر وما إلى ذلك ، ونراها تارة أخرى في النص الشعري ، وكلها لغة ، كما نراها أيضاً في الاستعمال اللغوي الدارج .

وبالتالي فإن الباحث حينما يقدم هذه الدراسة فإنما يتناولها من حيث التفريق أولاً بين المعنى الحقيقي والمجازي ، والعلاقة التي تربط بين المعنيين ثم يوضح الكلمات والعبارات التي تطورت عن الاستعمال الحقيقي إلى المجازي - في بادئ الأمر - ثم أصبحت تستعمل استعمالاً اصطلاحياً لما أطلقت عليه .

وقبل الحديث عن المجاز في الهوسا ، نشير أولاً وفي إيجاز إلى اللغة باعتبارها الوعاء الأكبر الذي يحتوي كل هذه الظواهر ، وكذلك إلى "الكلام" باعتباره القناة التفسيرية لهذه اللغة .

حول مفهوم اللغة،

اللغة هي وسيلة الاتصال بين الشعوب ، وقد عرفها اللغوي العربي ابن جني (٣٩٢هـ) بقوله: "حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (٢) .

(٢) محمود فهمي حجازي مدخل إلى علم اللغة دار الثقافة والنشر، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٧٨، ص ١٠ .

ويعرفها "أنيس مزيحة" بأنها ظاهرة بسلوكية اجتماعية ثقافية مكتسبة، لا صفة بيولوجية ملازمة للفرد ، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختبار معاني مقررة في الذهن".^(٣) وقد يختلف الناس في مفهوم اللغة بحسب الزمان والمكان ، كما يختلفون في النظر فيها وإليها وفقاً لمواقعهم في المجتمع ودرجات اهتمامهم ، فمنهم من نظر إليها على وظيفتها في أنها أداة تعبير وتوصيل وتأثير ، بينما يقول آخرون وهم الأنثروبولوجيون بأنها: "ظاهرة اجتماعية ونمط من السلوك الواقعي الحي ، يفصح عن شخصية الإنسان وهويته ومعارفه وخبرته".^(٤)

واللغة هي قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منظومة يتواصل بها أفراد مجتمع ما . وهذا التعريف يفصح عن أنه يتكون من ثلاثة أقسام يكمل بعضها بعضاً ، الأول أن اللغة قدرة ذهنية تكتسب ، والثاني أنها نسق يتكون من رموز منظومة تتراوح بين الصوت والجملة ، والثالث أنها ذات طبيعة اجتماعية.^(٥)

ولم يفكر الإنسان في كلامه ، فقد انطلق في مزاولة هذه الحاجة "العملية الكلامية" كما انطلق في المشي والحركة والبحث عن الطعام ، غير أن هذا الإنسان قد بدأ في عصور مبكرة يفكر في الحقيقة اللغوية حيث بدأ يفكر في سائر مظاهر الحياة الإنسانية. وقد أدى تفكيره هذا إلى أن يقرر الحقائق ويعللها، ومن هنا نشأ التفكير اللغوي.^(٦)

(٣) أنيس فريحة - اللهجات وأسلوب دراستها - دار الجبل - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م - ص ٣٧.

(٤) كمال محمد بشر - خاطرات مؤلفات في اللغة والثقافة - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٥ - ص ٢٥.

(٥) روي سى هجمان - اللغة والحياة والطبيعة البشرية - ترجمة وتقديم دكتور داود حلمي أحمد السيد الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٠ م - عالم الكتب - القاهرة - ص ١٥.

(٦) إبراهيم السمرائي - التطور اللغوي التاريخي - دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م - ص ١٣.

ويعرف اللغويون الكلام بأنه وسيلة التعبير الإنساني عن الأفكار وخوارج النفس عن طريق جهاز النطق لتوصيلها من مُرسل إلى متلقٍ في مجتمع ما وفقاً لنواميس اللغة التي يتفاهم بها أبناء ذلك المجتمع. وقد عرف اللغويون الكلام أيضاً بأنه ما اجتمع فيه أمران ، هما : اللفظ والإفادة^(٧) .

وبعد الحديث الموجز عن "اللغة والكلام" نتحدث هنا أيضاً وبإيجاز عن مفهوم "المجاز" كظاهرة لغوية.

حول مفهوم المجاز:

المجاز في واقع الأمر هو أحد مشتملات علم البيان الذي يعد هو الآخر ثالث علوم ثلاثة تتألف منها البلاغة العربية، هذان العلمان الآخران هما "علم المعاني"، و"علم البديع" فمن المباحث التي يتولى دراستها "علم البيان" - في رأي السكاكي وتلاميذه - هي التشبيه والمجاز {ومنه الاستعارة بالطبع ، والكناية ، أما العلمان الآخران "علم المعاني ، علم البديع" فيدرسان ظواهر أسلوبية أخرى .

وفي الحقيقة أن مثل هذا التفسير السابق ، وإن كان يتفق عليه البعض كالسكاكي والخطيب القزويني وغيرهم ، فإنه من جانب آخر يلقي اعتراضاً عليه من جانب البعض الآخر من المحدثين، ومنهم الدكتور شفيع السيد(*) فيقول : "علم البيان لا يقدم إحصاء بكل الاستعمالات المجازية والكنائية البعيدة عن الغموض ، كما لا يقدم معياراً منضبطاً تقاس به تلك الاستعمالات . ومرد إدراك تعقيد المعنى في الكناية هو التذوق المرفه لأساليب اللغة ، واستيعاب ذخائر أدبها ، والبصر بطرائقها في التعبير ، وهي أمور لا تتوقف على دراسة علم

(٧) محمد إبراهيم عبادة - الجملة العربية دراسة لغوية ونحوية - الإسكندرية - ١٩٨٨ م ص ١١ .

(*) الدكتور شفيع السيد - هو أستاذ البلاغة والنقد الأدبي بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

البيان. وممكن الخطأ لدى الخطيب ومن سار على نهجه ، هو انطلاقهم من نظرة معيارية ، تلك النظرة التي صبغت دراستهم لعلوم البلاغة بأسرها ، وبمقتضاها تكون وظيفة علم البيان تقديم قواعد معينة يجب أو ينبغي الالتزام بها عند صوغ الكلام شعراً ونثراً ، ومثل هذه القواعد لا محل لها في الواقع ، فأساليب التشبيه والمجاز وليد عمل الخيال ومجال نشاطه " . (٨)

وعلم البيان كما يعرفه الخطيب القزويني هو : " علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه " . ويقصد بهذا التعريف إيراد المعنى مرة بطريق التشبيه ، ومرة أخرى بطريق المجاز ، وثالثة بطريق الكناية . وهذا هو المراد بقوله " إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة " (٩) .

ويرى شفيع السيد أن علم البيان لا يجب أن تقتصر اختصاصاته فقط على دراسة التشبيه والمجاز والكناية ، وإنما يجب أن تشمل الظواهر البلاغية الأخرى الموزعة بين علمي المعاني والبديع ، فهي جميعاً ظواهر بيانية أيضاً . وبذلك تكون وظيفة علم البيان هي دراسة التعبير اللغوي الذي يؤدي المعنى أداءً غير مباشر ، وهذا التعبير يتنوع ما بين أسلوب التشبيه ، أسلوب المجاز ، وأسلوب الكناية . بل ويعتبر شفيع السيد الكناية في رأيه ضرباً من ضروب المجاز ، ولذلك يعود ليقصر وظيفة علم البيان في دراسة التعبير اللغوي المتنوع ما بين التشبيه ، وأسلوب المجاز فقط . (١٠) .

(٨) شفيع السيد - التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية - دار الفكر العربي - الطبعة الثالثة ١٩٨٨م - القاهرة.

(٩) شفيع السيد - ص ٢٠ بتصرف.

(١٠) شفيع السيد - ص ٢٤ بتصرف.

وأن الأصل في كل لغة أن يوضع فيها اللفظ الواحد لمعنى واحد ، أي أن يكون بإزاء المعنى الواحد فيها لفظ واحد، ولكن ظروفاً تنشأ في اللغة تؤدي إلى تعدد الألفاظ لمعنى واحد، أو تعدد المعاني للفظ واحد (١١) .

ويعد التعبير المجازي في أي لغة إنسانية حية قسيماً مقابلاً لنوع آخر من التعبير، هو التعبير الحقيقي.

والحديث عن المجاز يقتضي أولاً الوقوف على معنى الحقيقة، لأن كلمة "المجاز" في معناها المعجمي، تعني الطريق الذي يؤدي من مكان إلى مكان، أو ذات الشيء الذي يجاز من موضعه إلى موضع آخر، فإذا وصفت كلمة ما من كلمات اللغة بأنها مجازاً، فدلالة ذلك أنها طريق ومعبّر إلى معنى غير معناها الذي تدل عليه في الأصل، أو أن المتكلم جاز بها إلى معنى آخر. وأياً كان المراد بها فإن ذلك المعنى الذي تنقل منه الكلمة هو ما يعرف لدى البلاغيين باسم "الحقيقة"، والمعنى الذي تنقل إليه هو ما يعرف باسم "المجاز" ومن ثم يبدو الارتباط وثيقاً بين الكلمتين (١٢) .

وقد حاول بول هانل Pole Henle وهو باحث إنجليزي معاصر أن يضع أساساً للتفرقة بين الحقيقة والمجاز ، فذهب إلى أن المعنى الحقيقي هو ما تدل عليه الكلمة في سياقات أخرى ، وغالباً ما يكون هو المعنى المعجمي ، وأن المجاز هو معنى خاص تعتمد عليه الاستعارة وترتبط به (١٣) .

ويتصل المجاز بالاستعمال اللغوي اتصالاً مباشراً ، وأول ما وضع فيه عند العرب هو كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة الشهير بـ "علامة أهل البصرة" والذي

(١١) رمضان عبد التواب - فصول في فقه العربية - ط ٣ - القاهرة ١٩٩٤م - ص ٣٠٨ .

(١٢) المرجع السابق ص ١٠٠ .

(١٣) محمود سليمان ياقوت - علم الجمال اللغوي (المعاني - البيان - البديع) - دار المعرفة الجامعية الإسكندرية - الجزء الأول ١٩٩٥م - ص ١٨٤ .

بدأ تأليف كتابه هذا في عام ١٨٨ هجرية، وعرض فيه لبعض الظواهر اللغوية التي تطبع الأسلوب القرآني العظيم. (١٤) ويربط علماء اللغة المحدثون ظاهرة المجاز بظاهرة التطور الدلالي التي تعد حلقة من حلقات التطور اللغوي بعامة. (١٥) فاللغة في رأيهم في حركة دائبة وليست كما هامداً أو ساكناً ولهذا تكون عرضة للتغير والتطور في كل عناصرها من الأصوات ، والمفردات والتراكيب والدلالات وتتفاوت نسبة التطور في هذه العناصر سرعة وبطئاً من لغة إلى لغة تبعاً للظروف الثقافية والاجتماعية لكل منها ، بل تتفاوت نسبة التطور بين هذه العناصر نفسها داخل اللغة الواحدة ، ومن فترة زمنية إلى أخرى ، والمهم أن جزءاً من التغير الذي يطرأ على دلالات بعض الكلمات هو ما نسميه مجازاً ، وهكذا يكون المجاز ضرباً من التطور في الدلالة عند هؤلاء اللغويين.

ويقول مصطفى الجويني* : " يقع المجاز حين تتطور اللفظة من معناها الوضعي اللغوي الأول إلى معنى اصطلاحي جديد". والمجاز يعني عنده "التوسع في التعبير" وهذا التوسع يستهدف - كما قال - الإثارة الجمالية (١٦).

ويقول أحمد سليمان ياقوت (**) بأن المجاز نهر واسع ضارب بجداوله وروافده في كثير من العلوم كالبلاغة والأدب والنحو وفقه اللغة وعلم المعاجم وعلم التفسير، وفي فنون المنطق والجدل (١٧) .

(١٤) شفيع السيد - مرجع سابق ص ١٠٤ .

(١٥) مصطفى الصاوي الجويني - البلاغة العربية تأصيل وتجديد - منشأة المعارف الإسكندرية - ص ١٠٣ .

(*) هو : مصطفى الصاوي الجويني - أستاذ البلاغة والنقد الأدبي - كلية البنات - جامعة عين شمس .

(١٦) السيد أحمد الهاشمي - جوهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع - دار ابن خلدون - الإسكندرية - ص ٢٣١ .

(**) أحمد سليمان ياقوت هو أستاذ الدراسات اللغوية بجامعة الإسكندرية ، وكان عميداً لكلية الآداب - بجامعة بيروت العربية .

(١٧) أحمد سليمان ياقوت - علم الجمال اللغوي - ص ١٨٩-١٩١ .

وكما يقع المجاز في النص النثري ، نراه أيضاً في الشعر ، وكذلك مثلما تظهر الصورة المجازية المفردة ، تظهر أيضاً الصورة المجازية المركبة.

أنواع المجاز:

ينقسم المجاز إلى أربعة أنواع ، هي:

١- التشبيه :

يكشف أسلوب التشبيه عند تأمله عن دالتين اثنتين ، إحداهما المقارنة والأخرى الوصف غير المباشر ، والثانية ناشئة عن الأولى ومرتبطة بها وهذه المقارنة لا تهدف إلى تفضيل أحد الشيئين على الآخر ، وإنما وصف أحدهما بما اتصف به الآخر (١٨) .

وتكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي علاقة مشابهة مع ذكر ركني التشبيه "المشبه والمشبه به" مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي ، وهي قرينة معنوية ، مثل محمد كالأسد.

٢- الكناية:

وهي نمط من التعبير يؤدي المعنى أداء غير مباشر لعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المراد. وهذه العلاقة هي علاقة اللزوم فالتكلم فيها يريد إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى آخر يلزمه فيومئ به إليه ، ويجعله دليلاً عليه ، كما في قوله تعالى " ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً " . فليس المراد من عض الظالم على يديه هو تلك الحركة المادية التي تتمثل في وضع اليدين بين الأسنان . وإنما

(١٨) شفيع السيد - مرجع سابق ، ص ٣٢ .

هو الإحساس بالندم والتحسر على ما فات ، ومنه أيضاً "فلان كثير الطهي" وهذا يستلزم أنه كريماً.

٣- الاستعارة:

وهي أشهر صور المجاز وأوسعها آفاقاً وأكثرها حاجة إلى البحث والدراسة ، والعلاقة فيها بين المعنى الأول للكلمة ومعناها الثاني هي المشابهة ، وذلك كما في قوله تعالى : "أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها". وهنا ليس المراد بكلمة "ميت" الشخص الذي مات ، وإنما المراد هو " الإنسان الذي ضل في عقيدته" . وكذلك كلمتا "نوراً والظلمات" فكلتاها نقلت من معناها الحسي لتدل على معنى آخر يشبهه.

٤- المجاز المرسل :

وهو ذلك النوع الذي يقوم الارتباط فيه بين المعنى الأول للكلمة ومعناها الثاني على ملابسة من نوع ما ، غير علاقتي اللزوم والمشابهة ، والارتباط بين المعنيين على هذا النحو من التعميم يفسح المجال لاستيعاب عدد كبير من العلاقات تصل إلى ما يقرب من عشرين علاقة ، منها :

١- تسمية الشيء باسم الغاية التي يصير إليها ، وهذا على نحو تسميتهم "العنب" بـ "الخمر" لما كان يصير إليها ، و"العقد" بـ "النكاح" لما هو موصلاً إليه.

٢- تسمية الشيء بما يشابهه ، نحو تسميتهم "المرض الشديد" بـ "الموت".

- ٣- تسميتهم "اليد" بـ "القدرة" كقوله تعالى "يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" (***) .
- ٤- تسميتهم "الشيء" باسم "قابله" ، حيث قالوا "سال الوادي" والحقيقة "سال ماء الوادي" .
- ٥- تسميتهم "الشيء" باسم "ما يكون ملابساً له" كتسميتهم "المطر" بـ "السما" فقالوا "جادتنا السماء" لما كان المطر نازلاً منها .
- ٦- إطلاقهم "الاسم" أخذاً من غيره لاشتراكهما في معنى من معانيه ، كإطلاقهم "الأسد" على "الشجاع" باعتبار الشجاعة ، و"الحمار" على "البليد" ، وهذا النوع من باب الاستعارة .
- ٧- تسميتهم "الشيء" باسم "ضده" كقوله تعالى "وجزاء سيئة سيئة مثلها" (****) .
- ٨- تسميتهم "الكل" باسم "الجزء" ، كإطلاق لفظ العموم مع أن المراد منه الخصوص .
- ٩- تسمية "الجزء" باسم "الكل" كما يقال للزنجي أنه أسود ، فقد اندرج بياض أسنانه وبياض عينيه في هذا الإطلاق .
- ١٠- إطلاق اللفظ المشتق بعد زوال المشتق منه كإطلاق قولنا "قاتل" و "ضارب" بعد فراغه من "القتل والضرب" فإن إطلاقه على جهة الحقيقة في الحال ، فأما بعد ذلك فهو مجاز .
- ١١- المجاورة ، نحو تسميتهم "الشراب" بـ "الكأس" ، لأجل مجاورته له .

(***) سورة الفتح - آية رقم ١٠ .

(****) سورة المائدة - الآية رقم ١٢٠ .

١٢- إطلاق لفظ "الدابة" على "الحمار"، فإنه كان بالوضع اللغوي لكل ما يدب كالذودة والنملة، ثم تعورف على ذوات الأربع من الدواب، فإذا قُصِرَ من ذوات الأربع على الحمار، كان هذا مجازاً بالإضافة إلى العُرف.

١٣- مجاز بالزيادة ، كقوله تعالى "ليس كمثله شيء" (*****) ، فالكاف هنا مزيدة لأنها لو أُسْقِطت لاستقام الكلام ، فلهذا كان مجيئها للزيادة مجازية.

١٤- المجاز بالنقصان ، وهذا كقوله تعالى "واسأل القرية" (*****) فإن المراد "أهل القرية" ، ولهذا فإنه لو جيء بها لصح الكلام واستقام.

١٥- تسمية " المتعلق " باسم " المتعلق " كتسمية المعلوم علماً ، والمقدور قدرة ، كما في قوله تعالى "ولا يحيطون بشيء من علمه" (*****)، أي "معلومة".

وبعد هذا العرض لـ "مفهوم المجاز" ، فنتناوله هنا بالتفصيل في لغة الهوسا:

أولاً: أسباب وقوع المجاز في لغة الهوسا:

يرجع السبب وراء حدوث المجاز _ كظاهرة لغوية _ في أية لغة من اللغات إلى "الحاجة" إلى التعبير عن شيء مستحدث في عالم المادة أو عالم الفكر ليس له رمز لغوي سابق ، فيلجأ المتكلم حينئذ إلى استخدام كلمة موجودة سلفاً في اللغة للدلالة على هذا الشيء المستحدث . والمجاز هو أحد هذه الوسائل اللغوية التي تعبر عما يستجد في البيئة المعينة ، حيث يأتي جنباً إلى جنب مع الاشتقاق

(*****) سورة الشورى - الآية رقم ١١ .

(*****) سورة يوسف - الآية رقم ٨٢ .

(*****) سورة البقرة - الآية رقم ٢٥٥ .

والنحت والتوليد والاقتراض.^(١٩) ويذهب بعض علماء اللغة الفرنسيين إلى أن ظاهرة تغير المعنى أو الدلالة _ والمجاز جزء منها _ ترجع إلى عدة أسباب لغوية ، تاريخية واجتماعية ، فهي مجتمعة تستطيع أن توضح حالات كثيرة من تغير المعنى ، لكنها لا تستطيع تفسير البواعث الإبداعية أو الخلاقة التي تكمن خلف بعض المجازات المستعملة في الشعر ، أو حتى في الكلام العادي.^(٢٠)

وفي الحقيقة اتفق أيضاً مع ما يقول أن الحاجة إلى التعبير عن شئ مستحدث في عالم المادة أو عالم الفكر وليس له رمز لغوي سابق _ هي السبب الأول لحدوث ظاهرة المجاز في اللغة عامة وهذا ينطبق أيضاً على لغة الهوسا لأنه بنظرة فاحصة إلى معاجم لغة الهوسا القديم منها والحديث نرى مادتها اللغوية مقارنة بمعاجم اللغة العربية والإنجليزية والألمانية _ مثلاً _ ضئيلة ، فكان لابد من وسيلة للتعبير عن المستجدات والمستحدثات في اللغة _ فكان المجاز واحداً من هذه السبل التي تؤدي إلى هذا .

والحاجة التي تدعو إلى المجاز في الهوسا قد تتنوع ، ولكن يمكن ذكر بعضها على النحو الآتي:-

- ١ - مواكبة ما يستجد من ألفاظ وتعبيرات نتيجة التقدم التكنولوجي الهائل .
- ٢ - التعبير عن المصطلحات الجديدة التي تظهر نظراً لمستجدات السياسات العالمية المتغيرة .

- ٣ - صياغة المثل الشعبي أو القول المأثور .

١٩ - شفيع السيد - مرجع سبق - ص ١٠٤ بتصرف.

٢٠ - نفس المرجع - ص ١٠٥ - بتصرف.

٤ - الرغبة في التلطف في تعبير قد لا يكون لائقاً حين الإفصاح به مباشرة كما في "لقيط" للولد "غير الشرعي" .

٥ - الرغبة في إثارة الدهشة وشد الانتباه ، كما في "ابن ليل" حين يراد التعبير عن "لص" أو "سارق" ، و"يعقد هذا ويفك هذا" وذلك "للمتحير" أو "المرتبك".

٦ - وقد تكون هناك أسباب أخرى غير هذه .

ثانياً: أهمية المجاز في لغة الهوسا:

المجاز في لغة الهوسا يأتي _ كما ذكرنا _ جنباً إلى جنب مع الصور اللغوية الأخرى كالاشتقاق والنحت والتوليد والاقتراض وغيرها ليعالج قصوراً في الأداء اللغوي ، ويكمل فراغاً في قاموسها .

وإضافة إلى هذا نرى المجاز يساهم في تكوين وإنشاء تراكيب ومصطلحات جديدة ، ويدخل في صوغ الحكم والأمثال كما ذكرنا بأسلوب تظهر معه البلاغة في اللغة من خلال توضيح الدلالات المقصودة وتبيينها . وعلى حد تعبير أحد أبناء الهوسا عن المجاز في لغة الهوسا نراه يقول : " لغة الهوسا من اللغات التي تعتمد على المجاز وتستقي منه معظم معانيها" (*****). وضرب مثلاً بكلمة "الأرض - Kasa " حيث أشار إلى أنها تأتي بمعنى "الأرض _ الكرة الأرضية" تارة ، وتأتي لتدل على جزء من كل وهو "التراب" ، وتأتي للدلالة على معنى "الظرف" ، "تحت" ، وغير ذلك.

(*****). يهوذا سليمان - ناطق لغوي - هوساوي من زاريا - نيجيريا.

ثالثاً: مستويات استعمال المجاز في لغة الهوسا :

لا يقتصر وجود المعنى المجازي في لغة الهوسا فقط على الكلمة المفردة ، سواء أكانت اسماً أم فعلاً ، بل يتعدى هذا إلى مستوى الاسم المركب ، وكذلك الفعل المركب ، ثم ينتقل أيضاً إلى العبارة الاسمية والأخرى الفعلية ، ولهذا سوف تتناول الدراسة المجاز في الهوسا على النحو الآتي:

أ- المجاز على مستوى الكلمة المفردة ، ويشمل:

أولاً- الاسم ، وينقسم إلى :

أ - اسم بسيط. ب - اسم مركب.

ثانياً- الفعل وينقسم إلى :

أ - فعل بسيط. ب - فعل مركب.

ب - المجاز على مستوى العبارة اللغوية ، وينقسم إلى :

أولاً - عبارة اسمية. ثانياً- عبارة فعلية.

أ: المجاز على مستوى الكلمة المفردة:

أولاً- المجاز على مستوى "الاسم Noun- Suna"

أ- الاسم البسيط:

يراد به الوحدة المعجمية البسيطة الواحدة ذات الدلالة على معنى اسمي بسيط، ونعني بقولنا "بسيط" أنه لا تتداخل معه صور كلامية أخرى، أي لا يشترك معها لا عن طريق الإضافة، ولا عن طريق غيرها، ويخرج من هذا الفعل

والحرف وغيرهما ، وذلك كقولنا "زيد _ عمرو _ إسلام _ عبير _ مكتب _ بلد _ نهر _ أرض _ سماء _ .. الخ. ومن مثل هذا أيضاً في الهوسا "مدرسة Makaranta _ سوق Kasuwa - أرض Kasa _ سماء Sama".

ويظهر المجاز في هذه الأسماء حين تتحول عن معناها الأصلي إلى معنى آخر فرعي ، ويمكن بيان ذلك على النحو التالي:

الاسم البسيط	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
Kasa	أرض - كوكب الأرض	١ - تراب - رمل وفى هذا الاستخدام تضيق للمعنى ، حيث انتقل من الأعم إلى الأخص ، لأن التراب جزء من كل وهو الأرض ، وفى حين أن المعنى الأصلي للكلمة تراب هو ، rairayi وهذا من نوع المجاز المرسل حيث سمي "الجزء" وهو "التراب rairayi" باسم "الكل" وهو Ruwan sama ne fa, in ya fado, sai kasa ta shanye shi. Ikon Allah p.20 - L.3o إذا سقط المطر ، فسوف تشربه الأرض.	... Ka yi maza, ka zuba mata kasa. Ikon Allah p.14- L.21. ... أسرع ، وأفرغ عليها "النار المشتعلة" ترابا Mutum ya. sani akwai ruwa a kasansa,sabo da haka ya sami dabara ta haka rijiya. Ikon Allah p.20- L.27. .. يعرف الإنسان

الاسم البسيط	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
		"الأرض kasa ٢ - تحت "ظرف مكان" أسفل		بوجود ماء تحته ، ولذلك فكر في حفر الآبار.
Duniya	دنيا - الحياة الدنيا	الأرض- الكرة الأرضية وهذا مجاز مرسل حيث سمى "الجزء" وهو "الأرض - Kasa" باسم "الكل" وهو " الدنيا Duniya "	... ko da ya ke su suna gudun duniya, ba su watsa wa kowa kura Ikon Allah p .2- L.II. ... على الرغم من أنهم زاهدون في الدنيا إلا أنهم لم يشيروا غباراً على أحد. ...Wannanduny a ta mu tana cike da abu buwa iri iri. Ikon Allah p.I L.I. ... دنيتنا هذه مليئة بالعديد من الكائنات .	nisan rana daga nan duniya ya yi mil 92, 800,000. Ikon Allah p.38- L.16. ... بُعْدُ الشمس عن الأرض يصل إلى حوالي ٩٢٨.٠٠٠.٠٠٠ ميل ...Ban da wannan irin mirdawa da duniya take yi, tana kuma tafiya cikin sararin sama Ikon Allah p.41-L. II. ... علاوة على هذا الدوران الذي تحدثه الأرض ، فإنها تسبح في أجواء السماء.

الاسم البسيط	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
				<p>... Duniya</p> <p>kamar katon</p> <p>kwallo ne. lkon</p> <p>Allah p.40 - L.II.</p> <p>... الأرض مثل</p> <p>الكرة الضخمة .</p>
Gari	مدينة - حضر	<p>دولة . وفي هذا</p> <p>الاستخدام توسيع</p> <p>للمعنى حيث</p> <p>انتقل من الأخص</p> <p>إلى الأعم ، وهذا</p> <p>مجاز مرسل ،</p> <p>حيث استخدم</p> <p>الجزء وهو "مدينة</p> <p>gari - للدلالة</p> <p>على الكل وهو</p> <p>"دولة kasa"</p>	<p>... Tana tafiya</p> <p>cikin hamada</p> <p>ba ta kai wani</p> <p>babban gari ba.</p> <p>Kome nisan</p> <p>dare p.53-L.5.</p> <p>...تسير في</p> <p>الصحراء ولم تصل</p> <p>إلى أي مدينة كبيرة .</p>	<p>... Ga Waz-</p> <p>irin sarkin si-</p> <p>nari ya zo da</p> <p>wadansu man-</p> <p>yan garinsu.</p> <p>Magana jari</p> <p>ce. P.3- L.29.</p> <p>... ها هو وزير</p> <p>أمير سيناري ، لقد</p> <p>حضر ومعه بعض</p> <p>كبار دولتهم.</p>

ب - الاسم المركب :

ويراد به الاسم المفرد الذي تكون من كلمتين أو أكثر ، كل واحدة منهم ذات دلالة ومعنى خاص كما في "عبد الله ، دار الشفاء ، ... وما إلى ذلك" ولكن بإضافة كل منهما للآخر تكون معنى مجازي آخر ، ومن ذلك في لغة الهوسا، ما يأتي:

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
Mai duniya	صاحب الدنيا صاحب - ذو mai الدنيا duniya وهي كلمة من أصل عربي «الدنيا» .	سمو الأمير - صاحب السعادة - جلالة الملك - صاحب العرش - الحاكم - رئيس الدولة . ووجه الشبه هنا هو «التملك والاستحواذ» وهذا أيضاً مجاز مرسل لإطلاق العموم على الخصوص ، في حين أن معنى «أمير - ملك» في الهوسا هو sarki	... Allah shi ne mai duniya الله هو صاحب الدنيا «يهوذا سليمان - ناطق لغوي» Sarakunsa Suka shiga tsakani tsakani suna hucewa mai duniya . Magana jari ce p.4-L.11. ... لقد تدخل وزراؤه قائلين : «اهدأ يا جلالة الملك» .

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
Majalisar dinkin duniya	مجلس حياكة الدنيا مجلس Majalisa وهي كلمة من أصل عسري «مجلس» حياكة dinkin	الأمم المتحدة. ووجه الشبه هو التوحيد والتماسك، وهنا نلاحظ تطوراً دلاليّاً في استخدام كلمة «مجلس» لأنها تشير في الأصل إلى «مكان الجلوس»، ولكنها هنا أصبحت تدل على «الأعضاء السياسيين» الذين يتكون منهم «مجلس الأمم المتحدة». وهذا أيضاً مجاز مرسل والعلاقة فيه هنا بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي هي علاقة «محلية». حيث يطلق اسم	Inka lura da dukan halittar Allah, saika ga kamar duk dinke a ke. Ikon Allah p.3-L.30 لو أنك أمعنت السنظر في مخلوقات الله، سترى وكأنها متشابكة مع بعضها البعض Shugaban Iraki maigida Saddam Husein ya Shaida wa majalisar dinkin duniya . Gaskiya ta fi kwabo 20 Yuli- 1990.P.1 ... لقد ندّد الرئيس العراقي صدام حسين بالأمم المتحدة .

الاستعمال اللغوي		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الاسم المركب
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
		<p>المكان على من يحل فيه . أما صورة المجاز في كلمة dinki - يحبك -</p> <p>يخيط «فهى» تشبيه حذف أحد طرفيه، حيث شبه توحيد العالم سياسياً في صورة «الأمم المتحدة» بـ «ربط بلاد الدنيا بعضها ببعض عن طريق الخياطة» .</p> <p>وانتقل هذا الشكل من صورته الأولية حتى أصبح تعبيراً اصطلاحياً متعارفاً عليه ، وفي هذا الاستعمال المجازي نلاحظ</p>		

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
Fari ciki	بياض داخلي أبيض - Fari اللون الأبيض . في - داخل cilki	فرح - سرور - سعادة بهجة . وجه الشبه هنا النقاء من كل ما يعكر الصفو وهذه كناية، فالعلاقة هنا لزومية .	- Ki kawo jar kaza mai tukku da farin zakara maras tukku. - Kome nisan Dare . أحضرى ديكاً أحمرأ ذى عرف أبيض وديكاً بدون عرف Saboda haka sarkin nan ya zama ba wani wanda zaigani ransa, yayi fari cikin fadan nan taso duka. Magana jari ce.1.p.1-L.16 ... ولذلك أصبح هذا الأمير فى حالة لا يستطيع أحد معه فى بلاطه الملكى هذا أن يدخل السعادة إلى قلبه .
Bakin ciki	سواد داخلي أسود - baki اللون الأسود .	حزن - هم . وجه الشبه هو وجود ما يعكر الصفو، وهذه أيضاً كناية والعلاقة بين المعنيين علاقة لزومية Domin bakin nan yanuna cewa digo- digon ruwa dake ciki sun gama tattaruwa ke nan Ikon Allah .1.P 29 L.35 ... لأن هذا السواد	...Yana nan cikin wannan bakin ciki, sai ran nan wani shaihun malami ya zo ya ce masa. magana jari ce 1.P1-L.26 .

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
			الذي بداخله « في السحاب » . فسر أن هذه القطرات « المائية » قد اكتمل تجمعها هكذا « كونت السحاب الكثيف » . له وقال ... » بينما هو « الملك » في حزنه هذا ، إذ بأحد الشيخ في ذات يوم من الأيام جاء له وقال ... » .
Dadin bakin	لذة الفم لذيذ - جميل dadi فم - حنك baki	فصاحة - كلام فصيح . وصورة المجاز هنا استعارة تصريحية ، فالعلاقة بين المعنى الأول والثاني هي علاقة المشابهة ووجه الشبه هنا الجمال والاستساغة .	-Kurege ya ce, “ ke bushiya” zaman nan namu da ke ba shi da dadi . Ka kara karatu P.3-L.5. -قال السنجاب - أنت أيها القنفذ. إقامتنا هذه معاً ليست ممتعة . -Buda baki, ka shaki sabuwar iska. Ikon Allah. 1-p.8- L.5,6 - افتح الفم واستنشق هواءً جديداً .	-Takamar da na ke yi ba don sa- boda kyaun ji- kina kadai na ke yi ba, ba ko don saboda da- din bakin nan da Allah ya bani ba, amma saboda baiwa wadda Ubangijimmu ya yi mini ta wajen iya duba. Magana jari ce.p.6-L.3 إن التشدق الذي أبديته ليس من أجل جسدي الجميل

الاستعمال اللغوي		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الاسم المركب
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
فقط، وليس من أجل فصاحتى هذه التى وهبني الله إياها، ولكن من أجل الموهبة التى وهبني بها الله تعالى والتى تتمثل فى بعد نظرى .				
... An allura a cikin tsokar jiki, ko cikin Fata , ko cikin hanyar jiki, ko cikin gaba. Aikinlikita. يحقن «المريض» فى العضل، أو فى الجلد أو فى الوريد، أو فى المفصلSai suka hangi wani kunshi agefen hanya. wani kunshi agefen hanya. Ka kara karatu p.10-L.8 وعندئذ رأيا صرة من المال على حافة الطريق Sai ka ga mutum ya haukace ya riko cizon jikinsa wai zai sha jininsa. Ikon Allah! p.18-L.27	كلمة hanya التى معناها الأصلي «طريق-درب» فى تركيب إضافي مع كلمة «دم» " بمعنى «عرق Jini - شريان» على اعتبار أن العروق أو الشرايين هي «مجرى الدم» وهذا النوع من نوع المجاز المرسل، لأن الارتباط فيه بين المعنى الأول والثاني قائم على المشابهة	طريق الدم طريق- hanya درب jini دم	Hanyar jini

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
			وعندئذ ترى الإنسان قد تملكه الجنون فأخذ يعض في جسدة ليشرب من دمه .	
Gidan tarihi	بيت التاريخ بيت منزل - دار gida وهذه الكلمة تساهم عن طريق الإضافة في تكوين معان «مجازية عديدة تاريخ tarihi وهي كلمة من أصل عربي وتعني «الأزمة والعصور المختلفة» وليست بمعنى «التقويم الحسابي date» .	«متحف» وذلك على اعتبار أن «بيت التاريخ» هو الذي يضم أو يحتوي على آثار وشواهد السابقين وهذا مجاز مرسل .	-ya dawo gida عاد إلى المنزل -tarihin haifuwa تاريخ الميلاد «يهودا سليمان- ناطق لغوي» Ministan sa- kafa ya tabattar da cewa za aka- fa sabon gidan tarihi. صرح وزير الثقافة بأنه سوف ينشئ متحفاً جديداً
Gidan al Kali	بيت القاضي بيت منزل gida القاضي al-kali الحاكم ، وهي كلمة من أصل عربي .	«محكمة - دار قضاء» وهذا الاستخدام يقابله أيضاً مجازيا التعبير Wurin alkali «والذي يعني حرفياً» مكان القاضي ومجازيا «المحكمة»	wani mutum ya sayi nama, ya ce yaron ma- hauci ya kai masa gida. Ka kara karatu p.12-L.9. ... لقد اشترى أحد	Babban mat- imaki ya nufi gi- dan Al-kali توجهه النائب العام إلى المحكمة . «صبري سلامة المصطلحات السياسية - رسالة ماجستير» .

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى اللغوي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال مجازي	استعمال مجازي
		وهذا مجاز مرسل ، العلاقة فيه هنا علاقة محلية أو مكانية .	الناس لحماً فطلب من صبي الجزار أن يوصله له إلى البيت Alkali ya ga haka sai ya yanke sharia. ka kara karatu .p.6-L.1 ...نظر القاضي هذا فأصدر حكماً	
Taurarin dan Adam	نجوم ابن آدم نجم taura نجوم taurari ابن da آدم Adam	أقمار صناعية . وذلك على اعتبار التمييز بين الأقمار والكواكب والنجوم الطبيعية وبين الأقمار الصناعية التي تنسب إلى بني الإنسان وصورة المجاز هنا - «استعارة» فالعلاقة بين المعنيين هي علاقة المشابهة .	Rana da wata da taurari الشمس والقمر والنجوم . عنوان موضوع في كتاب Ikon Allah p.38 Taurari iri biyu ne. Ikon Allah - p.45- L.22 النجوم نوعان	Sakayan aiki na bincike ya nuna cewa an samu yawaici na taurarun dan Adam ...كشف التقارير عن وجود العديد من الأقمار الصناعية . «صبرى سلامة المصطلحات السياسية- رسالة ماجستير»

الاستعمال اللغوي		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الاسم المركب
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
<p>...kasashen da ke dako ga halayen da ake ciki sun nemi cewa ya kamata a zamun yan sanda na duniya a wannan yanki.</p> <p>طالبت الدول المراقبة لهذا الوضع القائم حالياً بضرورة وجود الشرطة الدولية في هذا القطاع .</p> <p>« صبرى سلامة المصطلحات السياسية - رسالة ماجستير »</p>	<p>... ya dakko dan sanda a al-jihonsa .</p> <p>أخذ عصا صغيراً من جيبه .</p> <p>« يهوذا سليمان - ناطق لغوى »</p>	<p>شرطة دولية وفي ذلك كناية عما اشتهر به جنود الشرطة من كثرة حملهم الهراوات في أيديهم . العلاقة بين المعنيين « أبناء العصا » Yan san- da و« شرطة » هي علاقة لزوم حيث لا يعبر عن المعنى باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن بمعنى آخر ملزم يشار به إليه ويكون دليلاً عليه . أما استعمال كلمة « دنيا - duniya » بمعنى دولي » فهذا استعمال من نوع المجاز المرسل وهنا تحولت كلمة « duniyaa » من معناها الأصلي « دنيا » إلى اسم صفة « دولي » .</p>	<p>أبناء العصا في الدنيا أبناء yan dan مفردا ابن عصا sanda خاص به دنيا duniya</p>	<p>Yan Sanda na duan</p>

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
Yan Sanda	أبناء العصا - أبناء الهروات والمفرد منها - شرطي Dan sanda «ابن العصا»، أى «شرطي» أبناء عصا ‘Yan sanada	شرطة - جنود الشرطة وذلك كناية عما اشتهر به جنود الشرطة من استخدامهم للعصا التي يستخدمونها كثيراً في فض الاشتباكات	Dabbobi da it- atuwa da’ yan Adam duk suna bukatar abinci . Ikon Allah. p.3- L.8 الدواب والأشجار وأبنساء آدم «الإنسان» كلهم يحتاجون إلى الطعام A makon da ya gabata’ yan sandan Iraki sun gamu da munanan hare- hare. Almizan- Feb- ruary ص ١ 2004- 24 واجهت الشرطة العراقية في الأسبوع الماضي أسوء هجوم شن عليها ... Dan sanda ya harbi dan sanda. Almizan- 23 sha aban 1422 - ١ شرطي يقتل شرطياً.
Majalisar jagorancin Kasa	«مجلس قيادة الأرض» مجلس majalisar وهي كلمة من أصل عربي «مجلس»	«مجلس رأس الدولة» جاءت هنا كلمة Kasa الأرض بمعنى «الدولة»	... halittun ruwa sun fi na kasa yawa . الكائنات البحرية أكثر من كائنات الأرض عدداً	... Shugaban Mubark ya sadu da shugaban ma- jalisar jagorancin kasar Sudan المصطلحات

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
	قيادة jagorancin الأرض Kasa	وفي هذا الاستخدام تضييق للمعنى ، حيث أن كلمة «دولة» تعد جزء من كل وهو «الأرض» بشكل عام ، وهذا مجاز مرسل.	makaho da jagora . الأعمى ومصطحبه . na tafi majalisar wakilai . ذهبت إلى مجلس النواب «يهودا - ناطق لغوي»	السياسية- رسالة ماجستير . التسقى الرئيس مبارك برئيس مجلس رأس الدولة السوداني .
majalisar juyin juye hali	تغير الأوضاع أوالحال. مجلس majalisar تغيير - استدارة juyin juye الحال - طبيعة hali وهي كلمة من أصل عربي «حال» .	مجلس قيادة الثورة وهذا مجاز مرسل والعلاقة فيه سببية حيث تتسبب الثورة في تغيير أوضاع المجتمع من حال إلى حال آخرin rana ta juya bisa kan hamada sai ta sa wurin ya yi zafi ainun. Ikon Allah. 1. p. 16-L.14 لو أن الشمس استدرات فوق الصحراء ، عندئذ ستجعل المكان حاراً جداً . Halin Ruwa طبيعة الماء عنوان موضوع في كتاب Ikon Allah. 1.p.24.	Shugaban ... majalisar juyin juye hali na kasar Sudan ya dawo daga Bagadaza safiyar wannan yau المصطلحات السياسية رسالة ماجستير . عاد صباح هذا اليوم قادماً من بغداد رئيس مجلس قيادة الثورة السوداني .
Mai	صاحب الناحية ذو - صاحب mai	عمدة هذه كناية،	Musa ya zama mai kudi, ya	Mai unguwar birnin konakiri

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
unguwa	ناحية- ضاحية unguwa	والعلاقة هنا بين المعنيين هي علاقة لزوم ووجه الشبه هنا . هو التملك والسلطة .	saye unguwa duka, ya zama mai unguwa أصبح موسى ثرياً فقد اشترى الضاحية كلها وأصبح صاحبها. «يهودا سليمان - ناطق لغوى» .	ya yaba da kyakkyawar dangantaka tsakanin kasashen . biyu . المصطلحات السياسية رسالة ماجستير أشاد عمدة مدينة كوناكرى بالعلاقات الوثيقة بين البلدين.
Gidan 'yan sanda	بيت أبناء العصا بيت gida أبناء 'yan العصا sanda	قسم شرطة وهنا استخدمت كلمة «بيت gida مجازاً» بمعنى «قسم -مركز» وهذا مجاز مرسل .	لقد سبق الاستخدام	...ya nufi gidan yan sanda bayan an kama masu laifi . صبرى سلامة - رسالة ماجستير. توجهه إلى قسم الشرطة بعد أن القى القبض على الجناة.
Babban mataimaki	مساعد كبير كبير، ضخم ، رئيسى Babba مساعد mataimaki	نائب عام وهنا جاءت كلمة «كبير - ضخمة» babba التى تستخدم في الوصف المادى والمعنوى - بمعنى معنوى وهو «عام»	... Wani abu kuma babba, wanda ya rabo abu mai rai da mara rai. Ikon	...Babban mataimaki ya nufi gidan Al-Kali المصطلحات السياسية

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال مجازي	استعمال مجازي
تابع Babban mataimaki		وهي صفة تلازم المناصب والمراكز الهامة . كذلك من الدلالات المعنوية لهذه الكلمة كبير - babba "حاد عنف ، وذلك كما في « أزمة حادة babban rikici ويقابلها في هذا الاستخدام كلمة manya كبير ، عظيم sarki كما في ya sa aka tara masa manyan malamai arba, in. magana jari ce.1 p.2.L.1 أمر الأمير أن يجمع له أربعون عالماً. وهذا من نوع المجاز المرسل	- رسالة ماجستير توجه النائب العام الى المحكمة . Allah.1.p.3-L19 شيء هام هو الذي يفصل بين الكائن الحى والجماد.	
Dan aiki na musamman	« ابن العمل المعلوم » ابن dan عمل aiki إضافة na	« مبعوث خاص » جاء	...Duk da haka murnarsa ragaggiya ce domin dan mace	...Wani dan aiki na musamman ya iso nan Al- kahira daga ka- sar Namibia.

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
	معلوم مخصوص musamman	«مبعوث خاص» هنا التركيب «ابن العمل» dan aiki من قبيل المجاز بمعنى «مبعوث» وهو الشخص الذي يكلف بهمة رسمية أو خاصة ، وهذا كناية والعلاقة هنا بين المعنيين هي علاقة لزوم .	ba ya gado. Magana jari cel.P.1-L.24 ...على الرغم من ذلك فإن فرحته لم تكتمل لأن ابن المرأة لا يرث . In ka kama aiki da himma ... Ikon Allah I.P.9.L.19 ...لو أنك بدأت العمل بهمة	صبري سلامة رسالة ماجستير وصل إلى القاهرة مبعوث خاص قادماً من نامبيا .
Kasashen' yan ba ruwammu	أراضي الأبناء «الذين يقولون» هذا ليس مائناً» - أي ليس شائناً. أراضي Kasashen أبناء 'yan نفى ba ماء ruwa ملكية للجمع المتكلم mu نحن .	«دول عدم الانحياز» هذه أيضاً كناية والعلاقة هنا علاقة اللزوم بين المعنيينRuwa da ke gudu cikin rafi ba shi da rai. ikon Allah 1.p.2.L.18 الماء الذي يجري في النهر ليس حياًA taron koli an kasashen yan ba ruwammu, manyar kusoshi sun nuna da muwansu game da wannan matsayi. المصطلحات السياسية ، رسالة ماجستير. ...في اجتماع قمة دول عدم الانحياز، أعرب المسؤولون عن قلقهم تجاه هذا الوضع .

الاستعمال اللغوي		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الاسم المركب
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
...Wadansu kamar malam-bude littafi su na da wani irin kamar dam famfo dogo. Ikon Allah. p.235-L.37	... Malamin ya ce shi ba kudi suka kawo shi ba ... magana jari ce l.p.1-L.31	«فراشة أبو دقيق» والمجاز من قبيل تشبيه فراشة أبي دقيق - التي كثيراً ما تفرد جناحيها - بالكتاب المفتوح صورة المجاز هنا هي «الاستعارة»	«أبها المعلم - افتح الكتاب» معلم malam وهي كلمة من أصل عربي «معلم» كما تستعمل كصيغة احترام كما في «سيد- أستاذ» . فعل بمبنى «افتح» Bude كتاب li ttafi وهي أيضاً كلمة من أصل عربي «كتاب»	Malam-bude littafi
... بعضها «الحشرات» مثل فراشة أبي دقيق، لها قم طويل يشبه يد طلمية المياه الصغيرةLittafin nan da ka ke karantawa ba shi da rai. Ikon Allah. P.1.L.11. .. هذا الكتاب الذي تقرأه-ليس لديه روح...			
...Mohammad. an raine shi a dangin nononsa ... تربي محمد عند أخواله «-ناطق لغوي-أ. يهوذا»	...A shayar da shi da nono da danginsa يرضع باللبن وما يماثله «إضافة» «يهوذا- ناطق لغوي»	عائلة الأم - أخوال وهذا مجاز مرسل	فصيلة أو سلالة اللبن dangi سلالة- عائلة nono لبن- ثدي	Dangin nono
...Sun je bakin daga. ... لقد ذهبوا إلى جبهة القتالBuda baki ka shaki sabuwar iska... Ikon Allah. P.8-L.5	ساحة القتال والمعنى «قم الصلابة» تصوير لساحة القتال بأنها الميدان الذي	«قم الصلابة» baki قم - حنك da ga صلابة - قوة متانة ويأتي منها	Bakin daga

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
	«الفعل أصر ya dage وكذلك «عنيد mai dagewa	يفرز صلابة وشدة المتحاربين وهذا مجاز مرسل افتح فمك واستنشق هؤلاء جديداً ...	«ناطق لغوي- أيهوذا»
Bakin kaza	فم الطبلية فم - مدخل baki الطبلية ganga	«منافق» وفي ذلك تشبيه للمنافق بأن له وجهين كالطبلية بوجهيها ، وهذه كناية عن ظهور الشخص تارة برأى ، وتارة أخرى مع آخر برأى حول نفس الموضوع buda baki ka shaki sabuwar iska. Ikon Allah. P8-L5. ... افتح فمك واستنشق هواء جديداًDa ta duba sama, ta ga ganga a rataye a bisa itaciya. Ka kara karatu. P.17-L.23. ... عندما نظرت «الذئب» إلى أعلى ، وجدت طبلية	...Shi bakin ganga ne. إنه منافق «ناطق لغوي- يهوذا»
Bakin Kaza	«فم الدجاجة» فم - مدخل baki دجاجة kaza	«جاحد ومنكر للفضل والنعمة» . وذلك على اعتبار أن فم الدجاجة لا يمل ولا يكل من كثرة الأكل وهذا كناية عن الإنكار والاجحاد والعلاقة هنا علاقة	معلقة على الشجرةWata rana dila yana cin kaza ... ka kara karatu. P.6110 ... في ذات يوم كان الشعب يأكل	...Shi bakin kaza ne. ... إنه جاحد للفضل والنعمة . «ناطق لغوي- يهوذا»

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
Bakin jini	« دم أسود » baki أسود jini دم	لزومية . « منبوذ - غير محبوب » والمعنى من « أسود الدم » يقابل في العربية تعبير « دمه ثقيل » أي شخص غير مرغوب فيه وهذا كناية عن عدم الرغبة وعدم الاستلطف . والعلاقة لزومية .	الدجاجةSai ka ga mutum ya haukaca, ya rika cizon jininsa wai zai sha jininsa. Ikon Allah. P.18-L.27. ...سوف ترى الشخص وقد جن جنونه ، فأخذ يعض في جسده ، ليشرب من دمهShi yana da bakin jini. ...إنه منبوذ وغير مرغوب فيه . « ناطق لغوي - يهودا »
Abin azo agani	شيء يؤتى ويرى abu شيء azo يؤتى agani يرى	« شيء مهم - إنجاز » وذلك على اعتبار أن الشخص إذا انجز شيئاً هاماً فسوف يفخر به ويقدمه للناس أو يخبرهم به . وفي هذا كناية عن الافتخار والتباهي . والعلاقة هنا لزومية	...wani abu kuma babba wanda ya raba abu mai rai da mara rai. Ikon Allah. P.3-L.19. ... شيء ما هام الذي يفضل بين السكائن الحي والجماد	...Bai aikata wani abin azo agani ba. « ناطق لغوي - يهودا » ... لم ينجز شيئاً هاماً .

الاستعمال اللغوى		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الاسم المركب
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
	<p>...ya kuma ce zai zo gidanku. Kome nisan dare. P.11-L.24. ... هو أيضاً سوف يجرى إلى بيتكم .</p> <p>...Ko da ay ke ba ma iya ganin iska, muna iya ganin aikinta. Ikon Allah .P.5-L.12. ...على الرغم من أننا لم نستطع رؤية الهـسواء، إلا أننا نستطيع أن نرى أثره .</p>	<p>حيث تم التعبير عن المعنى المطلوب بمعنى آخر ملزم له ودال عليه .</p>		
<p>...takamer da na ke yi ba don saboda kyaun jiki kadai na ke yi ba, ba ko don saboda dadin bakin nan da Allah ya ba ni ... إن التبختر هذا ليس من أجل منظري الجميل فحسب، ولا من أجل فصاحة القول التي وهبني الله إياها فقط ...</p>	<p>...Bushiya ta ee, "Ashe" Ni ko dadi na ke ji. Ka kara karatu.P.5-L.7. ...قالت القنفذ «عجبا» أما أنا فأشعر بالسعادة .</p>	<p>«فصاحة القول» وهذا كناية عن الفصاحة والبيان في القول . والعلاقة لزومية . ووجه الشبه هنا أن الكلام يلقي اهتماما لحلاوته أي لفصاحته.</p>	<p>«لذة أو حلاوة الفم» - سعادة لذية - تمتع dad i فم baki</p>	Dadin bakin

الاستعمال اللفوى		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الاسم المركب
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
...Wane farin bera ne.	... Zaki kawo farin zakara			Farin bera
...إنه منافق	wanda bai shige		فار أبيض	
«ناطق لفوى-يهودا»	shekara biyu ba.	«منافق»	أبيض fari	
	Kome nisan dare . P.42-L. 25.	صورة المجاز هنا هي «الاستعارة».	فأر Bera	
	«قال لها العراف»	والعلاقة بين المعنيين هي علاقة المشابهة .		
	أحضرى ديكاً أبيضاً	ووجه الشبه هو «الخبث والخداع»		
	لم يكمل عامين من عمره .	على اعتبار أن الفأر الأبيض لديه من طرق الخبث ما يتميز به .		
	... Ta sayo duk abin da ake nema amma ban da kashin bahagon bera da kashin jinjirin jaki.	وهذا التركيب يقابل ويتطابق في المعنى مع كلمة "منافق"		
	Kome Nisan dare . P.58-L. 12.	“munafuki التي من أصل عربى «منافق»		
	... لقد اشترت كل شئ طلب منها علاوة على روث الفأر الأشول وروث الجحش حديث الولادة .			

الاستعمال اللغوي		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الاسم المركب
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
<p>... Wane mai farin jini ne.</p> <p>... فلان محبوب.</p> <p>«ناطق لغوي-يهودا»</p>	<p>... na dauki farin zare</p> <p>... أخذت خيطاً أبيضاً.</p> <p>... Launin jini jane .</p> <p>... لون الدم أحمر.</p> <p>«أ. يهودا سليمان»</p>	<p>محبوب - مرغوب فيه.</p> <p>وذلك على اعتبار أن اللون الأبيض من الألوان المحببة إلى النفس .</p> <p>وفيه إشارة إلى النقاء</p>	<p>«دم أبيض»</p> <p>fari أبيض</p> <p>jini دم</p>	Farin jini
<p>... Allah Ya baka nisan kwana.</p> <p>... أطال الله عمرك.</p> <p>«ناطق لغوي-أ. يهودا»</p>	<p>... Su tabbatar mana cewa nisan rana daga nan duniya ya yi mil 92.800,000.</p> <p>Ikon Allah. P. 38-L-15.</p> <p>... لقد أكد العلماء،</p> <p>لنا أن بعد الشمس عن الأرض يصل إلى ٩٢,٨٠٠,٠٠٠ ميل .</p> <p>... Amma ba ruwa yana iya kwana uku, kila har hudu.</p> <p>Ikon allah .p.18 - 1.10</p> <p>... ولكن بدون ماء يستطيع «الإنسان» أن يعيش ثلاثة أو أربعة أيام.</p>	<p>والصفاء وهذه استعارة ،</p> <p>والعلاقة هنا علاقة المشابهة .</p> <p>«طول العمر - عمر مديد» .</p> <p>وصورة المجاز هنا هي «مجاز مرسل» وقد حدث بسبب تسمية الشيء باسم الغاية التي يصير إليها، وهي هنا «العمر المديد»</p>	<p>«بعد الأيام»</p> <p>nisan بعد - طول</p> <p>Kwana أيام</p>	Nisan kwana

٢ - المجاز في الأفعال:

أ - الفعل البسيط:

ونعني به استعمال الفعل البسيط عن طريق المجاز للدلالة على معنى آخر غير معناه الحقيقي . ومن أمثلة ذلك، ما يأتي :

الفعل البسيط	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
Rada	يهمس إلى - يوشوش	« يسمى » - وهذا مجاز مرسل	... Ali ya yi ma Musa rada لقد همس على لموسى . « أ. يهوذا سليمان »	...aka dai rada wayaron nan suna Musa. Magana jari ce l. P.2 - L . 9 ... لقد سمى هذا الطفل باسم موسى .
Kulle - Kulle	« يربط - يعقد » في حين أن الفعل يربط « شيئاً في شئ آخر » هو "daure"	يدبر - يخطط بمكر وخديعة . وهذه الصورة هي كناية عن السعي والتدبير للمكائد والعلاقة هنا علاقة لزوم Ya Kulle Igiya. ... لقد ربط الحبل « أ. يهوذا سليمان »	... Ya Shiga Kulle -Kulle Kullum na yadda zai ya kashe Musa. Magana Jari ce l. P.2 - L28. ... لقد أخذ « الوزير » يدبر كيفية قتل موسى
Kashe	يقتل - يزهق الروح	يطغى . مجاز مرسل قائم على علاقة الملابس بين المعنيين ، وهناتقوم على	... Ya Shiga kulle - kulle kullum na yaddazai yi ya kashe Musa.	...in kana son Ka kashe wuta, sai ka hana ta samun iska Ikon Allah.

الإستعمال اللغوى		المعنى المجازى	المعنى الأصلى والمعجمى	الفعل البسيط
استعمال مجازى	استعمال حقيقى			
P.14 - L.19. ... إذا أردت أن تطفى النار ، فامنعها أن تجد الهواء .	مكرر ...لقد أخذ «الوزير» يدبر كيفية قتل موسى	تسمية الشئ باسم الغاية التى يصير إليها. ووجه الشبه بين الاستخدامين هنا هو التحول من الحياة إلى العدم .		
...Ka yi maza ka zuba mata kasa. sai ta mutu. Ikon Allah. p.14-L.21. ... إذا أردت أن تطفى النار، فامنعها أن تجد الهواء ، فعندئذ سوف تنطفى Suka yi ta yawo cikin hamada, su yi gaba, su yi baya. har duk suka mutu. Ikon allah. P.20 - L.15. ... لقد مشوا «الجنود» فى الصحراء كثيراً «تائمين» يذهبون ويعودون ، حتى ماتوا جميعاً .	« يطفى » . مجاز مرسل	« يموت »	Mutu
... Im magariba ta yi, ka ce rana ta fadi ikon Allah. p. 40 - L.5	... Amma za mu yi dan kokari dai. ikon allah. p. 34 - L.4	يحين - ياتى موعده - يمكث . وهذه الكلمات من الكلمات التى تشترك مع كلمات أخرى	يعمل - يفعل - يحدث	Yi

الاستعمال اللغوي		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الفعل البسيط
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
<p>... إذا حان وقت المغرب تقول الشمس قد غابت « غريت » ...Im maraice yayi, sai naman dawa duk su nufi koramu su sha ruwa ikon allah. p.18 - 1.3 ... إذا حان وقت المساء سوف تتوجه حيوانات الغابة إلى المنابع المائية لتشرب الماء. ... duk zaman da mutum zai yi a duniya tun daga haihuwa har mutuwa. ikon allah. p. 5 - 1. 11. ... كل عمر الانسان الذي سيمكثه في الدنيا ، منذ الولادة حتى الموت.</p>	<p>... ولكن سوف نعمل محاولة صغيرة.</p>	<p>بالإضافة لتساهم في تكوين العديد من الكلمات المركبة «الأفعال المركبة».</p>		

الاستعمال اللغوي		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الفعل البسيط
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
<p>... im magariba ta yi, kace rana ta fadi ikon Allah. p. 40 - 1.5</p> <p>... إذا حان وقت المغرب، تقول الشمس غابت " غربت".</p> <p>...ya fadi gaban sarki ya ce wayyo Allah, ka yi mana agaji.</p> <p>magana jari ce. p.7-1.9.</p> <p>... لقد انحنى أمام جلالة الملك قائلاً " يا للهول - يا للهول " أغثنا يا جلالة الملك.</p> <p>... suka hau masa da zagi. sai fada ya tashi.</p> <p>ikon allah. p. 20 - 1. 10</p> <p>... لقد انهالوا عليه سباً وشتماً، وعندئذ نشب الشجار</p>	<p>...ya saka ta-barma, ya shim-fida, ya fadi kanta.</p> <p>ka kara karatu. p.7 - 1.22.</p> <p>... لقد نسج حصيرة ، وفرشها ، ووقع عليها.</p>	<p>« يغيب - يغرب » وتأتى « يركع- ينحني في تذل وخضوع إنحاءاً لتحية الأمراء والملوك . وتأتى أيضا بمعنى «القتال- الشجار» وفي هذا كناية عن «الأقول».</p>	<p>يقع - يسقط</p>	<p>FADI</p> <p>والفعل في أصله fada ويسأتى بنهايات مختلفة قد تكون I أو e أو O وذلك حسب المفعول إذا كان اسماً أو ضميراً .</p>

ب- الفعل المركب :

ونعنى به الفعل ذى الدلالة الواحدة والذي يتكون من كلمتين أو أكثر، وقد استعملتا عن طريق المجاز للدلالة على معنى آخر غير معناهما الحقيقي. ومن أمثلة ذلك ما يأتى.

الفعل المركب	المعنى الأصلي والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
Saki jiki	يطلق الجسد saki يطلق يترك - يرخى جسم - جسد jiki	« يثق - يطمئن ». وفى هذا كناية وتشبيهه للوائح بالذى اطمأن لمن حوله فأرخى جسده ونام . ويأتى أيضاً من هذا التركيب Na Saki Jiki da abokina. أى : اطمأن قلبى لصديقى . وكذلك التعبير Da dukiya أطلق الجسد للأموال أى " اغتر بالأموال" والعلاقة هنا علاقة لزومsai ka ga zarenka na farko bai isa ba, sai ka kara saki. IKon Allah . P. 7 - L. 22. ... سوف ترى أن الخيط الأول لم يكن كافياً ، ويجب أن ترخى «الخيط» أكثر jikinki ya cika tsini, sai ki sake wuri. ka kara karatu. p. 5 - l. 6. ... جسّدك ملئ بالشوك ، عليك تغيير المكان Sai ya takalo maganar yaki. ya ce, " mu dai mun da mu saki jiki da duniya yanzu. ba mu shirin kome. magana jarice. p. 3 - L.4. ... ثم أثار «الوزير» الحديث عن الحرب ، فقال «لقد اطمأنا إلى الدنيا، ولم نستعد لأي شئ»
Karya kumallo	يكسر بمعنى « يغير » karya وتحجى أيضاً بمعنى « يشطر »	«إفطار» . والمعنى هنا قاصر فقط على «إفطار»	... ya karya katako. ... لقد كسر الخشب	... Bayan na karya kumallo. na debo ruwa

الاستعمال اللغوي	المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الفاعل المركب
<p>na kuskure baki . Nuradden A. (AZARA) karshen kiyayya. zamani books Ltd - kano - Nigeria . p.L - 1. 13. ... بعد أن تناولت طعام الإفطار اغترفت ماءً ومضمت فمي .</p>	<p>... yana amai yana fitar da kumallo ... يتقيئ ويخرج بهذا القيئ . «أ. يهوذا - ناطق لغوي»</p>	<p>وليس شرطاً فيه التساوي بين الجزئين المشطورين . أما كلمة kumallo فتعني اللعاب أصفر اللون ذي الطعم المرير والذي تفرزه المعدة في حالة الجوع الشديد أو آلام البطن ، والذي يؤدي أحياناً إلى القيئ أو الغثيان .</p>	
<p>...matabbacin jagoranci ya sanar da mika wuya da yawaici da yawa na sojoji. المصطلحات السياسية رسالة ماجستير أعلن مركز القيادة عن إستسلام عدد كبير من الجنود .</p>	<p>...in ka waiwaya, tsokar wuyanka ita ce ta juya kanka. ikon allah. p.8- 1.27 ... لو أنك استدرت ، فإن عضلة رقبتك هي التي أدارت رأسك.</p>	<p>«استسلام» وذلك كنية عن الخضوع والاستسلام</p>	<p>يد الرقبة يد mika رقبة - عنق wuya</p>

الاستعمال اللغوي		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الفاعل المركب
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
<p>... Masar da Gini Bisau za su sa hannu wata yarjejeniya tsakaninsu ayau المصطلحات السياسية رسالة ماجستير.</p> <p>... سوف توقع مصر وغينيا بيساو معاهدة بينهما اليوم.</p>	<p>... Amakera mai zuga shi ke jan iska cikin zugazugai, kuma ya sake ta da tadin hannunsa. Ikon Allah . P.8 - L.14 ... في ورشة الحداثة نافخ الكبر هو الذي يسحب الهواء في آلة الكبر، وأيضاً يطلقه من خلال حركة يده .</p>	<p>«توقيع - إمضاء» وهذا مجاز مرسل والعلاقة بين المعنيين هنا علاقة المشابهة</p>	<p>يضع اليد يضع sa يد hannu</p>	<p>Sa han- nu</p>
<p>... Wajen hakarkarinsa yana motsi, ya yi sama, ya yi kasa a hankali . Ikon Allah. P. 7 - L.8. ... ناحية ضلوعه «الكلب وهو نائم» تتحرك ، تعلو وتهبط في هدوء .</p>	<p>...ka yi tubali, ka kara aza masa. Ikon Allah. P.2-L. 37 ... اصنع طويلاً للبناء ورض فوقه «فوق الحائط» ... Allah shi ne ubangijin sama da kasa. ... الله هو رب الأرض والسماء. «أ. يهوذا سليمان»</p>	<p>«يهبط» والمصدر منه «هبوط - yin "kasa" أي «عمل الأرض» وهذا مجاز مرسل «يرتفع لأعلى» والمصدر منه " yin إرتفاع - " sama وهذا أيضاً</p>	<p>يعمل أرضاً يعمل - يصنع yi أرض kasa يعمل سماء يعمل - يصنع yi سماء sama وهي كلمة من أصل عربي «سماء»</p>	<p>Yi kasa Yi sama</p>

الاستعمال اللغوي	المعنى المجازي		المعنى الأصلي والمعجمي	الفاعل المركب
	استعمال حقيقي	استعمال مجازي		
... Suka ce wa sarki, " Allah ya ba ka nasara, ka ko kashe mana bakinsa. Magana jari ce. P.6 - L. 24 ... قالوا للأمير، نصرك الله، افحمه لناkashe wannan kwaro ... اقـتـل هـذه الحشرة. ... buda bakinka. ... افتح فمك «أ. يهوذا سليمان»	مجاز مرسل إفحام . هذه كناية عن الإسكات والغلبة . ووجه الشبه هنا هو منع الآخر من الكلام والعلاقة سببية	قتل الفم يقتل kashi فم - حنك baki	kashin baki
... ya yi ajiyar zuciya ya ce... لقد اطمأن فقال ... «ناطق لغوى-أ. يهوذا» ... ba ya fada mini siri saboda bai yi ajiyar zuciya da ni ba. ... لم يقل لي شيئاً لأنه لم يطمئن لي . «ناطق لغوى-أ. يهوذا»	... Ajiya kome a wurinsa. ... ضع كل شيء في موضعه Alkur'ani hasken zuciya da hankali ne القرآن ضياء القلب والعقل . «يهوذا سليمان»	«يطمئن - يطمأن» استعارة، ووجه الشبه هو «الاستقرار»	وضع القلب يضع - يخرن ajiya القلب zuciya	Ajiya zuciya
... Musa da ke nan sai ya tsolma baki ya ce, " in dai don a dauke	...Ya tsolma burodi ashayi وضع الخبز في الشايbuda bakinkaافتح فمك .	«تدخل في الحديث مقاطعة في الكلام» . وهذه كناية عن التدخل في أمر معين دون سبب أو	« حشر الفم » حشر-إدخال tsolma فم - حنك baki وكلمة tsolma تعني أدخل جزءاً	Tsolma baki

الاستعمال اللغوى		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الضعل المركب
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
<p>mahmudu ne, abar ni ni ka- dai, ni ban yar- da ba. Magana jari ce. 1. p.3-L.19. ... موسى الموجود هنا فى نفس المكان تدخل فى الكلام قائلاً ، « لأن يؤخذ محمود وأترك أنا هنا فلن أوافق.</p>	<p>« أ. يهوذا سليمان »</p>	<p>ما يدعو إلى ذلك .</p>	<p>من شئ فى شئ سائل كالماء والزيت وغيره بخلاف Shigar التى تحمل المعنيين إدخال جزء أو كل.</p>	
<p>...Ba su taka rawan gani ba game da yakin Iraki. لم يفعلوا شيئاً تجاه أزمة العراق. ... Wajen hakarkarinsa yana motsi, ya yi sama, ya yi kasa a hankali. Ikon Allah . P.7-L.8. ... ناحية ضلوعيه « الكلب وهو نائم »</p>	<p>...Yi taka tsant- san da kuniya . Ka kara karatu p.13 ... سر بتأنى فى الدنياBa ma iya ganin iska. Ikon Al- lah.p.6-L.5. ...لم نستطع رؤية الهواء ...kayi tubali, ka</p>	<p>« — أنجز » والتعبير " أحدث رقصة ترى " أى أن هذه الرقصة جميلة وأسسرت الناظرين وهذا التعبير يشير إلى " الإنجاز فى العمل " حيث أن الإنجاز دائماً يلفت النظر ويفخر صانعه به ، كما تفخر الراقصة أو الراقص من رقصته التى</p>	<p>« وطاً - رقص - الرؤية » وطاً بقدمه taka مشى - سار رقص rawan اهتزاز رؤية gani</p>	<p>Taka rawan gani</p>

الفاعل المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
		يعجب بها الناظرون . وهذه كناية والعلاقة لزومية	kara aza masa. Ikon Allah.P.2.L.37 ... اصنع طوبى للبناء ورص فوقه «فوق الحائط».	تتحرك، تعلق وتهبط فى هدوء .
Bugunru wan ciki	«ضرب ماء» البطن ضرب bugun ماء ruwa بطن ciki	«استخبار-استجواب» بطريق خبيث وفيه لؤم وخداع» . والمعنى من «يضرب» ماء البطن» أى يستخرج ما لدى الإنسان من كلام حول قضية أو موضوع معين . وهذه كناية والعلاقة لزومية In kaji iska na bugun fusk- ar. ka ka zaci tana yaw on banza ne. ikon Allah.P.15 L27. ... إذا شعرت بأن الهواء يضرب وجهك ، فلا تظن أنه يمضى عبثاًNa bugi ru- wan cikinsa. «ناطق لغوي-أ. يهوذا» ... لقد استدرجته فى الحديث .
Yi hannun riga	عمل يد القميص عمل - فعل - صنع yi يد hannu قميص riga	«افترق - ودع - ذهب بلا رجعة» . والمعنى مأخوذ من تباعد كسمى القميص حين يكون مفروداً، أى أنهما فى هذه الحالة لا يلتصقان لأن صدر	Rigar da ka ke sanye ba ta da rai . Ikon Allah. P,1 - L.17. ... القميص الذى ترتيبه ليس فيه روحKuma ya sake ta da tafin han-	...Mun yi hannun riga da talauci . «ناطق لغوي- أ. يهوذا» ... لقد ودعنا الفقر Ya yi hannun riga da duniyaلقد مات . «ناطق لغوي- أ. يهوذا»

الفاعل المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
		القميص يفصل بينهما . هذه استعارة والعلاقة هنا هي المشابهة .	nunsa . Ikon Allah. P.8- L. 14. ... وأيضاً يطلقه «الهواء» بحركة يده	...ya yi hannun riga da bakin ciki ... لقد ودع الأحزان (أى فرح فرحاً مستديماً) ، أسرته الدنيا . «ناطق لغوى - أ. يهوذا»
Ba marada kunya	«يعطى وشاية الخنجل» يعطى ba marada Kun- خجل- حرج ya	«تحدى - أخذل - أخجل -رد عليهم كيدهم» . مجاز مرسل	Yana jin kunga. يشعر بالخنجل أ. يهوذا	...Uba sanjo ya ba marada kunya na komawa kan karaga mulki لقد أخذل أوبا سانجو الحاقدين بعودته إلى كرسى الحكم . «ناطق لغوى - أ. يهوذا»
Bakunci n lahira	«ضيافة الآخرة» bakunci ضيافة lahira الآخرة وهي كلمة من أصل عبرى «الآخرة» .	موت. وهذا مجاز مرسل وجاء المعنى من تسمية الشئ بما سيؤول إليهHukamar Ma- sar ta bakunci taron, samari na duniyaاستضافت مصر مؤتمر الشباب العالمى. ...Allah ya ta- ramu a lahiraيجعنا الله فى الآخرة.	... Sarkin kano Sanusi ya ba- kunci lahira تسوفى السنوسى أمير كانو «ناطق لغوى - أ. يهوذا»

الاستعمال اللغوي		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	الفاعل المركب
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
<p>...ya yi nisan kiwo .</p> <p>...لقد ذهب بعيداً «ناطق لغوى- أ. يهودا»</p>	<p>...Suka yi ta har rana ta tako. ka kara karatu P. 9-L.22.</p> <p>...لقد رعبنا «القبلة والدجاجة» كثيراً حتى انتصف النهار .</p>	<p>«ذهب لبعيد - تأخر عن مواعده» . كناية والعلاقة لزومية .</p>	<p>«عمل بعد المرعى» عمل - صنع yi بعد nisa مرعى kiwo</p>	<p>Yi nisan Kiwo</p>
<p>Ya yi kukan kura ya shiga bakin daga .</p> <p>... لقد هجم ودخل المعركة «ناطق لغوى- أ. يهودا»</p>	<p>...Ga tsuntsaye na kuka can- waje, suna da rai . Ikon Allah. P.1- L.7.</p> <p>... ها هي الطيور التي تصيح هناك خارج «حجرة الدراسة» لديها روح</p>	<p>«مغامرة - إقتحام - هجوم» . استعارة والعلاقة هنا هي المشابهة ووجه الشبه هنا هو «الشجاعة» .</p>	<p>«عمل عواء» «صراخ» الذئب» . عمل - صنع yi بكاء - صراخ - عواء kukan الذئب kura</p>	<p>Yi kukan Kuran</p>
<p>... Na yi ku- kanzuciya abin da ya faru .</p> <p>...أسفت على ما حدث «ناطق لغوى- أ. يهودا»</p>	<p>... yi aiki . أدى العمل . kada kayi kuka ga abinda ya wuce .</p> <p>... لا تبكى على ما فات «أ. يهودا»</p>	<p>«حزن - أسف» . استعارة والعلاقة هنا هي المشابهة ووجه الشبه هو «الحزن والأسى»</p>	<p>«عمل بكاء» القلب «عمل - فعل yi بكاء - صراخ ku- kan القلب zuci وهي اختصار لكلمة “zuciya “</p>	<p>Yi kukan zuci</p>

ب - المجاز على مستوى العبارة اللفوية :

ويقصد به الصورة المجازية الموجودة داخل العبارة ، سواء أكانت اسمية أو فعلية .

أولاً : العبارة الاسمية :

ويقصد بها العبارة أو الجملة الاسمية المتكاملة التي تحمل معنى مجازياً بداخلها ، وذلك مثل :

العبارة الاسمية	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللفوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
Halin la haua wa la kuwata	« حال لا حول ولا قوة » حال - وضع hali لا حول la haua ولا قوة wa la kuwata وهو تعبير عربي خالص	« مأزق - مصيبة - بلاء » وهذا تعبير عن ضيق الحال وقلة الحيلة . ويقابله في المعنى التعبيرات الآتية : Halin ni 'yasu أي : « حال أنا ابنتهم » وهذا كناية عن « اليأس »	... Halin yanzu . الحال الراهن Lahaula wala kuwata illa bil lahi. ... لا حول ولا قوة إلا بالله . « أ. يهوذا سليمان » ... هذا الحظر وضع العراق في مأزق كبير Wannan ta- kunkumi ya jefa kasar Iraki cikin halin la haua wa la kuwata. Gaskiya ta fi kwabo 20 yuli 990 - p.1 ... هذا الحظر وضع العراق في مأزق كبير .
Hannun kuturu da hannun makaho	يد المجزوم بيد الأعمى hannu يد مجزوم kuturu بـ da الأعمى makaho	بيع حاضر بالدفع الفوري . كناية ، والعلاقة لزومية	... Ka yi riko da hannun dan uwanka خذ بيد أخيك taimaki ku- turu da makaho. ... ساعد المجزوم والأعمى « ناطق لغوي - أ. يهوذا »	...Mu yi hannun kuturu da han- nun makaho لقد باع كل منا للآخر بالدفع الفوري . « ناطق لغوي - أ. يهوذا »

الاستعمال اللغوى		المعنى المجازى	المعنى الأصلى والمعجمى	العبارة الاسمية
استعمال مجازى	استعمال حقيقى			
<p>... Yana jin</p> <p>Hausa sosai ka-mar jakin kano .</p> <p>«ناطق لغوى-أ. يهوذا»</p> <p>...بتكلم الهوسا مثل</p> <p>«حمار كانو» يراد بهذا</p> <p>أنه : «يتكلم الهوسا</p> <p>جيداً ولسان طلق فصيح» .</p> <p>ومن أمثلة ذلك أيضاً</p> <p>ما جاء فى إحدى</p> <p>صفحات جريدة</p> <p>«البشر Albishir»</p> <p>الهوساوية فى عددها</p> <p>الصادر بتاريخ ١٤</p> <p>أغسطس ١٩٩٨م</p> <p>حيث أجريت حواراً مع</p> <p>الزميل الدكتور</p> <p>/ محمد نوفل أثناء</p> <p>زيارته لنيجيريا ، ففى</p> <p>هذا الحوار أشادت به</p> <p>وبقدرته الملحوظة على</p> <p>التحدث بلغة</p> <p>الهوسا بقوة</p> <p>وطلاقة، فقالت عنه :</p>	<p>...Tana fasawa</p> <p>sai ta ga taron</p> <p>kutare da ma-</p> <p>kafi da guragu</p> <p>sun hau kan ja-</p> <p>kai, akadora ta</p> <p>akan jaki .</p> <p>Tatsunyoyi da</p> <p>wassani .</p> <p>... عندما كسرت</p> <p>البيض رأت جمعاً</p> <p>من المصابين بالجزام</p> <p>والعمى والمعوقين</p> <p>مبتورى السيقان ،</p> <p>وهم راكبين الحمير</p> <p>، ثم حملوها على</p> <p>ظهر حمار .</p>	<p>فصاحة - طلاقة</p> <p>لغوية .</p> <p>ويستخدم هذا</p> <p>التعبير حين</p> <p>يراد وصف إنسان</p> <p>ما بأنه يتكلم لغة</p> <p>أخرى بفصاحة</p> <p>وطلاقة وأنه على</p> <p>علم ودراية بها ،</p> <p>وربما يحتمل</p> <p>التشبيه فى هذا</p> <p>المقام بـ «حمار</p> <p>كانو» على أمرين</p> <p>الأول أن «الحمار»</p> <p>صوته دائماً</p> <p>مرتفعاً ومدوى فى</p> <p>المكان الذى هو</p> <p>فيه بالإضافة إلى</p> <p>قوته وجهره .</p>	<p>حمار كانو</p> <p>حمار jaki</p> <p>مدينة كانو</p> <p>النيجيرية Kano</p>	<p>Jakin</p> <p>Kano</p>

الاستعمال اللغوى		المعنى المجازى	المعنى الأصلى والمعجمى	العبارة الاسمية
استعمال مجازى	استعمال حقيقى			
<p>...Dakta Noufal dan shekaru 32 da haihuwa, Bal- araben Masar ne da ya lashi tak- obin ganin cewa nan ba da ji- mawo ba, zai iya ja-in -ja ko da ja- kin Kano ne a wajen lakanta, da fahimta da kuma sarrafa harshen Hauas</p> <p>أى: الدكتور نوفل يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، وهو عربى مصرى ولديه القدرة على استيعاب الهوسا والتحدث بها كحمار كانو، هذا فضلاً عن أنه يفهم خباياها ونحوها وصرفها جيداً .</p>		<p>الأمر الثانى على اعتبار أن «كانو» هى موطن الهوسا الأصلى ولذلك فإن لهجتها هى القياسية. وفى مثل هذا المقام يقال «فلان يتكلم الهوسا جيداً مثل حمار كانو» ولو حدث هذا فإن هذه العبارة بوضعها عبارة مدح للموصوف وتعظيم من شأنه أما إذا استبدلت مدينة «كانو» بمدينة أخرى كأن يقال «يتكلم الهوسا أو اللغة الفولانية مثل حمار كاتينا» لكان هذا سبباً ونيلاً من قدر الإنسان المراد الحديث عنه.</p>		

الاستعمال اللفوى		المعنى المجازى	المعنى الأصلى والمعجمى	العبارة الاسمية
استعمال مجازى	استعمال حقيقى			
<p>...Yana da wayo kamar beran Masar. ... لديه ذكاء، ومهارة مثل فأر مصر .</p> <p>«ناطق لغوى- أ. يهوذا»</p>	<p>...Bayan wannan zaki samo kashin bahagon bera da kashin jin-jirin jaki . Kome Nisan dare. ... بعد ذلك سوف تقومين باحضار روث فأر أشول وروث جحش حديث الولادة</p>	<p>ذكاء - مهارة ويستخدم هذا التعبير بأن يشبه المراد الحديث عنه. و«فأر مصر» فيقال «فلان لديه» ذكاء ومهارة مثل فأر مصر» وحينما يقال هذا التعبير فيعتبر من باب المدح والتعظيم لشأن هذا الإنسان المراد الحديث عنه وربما يرجع السبب فى تشبيه الإنسان الذكى بفأر مصر على اعتبار أن «الفأر» بطبيعته لديه القدرة على التسلل دون أن يشعر به أحد أما اختيار «مصر» فالحقيقة لا يعرف السبب ولكنه لا يزال قيد البحث . وإذا شبه أحد الناس بذكائه بفأر أى بلد آخر لتحول الأمر إلى استخفاف واستهزاء</p>	<p>« فأر مصر » فأر bera مصر Masar</p>	<p>Beran Masar</p>

ثانياً: العبارة الفعلية :

ويقصد بها العبارة أو الجملة الفعلية المتكاملة التي تحمل معنى مجازياً بداخلها ،

وذلك مثل :

العبارة الفعلية	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازي
...Ya dauki ransa ya kallafa bisa kan...	لقد أخذ روحه وعلقها على ... هو ya أخذ dauki راحه - حياته ransa علق رفع على kallafa bisa kan فوق	أحب حباً شديداً وتعلق به جداً. والصورة هنا كناية وتشير إلى مدى التعلق الشديد بحب الآخرya zo yau. ...لقد حضر اليوم. ... ya dauki ransansa. ... أخذ نصيبه «ناطق لغوي-أ.يهودا»	...Sarki kuwa ya dauki ransa ya kallafa bisa kan (Musa) magana jari ce, P.2-L.11 ...لقد تعلق الأمير جداً بهذا الولد «موسى» :، أى أحبه حباً كبيراً .
Yana alla-alla	«يقول الله الله» وفي هذه العبارة حذف للفعل «يقول cewa» لأن الأصل فيها أن تكون Yana cewa ya alla. ya alla. وبهذا الشكل يكون معناها «الدعاء لله» أمادالة حذف الفعل فتشير إلى معنى آخر وهو «التمنى باستعجال».	«يتمنى شيئاً أن يحدث على وجه السرعة» . الصورة هنا مجاز مرسل، والعلاقة بين المعنيين هي الترجي والتمنىYana tafiya gida. ...يذهب إلى البيت taima keni Allah ya taimakeka. ...ساعدي ليأعذك الله «ناطق لغوي-أ.يهودا»	...Yana alla-alla Sarki ya mutu bai haihu ba. المصدر السابق P.2-L.21 ...وكان «الوزير» يتمنى أن يموت الملك دون أن ينجب

الاستعمال اللغوى		المعنى المجازى	المعنى الأصلي والمعجمى	العبارة الفعلية
استعمال مجازى	استعمال حقيقى			
<p>...Ya shiga kulle kulle kullum na yadda zai yi ya kashe Musa, ko kuwa ye sa ya bi uwa duniya, abin ya gagara. ...لقد بدأ «الوزير» يخطط كيف سيقتل موسى، أو يجعله</p>	<p>...ya bi shi har gida. ... تبعه حتى المنزل ...ka bi uwarka da ubanka. ... أطع أمك وأباك . «ناطق لغوى - أ.يهودا»</p>	<p>« يتشرد . - » استعارة ، والعلاقة هنا بين المعنيين هى «المشابهة» .</p>	<p>«تبع الدنيا الأم» هو ya تبع سارخلف bi أم uwa الدنيا duniya</p>	<p>Ya bi uwa duniya</p>
<p>يتشرد إذا لزم الأمر . Gwamma ko mu zauna da shiri, don ba afafa gora ranar tafiya . المصدر السابق P.3-L.9 ... «قال الوزير للملك» من الأفضل أن نجلس ونحن مستعدين «للحرب» من أجل ألا نندم .</p>	<p>bai zo yanzu. ... لم يحضر الآن. ... matafiyi ya fafa gorarsa ... قشر المسافر قرعته ... ya zuba ruwa a gora وضع الماء فى قرعته yau ranar jum'a ce ... اليوم هو يوم الجمعة . «ناطق لغوى - أ.يهودا»</p>	<p>«يجب الاستعداد دائما وأخذ الحذر» . وهذا التركيب الذى جرى مجرى الحكمة يقال فى أحد موقفين ، إما للتحذير من التعثر فى تحقيق الهدف ، وإما للتسويخ حين الفشل فى تحقيق أمر معين ، وهذا مجاز مرسل والعلاقة فيه لزومية .</p>	<p>«لا تقور القرعة يوم السفر» . أداة نفى ba دالة المجهول a يقور - يفرغ fafa يوم - نهار rana سفر - ذهاب tafiya</p>	<p>Ba afafa gora ranar tafiya .</p>

الاستعمال اللغوي		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	العبارة الفعلية
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
<p>.. Aku ya ce, “Ba za ka so ji wannan al’ amari ba, don zai bata maka rai kwarai, ya fi kyau abar kaza cikin gashinta. Magana jari ce 1.p.6- L.39. ... قال اليبغا، « إنك لن تحب أن تسمع هذا الكلام ، لأنه سوف يغضبك ، فمن الأفضل أن يظل الأمر مستوراً</p>	<p>... Abar kaza acikin keji دع الدجاجة في القفصgashinta ya yi tsawa لقد طال شعرها . «ناطق لغوي- أ.يهودا»</p>	<p>يترك الأمر مستوراً أفضل . مجاز مرسل، والعلاقة المشابهة . ووجه الشبه هنا هو ستر الشيء حيث أن ريش الدجاجة يغطي لحمها ويستره . والمعنى هو الستر أفضل من الفضيحة، أصبحت هذه العبارة اصطلاحاً لغوياً متعارفاً عليه، ويجري مجرى الأمثال الشعبية والحكم والأقوال المأثورة، وفي هذا تطور دلالي واضح .</p>	<p>من الأفضل أن تترك الدجاجة في ريشها من الأفضل ya fi kyau تترك abar الدجاجة kaza في داخل cikin ريش شعر gashi. رابطة الإضافة n ضمير ملكية للمفردة المؤنثة ta</p>	<p>Ya fi kyau Abar kaza cikin gashinta</p>
<p>...Shugaban Ira- ki maigida Sad- dam Husein ya shaida wa ma-</p>	<p>... ya tureni har bango. ... دفعني حتى الحائط Ya kai mini sako gida. ...لقد أوصل لي</p>	<p>تأزم الأمر - لم تعد هناك طاقة للتحمل . وهذا مجاز مرسل قائم على الملابس بين المعنيين .</p>	<p>دفعة توصل إلى الحائط دفعة tura هي ta يوصل kai الحائط bango</p>	<p>Tura ta kai bango</p>

الاستعمال اللغوي		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	العبارة الفعلية
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
<p>jalisar dinkin duniya ta tura ta kai bango, ya ce ya gaji da wan- nan takunkumi da aka sa wa kasarsa. Gaskiya ta fi kwabo- 20 Yuli 1995 P.1. ... لقد ندد الرئيس العراقي صدام حسين بالأمم المتحدة التي صعدت الأزمة ، فلم يعد هناك قدرة على تحمل هذا الحظر المفروض على العراق</p>	<p>الأمانة إلى البيت . «ناطق لغوي- أيهوذا»</p>		<p>وتأتي بمعنى « غلاف الكتاب»</p>	
<p>... In ma mutum ya ce zai tsaya ya bayyana ar- zikin sarki Ab- durrahman ga wadanda ba su abin da ake kira duniya ba sai su yi tsammani shara ta yake yi.</p>	<p>shara mana daki ... اكنس لنا الحجرة «ناطق لغوي- أيهوذا»</p>	<p>«يسترسل في الكذب» وحيثما يراد توجيه الحديث لآخر فيستبدل الضمير "ya" بالضمير المراد وصفه والحديث عنه ، فمثلاً : "shara ta su ke yi." «يسترسلون في الكذب .</p>	<p>«كنسا كثيراً» يعمله « كنس تنظيف الأرض بالمكنسة shara كثيراً ta هو ya دالة الحال ke يعمل - يفعل yi</p>	<p>Shara ta ya keyi</p>

الاستعمال اللغوي		المعنى المجازي	المعنى الأصلي والمعجمي	العبارة الفعلية
استعمال مجازي	استعمال حقيقي			
<p>Magana jari ce 1. p.1-L.12 ... لو أن شخصاً سوف يقف ليوضح ثراء الملك عبيد الرحمن لهؤلاء الذين لا يعرفون شيئاً عن الدنيا ، لقالوا أنه يكذب ويبالغ .</p>		<p>وهذا كناية عن المبالغة في القول الكاذب .</p>		
<p>... Ko da suka ji wannan magana kuma kowa ya cinye shi, duk suka rasa abin da ke masu dadi, sai na ce da ama zo mu tafi . Magaji A. Dambatta Ama- di na Mallam, Amah. P.23-L 32. ... عندما سمعوا هذا</p>	<p>...In suka rasa daya daga ciki. sai su mutu. Ikion Allah. P.3-L.17 ... لو أنهم «الكائنات الحية» فقدوا واحدة منهم «الماء - الطعام - الهواء» فسوف يموتون .</p>	<p>«ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت» ويمكن أن يتغير الضمير «هم - su» إلى أى ضمير آخر وهذا من نوع المجاز المرسل .</p>	<p>«فقدوا الشيء الذي يحبونه» . هم في الماضي suka فقد - أضاع rasa الشيء الذي abin da ke لهم masu لذيذ - ممتع - جميل dadi</p>	<p>... Suka rasa abin da ke masu dadi.</p>

الاستعمال اللفوى		المعنى المجازى	المعنى الأصلى والمعجمى	العبارة الفعلية
استعمال مجازى	استعمال حقيقى			
الكلام شعروا وكأنهم غرقوا فى الماء وضافت عليهم الدنيا بما رحبت، وعندئذ قلت لأمة هيا بنا لنذهب .				
...Daren nan ya kasa barci, ya kulla wannan ya kwance, har asuba . Magan jari ce 1.p.5-L.10 ... لقد عجز «الوزير» عن النوم هذه الليلة وظل مرتبكا حائراً حتى الصباح Na kwance agogo فككت المنبه . «يهودا سليمان - ناطق لغوى»	«قلق-تحيير- ارتباك - أصابة أرق» . استعارة ، والعلاقة بين المعنيين هي المشابهة . وجهه الشبه عدم الاستقرار وعدم الثبات على وضوح معين .	« يعقد هذا ويفك » هو ya يعقد -يربط kulla هذا wannan يفك - يحل kwance	Ya kulla wannan ya kwance .

خاتمة ونتائج:

الدراسات اللغوية فى واقع الأمر أحد أهم الدراسات العلمية على الإطلاق ، وذلك لكونها أنها تستطيع أن تكشف عن خبايا وأسرار اللغة الإنسانية التى تجمع بداخلها عدداً من الظواهر المختلفة، والتى من بينها ظاهرة "المجاز" التى تعتبر بحق ركناً أساسياً فى لغة الهوسا.

والحقيقة التى يجب التنويه إليها ، هى أن المجاز فى لغة الهوسا له دور كبير وهام جداً بالنسبة لهذه اللغة ، فهو يشكل بمفرده قدراً كبيراً من الدلالات اللغوية التى لا تستطيع الكلمة الهوساوية المفردة أن تؤديها ، فكثير من الألفاظ الهوساوية التى يتضح معناها المعجمى من خلال السياق ، يختلف أيضاً معناها من خلال السياق عن طريق المجاز ، أى يكون لها معنى آخر غير معناها المعجمى والتى وضعت له ووضع لها أصلاً.

ولا يكفى فقط لتعلم هذه اللغة أن يعرف المعنى المعجمى لكل لفظة من ألفاظها ، بل يجب أن يعرف المعنى الآخر المجازى والكائن وراء معناها الحقيقى ، لأنه فى الحقيقة يسهم بقدر كبير فى تشكيل المعنى فى لغة الهوسا ، ولا تقل نسبة إسهامه فى هذا عن ستين (٦٠٪) فى المائة إن لم يكن أكثر من هذا.

وقد قامت هذه الدراسة على مادة عشوائية مختلفة ومتنوعة ، وأثبتت الآتى:

١- المجاز هو أحد الصور البلاغية التى تتسم بها اللغة بصفة عامة والهوسا بصفة خاصة.

- ٢- من خلال (٦٤) أربعة وستين مثلاً قامت عليها الدراسة ، تبين الآتى:
- أ- كانت أعلى النسب وروداً فى المجاز للمجاز المرسل أولاً ، فقد بلغت نسبته فى الأمثلة المذكورة ثمانية وعشرين مثلاً.
- ب- جاءت الكناية فى الترتيب الإحصائى الثانى بعد المجاز المرسل مباشرة ، فقد بلغت نسبتها ثلاثة وعشرين مثلاً.
- ج - كان للاستعارة الدور الأقل وروداً من خلال الإحصاء ، فقد جاءت فى الترتيب الثالث بعد المجاز المرسل والكناية ، وجاءت بنصيب أحد عشرة مثلاً.
- د- إختفاء الصورة الرابعة للمجاز وهى «التشبيه الصريح» ، مثل «محمد كالأسد» ، وإن كانت موجودة تظميناً فى داخل الصور الثلاث السابقة.
- ٣- وجود ظاهرة المجاز بقدر كبير فى لغة الهوسا ، ويتشكل فيها على مستوى المواضع الآتية:

- أ - مجاز يأتى على مستوى الاسم البسيط.
- ب - مجاز يأتى على مستوى الاسم المركب.
- ج - مجاز يأتى على مستوى الفعل البسيط.
- د - مجاز يأتى على مستوى الفعل المركب.
- هـ - مجاز يأتى على مستوى العبارة الاسمية.
- و- مجاز يأتى على مستوى العبارة الفعلية.
- ٤- هناك بعض التعبيرات المجازية التى تطورت فى استخدامها وأصبحت

تعبيرات اصطلاحية ثابتة ، وذلك مثل :

- مجلس الأمم المتحدة Majalisar dinkin duniya
-دول عدم الانحياز Kasashen 'yan ba ruwammu

٥- ضرورة معرفة المعنى المجازى فى لغة الهوسا أمر فى غاية الأهمية بالنسبة لدارس هذه اللغة.

وفى النهاية أرجو لهذه الدراسة المتواضعة أن تكون قد أضافت شيئاً جديداً للمكتبة العلمية. فإن كان الأمر هكذا ، فهذا فضل من الله ونعمة ، وإن كان غير ذلك فاسأل الله الهداية والتوفيق.

المصادر والمراجع

أولاً: مصادر البحث:

أ - مصادر هوساوية:

- 1- Al.haji Abubakar Imam- Ikon Allah - NNPC- Zaria - Nigeria 1986.
- 2- Aikin likita.
- 3- Al.haji Abu bakar Imam - Magana Jari ce 1 NNPC - 2001 - Zaria.
Nigeria.
- 4- Ibrahim Yaro Yahaya - tatsunyoyi da wasanni - 1979 - Zaria -
Nigeria.
- 5- Jaridar Albishir - Juma'a 14 Augusta - 1998 - Nigeria.
- 6- Jaridar Almizan -23 Sha'aban 1422 - Nigeria.
- 7- Jaridar Almizan- February 24-2004 - Nigeria.
- 8- Jaridar Gaskiya ta fi kwabo - 20 Yuli - 1995 - Nigeria.
- 9- Jaridar Gaskiya ta fi kwabo- 20 Yuli 1990 - Nigeria.
- 10- Ka Kara Karatu - 1969 - Nigeria.
- 11- Magaji A. Dambatta - Amadi na Mallamal - NNPC - 1984 - Zaria
- Nigeria.
- 12- Mahmud Barau Bambale- Kome nisan Dare - Kamfanin Ibramud
Nigeria Limited - 1994 - Zaria - Nigeria.
- 13- Nuradden A. (Azara) Karshen kiyayya - Zamani books LTD Kano
- Nigeria.

ب _ مصادر عربية:

- صبرى سلامة _ المصطلحات السياسية فى البرامج الموجهة المصرية بلغة الهوسا _ دراسة دلالية ومعجم لعام ١٩٨٩م _ رسالة ماجستير غير منشورة _ معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة.

ج - مصدر سماعي:

- أ. يهوذا سليمان إمام _ ناطق لغوى هوساوى _ زاريا _ نيجيريا ويعمل مدرساً للغة الهوسا بالمعهد

ثانياً: المراجع:

- ١- إبراهيم السمرائى _ التطور اللغوى التاريخى _ دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع _ بيروت _ لبنان _ ط ٣ - ١٩٨٣م.
- ٢- أحمد سليمان ياقوت _ أبحاث فى اللغة _ دار المعرفة الجامعية _ الإسكندرية ١٩٩٤م.
- ٣- أحمد عوض _ تصنيف اللغات الأفريقية _ الموسوعة الأفريقية _ المجلد الثالث _ معهد البحوث والدراسات الأفريقية _ جامعة القاهرة ١٩٩٧م.
- ٤- أنيس فريحة _ اللهجات وأسلوب دراستها - دار الجيل _ بيروت _ ط ١ ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ٥- رمضان عبد التواب _ فصول فى فقه العربية _ ط ٣ _ القاهرة ١٩٩٤م.
- ٦- روى _ سى _ هجمان _ اللغة والحياة والطبيعة البشرية _ ترجمة وتقديم

دكتور داود حلمى أحمد السيد _ الطبعة الثانية ٢٠٠٠م _ عالم الكتب -
القاهرة .

٧- السيد أحمد الهاشمى _ جوهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع _ دار ابن
خلدون _ الإسكندرية.

٨- شفيع السيد - التعبير البيانى _ رؤية بلاغية نقدية _ دار الفكر العربى -
القاهرة _ ط ٢ - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

٩- كمال بشر _ خاطرات مؤتلفات فى اللغة والثقافة _ دار غريب للطباعة
والنشر والتوزيع _ القاهرة ١٩٩٥م .

١٠- محمد إبراهيم عبادة _ الجملة العربية _ دراسة لغوية ونحوية _
الإسكندرية ١٩٨٨م .

١١- محمود سليمان ياقوت _ علم الجمال اللغوى (المعانى _ البيان _ البديع)
_ دار المعرفة الجامعية _ الإسكندرية _ ج ١ ١٩٩٥م .

١٢- محمود فهمى حجازى _ مدخل إلى علم اللغة _ دار الثقافة للطباعة
والنشر _ القاهرة _ ط ٢ ١٩٧٨م .

١٣- مصطفى الصاوى الجوينى _ البلاغة العربية تأصيل وتجديد منشأ المعارف
_ الإسكندرية.

تم الطبع :
بمطبعة جامعة القاهرة

مدير عام المطبعة
محمد عمر عبد العال
٢٠٠٤/١٢/٢٢

Editor : Prof. Dr. El-Sayed A. Flefil

Tel.: 5675501

Co-Editor : Prof. Dr. Wafai Z.A. Mikhail

Tel.: 5675507

Secretary : Dr. Karm, K. El-Sawi Baz

Tel.: 5675560

Contribution to this magazine are welcomed and should be sent to:

Prof. Dr. El- Sayed A. Flefil

Inst. of African Research & Studies, Cairo University, 12613 Giza, Egypt

AFRICAN STUDIES REVIEW



Vol. 25

2003

Issued by the Institute of African Research & Studies, Cairo University.

